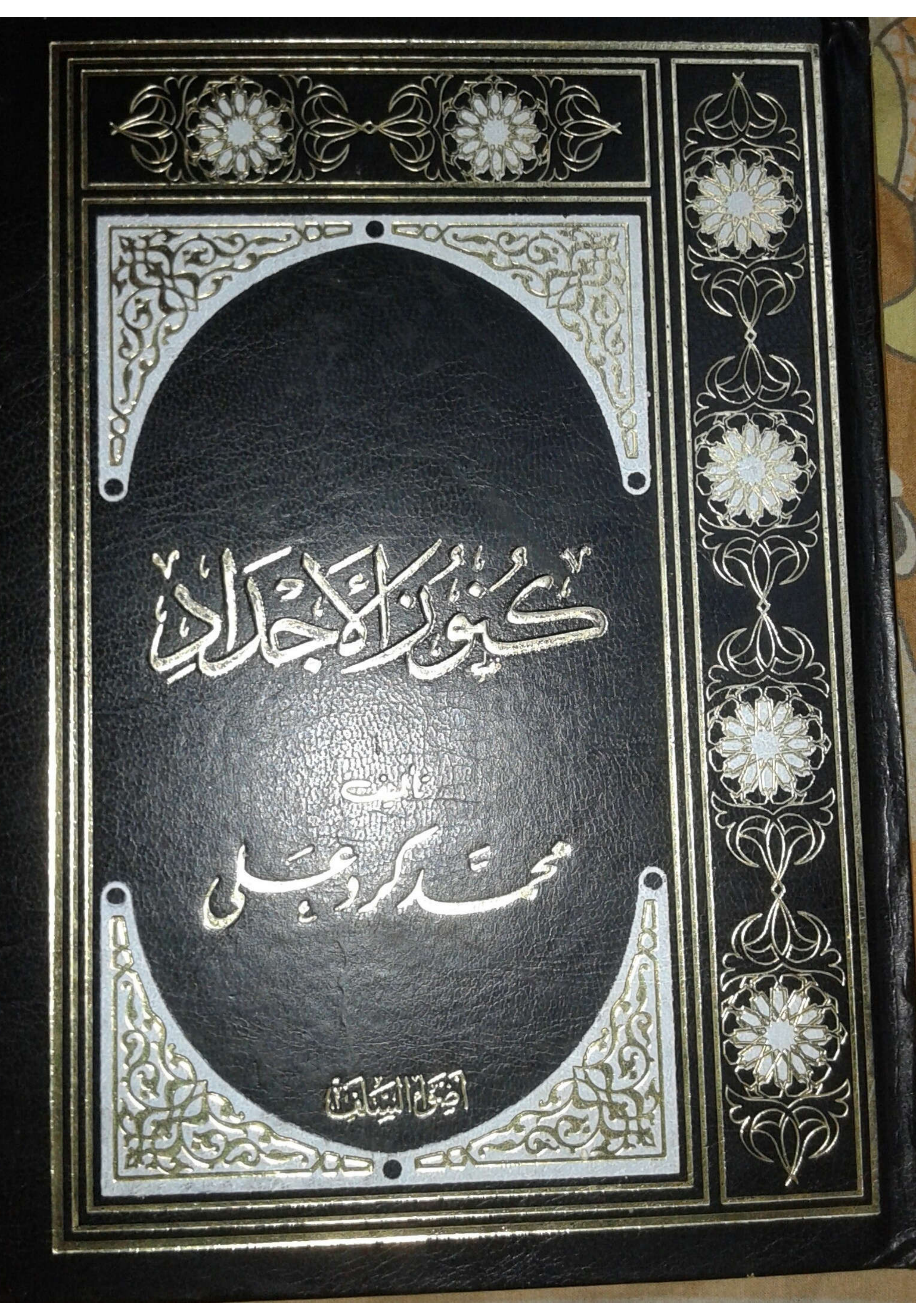

كنوز الأجداد
تأليف
محمد كرد علي
أضواء السلف

كنوز الاجداد

تأليف

محمد كرد علي

الإهداء

الى روح من أشرب قلبي حب العرب ، وهداني الى البحث في كتبهم ، صدر الحكماء سيدي وأستاذي العلامة الشيخ طاهر الجزائري .

اهدي كتابي كنوز الأجداد

محمد كرد علي

جسرين (غوطة دمشق) { ٤ شوال ١٣٦٩
١٨ تموز ١٩٥٠

رقم الايداع
٢٧٥٩/٢٠١٠

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

يحمل هذا التصنيف سيرة بعض مَن طالت عشرتي لهم، واغترافي من معين أسفارهم من رجال الاسلام. وكان كثير غيرهم أحرياء أن يضموا اليهم، فمنعني منه كوني لم أُطالع ما كتبوا مطالعة متدبر متبحر، أو كان ما غلب عليهم من فروع العلم لم يكتب لي حظ الاشتغال به. ولو حاولت أن أُترجم لكل عظيم من مؤلفي العرب لاقتضى أن أكتب تراجم خمسين مؤلفاً على الاقل من كل قرن من قرون الاسلام، وهذا مما يعجز الفرد عن الاضطلاع به.

والقصد من تذكر المؤلفين وما ألفوا - وحصرت الكلام في المطبوع منها - أن نظل على اتصال بهم، وفي ذلك شيء من الوفاء لهم، ومعنى من معاني التقديس لمن أبقوا لنا هذا المجد العظيم الذي فاخر به عظماء العلماء على الدهر.

واني لمعترف بقصوري عن الاحاطة بكل ما تجب الاشادة به من صنيع هؤلاء الأعلام، واذا بدا اقتضاب في وصف جوانب من

حالاتهم فالسبب فيه قلة المصادر التي يعتمد عليها . وقد أطلت في مسائل ،رجوت منها أن تكون عوناً على تجلية الرجل الموصوف ، وقد تنطوي على أفكوهة طريفة .

والمسؤول تعالى أن تحقق هذه الصفحات شيئاً من الغرض الذي أُحاول بلوغه ، وأن يتفضل من يجيء بعدي فيستدرك ما فاتني ويجبر ما قصرت فيه ، والكمال لله وحده .

حياة الشيخ طاهر الجزائري

أصله ونشأته

هو طاهر بن صالح بن أحمد بن موهوب السمعوني الجزائري ، هاجر والده الشيخ صالح من الجزائر الى دمشق في سنة ١٢٦٣ هـ وكان من بيت علم وشرف معروف في بلاده ، ولما جاء دمشق تولى قضاء المالكية ، وولد له ولد في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٦٨ هـ دعاه شيخ والده الشيخ المهدي (الطاهر) . قال والده في حاشية المجموع الفقهي للعلامة الأمير المالكي « طهره الله من رجس دنياه ودينه ، وبارك في عمره ، ورزقه العلم والعمل به » واستجيب دعاء والده فنشأ ابنه طاهر على حب الفضائل والتناغي بالعلم والعمل .

دخل الشيخ طاهر المدرسة الجقمقية الاستعدادية فتخرج بأستاذه الشيخ عبد الرحمن البوشناقي ، وكان مربياً شديد الشكيمة ، أخذ عنه العربية والفارسية والتركية ومبادىء العلوم ، ثم اتصل بعالم عصره الشيخ عبد الغني الميداني الغنيمي الفقيه الأصولي النظار . وكان واسع المادة في العلوم الاسلامية ، بعيد النظر ، وهو الذي حال بإرشاده في حادثة سنة ١٨٦٠ م بدمشق دون تعدي فتيان المسلمين على جيرانهم المسيحيين في محلته ، فأنقذ بجميل وعظه وحسن تأثيره بضعة ألوف من القتل ، في تلك المذابح المشؤومة . وكان الشيخ الميداني على جانب عظيم من التقوى والورع يمثل صورة من صور السلف الصالح ، فطبع الشيخ طاهراً بطابعه ، وأنشأه على أصح الاصول العلمية الدينية . وكانت دروسه دروساً صافية المشارب ، يرمي فيها الى الرجوع بالشريعة الى أصولها ، والأخذ من آدابها بلبابها ، ومحاربة الخرافات التي استمرأتها طبقات المتأخرين ،

وانقاذ الدين من المبتدعين والوضاعين . واذ جمع الشيخ طاهر الى سلامة الفطرة وسلامة البيئة ، جودة النظر وبعد لمحة ، جاء منه بالدرس والبحث عالم مصلح وفيلسوف إلهي ، أشبه الأوائل بهديه ، وتمثل بالأواخر في نظره ووفرة مادته .

ولم يغفل الاستاذ خلال سني الدراسة عن درس العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والتاريخية والأثرية ، أخذها عن علماء من الترك وغيرهم فكان اذا رأى أعلم منه بفن أخذ عنه فنه ، وأفاده فيما لايحسنه من فنون العلم . ومن مثل لعينيه كيف كانت بيئته منحطة أوائل النصف الأخير من القرن الماضي ، أيام كان يتهم بالمروق كل من تعاطى علماً لايعرفه المتفقهة ، يدرك ماعاناه الاستاذ لتلقف علوم القدماء . ولم يبلغ الثلاثين من عمره حتى أتقن العربية والفارسية والتركية ونظم بالفارسية كالعربية . وكان نظمه بالعربية أرقى من شعر الفقهاء ودون شعر الشعراء وألف السجع لأول أمره ثم تخلى عنه ، وأصبح يكتب المرسل بلا كلفة ولا تعمل ، وتعلم الفرنسية والسريانية والعبرانية والحبشية والقبائلية البربرية لغة أهله الاصلية .

ومما ساعده على فتح صدره الرحب لجماع المعارف البشرية غرامه منذ نشأته بجمع الكتب وهو لما يزل في المدرسة الابتدائية . فقد أخذ يبتاع الدشوت والرسائل المخطوطة من دريهمات كان يرضخ بها له والده لحرجه . وكانت الكتب والرسائل تباع في الكلاسة شمالي الجامع الأموي على مقربة من ضريح صلاح الدين . وكلما أحرز الشيخ شيئاً من الأوراق والأسفار طالعه بإمعان وخبأه وحرص عليه ، فاستنار عقله وكثرت معلوماته ، واجتمعت له بطول الزمن خزانة مهمة من الأسفار بلغت بضعة آلاف مجلد فيها كثير من النوادر المخطوطة .

تولى التعليم لأول أمره في المدرسة الظاهرية الابتدائية ، ولما أسست الجمعية الخيرية من علماء دمشق وأعيانها سنة ١٢٩٤ هـ دخل في عداد

أعضائها ، وكان من اكبر العاملين فيها ، ثم استحالت هذه الجمعية « ديوان معارف » ، فعين مفتشاً عاماً على المدارس الابتدائية التي انشئت على عهد المصلح الكبير مدحت باشا والي سورية سنة ١٢٩٥ . وكان للشيخ الأثر العظيم في تأسيس المدارس الابتدائية بمعاونة صديقه بهاء الدين بك أمين سر الولاية ، وهو أديب تركي ، كان يحب نهضة العرب كما يحب العلم والأدب . وفي هذه الحقبة ظهر نبوغ شيخنا وعبقريته في تأسيس المدارس واستخلاص القديمة من غاصبيها ، وحمل الآباء على تعليم أولادهم ، ووضع البرامج وتأليف الكتب اللازمة . كان يقوم بهذه الأعمال المهمة ولا يفتأ يزداد كل يوم علماً وتجربة وتفانياً في نهضة البلد ، وتحسين الملكات وصقل الأخلاق والعادات .

وأنشأ على ذلك العهد أيضاً بمعاونة بضعة من أصدقائه « دار الكتب الظاهرية » بدمشق وجمع فيها سنة ١٢٩٦ ماتفرق من المخطوطات العظيمة في عشر مدارس تحت قبة الملك الظاهر بِيبَرْس البُنْدُقداري ، ولقي ممن استحلوا أكل الكتب والأوقاف مقاومة شديدة وهددوه بالقتل إن لم يرجع عن قصده فما زادوه إلا مضاءً وإقداماً . ولا تزال هذه الدار أثراً من آثاره في دمشق . وقد أنشأ مثلها في القدس باسم الشيخ راغب الخالدي وسماها (المكتبة الخالدية) وأضاف اليها بعد ذلك آل الخالدي خزائنهم الخاصة .

علمه وعمله

رأينا منهاج الدروس الواسع الذي أخذ الشيخ نفسه بدراسته منذ حداثته ، وانه ليندر في المتأخرين من علماء دور الانحطاط الفكري نبوغ رجل مثله ، وعى صدره من ضروب المعارف ماوعى ، وطبق مفاصل الشريعة مع علوم المدنية . فقد كان متضلعاً من علوم الشريعة وتاريخ الملل والنحل ، منقطع القرين في تاريخ العرب والاسلام وتراجم رجاله

ومناقشات علمائه ومناظراتهم وتآليفهم ومراميهم . ساعده على التبريز في هذا المضمار قوة حافظته التي لاتكاد تنسى مايمر بها مهما طال العهد . وكان اماماً في علوم الأدب واللغة ، إذا سألته حل مسألة تظن الشيخ لايعرف غير هذا العلم ، وإذا استرشدته في الوقوف على مظان موضوع تريده أطلعك من ذلك في الحال على ما لايتيسر لغيره الظفر به بعد الكشف عنه أياماً . وهكذا هو في علوم الشريعة ولا سيما التفسير والحديث والأصول . وكان يعرف السياسة وما ينبغي لها ، وحالة الغرب واجتماعه ، والشرق وأممه وأمراضه معرفة أخصائي لامعرفة نُتْفَة . ولا يكاد جليسه يصدق اذا انكفأ الشيخ يتكلم في هذه الموضوعات ، خصوصاً اذا كان غربياً ، أن محدثه شيخ من شيوخ المسلمين يعيش في أمة قد لاتقيم وزنا لهذه المعارف .

اتسع صدر الشيخ لجماع علوم المدنية الحديثة الا الموسيقي والتمثيل ، فلم يكن له حظ فيهما ، وربما قاوم سراً المشتغلين بهما ، مخافة أن تكونا سلماً الى التبذل وخلع ثوب الحياء ، وكان يراهما مدرجة الى اللهو والصبوة ، وهذا مما لم يدخله الشيخ في جريدة أعماله ، ولذلك لايفتي بالتسامح مع القائمين عليهما ، مهما أوردوا له من الحجج على نفعهما . وصعب أن يتخلى المرء عن جميع ما أورثه اياه دمه وأهله وأساتذته . وصعب على من حلف أن يعيش عيش جد وتبتل أن يتساهل في الصغائر لئلا تؤدي الى الكبائر . أما الرسم والتصوير والنقش فكانت مما يتسامح فيه لكنه يغمزه عرضاً . وكثيراً مايقول ان أجيال الفرنجة في هذا العصر أفرطوا في الغرام بالتصوير ، والتعويل عليه في كل أمر ، فأضعفوا بذلك قوة التفكير والتصوير .

وسياسة الشيخ في التعليم محصورة في تلقف المسلمين أصول دينهم والاحتفاظ بمقدساتهم وعاداتهم الطيبة وأخلاقهم القديمة القويمة ، وأن يفتحوا قلوبهم لعامة علوم الأوائل والأواخر من فلسفة وطبيعي واجتماعي على

اختلاف ضروبها ، ويقاوم المتعصبين على هذه العلوم المنكرين غناءها مقاومة حكيم عاقل ، وذلك بتكثير سواد الدارسين لها ، وارشادهم الى طرقها العملية المنتجة ، لا الوقوف بها عند حد الأنظار . فعمّ المسلمين في الشام درس علوم نرى اليوم الأخذ بحظ منها من البديهيات ، اللهم الا عند بعض الجامدين ممن جهلوها ، ومن جهل شيئاً عاداه .

وكانت للشيخ طرق مبتكرة في بث الأفكار التي تخالف معتقد الجمهور ، يبثها في العقول بدون جمجمة ، ويقرّب منالها من المستعدين للأخذ بها ، وذلك بتلقينهم أمهات مسائلها أثناء الحديث ، على صورة لاينفرون منها ، ولا يخطر لهم أنها من البدع المنكر . مثال ذلك أنه أولع في صباه بكتب شيخ الاسلام ابن تيمية ، وكانت جمهرة الفقهاء في عصره تكفر ابن تيمية تعصباً أو تقليداً لمشايخهم ، فلم ير الشيخ لتحبيب ابن تيمية اليهم الا نشر كتبه بينهم من حيث لايدرون . فكان يستنسخ رسائله وكتبه ويرسلها مع من يبيعها اليهم في سوق الوراقين بأثمان معتدلة ، لتسقط في أيدي بعضهم فيطالعونها ، وبذلك وصل الى غرضه من نشر آراء شيخ الاسلام التي هي لباب الشريعة .

هذا وليس الشيخ في مذهبه على الحقيقة حنبلياً ولا مالكياً ولا حنفياً ، بل هو مسلم يأخذ من أصل الشريعة باجتهاده الخاص ، ويحسن ظنه بأئمة المذاهب المعروفة ، ويتجهم لمن يجرأ على النيل من أحد العلماء عامة . يعمل بما صح له من الدليل في الكتاب والسنة ، ولطالما أعطى الحق لعلماء الشيعة أو الاباضية أو المعتزلة في مسائل تفردوا بها وضيق فيها أهل السنة . أما الفلسفة أو الحكمة القديمة والفلسفة الحديثة فكان يعطف عليها وعلى المشتغلين بها ، وينحي باللائمة على المتأخرين الذين أوصدوا بابها فأظلمت العقول وضعف مستواها .

كان الشيخ ينكر على الظالمين سيرتهم ، ويقبح الظلم وان نال عدوه ، وينصف الناس من نفسه بعض الشيء . وكان الحكام معه في بلية يعرفون

أنه ينزع الى القضاء على سلطتهم الغاشمة ، ولا يستطيعون أن يظهروا العداء له . وكذلك كان المشايخ معه يبغضون أفكاره ، ولا يجرأون على مقاومته بسلاحه سلاح العلم والبرهان . وكان كثيراً ما يقول : ما لنا ولأناس ليس لهم من السلطان علينا غير سلاطة ألسنهم ، وكلمات يُنَفِّسون عنهم بها ، وهي لا تخرج الى أبعد من سقوف حُجَرهم . وحدث لبعض أغمارهم أن استعانوا غير مرة بالسلطة الزمنية على توقيف تيار أفكاره وأفكار أنصاره ، فكان الشيخ يصدهم بما له من التأثير في أهل الحل والعقد ، ممن كانوا يتمثل لهم عقل الرجل وضعف المبغضين له ، وكان يحسن مخاطبتهم بلسانهم ، والقائمون عليه لا يحسنون محاورتهم حتى ولا بلغتهم الأصلية . وسلاحهم دسائس يحوكونها ، وتعصبات ينفثونها . ولم يزل جهال الناس ، كما قال ابن المقفع ، يحسدون علماءهم ، وجبناؤهم شجعانهم ، ولئامهم كرماءهم ، وفجارهم أبرارهم ، وشرارهم خيارهم .

من أجل هذا كان الاستاذ يتفنن في بث أفكاره بين الخاصة والعامة على صور شتى ، ويتفانى في نشر العلم والتهذيب والأخذ من القديم والحديث . وكم من عامي أصبح بتعاليمه وتلقينه بالعمل مسائل بسيطة من العلم معدوداً من المتعلمين في جلسات قليلة جلسها معه وسمع مذاكراته ، ومن هذه الطبقة أُناس ما فتئ على تنشيطهم حتى ألفوا وطبعوا ولم يكونوا قبله في العير ولا في النفير .

وكم من جريدة أو مجلة أو كتاب أو رسالة نشرت في مصر والشام بارشاده . وكان له اسلوب جرى عليه خصوصاً في تفتيش المدارس وهو أن يعلم المعلم ، ولا يشعره بأنه يعلمه ، بل يوهمه أنه يذاكره في مسائل التربية والتعليم ، أو انه يحاول أن يتعلم هو منه . وكم من أديب أو عالم أرشده الى السبيل السوي في أدبه وعلمه ، وعلّمه المظان وأساليب المراجعة . وكثير عدد من اشتغلوا بالآداب أو تعلموا التعليم الثانوي أو العالي في الديار الشامية ان لم يكونوا استفادوا منه مباشرةً فبالواسطة . وتلاميذه

ومريدوه من المسلمين يعدون بالعشرات وأكثرهم اليوم يشغلون مقامات سامية في دور العلم والحكم وفي التجارة والزراعة .

لم يَحِد المترجَم له عن الخطة التي اختطها لنفسه منذ نعومة أظفاره ، ودعا الناس الى انتهاجها حتى آخر أيامه . وخطته الاخلاص والعمل على النهوض بالأمة من طريق العلم وبث الملكات الصحيحة في أهل الاسلام . وثورته ثورة فكرية لا مادية ، ويقول ان هذه الطريق يطول أمرها ، ولكن يؤمن فيها العثار ، والسلامة محققة ثابتة .

بحق مـــا قيل في الشيخ انه مَعْلمة (انسيكلوبيديا) سيارة أو خزانة علم متنقلة . وكيف لا يكون كذلك من آتاه خالقه حافظة قوية وذهناً وقاداً وعقلاً يستعمله . فقد قرأ جميع ما طالت يده اليـــه من الكتب العربية التي طبعت في الشرق والغرب . أما المخطوطات التي طالعها ولخصها في كنانيشه وجزازاته فتعد بالمئات . وقلّ ان يدانيه أحد في علم الكتب ووصفها ومؤلفيها وأماكن وجودها وما عرض لها . ولطالما رحل من بلد الى بلد بعيد ليطلع على مخطوط حفظ في بعض الخزائن الخاصة . وبالنظر لاحاطته بالمظان وتدوينه في الحال كل ما يقع استحسانه عليه من الفوائد ، كان يسهل عليه التأليف فيما ترتاح اليه نفسه من الموضوعات . وقد يؤلف الكتاب في بضعة أسابيع على شرط أن يوقن أنه سيطبع . واذ كان عصبي المزاج يسارع الى النشر متى افترص الفرصة المناسبة لاخراج التأليف ، ويقول ان الاتقان لا حدّ له والأغلاط تصحح مع الزمن .

هو واسع الرواية واسع الدراية أو كما قال صديقه العلامة احمد زكي باشا في برقية أبرقها الى الشام بالتعزية به « كنت أرى فيـه الاثر الباقي ، والمثال الحي ، والصورة الناطقة لما كان عليه سلفنا الصالح ، من حيث الجمع بين الرواية والدراية في كل المعارف الاسلامية ، وبين الدأب على نشرها بعد التدقيق والتمحيص ، واستثارة خباياها وابراز مفاخرها ، هذا الى التفاني في توسيع نطاقها ، بقبول ما تجدّد عند الأمم التي تلقت

تراث العرب باليمين ، والدعوة الى الاقبال عليه مضموماً الى آثار الأبناء ومآثر الاجداد . وهكذا قضى الشيخ عمراً أولاً وثانياً وثالثاً في خدمة العلم والدعوة اليه بالقلم واللسان وبالقدوة الحسنة ، حتى تم له شيء كثير مما أراد بين الأنداد والتلاميذ والمحبين والمريدين ، فهم مناط الامل وفيهم خير خلف ، لذلك يغتبط قاسيون بضم رفاته والحنوّ عليها » .

أخلاقه وعاداته

قلنا ان سيرة الشيخ طاهر كانت نمطاً واحداً طول حياته ، هكذا كان متعلماً ومعلماً وعالماً ، يحب العمل ويدعو اليه قبل النظر ، جدٌّ في حركته لا يبالي بالعوائق مهما عظمت ، وكلما حاول أعداؤه أن يقفوا دون بث دعوته يزداد قوة وعرامة ، شأن كل الدعوات كلما حاربتها زدتها انتشاراً .

ألغت الحكومة وظيفة التفتيش بالمدارس تخوفاً من شدته في بث أفكاره بين الاساتيذ والتلاميذ فزاد نشاط الشيخ ، وكان يكتني ويوري فغدا يعمل علناً بخلاصه من أسر الخدمة . وكان مدرساً في المدرسة الاعدادية بدمشق وهو من جملة مؤسسيها فاستقال ، ثم عرضت عليه وظائف كبرى في غير السلك العلمي فأبى لانه كان يعرف أنه لا بد له في هذه المناصب من مشايعة الظلمة والجهال . وجعل جل اعتماده في عيشه آخر أيامه على الكتب التي اقتناها طول حياته وأخذ يبيع منها بالتدريج ، وتسمح نفسه ببيعها اذا تأكد انها تحفظ في معاهد عامة كدار الكتب المصرية والخزانتين التيمورية والزكية في القاهرة ، فان معظم نفائس خزائنه نقلت اليها ، وتجزز الشيخ أثمانها نحو اربع عشرة سنة . وكان اشتراها في صباه بأثمان بخسة فارتفعت أسعارها عشرة أضعاف أو أكثر .

كان الشيخ على ضيق ذات يده يتصدق أحياناً على الفقراء في السر ، وربما كزّت يده عن لباسه وطعامه ، وأطعم جائعاً وعال معوزاً . يصلي الصلوات لأوقاتها ، ويقيم شعائر الاسلام أنّى كان . فقد زار مرة أحد معارض

باريز فكان اذا أدركته الصلاة صلى في الحديقة العامة ، لا يبالي بانتقاد الناس هناك ، ولا استغرابهم حركاته وسكناته ، وحج مرة وطبق مناسك الحج على ما يفعل العلماء العاملون . وكان مفطوراً على الرحمة ، يأرق لجاره أو صاحبه اذا علم أنه أصيب ببائقة في ماله أو أهله أو جاهه ، خصوصاً اذا كان الرجل ممن ترضيه سيرته في الجملة .

كان الشيخ عفّ النفس يستنكف أن يأخذ شيئاً من أحد بلا مقابل مهما كان الواهب . فقد عرض عليه صديقه الاستاذ احمد زكي باشا رحمه الله أن يوقع على طلب وهو يتعهد له براتب جيد من الأوقاف المصرية على عهد الخديوي عباس الثاني فتنصل واعتذر ، ولما اشتد صديقه في تقاضيه ذلك انتهره . حتى قال الاستاذ زكي باشا : لو كنت أعتقد أن رجلاً يعيش من تحت السجادة لاعتقدت ذلك في الشيخ طاهر ، لأنه يقيم في بلد كمصر يشكو فيه الأغنياء من الغلاء ، ولا يحب أن يأخذ من أحد شيئاً يستعين به في حياته ، وكان كثيراً ما ينشد قصيدة القاضي علي بن عبد العزيز في عزة نفس العالم التي منها :

يقولون لي فيك انقباض وانما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما

أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما

ولم أقض حق العلم ان كان كلما ... بدا طمع صيرته لي سلمًا ...

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظّموه في النفوس لعُظّما

ولكن أهانوه فهان ودنسوا ... محيـــاه بالأطماع حتى تجهّما

لا أكون الى المبالغة اذا قلت ان عزة النفس وهو الخلق الذي ندر في علماء المسلمين لعهدنا ، كان مما تفرد به ، ففيه اباء الملوك الصالحين وزهد الزاهدين العابدين . لم يظاهر ظالماً لغُنم يصيبه ، ولا صحب غنياً للانتفاع بغناه . وكان يؤثر الخمول وعدم الظهور ، لا تهمه الشهرة استفاضت أم لم تستفض ، لأنه يهزأ في باطنه بمظاهر الأُبهة والرفعة ، ويزهد في اعتبارات كثيرة يتفانى الناس في تحصيلها ، يزهد حتى في نسبته الى الشرف ، ولم

يذكر ذلك الا مرة واحدة ، ذكره فيه أحد صلحاء الجزائريين أمامي ، وسألته بعد ذلك عن نسبة بيتهم الى الشرف فقال : « هكذا يقولون » : ولا عجب فشرف العلم أعظم نسبة .

هاجر الشيخ من دمشق لما كثر ارهاق العلماء في العصر الحميدي فنزل القاهرة من سنة ١٣٢٥ (١٩٠٧) الى سنة ١٣٣٨ (١٩٢٠) وظلّ فيها طول هذه المدة على تقشفه والحرص على عاداته . وما تعلم لفظة من اللغة الدارجة المصرية . ولما نشر القانون الأساسي في المملكة العثمانية (١٩٠٨) رأى الشيخ بنظره الثاقب أن عهد الحرية الحقيقية بعيد ، وكان لايغتر بقوانين الترك ولا بثرثرة السياسيين ، فانزوى في مصر حتى استحكم منه مرض الرّبو وقفل راجعاً الى مسقط رأسه قبيل وفاته بأشهر قليلة ، فعين مديراً لدار الكتب التي كان أنشأها في صباه وعضواً في المجمع العلمي العربي ، وناداه ربه الى جواره يوم ١٤ ربيع الثاني سنة ١٣٣٨ (٥ كانون الثاني سنة ١٩٢٠) فدفن حسب وصيته في سفح قاسيون جبل دمشق . وقبيل وفاته برّح به الألم فاقترح على الطبيب أن يعطية دواء يميته حالاً قائلاً ان في الشرع مايبيح ذلك ، وهذا من أغرب ماسمع من عاقل . فركن الطبيب الى الفرار وحلف أن لايعود الى تمريض الشيخ .

كان الشيخ فيلسوفاً بكل ما في الفلسفة من معنى شريف ، لاتلتوي أخلاقه ، ولا ينزل بحال عن عاداته ، متشدداً في دينه ، زاهداً في دنياه ، لم تبهره زخارف الحياة ، ولم يتزوج حتى لايَشْغَل ذهنه بزوج وأولاد ، وليكون أبداً مطلق العنان يسيح في الأرض متى أراد ، أو يقبع في كِسر داره وسط كتبه ودفاتره . ولئن خلا من همّ نفسه فما خلا ساعة من الاهتمام بأمر المسلمين وتحبيب العلم والعمل اليهم ، ولا سيما الناشئة منهم ، وفي تربية النشء كان يصرف شطراً صالحاً من أوقاته عقد الشيخ صلات مستديمة مع علماء عصره على اختلاف أديانهم

وأجناسهم ، صحب صديقه الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده كما صحب صديقه العالم المجري غولدصهير اليهودي . وكثيراً ما كانت صلاته بعلماء المشرقيات باعثة على تخفيف حملاتهم على الاسلام ولو قليلا . وهذا مما كان يهتم له ، ثم يهمه من أمر المستعربين من المستشرقين توفرهم على خدمة آدابنا بنشرهم كتبنا النفيسة ، وكان يعاونهم فيما هم بسبيله اذا استرشدوه ، ويفتيهم راضياً مختاراً اذا استفتوه فيما يتعذر وقوفهم عليه

ومن عادة الشيخ أن يصحب الفرق المختلفة مهما كان لون طريقتهم ونحلتهم حتى الملاحدة وأرباب الطرق . رأى ذات مرة جماعة يتألفون على طريقة لهم يحيونها ، واذكار مأثورة يقيمونها ، وشهد في بعض أفرادهم استعداداً للعلم ، فما زال بشيخهم ، وكان من أصحابه وتلاميذه ، حتى حمل الجماعة على أن يشغلوا الوقت في مطالعة كتاب من كتب القوم في التصوف ، وكان هذا الكتاب في الأدب العالي والأخلاق الفاضلة . ورأيت الشيخ يحتمل كثيراً من تجهم بعض اولئك المتألفين ، فيدخل في مجلسهم مظهراً أنه طالب استفادة ، حريص على استماع درس أستاذهم ، وهو يحمل اليهم النسخ المخطوطة من الكتاب لمعارضتها بالمطبوع ، يحاول أن يعلم بعضهم صورة المراجعة في كتب اللغة ، حتى تسلم العبارة من الخطأ ، ويخدم الكتاب الخدمة اللائقة ، وبذلك تيسر له أن ينقل بعض أرباب الاستعداد منهم من كتب التصوف الى كتب العلم والأدب وسمعت بعضهم يتبرمون بقراءة تفسير ابن جرير الطبري وتبسطه في شرح الكتاب العزيز ، فجاء من هذه الزمرة أدباء نافعون بعد أن كانت نفوسهم مشبعة بالكشف والخيالات والمنامات . وأدخل النور على كثير من أذكياء العلماء من أصحابه ، وكان منهم الذين ذرفوا على الستين ، فما استطاعوا أن يؤثروا الأثر المطلوب في مريديهم ، ومنهم من ساعدهم الطالع أن كانوا في سن الشباب فعالجوا التأليف والوعظ والتعليم فانتفع بهم الناس ، ومنهم من لم يتمرنوا

على الكتابة والالقاء فبقيت أفكارهم في دائرة القوة ، لم يتعد أثرها المحتفين بهم من الأصحاب والمريدين .

ولقد كانت له صداقة أكيدة بالعالم المطران يوسف داود السرياني يتسامران ويتحدثان ويتهامسان ويتناقشان . وما أدري ان كان المطران أثر في الشيخ أو أثر الشيخ في المطران . سمعت الشيخ يثني الثناء المستطاب على صديقه المطران وقد طالت به صحبته وعشرته ، وهكذا كان له اتصال بالارمن واليهود واليسوعيين الكاثوليك والاميركان البروتستانت . وكان يغضي عن كثير من النقد على رجال الدين من غير المسلمين ويقول هم أقرب الناس الينا يعتقدون بالله واليوم الآخر وخلود النفس . وكانت جميع الطوائف تستلطفه وتحب عشرته ، على ما بينها وبينه من التخالف الظاهر في الزي والعادة والخلق والمذهب ، ويطلعونه من سرائرهم على ما لا يبوحون به لأقرب الناس اليهم . وسمعته غير مرة يقول « الحمد لله لقد سالمنا كل الفرق » .

صحب بعض الزنادقة وما زال يصبر على ما ينبو عنه سمعه من تصريحه وتعريضه ، وما فتئ يلقنه أفكاره بالتؤدة مدة حتى عاد به الى حظيرة الدين ، وهو لم يشعر فيما أحسب بما دخل على عقله من التبدل ، وصحب كثيراً من غلاة الشيعة والطوائف الباطنية فما برح يتلطف بهم حتى أضعف من غلوائهم ، وأبدلهم بعد الجفوة أنساً ، وغيّر من انقباضهم وانقباض الناس عنهم ، ليعيشوا في هناء وسط المجتمع الانساني الاكبر .

وكان يتفنن في بث الافكار الصحيحة ، واخراج قومه من الأمية المميتة ، ويحمل خاصته ومن يصل صوته اليهم على تعليم أولادهم الممكن من ضروب العلم الذي يتناسب وحالتهم . وقال لي مراراً اذا أردت ادخال الاصلاح الى بيوت الاعيان ، وفيهم الجاه والمال ، فاجهد لأن يتعلم ولو فرد واحد من كل أسرة تقلب به كيانها . وكثيراً ما قال لنخرجن من بيوت الأغنياء أولاداً يحاربونهم بسلاح التربية الصحيحة ، وقد وفق الى ذلك بعض

الشيء . وكان يقول لو طلب مني اليهود أن أعلمهم ماتأخرت ساعة عن اجابة طلبهم ، لأن في تعليمهم تقريباً لهم منا ، مهما كانت المباينة والفوارق بيننا وبينهم .

مارأيت الشيخ يبغض انساناً بغضه لشقيقين دمشقيين (الشيخ صالح المنير وشقيقه الشيخ عارف المنير) ، وكان اذا ذكر أحدهما أو كلاهما في مجلسه يقول « دعونا » ، وتنقبض نفسه انقباضاً دونه كل انقباض ، ولو علمت أن بغضه لهما كان ناشئاً من كونهما أعطيا عهداً على أنفسهما أن يصدا الناس عن طلب العلم لبطل عجبك . وأكد الأستاذ أن الأخوين قد وفقا الى أن قطعا عن الدرس نحو أربعين طالباً ، كان يرجى أن يكون منهم متعلمون وعلماء .

وكان من عادة بعض أدعياء العلم من الشيوخ أن يرغبوا الناس عن الدرس ، ليخلو لهم الجو ويستمتعوا وحدهم بالمناصب الدينية والأوقاف والمدارس والجوامع ، لاينازعهم أحد في شؤونهم ، ماخلا أبناء بيوت محدودة معروفة ممن هم على شاكلتهم في غش الأمة والاستئثار بمرافقها ، فكان شأن هؤلاء في الاستئثار الممقوت شأن كهنة قدماء المصريين لايسمحون لغير فئة خاصة بالتعلم ، أو شأن اصحاب الطبقات من الهنود أو اللاويين عند اليهود ، لايدخل أهل طبقة في طبقة غيرها مهما تبدل من حالتها .

من أجل هذا كان من رأي الشيخ ان يتعلم كل طالب علم (العلم الاسلامي) صناعة او تجارة أو نحو ذلك من أسباب المعاش ليستغني عن الناس وعن تكفف العظماء ، وتعزف نفسه عن التناول من الأوقاف ، والتمرغ في حمأة القضاء وينشأ على الاستقلال ، لأن هذا العلم يطلب لذاته وفائدته في الدارين ، لالتكسب به عند السلاطين والحكومات . وفي سيرة بعض علمائنا الأقدمين ممن كانوا يحترفون ويتجرون عبرة لأهل هذا الشأن طالما رددها الشيخ وأراد أصحابه على الاقتداء بالسلف ولطالما تفرس الشيخ في أحدهم الشر ، وأعرض عنه وحذر أصحابه

من الدنو منه ، وناله من نقد غير العارفين ماناله ، ويقول بعضهم ان الشيخ صاحب اطوار وغرائب والشيخ ساكت ولا يزيد على قوله : « هم أحرار ، ونحن لانكم أفواه الناس عن التحدث بما يروقهم » وما لبثت الايام بعد حين أن كشفت نفس ذاك الشرير على صورة مستغربة

وكثيراً ماكنت أسأله عن بعض الاشخاص من حيث علمهم أو أخلاقهم فيجيب : « الامر مجهول » فأفهم بالتعريض أن في معلوماتهم أو سلوكهم نظراً ، فيظهرون بعد لأي بمظهر الجهل أو الخيانة ، وقد خدعوا السذج من أصحاب الصدور السليمة ومن قلت تجاربهم أعواماً غير قليلة . ومن فراساته الغريبة يوم حدث الاعتداء على ولي عهد النمسا في مدينة سراجيفو سنة ١٩١٤ أن حرباً أوربية طاحنة ستنشب لامحالة ، فأبعد في تصوره خطورة الموقف الى ما لا يتعداه غير أعاظم المفكرين العارفين بنتائج الحوادث .

كان يصدع بالحق ولا يماري ، اذا دخل مجلساً ورأى فيه بعض الظالمين او المحرفين غلب عليه الجلال فلا ينطق بكلمة ، واذا رأى من أحد الحاضرين تمويهاً في أمر وخروجاً عن الصدد جبهه وخرج عن مألوف الناس في الملاينة والملاطفة ، وهذا سر من أسرار ازورار بعض الناس عنه . واتفق أن أحد أترابه ارتقى في الدولة العثمانية حتى أصبح الحاكم المتحكم في العهد الحميدي ، فقاطعه الشيخ بلا سبب ظاهر ، فتوسط صاحبه أحد اقاربه ليعود الشيخ الى مراسلته ، ووعد الشيخ ومنّاه ، فأغضى الشيخ عن اجابته ، ثم الحّ الوسيط بعد مدة ليعرف الداعي الى اعراض الشيخ عن صاحبه فقال : « اكتبوا له أننا لانتعرف اليه ما دام لايعرف امته ، ومتى فكر في اسعادها وتخفيف البلاء عنها عدنا اخوانه وأخدانه » . وحدث ان صديقه الاستاذ احمد زكي باشا نال بواسطة احمد حشمت باشا وزير معارف مصر اعتماداً بعشرة آلاف جنيه لطبع مجموعة من الكتب العربية القديمة النادرة تبلغ فيما أذكر سبعة وعشرين كتاباً ومنها مايدخل في بضعة مجلدات فنباطأ زكي باشا في الطبع

ومضت السنة فقيد المبلغ في نظارة المعارف على حساب السنة المقبلة ، ولم يخرج الباشا شيئاً ، وهكذا حتى ألغي الاعتماد باستقالة حشمت باشا فغضب الشيخ غضبة مضرية من عمل زكي باشا وصارحه بقوله : « لقد أسأت الى الأمة العربية بابطائك في اخراج الكتب للناس ، واذا ادعيت انك تقصد نشرها سالمة من الخطأ مشفوعة كلها باختلاف النسخ والتعاليق فالتأنق لاحد له ويكفي أن ينتفع الناس بالموجود » . وظل الشيخ أشهراً لايكلم صديقه الزكي الا متكلفاً كأنه عبث به ، وحمل الضرر الى مصلحته مباشرة ! وأي مصلحة أعلق بقلبه من نشر آثار السلف .

يحب الشيخ اتمام كل عمل لساعته ، وكان يستشيط غضباً من رجل يقول له ان لك عندي كتاباً ولكني أنسيته في داري او حانوتي أو مدرستي . وكثيراً ما كان يحمل من يشغله بكتاب جاءه على أن يفتح محله مهما كان بعيداً أو مهما كان الحديث في ساعة متأخرة من الليل . ويؤنب هذا المتساهل بشؤون اخوانه تأنيباً يرجو ان ينجع فيه فلا يعود الى هذه العادة القبيحة . ومقصد الشيخ من ذلك ان يعلّم الناس العناية بمصالح غيرهم . وكان يقول في مثل هذه الاحوال ولعل في الكتاب أمراً مستعجلاً يستدعي أن يجاب عليه ، وكان من عادته أن يجيب عن الكتب التي يتناولها في الحال .

غريب عاداته

كان سمت الشيخ وهندامه سمت العوام وهندامهم في عصره ومصره ، عمامته من الاغباني ، في جبة بسيطة ، وقفطان قطن ، وزنار مزدوج يخبأ فيه بعض الدراهم ، وألبسته من صنع الوطن الا النظارتين والطربوش ويختار من القمصان والسراويل ماخفّ ثمنه ليطرحه اذا اتسخ ولا يشغل ذهنه بغسله ، وكثيراً مايلبس قميصين وزوجين من السراويلات وقفطانين وصدرتين وجبتين ، ليكون على أتم الاستعداد لما يطرأ على أحد الزوجين

تمينذه حالاً ويستعيض عنه بأخيه دون انتظار شيء آخر . وقد لايستعمل المناديل المتعارفة المعمولة من القطن ، فيعمد الى اتخاذ مناديل من الورق الغليظ ، يضم بعض أجزائه الى بعض فيكون دفتراً ، يلقيه بعد أن يتسخ كله . وكان يطهر جسمه ولا ينظف ثيابه كثيراً ، أصيب بهذه الحلة خصوصاً بعد أن فقد والدته في صباه ولم يبق له من رحمه امرأة تتعهده أبداً بنظافة ثيابه والعناية بظواهره . وأنى له هو أن يسد مسد أمه في ذلك ، وفكره مشغول بمطالب عالية أخرى ، قد لايتسع لمثل هذه الجزئيات في رأيه .

ورأيت في بعض تعليقاته في ترجمة عبد الله بن الخشاب وكأنه بنقله لها ترجم نفسه فقال بلسان الحال : وهذا رجل مثلي كان الى الحول ، قال : « كان وسخ الثياب ، ماتأهل ولا تسرّى له معرفة بالحديث والمنطق والفلسفة والهندسة بل بكل فن ، وكان يترك عمامته أشهراً ولا يغسلها ، ويلبسها كيف اتفق ، فاذا قيل له في ذلك يقول ما استوت العمة على رأس عاقل قط » . وشيخنا رحمه الله كان من هذا الطراز . والعبقرية على مايظهر تكمل من صاحبها ناحية واحدة وتنقص منه من الناحية الاخرى بقدرها .

أراد الشيخ أحد أصحابه في القاهرة خلال الحرب العامة على أن يغير جبته لأنها بليت بعض أطرافها فسكت الشيخ عن اجابته . فلما ألح عليه مرتين وثلاثاً اجابه « يافلان تريدني على اقتناء جبة جديدة وأهل الشام يموتون من الجوع » . وأضافه أحد أصدقائه في بيروت وأخذ ذات يوم ثيابه بدون استئذانه ليغسلها ، وعوضه عنها ثياباً جديدة ، فحنق الشيخ وما زال بمضيفه حتى أعاد اليه ثيابه الوسخة ، وذلك لئلا يشغل فكره في ثيابه ريثما تغسل وتنشف ، ولئلا يلبس ثياباً غير ثيابه . وغضب مرة على أحد أصحابه ومساكنيه في القاهرة لأنه افترص غيابه فنزع من غرفته جميع الكتب والفراش المملوء بالبق ، وكنس الغرفة

ونفض الغبار عن الكتب والأواني وغسلها ، ووضع سماً لقتل البق في السرير ، حتى لايصل الى الشيخ فيقرصه ، وأعاد كل شيء الى مكانه ، فلما رأى الشيخ ذلك عرف مادُبّر له ، ولم تطب نفسه بهذه التعزيلة ، وانحى على صاحبه باللوم والتقريع ! ورأيته مراراً وقد نتأ مسمار أو مسامير من حذائه فكان يخصف من ورق الشجر يجعله في الحذاء ، ليتقي ضغط المسمار على رجليه ، ولا تحدثه نفسه أن يذهب الى الحذاء يصلح له حذاءه ، واذا قلت له في ذلك أجابك ان الوقت لايساعدني . وكان مداسه متسعاً في الشتاء يجرف من الأرض طيناً كثيراً يعلق بجبته ، فيصبح وجهها شكلاً وقفاها شكلاً آخر . ولطالما تبرم بزيارته أيام المطر بعض ربات البيوت لأن طين جبته يعلق في المقعد الذي يقعد عليه . وكان اذا اشتد الحر استثقل الجوربين فنزعهما من رجليه وعوضها أوراقاً هشة ملونة يجعلها في نعله لتمتص العرق بزعمه . وأنت لاتملك نفسك من الضحك اذا رأيت رجليه ، وتستغرب من عظيم كهذا يسخر بعادات مجتمعه الى هذا الحد ، ولا يبالي النقد ولا الملام . ولطالما قال أنا شاذ ولا أحب أن يقتدي بي أحد .

ومن عادة الشيخ أن يحمل في جيوبه وعبابه بعض الدفاتر والرسائل بل أقلاماً ودواة ومقراضاً وسكيناً وإبراً وخيوطاً ، وشيئاً مما يحمل من النواشف والخبز والجبن والزبد والتين والزبيب ، وفي بعضها مادة دهنية دسمة يخشى أن تسيخ كالشواء ، وما دخله سمن أو زيت من المآكل ، يضع ذلك في مُقَوّى أو ورق غليظ ، ويستعمله عندما يريد ، ويطعم منه أصحابه ان أحبوا . اما الدخان والسكر والمربب فيحمل منه مؤونة أيام احياناً ، وقد يطبخ من القهوة في داره مقداراً وافراً ويجهز منها مايكفيه اسبوعاً حتى لايضيع وقته بطبخها ، كلما أراد تناول فنجان منها وهكذا يشربها باردة بائتة أياماً لئلا يشتغل بها كل ساعة عن مطالعته . وقال لي مرة انه ابتاع ارطالاً من البرتقال وضعها في داره ، ومن الغد

بدا له أن يسافر ، وتذكر وهو على أذرع قليلة من البيت انه يجب ان يستصحب في حقيبته شيئاً من البرتقال ، وتذكر مااشتراه منه بالأمس فآثر ان يبتاع برتقالاً من الطريق لئلا يضيع وقته بالرجوع الى الدار بعد ازماعه الخروج منها ، ولم يعد الشيخ الى داره الا بعد ستة أشهر ، وفرح أن رأى برتقالاته تضمر وتنشف !

وكان مغرماً بالتدخين منعه الطبيب منه وأراده على ابطاله ، فتعذر عليه ذلك ، فقال الطبيب ان كان لا بد من التدخين فلفَّ بنفسك لفائفك ، حتى يمضي جانب من الوقت في اللف . وكان الشيخ لا يحسن صنع لفائفه فتجيء واحدة دقيقة وأخرى غليظة وثالثة متوسطة ، وعندئذ يبدأ الشيخ بتجاربه ليضع اللفافة في البز (الفم) الذي يلائمها ، وكان في جيب الشيخ بضعة من هذه الأبزاز يتخيرها من القصب أو غيره من انواع الخشب ، وهكذا كان يتلهى عن الاكثار من التدخين ولو بضع دقائق . واذا قلت له بابطال التدخين ينهرك ويعرض عن حديثك ، هذا وهو صاحب ارادة قدت من حديد أو صخر .

ومن عادة الشيخ خلال الأربعين السنة الأخيرة من حياته أن لاينام الا اذا صلى الصبح ، يساهر بعض أصحابه هزيعاً من الليل ثم يغشى حجرته يطالع ويؤلف . وقد لا يراعي أوقات بعض أحبابه ، فيوقظهم أحياناً بعد الهزيع الثاني من منامهم ليسمر عندهم ، أما من كان لهم مواعيد ويعرفون التوقيت لساعات الليل والنهار ، فكان يصونهم عن غشيان منازلهم مَوْهناً ، ولا يطرق أبوابهم بعد الأوقات المعينة للسمر والسهر

كان يحب السباحة والعوم ، وله مسبح اختاره في بيروت وآخر في صيدا ، ومسابح في بعض أنهار دمشق ، وربما لبس سراويله مبللة بعد الخروج من سباحته ، ويهوى السير على الاقدام للترييض . ولطالما قطع عشرات الاميال بين المدن والقرى والجبال والأودية سائراً على قدميه . وقد يراه في الطريق بعض أصحابه او من لايعرفه ويدعونه الى الركوب

في مركباتهم أو على متون دوابهم فيأبى ، لأنه لايجب ان ينقض امراً أبرمه ، ونفسه تتوق الى السير ماشياً فأي معنى للركوب ! ومن أغرب أطواره أنه اذا استعدت نفسه للقيلولة قال ، وهو وسط اخوانه يتذاكرون ويتدارسون . يَقيل وهو قاعد ويضع على وجهه منديلاً . وربما أتم اغفاءته عند انجاز الدرس والمذاكرة ، وشارك فيما انقطعت عليه سلسلته ، من الحديث ، وقد يظن أنه احاط بما دار في المجلس في غضون قيلولته . ولم يكن يحب ان يطول الدرس اكثر من نصف ساعة ، لأنه يتبرم بالجد في هذه المجالس ، وهو يقضي الساعات في مطالعاته الخاصة .

كان الشيخ لا يعرف الهُجْر ، ولا يشتم شتماً ينبو عن حد الأدب ، مع حدة فيه ظاهرة ، وألم من أكثر الأحوال الحاضرة . وكان اذا صفا ذهنه تفصح عبارته في محاضرته ، والا فيعتريها شيء من اللكنة المغربية ممزوجة بالعامية الدمشقية ، وله تعبيرات خاصة وأساليب في مصطلحاته ونبراته لطيفة تحلو من فمه . يمزح أحياناً من الجد ، وما أحصي عليه أن نطق يوماً بفحش أو هُراءٍ ، أو استعمل ما ينافي الأدب والمروءة ، وكان يميل الى بعض من فيهم البلاهة ممزوجة بالذكاء ، وتصدر عنهم غرائب الأفكار والتصورات ، وربما قصدهم كل سنة من بلد الى بلد ، ليقطع بينهم أياماً يخرج فيها من الجد ، ويدخل معهم في حديث قد يروقه للتسلية والتندر .

حدثني أحد لِداته قال : كنا في دمر ، احدى قرى دمشق ، نقضي فيها يوماً للنزهة ، وكنا في نحو الثلاثين من العمر ، فاعتزل الشيخ طاهر في ناحية من الحديقة يطالع ويكتب في ظِلّ شجرة ، وكنا حراصاً على أن يكون معنا طول النهار ، وكانت في البستان فتاة اسرائيلية جميلة الطلعة ، فاقترحنا عليها أن تذهب الى الشيخ المستظل بالشجرة ، وتأتينا به ، ونحن نكرمها بالمال ، فصدعت بالأمر ، ولما رفع رأسه من كتابه أخرج لها في الحال قطعة من القمر الدين (معجون المشمش) وقال لها « ايهِ بارك الله ، أتأكلين قمر الدين يا قمر الدنيا ؟ » وصرف

الفتاة بهذا التقريظ ، وهذا كل ما أثر عن الشيخ في باب التصابي .
وسأله أحد الطلبة عن حكم التقبيل وما اليه ، فأجابه هذا موضوع لا أعرفه سَلْ غيري . وتكلم أحد أصحابه بكلام بعيد عن الحشمة في حضرته ، فأشاح بوجهه وتصامَّ كأنه ما سمع ولا دهش لهذا الغريب من الحديث ، على حين كان مغرماً بالغرائب ، ولكن لا من هذا البحر والقافية .

سأله أحد الفقهاء ممن ألفوا كتباً دينية حشوها بما لا يقره الشرع الصحيح ولا العقل الصريح « كيف تجد كتبي يا شيخ طاهر » فأجابه في الحال متخلصاً أجمل تخلص « اشتغلوا ونحن نشتغل لنرى لمن تكون النتيجة » . وكان يكره المتشدقين من المؤلفين والكاتبين خصوصاً في الدين والسياسة ، بل يكره كل من يقول بغير علم ويحاسب الذين يرمون الكلام على عواهنه حساباً غير يسير ويسميهم الحشوية كما يكره الجلجلوتيين ، والقبوريين والجامدين والماحكين . وسمعته يقول ان فلاناً يردُّه على الماديين وهو لا يحسن العلوم المادية فتح علينا أبواباً يصعب سدها ، وفلاناً بمقالاته السياسية المطولة يفتح بقلمه كل حين مشاكل صعبة الحل . فقلت له ولا تنس يا سيدي الشيخ الفلاني وما حشا به كتبه من ترهات وخرافات ومنامات وخيالات ، يعدها من الدين والاسلام بريء منها ، ويزيد على قحته قحة ثانية أنه يكفر كل من لا يقول بها .

وكان ينهر من يوردون أحاديث تفت في عضد السامعين وتلقي في قلوبهم الرعب والوهم ، ومذهبه تقوية القلوب وازالة غشاء الأوهام عن الأحلام ، وأن يصمد المرء لمكافحة الحوادث ، ولا يحب الاستنتاج اذا كان في غير محله حتى لا يؤدي التزيد والتفلسف الى تزييف الوقائع ، والباس الحقائق غير صورها ، ولذلك كان يستلطف من الانكليز السكسونيين ايجازهم في أحاديثهم وكتبهم ، ويوحشه من اللاتينيين تبسطهم في أقوالهم ومكتوباتهم . ويحتاط أبداً فينسب كل قول لقائله في أحاديثه وكتبه ، وغايته نشر الفكر والخلاص بسلام من تبعته .

كان يرفق بالضعفاء ويرفع من قدر الصعاليك ، ويحمل على العظماء ويترفع عن ملابستهم ، وكثيراً ما كان يحدث العامة برفق وتؤدة ، ويخاطبهم خطاب اخوانهم لهم . ولطالما قال ان من الحكمة أن لا تجعلوا بينكم وبين العامة حجاباً كثيفاً ، اذا أحببتم هدايتهم والانتفاع بهم ، وعليكم أن توهموهم أن ليس بينكم وبينهم من الدرجات الا قليل ، يوشكون هم اذا اشتغلوا قليلاً أن يساموكم أو يفوقوكم ، فهو بهذا كالطبيب الحاذق يعطي المريض الجرعة التي تناسبه ، ويتدرج به في المقويات درجة درجة . وهكذا كان مع كل طالب ومستفيد .

تحقق لدى الشيخ أن ابن أخيه ، وكان من نوابغ الشبان ، ابتلي بأخرَة بالشراب يتعاطاه ، فقطع مكاتبته مع شدة حبه له ، وظل لا يكلمه ولا يبحث عنه مدة اثنتي عشرة سنة ، وهو يكتم السبب في اعراضه عن نجل شقيقه . حتى أشار مرة اليَّ بما يرتكبه المغضوب عليه من أخذ المسكر ، وعدَّ عليه في جملة هناته أنه أتعب نفسه في المدرسة زيادة عن المطلوب فضعف بصره حتى ينال رتبة عليّة ، وكان عليه لو سمع نصائح عمه أن لا يُرهق نفسه ويكتفي من المنافسة مع أقرانه بما توصله اليه الطبيعة ، بدون اعنات ولا انهاك بدن . وهذا من قوة نفسه وصدق حدسه .

كان يكره الاستعمار كرهاً شديداً ، ويحب المدنية ويحث على تعلم لغات الغرب ، ويكره السياسة العثمانية ، ويقول ان استيلاء الترك على أرض العرب أضرَّ بها وأزال مدنيتها وغيّر اخلاقها ، ولم يكن ينكر على الاتراك أدبهم في عشرتهم ونظامهم في بيوتهم وحسن معاملتهم لكبرائهم . وكان يحب من أهل المدنيات الحديثة كل أمة ترفق بالمسلمين في الجملة ، ويحب من الناس من يصرف في خدمة المسائل العامة شيئاً من وقته وماله . وكان يقول وهو على فراش الموت عُدّوا رجالكم واغفروا لهم بعض زلاتهم ، وعَضوا عليهم بالنواجذ ، لتستفيد الأمة منهم ، ولا تنفروهم لئلا يزهدوا في خدمتكم . يقول هذا رجل أخلص كل الاخلاص في خدمة

أمته ، وتفانى في حبها ومعالجة أدوائها ، وكان جماع ما كافأته به في حياته عبوساً وانقباضاً وتنغيصاً وغصصاً ثم عصيانا على اصلاحه الناجع ، كالطبيب النطاسي يريد الخير بمريضه المعربد ، وكلما ناوله الدواء عضه وأدماه وشتمه وآذاه .

وكان الشيخ كثيراً ما ينشد قول البهاء زهير :

يا أيها الباذل مجهوده ... في خدمة أف لها خدمة
الى متى في تعب ضائع ... بدون هذا تأكل اللقمة
تشقى ومن تشقى له غافل ... كأنك الراقص في الظلمة

ويشبه الشيخ من كثير من الوجوه غاندي الفيلسوف الهندي المعاصر وان لم يكن له ما لهذا من الشجاعة ، وذلك أن الشيخ لا يحب الاذى ولا العنف ويحاول احياء كل ما هو آسيَوي من اللغات والتقاليد ، وتعليم الناس الصنائع وعدم الغفلة عما هو عند الأمم الغربية من مقومات العلم . ولا عجب فالعقل واحد مهما اختلفت الأعصار وتباينت الأقطار ، العقل السليم في هذا الشرق القريب وفي ذاك الشرق الأوسط وما وراءه من الشرق الأقصى لا يختلف في مظاهره الحقيقية عما هو عليه في أوربا وأميركا وافريقية .

نعم لم يكن الشيخ طاهر كالمهاتما غاندي في حملاته حتى ولا في تصريحاته . العملان متفقان الا قليلا ، ولكن ابن الوثنية جسر على العمل بمبدإه أكثر من ابن الاسلام . شعار غاندي « هندوساً كنا أم باريسيين ، نصارى أم يهوداً ، أياً كنا ، يجب اذا تاقت نفوسنا الى أن نعيش أمة واحدة أن تكون مصلحة الفرد مصلحة الجماعة ولا عبرة الا لعدل مطالبه » . أما الشيخ الجزائري فكان يتوقع من القوم أن يقولوا هذا وهو لا يدعوهم اليه الا بالاشارة والمثال البعيد . والحكيم الهندي قال ما أعتقده غير مجمجم فتخلص من قيود كثيرة ، وأراد أمته علناً أن تنهج سبيله فكانت شهرته شهرة عالمية ، وانحصرت شهرة الشيخ في بعض أصقاع العرب .

كان بعضهم يقول ان الشيخ ضنين بالافادة حتى ادعى بعضهم « ان الشيخ طاهراً بئر علم ولكن لا ينتفع بها » ، والحقيقة أنه يصعب على الشيخ مجاملة من ينتهى ، ولا مأرب له الا أن يقال عنه انه باحث وطالب فوائد ، فلا يرى أن يتعب نفسه في افهام فضولي يسأله في الفلسفة العليا ، أو في مسائل تعلو عن دائرة عقله ، على حين هو في حاجة الى أن يتعلم القراءة والكتابة . فكان في ضنانته هذه حكيماً أيضاً ، لا يظلم الحكمة فيلقي دررها بين أرجل من لا يعرف قدرها ، ولايتأتى له أن يحسن الانتفاع بها . أما المستعدون للتلقي والترقي فكان يجهد أن يختصر لهم طريق الوصول الى ما يريدون ، ويبعث كل حين عقليتهم ، ويفيض من واسع علمه عليهم ، وكلما رآهم يحرصون على التقاط فوائده ، جاد عليهم بما يعلم الا اذا كان ثمة شيئاً لا يعرفه فانه يقول (لا أدري) غير مبال بنقد من يذهبون الى استقلال علمه وعدم احاطته . فكان الآخذون عنه بالنظر لتحريه الصدق على ثقة من العلم الذي يسمعونه ويستملونه منه ، لأن الشيخ الى التصريح بعدم معرفته أقرب منه إلى ايهام الناس أنه يعلم كل شيء شأن المموهين والجامدين . ولذلك لم يحسب عليه أن بدت مقاتله مرة ، لأنه يقول بعد التحقيق ويكره التلفيق .

تآليف ورسائل

ليست تآليف الشيخ مما يناسب علمه الواسع ، لأن بعضها مما ألفه في صباه لنفع المدارس ، وهو مفيد جداً في بابه وفي حينه . ومن تآليفه المطبوعة (الجواهر الكلامية في العقائد الاسلامية) و (منية الأذكياء في قصص الأنبياء) و (مد الراحة الى أخذ المساحة) و (مدخل الطلاب إلى فن الحساب) و (الفوائد الجسام في معرفة خواص الأجسام) ورسالة في النحو وأخرى في البديع وثالثة في البيان ورابعة في العروض وكتاب (تسهيل المجاز إلى فن المعمى والألغاز) وشرح ديوان خطب

ابن نباتة . ومن كتبه (ارشاد الالباء الى تعليم ألف باء) ورسالة وجداول جدارية في الخطوط القديمة والحديثة و (التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن) وهي المقدمة الصغرى من مقدمتي تفسيره . ومقدمة سماها الكافي في اللغة وهي مقدمة معجم ضاع أكثره . و (التقريب الى أصول التعريب) و (توجيه النظر الى علم الاثر) ومختصر أدب الكاتب لابن قتيبة ومختصر أمثال الميداني ومختصر البيان والتبين للجاحظ . هذا هو المطبوع . أما المخطوط فتفسيره الكبير ويدخل في أربعة مجلدات مخطوطة محفوظة في دار الكتب الظاهرية بدمشق مع جميع ما ظفرنا به من أوراقه . ومن المحفوظ أيضاً بعض كنانيشه وفيها خلاصة مما طالعه من الأسفار وعرض له من الأفكار . وله من المخطوطات كتاب (الالمام بأصول سيرة النبي عليه الصلاة والسلام) و (مقاصد الشرع) وغير ذلك .

وقد أحيا بالطبع عشرات من الكتب منها ارشاد القاصد لابن ساعد الانصاري وروضة العقلاء لابن حبّان البستي والأدب والمروءة لصالح بن جناح والأدب الصغير لابن المقفع وأمنية الألمعي وتفسير النشأتين للراغب الاصفهاني والفوز الأصغر لمسكويه . الى غير ذلك من مقالاته في المجلات العلمية واملاءات جمة كتبت بتواقيع مستعارة . ألّف الشيخ معظم هذه الكتب بحسب الدواعي خصوصاً مبادىء العلوم ، في زمن كانت فيه الكتب المدرسية في حكم المعدوم ، وذلك لينهض بالتعليم الابتدائي ويخلص الناشئة من عسلطات المتأخرين المعروفة وحواشيهم وشروحهم المملة المضيعة لأوقات الطالب . ومعنى هذا أن الشيخ انتبه قبل غيره الى فساد طريقة التعليم القديمة ، وأدرك أن الزمان يتقاضي أهل العلم أن يخرجوا الناس من ربقة القيود الثقيلة العائقة عن التحصيل ، كما انتبه الى كثرة سريان الحشو واللغو الى كتب الدين التي خلط فيها كثير من المتأخرين .

من أهم كتب الشيخ المطبوعة شرح خطب ابن نباتة وارشاد الألباء والتبيان والتقريب وتوجيه النظر ففيها لباب علمه وأثر من آثار قريحته ،

تجلى فيها روح بحثه وغوصه على مسائل دقيقة قلّ أن تسنى لغيره ممن عاصره الوصول اليها . وليس معنى هذا أن سائر ما طبعه الشيخ غير مفيد بل المقصود أنه كتب لغرض خاص أريد به تثقيف الناشئة ، وهذه الكتب هي التي ظهرت فيها شخصية الشيخ وتقوب ذهنه وسعة مداركه ، وتلطفه في ابلاغ المعاني الى العقول ، وحرصه على أن يحيل في الأكثر على عالم تقدمه لأن الناس في العادة يقدسون الأموات أكثر من الأحياء .

والشيخ وان كان في مذهبه الديني الى الاجتهاد لكنه في مذهبه التأليفي أقرب الى التقليد ، يمشي على مذاهب القدماء ، ولكن بتنسيق وتقسيم بدون أن يشوش القارىء . ولو تيسر للاستاذ أن يسير على نظام أكمل من الذي سار عليه في معيشته ، وساعده الزمان والمكان على تجويد مصنفاته ، والصبر عليها قبل نشرها لخلّف كتباً وخصوصاً في العشرين سنة الأخيرة من عمره تقرأ فيها صورة عظيمة من جهوده ونبوغه . وبلغني أنه دوّن بعض الوقائع التي شهدها ولم نعثر عليها بين أوراقه التي سرق بعضها وقت انتقاله من مصر الى الشام . ويقيني أن الرجل لو وفق الى طابعين أغنياء فضلاء يحملونه على العمل على ما خص به من النشاط وشدة الحركة ، لأنتجت قريحته أكثر مما أنتجت في الفروع المختلفة التي طرقها ووزع قواه فيها ، ولكن تفانيه في الاسراع بحمل النور الى العقول ، وفدح التبعة التي أخذها على نفسه في المسارعة لانهاض أمته ، دعواه الى أن يكتفي بما تهيأ له وضعه وتأليفه ناظراً فيه الى مصلحة الناس لا الى مصلحته الخاصة ، وشهرته في حياته وبعد مماته .

كانت بيئة الشيخ التي اضطرب فيها في الشباب والكهولة ضيقة المضطرب لا تتسع لبث همته . وكانت المطالب التي تتقاضاها منه من حرصه على بث الاصلاح والتعليم كثيرة لا يقوى الفرد على حملها كلها ، ولو قُدّر له أن يعيش منذ نشأته في بيئة متسعة كمصر ، وخلا من مدافعة المشاكسين والظالمين ، ورأى شيئاً من الطمأنينة وسعة العيش

لتضاعف انتاجه لا محالة ، وعم نفعه مصر وغير مصر . وربما كان ظهوره في الشام ، والمهد عهد ظلمة وجهل أبرك عليها وأنفع لها ، لأن ما اضطلع به وحده لا يضطلع به عشرة علماء على شريطة أن يكونوا في درجته من الاخلاص وشدة الشكيمة ، وعزوف النفس عن المطامع والدنايا .

وبعد فهذه صورة صحيحة من صور الأستاذ الحكيم ، عجيبة في خطوطها وتقاطيعها ، جميلة بألوانها وأشكالها ، عرضتها لغرابتها لأنه ندر جداً في المعاصرين من الأحياء ظهور رجل يماثله في أطواره وحركته وسعة حيلته وبسطته في العلوم ، والزمان على أي حال بخيل بمثل هؤلاء النوابغ في كل عصر ، وقد لا ينبغ أضرابهم في قرون يفادون بكل ما يتفانى الناس في التهالك عليه من مال وجاه ورفاهية ، وتنحصر لذائذهم في بث أفكارهم وآرائهم ، ويسعدون السعادة كلها اذا نهضوا باثارة عقول أهل جيلهم وقبيلهم .

رسائله الخاصة

والى القارىء الآن جملا من كتب دارت بين المؤلف وأستاذه ، فيها شيء من مناحيه العلمية ونفسه العالية ، وربما ترجمت عنه مثل ترجمتنا وزيادة ، وكتابة المرء نمامة على علمه ، وعقل الكاتب في قلمه ، واختياره قطعة من عقله . وقد صدرت هذه الرسائل من القاهرة المعزّية ، ومن أجمل ما فيها كونها كتبت على البديهة لا كلفة فيها شان الشيخ في كتبه ومفكراته . وربما كتب الى أصحابه كتاباً وبعثه في البريد من دون أن يطالعه ثانية . ولذلك رأينا بعض كتبه غفلاً من التاريخ أيضاً .

سألته مرة عن منشإ الشعوبية فأجاب « وأما الزمن الذي ظهرت فيه الشعوبية فلا يحضرني فيه شيء ، والوقوف على أوائل الاشياء من أصعب المسائل وأدقها الا أن الذي ظهر لي أن ذلك حدث بُعَيْد عصر الخلفاء الراشدين لوجود الداعي الى ذلك ، وهو التفاخر بالجنس الذى هو من

عادات الجاهلية التي أتى الدين بابطالها ، ومن نظر لمنزلة سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي في أوائل الأمة زال عنه الشك في هذه المسألة . ولا يدخل في الامر بحث المؤرخ عن خصائص الأجناس ، مما يقصد به الوقوف على الحقائق فان هذا نوع آخر . الا أن من بحث عن أحوال الأمم ووفى النظر حقه ، تبين له أن العرب في الجملة لا تساميهم أمة البتة .

« وأظن أنه لا بد أن تؤلف بعد حين كتب في خصائص الامم ، وكتب في خصائص البلاد ، كما ألفت كتب في خصائص اللغات ، تجعل من الفنون التي يُعنى بها وتميز عن غيرها ، ولا تذكر بطريق العرض ، الا أن فن خصائص الامم تتيسر المشاغبة فيه والمغالطة أكثر من غيره . وكل فن وضعت مقدماته ونقحت مسائله يبدو بسرعة عوار المغالط فيه .

« هذا وكما حدث بعد عصر الخلفاء أمر المفاضلة بين العرب والعجم حدث امر المفاضلة بين العدنانية والقحطانية ، وهما الفريقان اللذان يجمعهما اسم العرب . ونشأ بسبب ذلك من الفتن ما يعرفه المولع بالأخبار . ولم يزل اثر ذلك باقياً في بعض الجهات الى ما قُبَيْل عصرنا هذا ، وقد رأيت في بعض البلاد أناساً يقولون الى الآن نحن قيسية وآخرين يقولون نحن يمانية .

« كتبت لك ما كتبت والقلم لا يكاد يجري لما حدث لي من الفترة من نحو ثلاثة أسابيع . وسبب ذلك أني اختبرت أحوال كثير من الولايات فوجدتها منقسمة الى حزبين كل منهما يباين الآخر في كل شيء ولم يظهر حزب ثالث يكون معتدلاً ومعدِّلاً لهما . واذا دام الحال هكذا تأخرت البلاد عما كانت عليه من قبل . وقد نصحت كثيراً من المحدثين من الأحرار(١) بأن يعدلوا مشربهم ، وحذرتهم عواقب الامر غَلَبوا أم

---

(١) هو حزب الاتحاد والترقي الذي كان بتعنته وشدته سبباً في تدهور المملكة العثمانية وذهاب سلطانها (المؤلف) .

غلبوا ، فأبوا الا الاصرار على فكرهم ، وما قلت لهم رأيي الا بعد أن ألحوا عليّ في بيانه ، وحضر أناس منهم من مركز جمعيتهم وطلبوا مني التفصيل ، بعد أن بينت لهم ذلك اجمالاً ، فرأيت انهم يوافقونني في البدء ويخالفونني في النهاية ، فامتنعت عن اتمام البيان وتشاغلت عنهم . فاني رأيتهم يظنون أن حلهم لبعض مسائل الجبر والمقابلة يحل لهم مسائل ادارة البلاد . ان كثيراً ممن كنا نزدري برأيهم في السياسة من تلاميذ المدارس في مصر هم أرقى منهم في ذلك . وقد اجتمع بنا في هذه الليلة أحد المرسلين منهم وسمع منا هذه العبارة وهي ملقاة على صورة تحتمل الجد والهزل فدهش ، وعرف أنها الى الجد أقرب منها الى الهزل ، وكان يتكتم فاضطر الى الانطلاق فيما يراه من الأخطار التي يصعب تداركها . . . اني متشوق لأخبار كثير من الولايات لعلنا نسمع بظهور الحزب الاوسط في واحدة منها فيسري ذلك في غيرها شيئاً فشيئاً ، وهذا الحزب يلحقه في أول الامر أشد اضطهاد لأن الحزبين المتطرفين يبغضانه أكثر مما يبغض أحدهما الآخر ، لاعتقادهم بأنه أقرب الى انضمام كثير من الحزبين اليه » .

وقال من كتاب عن القاهرة في ١٩ صفر سنة ١٣٢٨ :

« وبعد فقد وصلني كتابكم الكريم منبئاً بعودكم من بلاد أوروبا فسررت بذلك سروراً شديداً ، كنت أتمنى لكم هذه الرحلة من قديم لما أتيقنه من الفائدة التامة العامة في ذلك . فان الاقتباس من الامم المترقية دليل على النباهة ، لا كما يظن البله من أن في الاقتباس غضاضة ، ونريد بالاقتباس ما يشعر به هذا اللفظ من تلقي الامور النافعة ، لا كما يظنه المتكايسون من أن الامم الراقية ينبغي أن يؤخذ منها كل شيء حتى أدّاهم الأمر الى أن يقلدوهم في الامور التي يودون هم أن يخلصوا منها .

« وأما ما يتعلق بخزائن الكتب في الاستانة فقد خطر في بالي خاطر يرتفع به محذور الامتعاض في جمعها ، وذلك بأن تبقى كل مكتبة في

موضعها ينتفع بها المجاورون لها ، على ان تؤخذ منها الكتب النادرة ، وهي في الغالب لا تلزمهم ولا يهمهم أمرها ، وتوضع في موضع معد لها يكون في وسط البلدة ، ومن اطلع على دفاتر مكاتبها وجد امكان اجراء ذلك بدون اعتراض يعقل . ولما عملت برناجاً لكتبها النادرة رأيت أن بعض المكاتب قد يوجد فيها نسخ متعددة من كتاب نادر ، فلو أخذت أحدى النسخ المكررة لم يكن في ذلك ما يقال . وقد كنت ذاكرت بهذا الأمر بعض أعضاء الجمعية فاستحسنه جداً ، وذكر لي أنه سيسعى في ابرازه من القول الى الفعل ، ثم عرضت شواغل عاقت عن ذلك .

« وأما مصر فقد دخلت في الدور المجهول وسيكون اما لها واما عليها . وهذا الدور لا بد منه لكل أمة تريد النهوض بعد العثرة ، فان ساعدها الزمان والمكان والامكان نالت مناها ، والا كان لها تعلل بسوء البخت بعد التشبث بالأسباب الظاهرة ، جعل الله سبحانه العاقبة خيراً » .

وكتب ناصحاً وواضعاً خطة للاصلاح في غرة جمادى الأولى ١٣٢٧ :

« ومما يهم الأمر فيه اصلاح العادات ، فان في الشرق كثيراً من العادات التي ينبغي ابطالها كما أن فيه كثيراً من العادات التي ينبغي المحافظة عليها ، غير أنه لا ينبغي أن يستعمل التنكيت في ذلك ، بل يستعمل مجرد البيان الدال على حسن الشيء أو قبحه . ولا يتيسر الاقدام على هذا الأمر إلا لمن لا يهمه أمر المدح والذم العاجلين بل يهمه حسن الأثر .

« ومن العادات الرديئة جداً أن الكاتب قد يمكنه أن يكتب في اصلاح عادة لكنه يرى ان الكلام في ذلك يكفي فيه عشرة أسطر فيرى أن الناس يزدرون بذلك وينسبونه لقلة القدرة على الانشاء فيترك الكتابة فيه ، أو يسهب اسهاباً لا داعي له من سرد مقدمات معلومة مسلمة ، لو تركها لكان أقرب الى الفهم وأبعد من الوهم ، وما ذلك الا من تأثير الحشوية فيهم ، وقولهم ان الناس نسبوك لعدم الاقتدار على الكتابة . فينبغي ان يكون في المجلة ولو مقدار صفحة تبحث في العادات على اختلاف

أنواعها وتعليم ذلك للبنين والبنات . هذا ومن جهة رأي الناس في حقكم فان النبهاء المنصفين منهم يجعلونكم ممن ثبت في حين الشدة ، ولا تعبأوا بمن يلوم عن جهل وغباوة ، فان ذم هؤلاء أقرب الى المدح من ثنائهم » .

وكتب إليَّ يقوّي عزيمتي على العمل :

« وأرجو أن يكون ما حصل لكم من المروّعات زائداً في نشاطكم في افادة الامة فانها في احتياج شديد الى من ينير لها الطريق الاقوم من أرباب الوقوف والاخلاص ، وأعظم ما تحتاج اليه هو أمر الاخلاق وما يتعلق بها ، ومعرفة الامور العمرانية على وجه لا يكون فيه اخلال بمعالي الامور ، وتنبيههم على عدم التعويل على المدنية التي كان الغربيون قديماً يفتخرون بها ، ويزدرون بمن لا يتابعهم عليها ، بما هو مبني على مجرد مراعاة الامور المادية دون غيرها ، وهي التي جلبت هذه المصائب الحاضرة ، وقد أشرتم بطرف خفي الى ذلك في محاضرتكم التي ألقيتموها في مصر حين فراركم من دمشق اليها ، وقد صرحنا بذلك في قصيدتنا البائيـــة المطبوعة في الجزء الرابع من منتخبات الجوائب . وقد كان أناس يقرؤنها ويعدونها من آراء حشوية الشرق فما زالوا على هذا حتى صرح فلاسفة الغرب بذلك . ومما ينبغي ان تحثوا عليه تعلم صنعة ما أي صنعة كانت ، ولا يكون أحد خالياً عنها ، ويجعل هذا مبدأ جديداً لهذا العصر والتعويل على الرياضة الجسمانية » .

وكتب في غرض الاعراض عن المثبطين من رسالة :

« وقد عجبت من أولئك الذين يسعون في تثبيط الهمم في هذا الوقت الذي تنبه فيه الغافل فضلاً عن غيره موهمين الشفقة . وكان الاجدر بهم أن يشفقوا على أنفسهم ، ويشتغلوا بما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع . ولم ير أحد من المثبطين قديماً أو حديثاً أتى بأمر مهم . وينبغي للجرائد المهمة أن تكثر من التنبيه على ضرر هذه العادة والتحذير منها ليخلص منها من لم تستحكم فيه ، وينتبه الناس لأربابها ليخلصوا من ضررهم .

وقد ذاكرني منذ ليلتين أحد نجباء الابناء في هذه المسألة ، وشكا كثيراً منها ، وعجب لعدم اكتراث المصلحين ببيانها بياناً كافياً شافياً فقلت له : المأمول أن يكون الاوان قد آن لاصلاح هذه العادة التي تهبط بالامة الى الدرك الاسفل ، أصلح الله الاحوال » .

وقال من كتاب في غرض التربية :

« واؤكد في هذا الكتاب بأمور :

(١) ادخال مبادىء الصنائع في المدارس الابتدائية ويمكن تجربة ذلك أولاً في مدرسة واحدة .

(٢) ادخال التربية العملية فيها وذلك بتعويد التلميذ على الصدق وأن لا يتكلم في شيء الا بعد أن يختبره ، فان الشرقي اعتاد أن يدعي كل شيء وأن لا يقول في شيء لا أعلم ، وهذا جعله لا شيء عند الغربي .

(٣) السعي في مدرسة للقراءآت السبع مثل ماكان من قبل . ولا ينبغي أن توضع هذه الأشياء في المذاكرة أو يخطب فيها فان مثل ذلك ينبغي أن يخطب فيها بعد أن تصير » .

وقال في موضوع التعليم وقد رجوته ارشادي برأيه اعمل به في المدارس ، ورأيه في البحث في المخطوطات : « ومما زاد فيه سروري شيئان أحدهما الاعتناء بتربية الأنجال ، فان أكثر الآباء يرجحون من حيث يدرون ولا يدرون مصلحة أنفسهم ، وما ذكرتم فهو موافق . والأولى أن يضم الى ذلك صنعة كالخياطة والتفصيل ونحو ذلك وعرفوني بعد حين البروغرام الذي يظهر لكم . وينبغي أن تتولوا بنفسكم بعض التعليم ولو مدة ربع ساعة على طريق أحد المغاربة ، فانه كان يطلب من ولده أن يفيده بعض مسائل بعد أن يشعره من طرف خفي بمظانها ، فيلقيها الابن على الأب كأنه يفيده .

« وأما الذين يريدون أن يخفضوا ما رفع الله شأنه ويرفعوا ما خفضه فعما قليل ليصبحن نادمين ، والزمان يضحك منهم ، وكذلك الأئمة الغربيون

الذين يمتون اليهم بوسيلة التقليد لهم ، فلا يكن في صدرك حرج منهم فهم أغرار ، وينبغي أن تمحو من لوح الفكر لفظ اليأس فانه أضر شيء : واثبت ففي الثبات جل الحكمة ان لم نقل كلها .

« والثاني استفسارك عن وصف الكتب وانه دل على أنك قوي حسن الظن بنا حتى تكاد تعتقد أننا لا نقول جزافاً كما أن أناساً يعتقدون أننا لا نقول شيئاً الا جزافاً . وهنا أذكر لك حكاية سمعتها مراراً ممن أثق بهم ، وهي أن أحد من جمع له بين العلم وغيره من الصفات العالية ، أرسل الي أحد من يميل اليه من النبهاء وقال له : أريد أن تنشر بين جماعتنا العلم الفلاني ، فقال : لا أعرفه وانما أعرف العلم الفلاني . فأعاد عليه العبارة فأعاد المسؤول قوله لا أعرفه . فأعاد عليه السائل ماقال أولاً ، فأراد المسؤول أن يجيبه فأشار اليه بعض الحاضرين اشارة خفية أن يظهر الامتثال ، ثم قاموا من عنده فقال له المشير : ان فلاناً لم يقل لك ما قال الا وهو يعلم أنه ممكن واذا تحقق الامكان فما عليك الا أن تسعى في اخراج الامر من القول الى الفعل فسعى وتم الأمر ، وحصلت فائدة عظيمة من احياء أمر كان دارساً .

ونرجع الى أصل المسألة فنقول : من أراد وصف كتاب ينبغي له أن ينظر فيما قاله مؤلفه في مقدمته أو في خاتمته أو فيهما معاً ويأخذ خلاصة ذلك ، والوصف عندهم ليس عبارة عن النقد بل بيان موضوع الكتاب والداعي الى تأليفه . وما في الكتاب من الخصائص ، وعلى ذلك يتيسر وصف الكتب بأسرها حتى كتب الطب ، فاذا زاد الواصف فصلاً من الفصول ليكون كالنموذج كان أحسن ، وكثيراً ما يكون وصف الكتاب على هذه الطريقة سبب نشره .

وأكثر وصف المؤلفين لكتبهم اما مطابق للواقع أو قريب منه . أما المموهون فقليل في الطبقات القديمة . ومن العجيب أن هذا الأمر لا يشعر به كثير من نبهاء هـــذا القطر ، ولفظ الكثير هنا مجاز ،

وجربوا نفسكم في غير التاريخ ونحوه ففي الحديث يمكنكم أن تصفوا هذه الكتب .

« في دار الكتب الظاهرية بدمشق »

نمرة ٣٥٦ اللطائف في علوم المعارف للمديني

« ٣٦٢ أسماء الضعفاء للعقيلي

« ٣٨٧ معرفة الرجال لابن معين

« ٣٩٠ المشتبه للغساني

« ٣٩٣ الكفاية في علم الرواية

وهذا أمر يفيد الناس أكثر من كثير من المقالات التي حررها أناس ليس لهم تتبع ولا معرفة بجعل نتيجة للمقالة ، حتى صار المطالعون يضيق صدرهم من ذلك . وقد سألني منذ مدة بعض أرباب المجلات عن أحسن المجلات فقلت : أصغرها حجماً .

(في ١٥ ذي القعدة ١٣٢٨)

وقال من رسالة :

« مما يهم جداً ادخال مبادىء الصنائع في جميع المكاتب الابتدائية وقد جرب ذلك في بعض المدن فتبين أن ذلك مما يعين على التحصيل أيضاً والفائدة في ذلك مهمة .

« ومما يهم جداً إدخال التربية العملية في المدارس لا سيما المدارس الابتدائية . ومن ذلك أن يعوّد التلميذ على أن لا يتكلم بما لا يعلم ، وأن يتفكر قليلاً اذا سئل عن شيء لم يسبق له به اختبار . وهذا أمر ممكن قريب المأخذ - قد عمله أناس فنجحوا فيه - وأرجو أن لا تقرأ أفكاري على أناس من الحشوية أو الفلاسفة الخياليين ، فاني أربأ بها عنهم . نعم هؤلاء ينبغي أن يعرفوا ذلك بعد العمل به . ونصيحتي لكل محب أن لايشتغل بمثل هؤلاء فانه أنفع . (في ٢١ ربيع الأول ١٣٣٧)

« هذا وقد سرّني كثيراً زوال المباينة بينكم وبين الذين نودّ عدم

مباينتهم . وهذا أيضاً من أثر النشاط ، فان النشاط اذا زال لحق المرء الملل من كل شيء ، وإذا حصل قويت الهمة ورأى البعيد قريباً ، وأقام للناس أعذاراً ونفعهم وانتفع بهم .

« قد جرى منذ أسبوعين مذاكرة سرية في طريقة ترجمة احدى دوائر المعارف الفرنسوية فان الناس في احتياج لذلك . وقد تبين من المذاكرة أن أمر المال سهل ، فان أحد الحاضرين تعهد بذلك ، وقال إن له اخواناً لايتوقفون في الامداد ، ولكن المهم وجود مترجمين كافين يتعهدون بالقيام بذلك الى النهاية . فقلت : إن هذه المسألة تحتاج إلى تفكر وبحث شديد . وقد استقر الرأي على أن تدرس في نحو ثلاثة أشهر ووعدت بالكتابة لكم في ذلك ، فابحثوا في المسألة فيما بينكم وبين نفسكم ، ثم فيما بينكم وبين اخوانكم الذين يناسب البحث معهم في ذلك ، على صفة خاطر قد خطر ، وكان معنا في المذاكرة الفاضل المقدام السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ، وهو يأمل أن يوجد بارشادك نحو سبعة مترجمين . وقد تشبث بهذا الأمر منذ سنين أناس ظنوا أن المال يأتي بكل شيء ، فتبين لهم غلطهم وأعرضوا عن الأمر ، وهذا أمر بعيد جداً ، ولكن هو في درجة الامكان القريب من الوقوع ، وانما يحتاج إلى الهمة ومعرفة الطريق . وقد كان بعض الحاضرين يريد أن يجعل زمام الامر في يد الحكومة ، فطلبنا أن يكتم ذلك عنها ، فانه لا يؤمل أن تقدر عليه ، فان هذا الامر محتاج إلى الحكمة أكثر من احتياجه الى الحكومة » .

وقال في رسالة وقد سألته عن التاريخ الهجري وانتقاد بعضهم استعمالنا له :

« عجبت لمن يسعون في أن نهجر التاريخ الهجري ، ويفاتحوننا في ذلك كأنهم لا يعلمون أننا نعلم ما يرمون اليه عن بعد . لكل أمة شعار اذا تركته طمع فيها ، واستضعف جانبها ، وربما صارت بعد مدمجة في غيرها . وقد سعى أناس منذ عهد بعيد في أن يضعفوا مايقوي أمر

الاسلام عموماً ، والعرب خصوصاً ، فنجحوا بعض النجاح ، فطمعوا في أن يقضوا عليه فلم يجدوا أقرب إلى ذلك من اضعاف أمر اللغة العربية ، والسعي في تبديل خطها ، والتزهيد في الكتب التي كتبت بها ، فجعلوا ذلك دأبهم وديدنهم . حتى أثروا في كثير من أبناء جلدتنا الذين يظنون أنهم على غاية من الذكاء والوقوف على أسرار الامم ، فكان ما كان مما هو معروف ، ثم زاد الامر فطمعوا في تبديل التاريخ الهجري ، وساعدهم على ذلك « جبت » مصر ففرحوا فرحاً لامزيد عليه . وقال بعضهم : الآن شفينا الغليل من هذه الأمة ، غير أن كثيراً ممن انتبه لهذا الأمر سعى في اعادته على قدر الامكان ، فامتعض أولئك القوم وصاروا يلمزون كل من يسعى في ذلك .

« وهذه المسألة نظراً لتعلقها بتاريخ تأخر الشرق لايتيسر أن يكتب فيها أقل من نحو ثلاثين صفحة في نحو ثلاثين يوماً . وليت شعري كيف يلام المسلم على أن يؤرخ كتابه بالتاريخ الهجري ، فهل انقرض التاريخ الهجري ، وهل يريدون أن ينقرض وأصحابه أحياء ؟؟ فان قالوا ان المقصود توحيد التاريخ في الامم وأوربا هي القوية الآن ، قيل ان أوربا لها تاريخان أحدهما شرقي والآخر غربي وكل يؤرخ به قوم منهم ، فهل أوقف ذلك التجارة أو أثر في المدنية شيئاً ؟ ولِمَ لا يكلفون تغيير مكاييلهم وموازينهم وأذرعهم لتتحد المقاييس في الامم . وتغيير ذلك ليس فيه غضاضة بخلاف التاريخ . وقد رأيتهم يعتذرون عنهم ويعدون ذلك متانة في الاخلاق فانظر ماوصلنا اليه » .

وهذا الكتاب يدلنا على أشياء كثيرة من سيرة الشيخ ومرماه ونصاعة حجته ، وجميل مناقشته لخصوم مشربه .

وكتب « كان كثير من الحشوية يلومونني في تنبيه المؤلفين والطابعين على مايلزمهم ، ويقولون ان هذا لا يفيد غير العداوة ، وأنت تضرب في حديد بارد . وما دروا أني ممن يقول بأن العداوة في محلها أجدى

عندي من ان اكسب المحبة من غير وجهها ، وان معاداة الغشاشين لي مما يسرني ، كما ان محبتهم لي مما يسوءني ، غير أن الزمان أبان أن كل نصيحة لا تخلو من تأثير ولو بعد حين ، فان كثيراً ممن لحقتهم صدمة منا ومن اخواننا الذين أعطوا هنا عهداً أن لا يغشوا الامة قد صاروا يراجعون بعض مراجعة ، غير أن التأثير في المطابع كان أكثر .

« وأما أمر التصحيح فلم يهتد المصلحون الى طريقة اصلاحه . بحيث أن بعض الناس طلب الينا أن نبحث له عن مصحح لكتاب المحكم لابن سيده ، وهو أكبر من لسان العرب ، ليشرع في طبعه ، فبعد بحث تبين أنه لا يقوم بتصحيحه الا فلان وهو احد اخواننا الذين لا يساعدهم نظرهم في أملاكهم الجمة على التفرغ لمثل هذا الأمر (١) . فأرجيء الآن طبع الكتاب لهذا الأمر . فانظر الى الحال التي وصلت اليه مصر ، فما قولك في غيرها ؟ الا أن الذي يسر في مصر انتباهها لنقصها بخلاف الأقطار الأخرى ، والانتباه للنقص هو نوع من الكمال . أرانا الله سبحانه الكمال على حقيقته بمنه . عليكم بالرياضة الجسمانية والرياضة الروحانية ويدخل في الرياضة الروحانية التباعد عن سماع الأخبار التي أولع بها المرجفون ، فانه لا قيمة للزمان عندهم . وهو عند الحكيم أغلى من الجوهر (١٧ رمضان سنة ١٣٢٦ هـ) » .

وكتب من رسالة :

« قد سرني في مصر في هذه المدة أن العقلاء بدأوا يجتمعون في الفكر والتعاون ، على صفة يقتضيها الموقع ، وهو عدم التظاهر من أول الأمر كما يفعله طالبو الشهرة ، وهذا أمر لا يشعر به الا من اطمأنوا اليه . وقد كانوا قبل ذلك يقول كل واحد منهم نفسي نفسي . واذا استنجده أحد لأمر نافع قال ولو بلسان الحال « عليك بخويصة نفسك » .

قد اجتمعت في هذا النهار بعالم أورباوي قد حل الخط الثمودي

---

(١) هو العلامة أحمد تيمور باشا رحمه الله .

الموجود في مدائن صالح وأخبرني أن كتابه قد تم طبعا ، وهو الآن يسعى لجمع لغة أهل نجد فانه وجد أن أكثر الكلمات العربية لم تزل باقية عندهم ، وكان قد ساح في تلك الجهات ، وهو ممن يتعصب للغة الكتاب العزيز أكثر مما يتعصب أهلها لها .

«كان قد أسس في أميركا مدرسة يقرأ بها الطالب وهو في بلده ، وقد كنت رأيت في سورية أحد طلبتها وهو يدرس فيها فناً دقيقاً وأظن أنها تسمى المدرسة الكوتشوكية ، وقد كان ترجم قديماً الى العربية بعض قوانينها ، وطبعت ثم نفدت النسخ ، بحيث اني بحثت عنها فلم أجد من يعرفها ، فان وجدتم كتاباً بالفرنسوية يتعلق بها فترجموا منه ما تيسر مما يوافق البلاد .

« وقد سعى بعض الواقفين على ذلك من نحو عشر سنين في بث هذا المقصد الا انه على وجه خفي حيث كان نشر العلم اذ ذاك يعد من أعظم الأجرام . والآن لم يبق مانع ومجرد نشر أسلوبها وقوانينها يفيد فضلاً عن التشبث بشيء من ذلك » .

وقال في كتاب :

« وقد وقفت على كثير من الجرائد الجديدة فوجدت جل مباحثها في بيان فوائد الحرية . ورأيت الناس قد ملّوا هذا البحث لأن الحرية ان كانت على المعنى الذي يقول به الحكماء فهي مما لا يختلف فيه اثنان من ذوي النباهة . وان كانت على وجه آخر فربما كان ضررها أكثر من نفعها . ولست أعني بالحكماء هنا أمثال الحكيم الذي كان يقال لكم انه تعلم الحكمة في سويسرة في ثلاثة أشهر لأن مثل تلك الحكمة مما يزيد خبالاً . وما أرى أكثر الفتن التي وقعت في كثير من الولايات الا من مثل هؤلاء لا سيما ان ضم الى دعوى الحكمة دعوى الحرية وهو لا يملك نفسه . وقد كان أرباب الحدس يتصورون انها تكون أشد الا أن الألطاف الالٓهية حفّت فخفّت ولله الحمد . (٢٢ شوال سنة ١٣٢٦) .

وذكر في جملة كتاب حوى مسائل كثيرة في نسخ الكتب وأخذها بالتصوير الشمسي والعناية بوضع فهرس لكتب رومية باللغة العربية ثم قال :

« من أغرب ما في القدس امتزاج المسلمين مع النصارى على وجه غريب بحيث لم تؤثر فيهم الطريقة التي اتخذها المستبدون في تمشية أمرهم ، وان هلك الحرث والنسل . وقد رأى بعض الباحثين أن هذا أمر دبره صلاح الدين الأيوبي برأيه الثاقب ، منعاً لما حدث من قبل بسبب سوء سياسة العُبَيْديين الذين كانوا بمصر ، تغمده الله برضوانه » .

« خذوا على نفسكم عهداً بأن لا تؤخروا جواب مكتوب لأحد ، وخذوا العهد على من كان على شاكلتكم بذلك ، فان في ذلك فوائد جمة والمكتوب يسوغ أن لا يزيد على خمسة أسطر . (٤ شوال سنة ١٣٢٧) »

وقال أيضاً :

« وأرجو أن لاتقصروا في كتابة نبذ تتعلق بالتربية وتدبير المنزل واصلاح العادات وما أشبه ذلك . وأؤكد عليكم في أن لاتشتغلوا بشيء من الجدل فان الجدل يبطيء عن العمل . وخذوا من عنان قلمكم لئلا يجري الى غير مدى ، والاعتدال أقرب لحصول مايبتغى . »

وذكر في رسالة أن الكتب التي يجب أن توصف :

١ – أرجوزة ابن سيده في الأدب وهي من قبيل الملح اللغوية في نمرة ١ من الادبيات المنظومة مع ديوان أبي العتاهية تزاد فيها نثراً في الآخر الصاحب وما يميل اليه من دواوين الشعر والكتب وما يتقنه من العلوم والصنائع أو ما يتجر به وما يؤثره من الاخلاق ونحو ذلك ويتيسر عمل ذلك في جدول في صفحتين أو أربع .

٢ - المجمل في اللغة في الظاهرية نسخة منه ناقصة من الطرفين .

٣ – المغرب للمطرزي .

٤ – رد ابن السيد على رد ابن العربي على شرحه لديوان المعري .

٥ – اعتاب الكتاب لابن الأبار .

٦ – عروض ابن معطي وبديعيته .

٧ – بغية المؤانس من بهجة المجالس والأصل لابن عبد البر .

٨ – قانون البلاغة لأبي طاهر محمد بن جبلة البغدادي في الظاهرية .

٩ - مختصر اصلاح المنطق .

١٠ – الأربعين السلفية وهي مرتبة على البلدان . وممن سمعها على السلفي الملك الناصر صلاح الدين يوسف ووالده نجم الدين أيوب بن شادي بقراءة القاضي سناء الملك هبة الله بن جعفر بن سناء الملك محمد بن هبة الله بن محمد الاسدي .

ينقل صورة السماع فقط . اه

وأعطاني في آخر عمره مسودة كتاب طويل كتبه الى صديقته المستشرقة الفاضلة المس بل أمينة سر حاكم العراق وهو :

حضرة الصديقة الجليلة الفاضلة الشهمة المحبوبة مس بل دام اقبالها :

أحييك بخير التحايا ، وأثني على تلك السجايا . وأذكرك بالايام المسعودة التي جمعتنا في دمشق الشام . ثم أذكر لك الداعي الى المكاتبة وهو أمران أحدهما تجديد العهد السابق والشكر على حسن ظنك بهذا المحب المخلص ، فقد ذكر لي بعض أصدقائي ترجمة ما كتبتيه في حقي في رحلتك الى سورية مما يدل على حسن الطوية .

والامر الثاني اقتضاء الوقت لذلك ، فان هذا الزمان الذي هو أغرب الازمنة مطلقاً يجب الانتباه فيه لما يلزم وعدم تضييع الفرص فانها تمرُّ مرَّ السحاب . هذا ولما كنت أعتقد أن أحسن من يخلص له العرب الودَّ هو دولة بريطانيا العظمى ، لما خبرته من الاحوال ومقتضيات الامزجة ونحو ذلك .

والمودّة لما كانت واجبة أن تكون من الطرفين ، اقتضى الامر أن يقع التفاهم بينهما ليستمر هذا الامر ، فرأيت أنه ينبغي لانكلترا العظمى أن تعتني بأمور :

١– الأمر الاول : أن تؤسس في كل بلدة كبيرة ديوانا شبيها بالرسمي لتأخذ الاخبار المتعلقة بما يحب العرب لتساعد عليه بقدر الامكان ، والذين يعينون ينبغي أن يكونوا من أعظم الناس معرفة بأمزجة العرب ممن تلقوا ذلك عن مثل حضرتك الكريمة .

٢– الأمر الثاني : أن تعتني بأمر اللغة العربية ويظهر منها السعي في نشرها كما يظهر منها ذلك في اللغة الانكليزية .

٣– الأمر الثالث : الاعتناء الزائد في المساعدة على نشر العلوم على وجه يساعد عليه الحال والزمان .

٤– الأمر الرابع : مراعاة عوائدهم وعدم الحط من كرامتهم لاختلاف العادات ، فانه قد بلغني أنه كان يقع في البصرة وبغداد وغيرهما من بعض المأمورين تساهل في ذلك ، وهذا مضر جداً لا يشعر بمضرته الا بعد أن يشتد الحال ويعسر زوال ما في النفس .

نعم ان هذا الامر دقيق يصعب القيام به كما ينبغي ، الا أن الاعتناء به ممكن . والعربي أهم شيء عنده عدم الهوان .

٥– الأمر الخامس : تسهيل أمر تجارتهم . وتسهيل أمر التجارة معهم بحيث يظهر ذلك ، وتدريجهم في ذلك على كل ماينفعهم ولا يضركم .

٦– الأمر السادس : الاعتناء بعدم مس الشعائر الدينية على وجه أقوى من الحالة السابقة . ومما يؤكد ذلك منع أمر المسكرات ونحوها وتوابع ذلك .

٧– الأمر السابع : تدريبهم على مايحتاجون اليه من أمور اقتصادية أو غيرها أي شيء كان .

واني أرى أن هذه الامور اذا تمت هكذا تكون النتيجة حسنة جداً ويشتد التلاؤم بين الفريقين ، فان العرب أقرب الناس الى شكر النعمة فان وجد من لايشكر فان في ظهور النعمة مايقمعه عن ابراز ماينويه من مغالطة الناس ، وما قلتُ ماقلت الا بعد تجربة واختبار تام .

ولولا شدة انحراف مزاجي لألفت في ذلك كتاباً مفصلا قياماً بمثل هذا الامر الجلل الا أن في هذا الامر كفاية والله الموفق .

في يوم عيد الفطر سنة ١٣٣٧ — المخلص للأمة العربية
وهو يوم الاحد ١ شوال — والدولة البريطانية العظمى
في مصر في جهة عابدين — طاهر الجزائري

حاشية — الناس الذين على فكري من جهة توافق مصلحة الأمة العربية مع مصلحة الدولة البريطانية العظمى كثيرون الا أنهم لايقدرون على اظهار فكرهم الا بعد أن يروا باعثاً على اظهاره لئلا ينسب اليهم أنهم خائنون للأمة ، فان هذه الجملة راعت الناس كثيراً ، وهي جملة اتخذها الشرقي لارهاب غيره سواء كان هو مخلصاً في نفسه أو غير مخلص ، وكفى بما وقع لنا في طرابلس الشام حين كنا بها في المدة الأخيرة (١)

---

(١) كتب اليّ الأستاذ في ٢٩ ج ١، ١٣٣٢ يقول : «... هذا وأما طرابلس فاني قصدتها على أن أقيم بها بضعة أيام فلما حللتها رأيت من أهلها من الاحتفال بي والاحتفاء فوق ما رأيته من قبل ثم رأيت منهم من الاصغاء لما أقول والاسترشاد أكثر مما رأيت في غيرها من المدن ورأيتهم متشوقين الى البقاء أكثر مما كنت نويت ليتقنوا الطريق الذي يكون أقرب لنجاحهم فوعدتهم بالعود اليهم بعد حين وبينما نحن في ذلك إذ حدث أمر مستغرب وهو أن (ع . م) أتاني يوماً وأنا في المكتبة الرفاعية فناداني بشدة فظننت أنه قد حدث له أمر إمر فذهبت اليه فشرع يهددني ويوعدني بالفاظ مبهمة وموهمة ويقول انت تذهب كل يوم الى المحافل والمدارس وتبث أشياء وصار يكررها بلهجة توهم أن ثم أمراً عظيماً فقلت له إن المخبرين لك كذبة فلم يرتدع فقلت له هذا اختراع منك ووقتي ثمين لايجب أن أضيعه معك فذهبت وذهب وهو يشير بيده أن سوف ترى . فرأيت بعض الاعيان فأخبرته بذلك فشاع الخبر في البلدة فقامت وقعدت وتهددوه وأوعدوه وكادوا يبطشون به فارتاع واعتذر لهم غير أنه قال لبعضهم ان الداعي له الى ذلك انه أتته رسالة من مصر تنبئه بأني مرسل من طرف الانكليز لأسلمهم البلاد ، فشاع قوله فاعتقدوا أن قد عرا عقله شيء لأن هذا أمر لايعقل ، وقد وصل الخبر الى سادانه الذين يتقرب اليهم فوبخوه وقالوا له أتريد أن تنفر منا من لم ينفر بعد فاضطررت الى اطالة المكث هنا لثلاثة اسباب أحدها أن لايظهر أني موهوم مما شاع الثاني أن لايظهر أعيان طرابلس أني واجد عليهم فانهم أكثروا من الاعتذار اليّ وقالوا لاتؤاخذنا بما فعل السفهاء منا الثالث أن اقوم بما وعدتهم به من بيان الطريق الذي ينبغي ان يسلك وقد افعتني هذه القضية لأنها نشطتني وزادت في همتي وقد طلبت كتباً مهمة من مصر ربما تحضر في هذا الاسبوع لننتقي لهم ماينبغي ان يطلعوا عليه ويطالعوه ا هـ » .

وذلك قبل دخول الأنوريين في الحرب بنحو شهرين ، فان بعضهم أشاع عني أني حضرت لتمهيد الامر لدولتكم العظمى . وكان مركز الاتحاديين هناك المركز الاول ولو وقع ذلك لغيري لأهلك حالاً ولم يكن له مانع ولكن أوصوهم في حقي بأن يغمضوا عينهم في المسألة رعاية لاعتقاد الجمهور بأني لا أختار شيئاً فيه خيانة الأمة . واذا وقع ما ذكرناه يقل الشعب ويضعف أمر المموهين الذين لا يهمهم الا أمر أنفسهم ، فبادروا لذلك غير مأمورين فهذا أوانه ونسأل من بيده الأمر كله التوفيق لما هو الاولى . واذا كتبت لنا جواباً فاكتبيه بعنوان الجريدة المشهورة الجزيلة الفائدة وهي جريدة الكوكب التي يدير أمرها المستشرق المشهور صديقنا كودنبري يصلنا أين كنا .

حاشية - واني أوصيكم ببعض البلاد (١) التي لا أسميها خيراً فان فيها كثيراً من الرجال المهمين الذين يعرفون قدر النعمة ويشكرونها ، ولكنهم غلبوا على أمرهم لأنهم لم يعرفوا في وقت الرخاء حتى ينتفع بهم وبرأيهم في وقت الشدة ، والبحث يجلو كل شيء فينبغي الانتباه لذلك في الحال والمستقبل وقد آن الأوان لمعرفتهم وهذا لايكون الا تدريجاً فليبادر الى ذلك فستحمدون عاقبة الامر والله الموفق . (٢)

---

(١) الغالب أنه يقصد الديار الشامية .

(٢) رأينا أن نثبت صورة هذا الكتاب لشأنه في الصفحات التالية

حضرة الصديقة الجليلة الفاضلة السيدة الهام
حسن بك دام اقبالها

أحييك بخير التحايا وأثني على نبلك السجايا
وأذكرك بالأيام السعيدة التي جمعتنا في دمشق الشام
ثم أذكرك الذي بيني وبينك المكاتبة وهو أن أجددها
تجديدا للعهد السابق والشكر على حسن ظنك
بهذا المحب المخلص فقد ذكر لي بعض أصدقائي ترجمة
ما كتبته في صحيفة في رحلتك الى سورية مما يدل على
حسن الطوية

فان هذا الوقت لذلك اقتضاء ان الامر
اذ الاسلام بحلول مطلق الازمنة غرائب هو الآن الزمان
الحكام بتردد فان الفرص تضييع وعدم لا يلزم فيما
العرب له يخلص الذي من احسن اعتقاد انه هذا
من لاخرته العظمى بريطانيا دولة هو اما
نحو ذلك و الاوربية ومقتضى الاحوال
الطرفين عن تكون ان وجهة كانت لما المودة و
الامر هذا ليستقر بينهما التام ان يقع الحرص فتقتضى
باموره تعتني ان المعظمة للحكومة ينبغي انه فرأيت
لتأخذ بالرسمي بها دين الى العرب كل البلاد ان تؤسس
بعد عليه عدا ليس العرب بجانب المتعلقة الاقطار
بالحراك يكونوا ان ينبغي والمتصرفون الامكان
من العرب بوجهة اعظم الناس معرفة
ذلك من قبل حضرة التركية

الأمر الثاني أن تعتني بأمر اللغة العربية ويظهر منها سعي
في نشرها كما يظهر منها ذلك في السعي للغة الانكليزية

الأمر الثالث أن [illegible] الدفع الى [illegible] على نشر العلوم
على وجه يناسب عقول أهليه الحال والزمان

مراعاة نحو الأمم وعدم الحط من كرامتهم
الأمر الرابع
العادات فإنه قد بلغني أنه كان يقع
من ضباط [illegible] وغيرهم بعض المعايب
في البصرة و[illegible]
وهذا مضر لا يستوعب غيرته إلا بعد أن يستمد أكدار
ويعسر زواله في النفس نعم أن هذا الأمر
ربما يصعب القيام به كما ينبغي إلا أن الاعتناء
به كثيرًا يمكن والعرب أهم شيء
عندهم عدم الهوان

الكهربائي تسهيل امر تجارتهم وتسهيل ارادتهم في
معهم بحيث يظهر ذلك وتدريبهم في ذلك على كل ما ينفعهم
ولا يضركم

درس درس
الأمر الخامس ان عندنا بعد هذا مسائل الشعائر الدينية
على وجه أقوى من الحالة السابقة - ومما يتعلق به
ذلك منع أمر العسكرية ونحوها وتوابع ذلك -
الأوربيين مع تدريبهم على ما يحتاجون اليه من امور اقتصادية
أو غيرها - اي شيء كان
وانا تركنا هذه الأمور اذا نحن هكذا -

فتكون النتيجة حسنة جدا ويشتد التلاؤم بين

الفريقين فإن العرب قد اظهروا شكرهم

النعمة فإنهم اقرب الناس الى شكر النعمة

فان وجدوا من يشكر فان في ظهور النعمة

بالنعمة عن أضرار ما يشوبه من مغالطة

الناس وما قلته ما قلته الا بعد تجربة

[illegible] مراجعي لا أعف في ذلك

واختبار تام [illegible] فيما يتعلق هذا الأمر الجليل الى ان [illegible]

المخلص للأمة العربية

والدولة البريطانية

[illegible]

[illegible]

١٣٣٤

في [illegible] شعبان [illegible] الفطر

وهو يوم [illegible] شوال

[illegible]

[illegible]

[illegible] عابدين

حاسبه
فكري من جهة توافق
الناس الذين على فكري في مصلحة الدولة
مصلحة الأمة العربية في
يحيط نية البعض كثيرين الا انهم لا
يقدرون على اظهار فكرهم الا بعد ان يرو
باعتناء [illegible] اليوم انهم
خائنون للأمة فان هذه الجملة راعت
الناس كثيرا وهي جملة اخذها الشرقي
لارهاب غيره سواء كان مخلصا في نفسه
او غير مخلص وكفى بما وقع لنا في طرابلس الشام
حين كنا بها مع الدولة الاخيرة وذلك قبل ظهور

الا ندريب في ... بنحو تهريب فان بعضهم
اشار هنى ان حصلت تهيئة الامر لدولتكم
رسمي وكان مركز الاجادي هناك المركز
... ولو وقع ذلك لغيري لا هلك حاله
ولم يكن له مانع ولكن اوصيكم في حقي
بان يجتهدوا عليهم في المسالة رعاية
لاعتقاد الجمهور باني لا اختار سببا
فيه خيانة للامير
واذا وقع ما ذكرناه يقل الشغب ويضعف امر المتحيز
الذين لهم ... الا امر انفسهم
فبادروا لذلك غير ما هو سبب لهذا
... ...
ولو ان ... بيد الامر ... التوضيح لما
هو الاولى

وإذا كتب لنا أحبابنا كتبه بعنوان جريدة

المشهورة الجريدة الفاتنة - وهي جريدة

الكوكب الدري بدير أمرها المستشرق

المشهور صديقنا كوردزي

يصلنا الى كتاب

وإني أوصيكم ببعض البنات حاشية ذلك الى (الله) أتعيمهن خيراً

فإن فيهن كثيراً من رجال المهديين الذين يعرفون

قدر النعمة ويشكرونها ولكنهم غلبوا على أمرهم

لأنهم لم يعرفوا في وقت الرخاء حتى ينتفع بهم

ويرابهم في وقت الشدة - والبحث يجلو

كل شيء فينبغي الإشارة لذلك في الحال والمستقبل

وقد آن الأوان ~~لمثل ذلك~~ لعرفانهم -

وصلاة الولية الى نرجعها فليبادر

الى ذلك فستحمدون عاقبته

كنوز الاجداد

ابن المقفع

(–١٤٢ أو ١٤٣ هـ)

هو عبد الله بن المقفع . كان اسمه قبل الاسلام روزبة ، واسم والده المبارك ويكنى أبا عمرو ، دعي أبوه بابن المقفع لأنه مدّ يده فيما قبل الى أموال السلطان ، فضربه الحجاج بن يوسف ضرباً مبرّحاً حتى تقفعت يده أي تشنجت . ولد عبد الله على الأغلب في مدينة جور على عشرين فرسخاً من شيراز . ولم تعلم سنة ولادته ويحتمل أنها كانت في عشر التسعين . وتثقف ثقافة فارسية مجوسية في بيته ، ثم انتقل به أبوه الى البصرة ، وأخذ الفصاحة عن أبي جاموس ثور بن يزيد الاعرابي وحرص المبارك على تأديب ولده وكان يجمع له العلماء فأخذ عنهم ، وبعد أن أحكم أصول الاسلام وقع في نفسه أن يدين به فأسلم وحسن اسلامه .

وتخرج بالكتابة في دواوين بعض الأمراء ، وكانوا ضموه الى جملتهم ليتولى كتابة أسرارهم ، فجاء بذكائه فرداً في صناعته ، وكذلك كان في أخلاقه ، وصحة عهده وكبر نفسه ، يذكرون له من ذلك صفات قلما اتفقت لأحد من معاصريه ، وهذا مما دعا عظماء الملة الى الاعجاب به . وكان اذا أراد الشعر صنعه وقال عن نفسه « الذي أرضاه لا يجيئني والذي يجيئني لا أرضاه » ،

ومما روي له :

دليلك ان الفقر خير من الغنى ... وان القليل المال خير من المثري
لقاؤك انساناً عصى الله للغنى ... ولم تر انساناً عصى الله للفقر

وروى له أبو تمام في الحماسة ثلاثة أبيات يرثي بها يحيى بن زياد وقيل ابن أبي العوجاء :

وزئنا أبا عمرو ولا حيّ مثله فلله ريب الحادثات بمن وقع

فان تك قد فارقتنا وتركتنا ذوي خلة ما في سداد لها طمع

لقد جرّ نفعاً فقدنا لك أننا أمِنا على كل الرزايا من الجزع

وهو في البيان والكتابة آية من الآيات ؛ ترجم كثيراً عن الفهلوية ومما نقل كتاب « كليلة ودمنة » و « خداينامه » و « آيين نامه » و « مزدك » و « التاج » وكتاب « الكيكيين » في سير ملوك الفرس ، لم ينته الينا منها الا كليلة ودمنة (١) ، ومن تآليفه « الادب الصغير » و « الادب الكبير » و « اليتيمة » وهذه من الرسائل المفردات اللواتي لا نظير لها ولا أشباه ، وقد ظفرنا له برسائل صغيرة ومن أهمها رسالة الصحابة ويتيمة ثانية نشرناها في « رسائل البلغاء » وترجمنا له في كتابنا « أمراء البيان » ترجمة حافلة .

لم يعرف لمتقدم ولا لمتأخر أن نقل الى اللسان العربي شيئاً في الأدب والعلم لا تحسّ فيه أثر اللغة المنقول عنها الا ابن المقفع ، بذّ البلغاء في الترجمة والتأليف ، وقيل ان كتاب كليلة مترجم والمعقول أن أكثره تأليف وبعضه محتذى عن الفارسية القديمة . وسر تفرده ببلاغته ابتعاده عن الوحشي من الكلام وتعلقه بما سهل من الالفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة . قال : البلاغه اذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها . وقد سئل ما البلاغة فقال : اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الاشارة ، ومنها ما كاد يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً ، ومنها ما يكون ابتداءً ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون في الحديث ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون خطباً ، ومنها ما يكون رسائل ، فعامة هذه الابواب الوحي فيها والاشارة الى المعنى ، والايجاز هو البلاغة .

(١) وفي كتاب رسل الملوك لابن الفراء الذي حققه الاستاذ صلاح الدين المنجد قطعة من كتاب « خداينامه » .

راجت كتب ابن المقفع في الحكم والاصلاح أي رواج ، والسبب في رواج كليلة ودمنة أن الخاصة والعامة تشترك في تقديره قدره والانتفاع به ، وقد وضع قواعد كان أكثرها من بنات أفكاره مباشرة مثل قوله : انظر في حال من تريده لاخائك فان كان من اخوان الدين فليكن فقيهاً ليس بمراءٍ ولا حريص ، وان كان من اخوان الدنيا فليكن حراً ليس بجاهل ولا كذاب ولا شرير ولا مشنوع ، فان الجاهل أهل لأن يهرب منه ابواه ، والكذاب لايكون اخاً صادقاً ، لأن الكذب الذي يجري على لسانه انما هو من فضل كذب قلبه ، وانما سمي الصديق من الصدق ، وقد يُتهم صدق القلب وان صدق اللسان ، فكيف اذا ظهر الكذب على اللسان ، وان الشرير يكسبك العدو ولا حاجة لك في صداقة تجلب العداوة وان المشنوع شائع نفسه .

وكان ولوعه بالاسلام وحكمته عدل ولوعه بالعرب وعظمتهم وقد سئل عن الأمم المشهورة لعهده ، فأعطاها قسطها من الوصف الحق وقال في العرب : ان العرب جاهليتهم واسلامهم حكمت على غير مثال مُثِّل لها وآثار أثرت : أصحاب ابل وغنم وسكان شعر وأدم ، يجود احدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسِّن ماشاء فيَحْسُن ، ويقبح ماشاء فيقبح ، أدبتهم انفسهم ، ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ، فلم يزل حباء الله فيهم ، وحباؤهم في أنفسهم ، حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم اشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر ، على الخير فيهم ولهم . فقال : « ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » فمن وضع حقهم خسر ، ومن انكر فضلهم خصم . اه . ومن تأدب بأدب امة احبها ، ومن اندمج في جنس ربما كان قومه الجدد أحب الى قلبه من أهل جيله آنفاً ، شأنه في ذلك شأن من يفاضل بماله المكسوب

اكثر من ماله الموهوب ، لأن مكسوبه أتاه بكده وموهوبه أتاه بلا عناء كبير .

ويحق ما قال محمد بن سلام في ابن المقفع : سمعت مشايخنا يقولون لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا اجمع ، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع . وقد قال فيه من ترجموا له انه لم يبق في الاسلام من أهل فارس شريف يذكر الا أن يكون عبد الله بن المقفع والفضل بن سهل . وله في باب الكرم حكايات بذّ فيها أجواد العرب والعجم ، وذكر أصحاب المحاضرات أنه كان من عشاق الطرب والجمال يجتمع وبعض أصحابه الى القينات ويطرب ويفضل عليهن ويتلطف ، وكان يجري على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة مابين خمسمائة درهم الى المين في كل شهر ، وله في باب المكارم أمور عظيمة . قيل انه قد أفاد مالاً لما كان يكتب لابن هبيرة على كرمان ، والمعقول أن يكون أبوه من المموّلين .

ومن حكمه وهو مما عمل به : لاعقل لمن أغفله عن آخرته مايجده من لذة دنياه ، وليس من العقل أن يحرمه حظه من الدنيا بصَرَّه بزوالها وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على نفسه أن لايشغله شغل عن أربع ساعات : ساعة يرفع بها حاجته الى ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضي فيها الى اخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه في أمره ، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحلُّ ويَجْمُل . فان هذه الساعات عون على الساعات الأخيرة وان استجمام القلوب وتودعها زيادة قوة لها وفضل بلغة ، وعلى العاقل أن لايكون راغباً الا في ثلاث خصال : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة في غير محرم .

ومن حكمه في رغبات الذواقين : « اعلم ان من أوقع الامور في الدين وأنهكها للجسد وأتلفها للمال وأضرها بالعقل وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار الغرام بالنساء . ومن البلاء على المغرم بهن انه لاينفك

بأجمع ماعنده وتطمح عيناه الى ماليس عنده منهن ، وانما النساء اشباه وما يرى في العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطل وخدعة ، بل ما يرغب عنه الراغب مما عنده أفضل مما تتوق اليه نفسه ، وانما المترغب عما في رحله منهن الى ما في رحال الناس كالمترغب عن طعام بيته الى ما في بيوت الناس ، بل النساء أشبه من الطعام بالطعام ، وما في رحال الناس من الاطعمة أشد تفاضلاً وتفاوتاً مما في رحالهم من النساء .

« ومن العجيب أن الرجل الذي لابأس في لبه ، يرى المرأة من بعيد متلففة في ثيابها ، فيصور لها في قلبه الحسن والجمال ، حتى تعلق بها نفسه ، من غير رؤية ولا خبر مخبر ، ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح وأدم الدمامة ، فلا يعظه ذلك عن أمثالها ، ولا يزال مشغوفاً بما لم يذق حتى لولم يبق في الأرض غير امرأة واحدة لظن أن لها شأناً غير شأن ما ذاقه ، وهذا هو الحمق والشقاء ومن لم يحم نفسه ويَظْلِفها ويحلأها عن الطعام والشراب والنساء في بعض ساعات شهوته وقدرته كان أيسر مايصيبه من وبال أمره انقطاع تلك اللذات عنه ، بخمود نار شهوته ، وضعف عوامل جسده ، وقلَّ من نجد الا مخادعاً لنفسه في أمر جسده عند الطعام والشراب والحِمْيَة والداء ، وفي أمر مروءته عند الأهواء والشهوات ، وفي أمر دينه عند الريبة والشبهة والطمع » .

وقال : « إياك ومشاورة النساء فان رأيهن الى أفن ، وعزمهن الى وَهْن ، واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك اياهن ، فان شدة الحجاب خير لك من الارتياب ، وليس خروجهن بأشد من دخول من لاتثق به عليهن ، فان استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل ، ولا تملكن امرأة من الأمر ما جاوز نفسها ، فان ذلك أنعم لحالها ، وأرضى لبالها ، وأدوم لجمالها ، وانما المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة ، فلا تعدُ بكرامتها نفسها ، ولا تُعطها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الخلوة مع النساء

فيمللنك وتملهن ، واستبق من نفسك بقية ، فان امساكك عنهن وهن يُردنك باقتدار ، خير من أن يهجمن عليك على انكسار ، واياك والتغاير في غير موضع غيرة ، فان ذلك يدعو الصحيحة منهن الى السقم ،

وقال : « اني مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما أعظمه عندي صغر الدنيا في عينه ، كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ، ولا يُكثر اذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان فرجه فلا تدعوه اليه مؤونة ، ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يقدم الا على ثقة أو منفعة . وكان أكثر دهره صامتاً ، فاذا قال بذ القائلين ، وكان يرى متضعفاً مستضعفاً فاذا جد الجد فهو الليث عادياً ، وكان لايدخل في دعوى ولايشترك في مِراء ، ولا يُدلي بحجة ، حتى يجد قاضياً فَهِماً وشهوداً عدولاً ، وكان لايلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره ، وكان لا يشكو وجعاً الا الى من يرجو عنده البرء ، ولا يصحب الا من يرجو عنده النصيحة ، وكان لايتبرم ولا يتسخط ولا يتشهي ولايتشكى ، ولا ينتقم من العدو ولا يغفل عن الولي ، ولا يخص نفسه دون اخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته ، فعليك بهذه الأخلاق ان أطقت ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع وبالله التوفيق » .

وقال وأبدع : « واعلم أن حسن الكلام لا يتم إلا بحسن العمل ، وأن المريض الذي قد علم دواء مرضه ان لم يتداوَ به لم يُغن علمه به شيئاً ، ولم يجد لدائه راحة ولا خفة ، فاستعمل رأيك ولا تحزن لقلة المال ، فان الرجل ذا المروءة قد يكرم على غير مال ، كالأسد الذي يُهاب وان كان رابضاً ، والغني الذي لامروءة له يُهان وان كان كثير المال ، كالكلب لا يُحفل به وان طُوق وخُلخل بالذهب ، فلا تكبرنّ عليك غربتك فان العاقل لا غربة له ، كالأسد الذي لا ينقلب الا معه قوته ، فلتحسن تعهدك لنفسك ، فانك اذا فعلت ذلك جاء الخير بطلبك

كما يطلب الماء انحداره ، وانما جعل الفضل للحازم البصير ، واما الكسلان المتردد فان الفضل لا يصحبه ، كما أن المرأة الشابة لا تطيب لها صحبة الشيخ الهرم ، وقد قيل في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء : ظل الغمامة في الصيف ، وخلة الأشرار ، والبناء على غير أساس ، والنبأ الكاذب ، والمال الكثير ، فالعاقل لايحزن لقلته ولكن ماله وعقله ما قدم من صالح عمله ، فهو واثق بأنه لا يسلب ما عمل ، ولا يؤاخذ بشيء لم يعمله ، وهو خليق ان لا يغفل عن أمر آخرته ، فان الموت لا يأتي الا بغتة ليس له وقت معين » اه .

ومن رسالته في الصحابة صحابة أمير المؤمنين وهي أشبه بقانون حوى الأنظمة اللازمة لسلامة الملك : « ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين وغيرهما من الأمصار والنواحي اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها أمراً عظيماً في الدماء والفروج والأموال ، فيستحل الدم والفرج بالحيرة وهما يحرمان بالكوفة ، ويكون مثل ذلك من الاختلاف في جوف الكوفة ، فيستحل من ناحية منها ما يحرم في ناحية أخرى ، غير أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمهم ، يقضي به قضاة جائز أمرهم وحكمهم ، مع أنه ليس ممن ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق الا قد لجّ بهم العجب بما في أيديهم ، والاستخفاف بمن سواهم ، فأقحمهم ذلك في الامور التي يَشْنُع بها من سمعها من ذوي الألباب . أما من يدعي لزوم السنة منهم فيجعل ماليس له سنةٌ سنةً ، حتى يبلغ به ذلك الى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حجة على الأمر الذي يزعم أنه سنة ، واذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول هُريق فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أئمة الهدى من بعده . واذا قيل له أي دم سفك على هذه السنة التي تزعمون ؟ قالوا : فعل ذلك عبد الملك بن مروان او أمير من بعض أولئك الأمراء ، وأما من يأخذ بالرأي فيبلغ به الاعتزام على رأيه أن يقول

في الرأي الجسيم من أمر المسلمين قولاً لا يوافقه عليه أحد من المسلمين ، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وامضائه الحكم عليه ، وهو مقر أنه رأي لايحتج بكتاب ولا سنة . فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسيَر المختلفة ، فترفع اليه في كتاب ويرفع معها مايحتج به كل قوم من سنة أو قياس ، ثم نظر أمير المؤمنين في ذلك وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله ويَعْزِمُ له عليه وينهى عن القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتاباً جامعاً رجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكماً واحداً صواباً ، ورجونا أن يكون اجتماع السير قربة لاجماع الأمر برأي أمير المؤمنين وعلى لسانه ، ثم يكون ذلك من أمام آخر ، آخر الدهر ان شاء الله » .

وقال أيضاً في هذه الرسالة : « وان امر هذه الصحابة قد كان فيه أعاجيب دخلت فيها مظالم . أما العجب فقد سمعنا من الناس من يقول ما رأينا أعجوبة قط أعجب من هذه الصحابة ممن لا ينتهي الى أدب ذي نباهة ولا حسب معروف ، ثم هو مسخوط الرأي مشهور بالفجور في أهل مصره ، قد غبر عامة دهره صانعاً بيده ، ولا يمتد مع ذلك ببلاء ولا غَناء ، الا أنه مكنه من الأمر صاغ ، فانتهى الى حيث أحب ، فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والانصار ، وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل بيوتات العرب ، ويُجْرى عليه من الرزق الضعف مما يجري على كثير من بني هاشم وغيرهم من سروات قريش ، ويُخرج له من المعونة على نحو ذلك ، لم يضعه بهذا الموضع رعاية رحم ، ولا فقه في دين ، ولا بلاء في مجاهدة عدو معروفة ماضية شائعة قديمة ولا غناءٌ حديث ولا حاجة اليه في شيء من الاشياء ، ولا عدة يستعد بها ، وليس بفارس ولا خطيب ولا علاّمة الا انه خدم كاتباً أو حاجباً ، فأخبره أن الدين لا يقوم الا به حتى كتب كيف شاء ، ودخل حيث شاء . »

لاجرم ان الباحث المدقق يدرك أن ابن المقفع فطر على حرية الرأي وعلى الصدق في القول والعمل وعلى التناهي في المروءة ، وكان كل

أولئك السبب في قتله ، ذلك أن أمير المؤمنين المنصور لمّا خالف عليه عبد الله بن علي وادّعى الخلافة لنفسه همّ المنصور بقتله ، فانهزم عبد الله وقصد أخويه سليمان وعيسى في البصرة ، وكاتب سليمان وعيسى أبا جعفر أن يؤمنه ، وكان ابن المقفع يكتب لعيسى بن علي فأمره عيسى بعمل نسخة الأمان فعملها ووكدها ، واحترس من كل تأويل يقع عليه فيها ، فأنكر المنصور هذه الصيغة الشديدة في الأمان ، وعهد بقتله إلى سفيان ابن معاوية وكان يضطغن على ابن المقفع أشياء منها أنه كان يعبث به فيما قيل ، وقيل ان المنصور كتب لعبد الله بن علي عمه سبعين أماناً كلها يردها عبد الله بن المقفع ويقول له : هذا ينتقض عليك ويبطل من مكان كذا وكذا ، فلما ضجر المنصور كتب الى عامله على البصرة فطلب ابن المقفع فخنق نفسه . وقال بعضهم انه شرب سماً ، فكانت أمانة ابن المقفع لمخدومه وصدقه وحريته مما أورده حتفه ، فمات ميتة شريفة كما عاش حياة شريفة .

وقد نظم أبو الغول الأسدي قصيدة طويلة يعير فيها عيسى بن علي لأنه لم يُجِر ابن المقفع قال :

لعمري لئن أوفى بجار أجاره ... لقد غرّ عيسى جاره ابن المقفع
فلو بابن حرب عاذ أو بابن عامر ... لما اغتيل عبد الله في شر مضجع
ولكنّ عبد الله ألجأ ظهره ... الى رخمات بالنبيط وأضبُع
دعا دعوة عيسى وهم يسحبونه ... بلحيته جرّ الحوار المفزع
فما كنت عِدلاً للسموأل اذ بدا ... بواحدة الخلاف بيض وأدرع
ولا مثل جار ابن المهلب اذ نما ... به جاره في شاهق متمنع
أولئك لم تقعد بهم أمهاتهم ... ولم يُسلموا الأحرار أسوأ مصرع
تساموا به حتى اذا قيل قد علا ... مع النجم خلوه وقالوا له قَع
اذا أنت لم تغضب لجار أجرته ... فدونك ثوبي حيضة فتقنع

وبعد فان ابن المقفع في كل حالاته مجموعة من الكمال المطلق ، اذا أنعمت النظر في حياته لا تدري من أي شيء تعجب فيه ، أمن علمه أم من أدبه أم من أخلاقه . ولولا أنه الغاية فيها ، ما كُتب لكتبه هذا الموقع من القلوب على الأيام . ومهما بلغ الكلام من الفصاحة والبلاغة فالقوالب وحدها لا تفيد كل الفائدة ان لم تحمل معاني جديدة وآراء نافعة ومذاهب في الكلام لا عهد للناس بها ، ونحن لا نحيل من يود الانتفاع بأدب ابن المقفع الا على الأدب الصغير والأدب الكبير واليتيمة والصحابة وهي من تآليفه التي لم ينقل فيها عن غيره ليتجلى له أنه فرد الدهر ودرة الأيام . وكل ماخص به ابن المقفع من بيان ما كان مما يستغرب حقيقة لو لم يطبق على نفسه مادعا اليه من الاخلاق فهو في علمه وعمله سواء وغاية ، لا يخدع ولا يكذب ولا يموّه ولا يبخل ، ويعمل الصالحات من دون غرض يتوقعه ، ويدعو الى الاصلاح ولا غاية له الا رفع شأن جماعة الاسلام . هو روح ندر جداً ظهور مثله في القرون الطويلة ، وصاحب خطة رشيدة ماحاد عنها قيد أنملة ، وما أغرم الا بنفع الناس .

(٢)

القاسم بن سلام

أبو عبيد

(١٥٤ — ٢٢٤ هـ)

ادخل الاسلام في حظيرته أذكياء من أجيال الناس ، وأهل الملل والأديان القديمة ، تمثلوا تعاليمه وخدموه أجلّ خدمة . وكان للموالي أثر عظيم في نقل الشريعة وبثها ، حتى جاء زمان وعدد الموالي القائمين على بث العلم أكثر ممن كانوا من أصول عربية لا تشوبها شائبة العجمة .

ومن هؤلاء الأعلام أبو عبيد القاسم بن سلام ، كان والده مملوكاً رومياً لرجل من هراة من عمل خراسان ونشأ ابنه نشأة اسلامية عربية . وكأن أباه شعر بذكاء ابنه فقال يوماً برطانته العجمية لمعلم الكتاب الذي يتعلم فيه ابنه مع ابن مولاه : « علمي القاسم فانها كيّسة » . ونبغ قاسم وعُرف في خراسان فضله ، فعهد اليه بعض الخاصة بتأديب بنيهم ، على عادة العِلْيَة من الناس في تلك الأيام ، يدفعون الى العلماء أولادهم ليثقفوهم ويهذبوهم . ونزل طاهر بن الحسين شيخ قواد المأمون بمَرْوَ حين مضى الى خراسان ، فطلب رجلاً يحدثه ليلة ، فقيل له ما ههنا الا رجل مؤدب ، فأدخل عليه أبو عبيد القاسم بن سلاّم ؛ فوجده أعلم الناس بأيام الناس والنحو واللغة والفقه فقال له : من الظلم تركك أنت بهذا البلد . فدفع اليه ألف دينار وقال له : أنا متوجه الى خراسان الى حرب ، وليس أحب استصحابك شفقةً عليك ، فأنفق هذا الى أن أعود اليك . ولما عاد حمله معه الى سُرَّ مَنْ رأى ودخل بغداد .

وظلّ أبو عبيد على ولائه لآل طاهر بن الحسين ، وأعلى ابنه عبد الله ابن طاهر منزلته ، وهو من أعاظم قواد الخليفة المأمون أيضاً . وكان

ابو عبيد اذا ألف كتاباً أهداه الى عبد الله بن طاهر ، فيحمل اليه مالاً خطيراً استحساناً لذلك ، ولما أنجز كتابه « الغريب المصنف » وكان صرف في تأليفه ثلاثين سنة عرضه على عبد الله بن طاهر فاستحسنه وقال : « ان عقلاً بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لحقيق ألا يُحوَج الى طلب المعاش » فأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر أي ألف دينار وعمل كتابه « غريب الحديث » للمأمون ولا ندري بما كافأه عليه ، ان كان أحد عماله يجري عليه في كل شهر ألف دينار .

أدّب أبو عبيد في بغداد غلاماً في شارع بشر وبشير ، واتصل بعدُ بثابت بن نصر بن مالك الخزاعي يؤدب ولده ، وأدب أيضاً أبناء هرثمة ، ولعله هرثمة بن أعين أعظم قواد المأمون ، ولما ولي ثابت بن نصر الثغورَ ودامت ولايته ثماني عشرة سنة ، كان أبو عبيد يتولى قضاء طرسوس طول تلك المدة ، وحسن أثره فيها كما حسن أثر صديقه واليها .

وذكروا أن أبا عبيد لما كان في أسباب عبد الله بن طاهر بعث أبو دُلَف القاسم بن عيسى العجلي أحد أئمة البلاغة من الأمراء ، يستهديه أبا عبيد شهرين ، فأنفذه اليه ، فأقام شهرين في الكرج وهي مدينة بين همذان وأصفهان ، مَصّرها أبو دُلف وجعلها وطنه . ولما أراد الانصراف وصله أبو دُلَف بثلاثين ألف درهم فلم يقبلها . وقال : أنا في جنبة رجل لم يحوجني الى صلة غيره . فلما عاد الى ابن طاهر وصله بثلاثين ألف دينار فقال : أيها الأمير قد قبلتها وقد أغنيتني بمعروفك وبرّك ، فرأيت أن أشتري بها سلاحاً وخيلاً وأوجه بها الى الثغر ليكون الثواب متوفراً على الأمير ، ففعل .

وهكذا عاش أبو عبيد بين أشراف القادة والسادة ، ويعرف لهم مقامهم ويعرفون له قدره ، يتهادونه ويبرونه ، ويرغبون في الأخذ عنه ، ويعهدون اليه في تخريج أبنائهم . أما هو فلم تبطره الدنيا ، ولم تخلب لبه المظاهر ، واشتهر بورعه وعفته وكرم نفسه وجوده ، حتى قيل فيه

لو كان أبو عبيد في بني اسرائيل لكان عجباً . قالوا انه كان يقسم الليل اثلاثاً ، فيصلي ثلثه ، وينام ثلثه ، ويصنف ثلثه . وكان فاضلاً في دينه وعلمه ربانياً قانتاً مفنناً في أصناف علوم الاسلام ، صحيح النقل لم يطعن عليه في شيء من أمره ودينه .

وكانت فيه عزة نفس العلماء مائلة المثول كله ، فقد امتنع من حضور مجلس بعض الامراء ليأخذوا عنه فقال : العلم يُقصد . فغضب صاحب الدار من قوله فقطع عنه الرزق وكتب الى صاحبه عبد الله بن طاهر بالخبر فكتب اليه عبد الله : قد صدق أبو عبيد في قوله ، وقد أضعفت له الرزق من أجل فعله ، فأعطه فائته وأدرّ عليه بعد ذلك ما يستحقه .

شهد العلماء بعلم أبي عبيد ، ومنهم اسحق بن راهويه قال : يحب الله الحق ، أبو عبيد أعلم مني ومن أحمد بن حنبل ، ومن محمد بن ادريس الشافعي . وقال بعضهم انه لم يكن عنده ذاك البيان ، الا انه كان اذا وضع وضع . وقال ابراهيم بن الحربي : رأيت ثلاثة تعجز النساء أن تلد مثلهم . رأيت أبا عبيد ما أمثله الا بجبل نُفخ فيه روح ، ورأيت بشر بن الحرث فما أشبهه الا برجل عُجن من قرنه الى قدمه عقلاً ، ورأيت أحمد بن حنبل فرأيت كأن الله قد جمع له علوم الأولين من كل صنف ، يقول ما يشاء ويمسك ما يشاء .

وسئل يحيي بن معين صاحب الجرح والتعديل — وهو الذي قال فيه أحمد بن حنبل كل حديث لا يعرفه يحيي بن معين فليس هو بحديث — عن الكتابة عن ابي عبيد والسماع عنه ، فتبسم وقال : مثلي يُسأل عن أبي عبيد؟ أبو عبيد يسأل عن الناس . لقد كنت عند الأصمعي يوماً اذ أقبل أبو عبيد . فنفذ اليه بصره حتى اقترب منه ، فقال : أترون هذا المقبل ؟ قالوا : نعم . قال : لن تضيع الدنيا ، أو لن يضيع الناس ، ما حيي هذا المقبل . وقال عبد الله بن طاهر : كان الناس أربعة : ابن عباس في زمانه ، والشعبي في زمانه ، والقاسم بن معن في زمانه ،

وأبو عبيد القاسم بن سلام في زمانه ، وذكره الجاحظ في المعلمين وقال :
كان مؤدباً لم يكتب الناس أصح من كتبه ولا أكثر فائدة .

غلب على أبي عبيد جمع المنفرق في الكتب وتفسيره ، وذكر الأسانيد ،
وصنف المسند على حدته ، وأحاديث كل رجل من الصحابة والتابعين على
حدته ، وأجاد تصنيفه ورغب فيه أهل الحديث والفقه واللغة ، لاجتماع
ما يحتاجون اليه فيه . قالوا ان الناس رووا عن أبي عبيد بضعة وعشرين
كتاباً في القرآن والفقه وغريب الحديث والغريب المصنف والأمثال ،
ومعاني الشعر ، وكتابته كتابة أرقى المؤلفين في القرن الثاني والثالث .
والغريب المصنف زعموا أنه أجل كتبه ، وقالوا ان كتابه « الأموال »
هو أحسن ما صنف في الفقه وأجوده . وكتاب الاموال صورة ناطقة
بعلمه وتحقيقه ، يرجح من الآراء ما هو أولى بالترجيح ، ويبين عن رأيه
في أحكام الأموال وصنوفها ، آخذاً بالأقوال الصحيحة المأثورة عن صاحب
الشرع ، ومشيراً الى عمل الصحابة والتابعين من بعده ، والى ما استخرجه
الحكام والملوك من هذه الأموال بعد ذلك وقد أورد كثيراً من الكتب
والمعاهدات والعقود والأقطاع وذكر فصولاً في الصدقات والغنائم والزكوات
وثمار الأرض وما يجبى منها وما لا يجبى والمعادن والركاز والمكاييل
والمكوس والعشور ومخارج الصدقة وسبيلها التي توضع فيها والوقف ،
وفي كل أولئك ينجلي للقارىء نور العقل وبعد النظر ووفرة العلم .

❧

(٣)

علي بن ربن

(– ٢٤٧)

في المؤلفين من لم نعرفهم الا بصفحات قليلة أبقت عليها الأيام من ألوف كتبوها ومنهم علي بن رَبَّن – والرَّبن والربين والراب أسماء لمقدمي شريعة اليهود ، ومعنى ربن المعلم العظيم – وربن اسم أبي علي كان ربن اليهود .

ولد علي في طبرستان وعرف في صباه وكهولته باتساعه في الفلسفة والطب والطبيعيات وعنه أخذ محمد بن زكريا الرازي في الريّ لما خرج من طبرستان واستفاد منه علماً كثيراً . وأخذ هو عن حنين بن اسحق لما وافى العراق وتصرّف لولاة طبرستان وكتب المازيار بن قارن المتغلب على الجبال وغيرها . ولما وقعت الفتنة في بلاده خرج الى الريّ ومنها الى العراق ، وكانت سبقته اليها شهرته ، واتصل بالخليفة المعتصم وأسلم على يده فقربه فأصبح من أطباء البيت العباسي ، ثم أدخله المتوكل في جملة ندمائه .

ألف ابن ربن كثيراً في الطب والصحة وله كتاب فردوس الحكمة وهو مَعْلَمة طبية ، بها سلكه أبو حيان التوحيدي في سلك نوابغ المؤلفين ، وضرب به المثل بالاجادة . وله غيره في الأدب ، وكان متمكناً من الآداب العربية ،وعرفناه بكتاب له صغير أسماه « الدين والدولة » أثبت فيه النبوة اثبات العارف بالأديان الاخرى ولا سيما اليهودية والنصرانية قبل ان الخليفة المتوكل عاونه في تأليفه . وكتابه هذا دليل ناصع على

اضطلاعه بالحكمة ، وأنه انتحل الاسلام عن بصيرة بعد أن نضج في
العلوم وأخفى المشاكل بحثاً .

وقد جود الكلام في الدين والدولة على الصحابة ، وعرض لجميل سيرتهم
وعفتهم عن المال والرغبة عن الرفاهية كما جود في فضل أمية الرسول.

ومن أجمل مافيه نُقول عن الكتاب المقدس والنبوات عليها مسحة من
البلاغة أكثر من الترجمات المشهورة لعهدنا ، ولعلها منقولة من الترجمات
الضائعة من التوراة والأناجيل أو أنها كانت من ترجمته هو . وكان
يعرف لغات أخرى مع العربية .

وينبئك كتاب ابن ربن أنه من أعظم العلماء في الأديان ولو لم تبق
عليه الأيام لنسي حتى اسمه اللهم الا عند أفراد دأبهم البحث عن المفقود
والموجود من هذا التراث العربي العظيم .

مثال من كلام ابن ربن . قال في الدلائل على تصحيح الأخبار :
رأينا أمماً كثيرة العدد عظيمة القدر موصوفة بالأفهام والأحلام يشهدون
لعدة من الخبثة الكذابين بجميع ما أدلوه من الزنادقة والمجوس اما تقليداً
والفاً واما غباوةً وتحككاً واما اجباراً أو كرهاً ، كما فعل زرادشت
متنبيء المجوس فانه لم يزل يتأتى ليشتاسف الملك حتى وصل اليه ، وزرع
من وساوسه في صدره ، ثم لم يزل يختله بذكر الله والدعاء اليه ، ويفتل
في الذروة والغارب حتى فتله عن دينه ولواه الى رأيه ، ثم أظهر له
ما كان يضمره من الشرك ، وزين له نكاح الامهات والبنات ، وأكل
القذر المذر من النجاسات ، فكان الملك بعد ذلك هو الذي أكره أهل
مملكته على دينه . وفعل ماني شبيهاً بذلك ، فانه ظهر في زمان كان
الغالب فيه دينين النصرانية والمجوسية ، فاختدع النصارى بان قال لهم
انه رسول المسيح عليه السلام ، وخلب المجوس بأن وافقهم على الاصلين
فلما وجدنا من الاجماع ما هو هكذا ووجدنا منه ما هو كالاسلام علمنا
ان قبول كل اجماع فتنة ورد كل اجماع ضلالة .

ومما اثر له : الطبيب الجاهل مستحث الموت . اجتنب ثلاثة وعليك بأربعة ولا حاجة لك الى الطبيب : اجتنب الغبار والدخان والنتن وعليك بالدسم والحلوى والحمام والطيب مع الاقتصاد . ومما نقل عنه : التكلف يورث الخسارة . شر القول ما نقض بعضه بعضاً . »

لاتتألف مما وصل الينا من أخبار ابن ربن فكرة تامة للحكم عليه حكماً صحيحاً ، والغالب أنه كان رجلا أعظم مما صوره لنا من عرضوا للترجمة له وهم مع هذا قلائل .

(٤)

الجاحظ (١)

(٢٥٥)

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي ، وقيل انه كان مولى أبي القلمس عمرو بن قِلَع الكناني ثم الفقيمي . فهو كناني صليبة خالص النسب . وكان جده فزارة أسمر اللون وكان جمالاً لعمرو بن قلع . أطلق على عمرو اسم الجاحظ لنتوء عينيه ويقال له الحدقي . ولد من أبوين فقيرين في البصرة حوالي سنة ستين ومائة وتعلم الخط والقراءة في كتّاب ببلده وتلقى الفصاحة شفاهاً عن العرب في المربد واتصل بالاصمعي وأبي زيد الانصاري وأبي عبيدة مَعْمَر بن المثنّى والاخفش والنظام وصالح بن جناح . وحدث عن ثمامة بن أشرس النميري ويزيد بن هرون والسري بن عبدويه والقاضي أبي يوسف والحجاج بن محمد . وكان كل واحد من هؤلاء الاعلام فرداً في صناعته .

أحكم الجاحظ فنون الأدب والأخبار واللغة والكلام والحكمة وهو في ميعة الشباب ، واتسع عقله للاشتغال بمسائل مهمة من الدين فكان صاحب مذهب وسميت فرقته الجاحظية وهو من الطبقة السابعة من المعتزلة والغالب أنه كان يعرف الفارسية ، وكان مولعاً بالكتب حدث أبو هفان قال : لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ فانه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر .

(١) اتبعنا الطريقة التي وضعناها لهذا الكتاب في الترجمة للجاحظ ، ومن أراد التوسع في الكلام عليه وعلى ابن المقفع وابي حيان التوحيدي فليرجع الى كتابنا أمراء البيان ففيه افاضة حسنة في اخبارهم وآثارهم .

ما أحب الجاحظ أن يفوته شيء من أنواع العلوم والآداب فنظر في كل علم وأخذ عن كل من اعتقد ان عنده من المعارف ما ليس عند غيره ، ودأب الى هذا يسأل جميع الطبقات عما يهمه ويريد أن يتفهمه ، فيسترشد بآراء الحراس ويتحدث الى الحواة والجزارين والعطارين والنجارين والصيادين والأكارين والقابلات ، ويسأل الحشوة وأرباب البطالة وقد يأخذ بآراء البحريين اذا رووا له غرائب قبلها عقله أو يردها اذا كانت حديث خرافة ، ويتحدث الى كل من عنده « طرائف من الكلام ، وعجائب من الاقسام ». روى أشياء كثيرة عن الأعراب في البادية وعن العامة في المدن ، فالحكمة ضالته يلتقطها حيث وجدها . كتب في هذا يقول عن نفسه : ولم أزل أبقاك الله بالموضع الذي قد علمت ، من جمع الكتب ودراستها والنظر فيها ، ومعلوم أن طول دراستها انما هو تصفح عقول العالمين ، والعلم بأخلاق النبيين وذوي الحكمة من الماضين والباقين من جميع الأمم .

مزية الجاحظ التي تفرد بها استعماله عقله في الرأي المعروض يتناول كل ما يقع عليه الحس وتنظره العين وتتشوف اليه النفس وليس نظره فيما عانى النظر المجرد بل نظر « الفلسفة والغرائب التي صححتها التجربة وأبرزها الامتحان وكشف قناعها البرهان » فهو مجموعة تفكير ، والتفكير « مشحذة للأذهان ومنبهة لذوي الغفلة ، وتحليل لعقدة البلادة ، وسبب لاعتياد الروية ، وانفساح في الصدور ، وعزاء في النفوس ، وحلاوة تقتاتها الروح ، وثمرة تغذو العقل » . « وأكثر الناس سماعاً أكثرهم خواطر ، وأكثرهم خواطر اكثرهم تفكراً ، وأكثرهم تفكراً ، أكثرهم علماً وأكثرهم علماً أرجحهم عملاً ، كما ان اكثر البصراء رؤية للأعاجيب اكثرهم تجارب ، ولذلك صار البصير اكثر خواطر من الأعمى ، وصار البصير السميع اكثر خواطر من البصير الاصم » « فلا تذهب الى ما تريك العين ، واذهب الى ما يريك العقل ، وللأمور حكمان حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول والعقل هو الحجة » « ولعمري ان العيون لتخطيء

وان الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع الا للذهن وما الاستنابة الصحيحة الا للعقل اذ كان زماماً على الاعضاء ، وعياراً على الحواس » .

دعا الى المعاينة ودعا الى الشك وقال : « اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها تعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلّم الشك في المشكوك فيه تعلماً » وقال : « وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودةَ الحفظ لمكان الاتكال عليه ، واغفال العقل من التمييز حتى قالوا الحفظ عَذْقُ الذهن لأن مستعمل الحفظ لايكون الا مقلداً ، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه الى برد اليقين وعز الثقة والقضية الصحيحة والحكم المحمود انه متى ادام الحفظ اضر ذلك بالاستنباط ومتى أدام الاستنباط أضر ذلك بالحفظ » .

ومن أجل هذا كتب له ردّ كل خرافة قال بها المتكلمون ، أي رجال الدين ، وأصحاب علوم الدنيا ، وزيف بعض أنظارهم فهو في كل ما خطته يراعته فوق العلماء وطريقته في تأليفه « الا يصل الصدق بالكذب ولا يدخل الباطل في تضاعيف الحق ، ولا يتكثر بقول الزور ، ولا يلتمس تقوية ضعفه باللفظ الحسن ، وستر قبح كلامه بالتأليف المونق ، ولا يستعين على ايضاح الحق الا بالحق ، وعلى ايضاح الحجة الا بالحجة ، ولا يستميل الى دراسة تآليفه واقتنائها ، ويستدعي الى تفضيلها والاشادة بذكرها ، بالأشعار المولدة والأحاديث الموضوعة والأسانيد المدخولة ، وبما لا شاهد عليه الا دعوى قائله ، ولا مصدق له الا من يوثق بمعرفته » .

قال ابن الخياط : ومن قرأ كتاب عمرو الجاحظ في الرد على المشبهة وكتابه في الاخبار واثبات النبوة وكتابه في نظم القرآن علم أن له في الاسلام غناء عظيماً ، لم يكن الله عز وجل يضيعه له . ولا يُعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه وأنه حجة لمحمد على نبوته غير كتاب الجاحظ . وهذه كتبه في اثبات الرسالة وكتبه في تصحيح مجيء الأخبار مشهورة اه .

من كان يظن ان الرجل الذي يؤلف في علوم الدين والجدل والرد على المخالفين وعلى المجوس والنصارى واليهود وعلى الفرق الاسلامية وهو في أصله امام ديني وصاحب مذهب انه يؤلف في الحيوان وفي الزرع وفي الشجر والنخل والاعناب وفي كل ما يعرض له من الموضوعات في السياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والجغرافية والتاريخ الى ماعرف في عصره من أنواع العلوم ، ومن جملة ما يتقن من الفنون الطب والكيمياء والظواهر الجوية والطبيعة وعلم النفس والأخلاق والمعادن والأصباغ والتجارة وحيل اللصوص وأخبار الحلماء والمجان ، ورسائله كثيرة لا يخطر ببالك أنه يكتب فيها . سئل أبو العيناء الراوية الأخباري : ليت شعري أي شيء كان الجاحظ يحسن ؟ فقال : ليت شعري أي شيء كان الجاحظ لا يحسن . وقال المسعودي : لا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً من الجاحظ . . . وكتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان لأنه نظمها أحسن نظم ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان اذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع خرج من جدّ الى هزل ومن حكمة بليغة الى نادرة طريفة ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه . ووصفه ثابت بن قرة « انه خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين ومدره المتقدمين والمتأخرين ، ان تكلم حكى سحبان وائل ، وان ناظر ضارع النظام في الجدل ، وان جد خرج من مَسك عامر بن عبد قيس وان هزل زاد على مُزَبِّد ، حبيب القلوب ، ومَراح الأرواح ، وشيخ الأدب ، ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مثمرة ، ما نازعه منازع الا رشاه آنفاً ، ولا تعرض له الا قدم له التواضع استبقاء ، الخلفاء تعرفه ، والأمراء تصفه وتنادمه ، والعلماء تأخذ منه ، والخاصة تسلم له ، والعامة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأي والأدب ، وبين النثر والنظم ، ووطىء الرجال عقبه ، وتهادوا أدبه ، وافتخروا بالانتساب اليه ، ونجحوا بالاقتداء به ، لقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب » .

نعم « كان نسيج وحده في جميع العلوم » وقال ابن سنان الخفاجي « فكأنه في كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه ولا يحسن غيره » وقال ابن العميد « كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » .

ونقل عن جالينوس واقليمون وحنين بن اسحق وبُختيشوع وسالويه وماسرجويه وغيرهم من علماء عصره . أما أرسطو فقد أنحى عليه بما اخترعه من التخريف في الحيوان ٧ وكان شعاره « اذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للآخر شيئاً فاعلم انه ما يريد أن يفلح » وقال : « وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس وله مضرة شديدة وثمرة مرة فمن أضر ذلك قولهم : لم يدع الأول للآخر شيئاً قال : فلو ان علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة في أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته اليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلاً .

لم يضع أبو عثمان كتاباً خاصاً في الفلسفة ولكن تآليفه تنم عن طول باعه فيها وهل الفلسفة الا علم العقل . وعقل الجاحظ كان يحكّمه في كل شيء . وما قام في الاسلام عالم جمع في صدره العلوم الدينية والدنيوية مثله ، ولا من ألف هذا القدر من التآليف الممتعة ، فقد ألف ثلاثمائة وخمسين كتاباً ورسالة ، منها ما كسره على بضعة مجلدات ومنها ما كان في رسالة صغيرة ، ضاع أكثرها ولا سيما كتب الدين لأن خصومه أثاروا عليه حرباً شعواء في عصره وبعد عصره فكان من تحيلهم على طمس آثاره أن يبيدوا كتب عدو مذهبهم ، وافلت من براثنهم بعض أسفاره فكان منها كتاب الحيوان والبيان والتبيين وكتاب البخلاء الى غير ذلك من الكتب والرسائل . قال في وصف كتاب الحيوان (وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه وان كان عربياً أعرابياً ، واسلامياً جماعياً ، فقد حذق طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، واشترك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة واحساس الغريزة) وقد ألفه وهو مريض بالفالج فأبان فيه عن سعة بحثه

وتجاربه ، ولم يؤلف في بابه مثله حتى قال الحسن بن داود : فخر البصرة بأربعة كتب : كتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب الحيوان له وكتاب سيبويه وكتاب العين للخليل . أما البيان والتبيين فهو أول كتاب علم طلاب البلاغة بالعمل لا بالقواعد ، وبالنصوص والشواهد لا بالتعريفات المملة كما كان ممن جاءوا بعده .

كان الجاحظ من أعرف المؤلفين بأمزجة القراء ويعرف أن الجد مملول ولا بد من المرح والدعابة لئلا يسمج ، لذلك مزجه بهذه الافاضة لئلا يكون بما كتب شيء لا تهضمه النفوس . يرى ذلك مثلاً في كتاب البخلاء وفي كتاب التربيع والتدوير الذي كتبه في أحمد بن عبد الوهاب يعبث به ، وهو من أهم ما ألف في السخرية والتهكم تجلى فيه فن الجاحظ تجليه في كل موضوع خاص غماره وتجسمت فيه خفة روحه .

ومرح الجاحظ يتجلى في جده وهزله . سأله شخص كتاباً الى بعض أصحابه فكتب له « كتابي اليك مع من لا أعرف ولا اوجب حقه فان قضيت حقه لم أحمدك وان رددته لم أذمك » . وكتب الى آخر « كتابي اليك سألني فيه من أخافه لمن لا أعرفه فافعل في أمره ما تراه والسلام » . وفي نظر الجاحظ أن الوصاة شهادة وهو أعقل من أن يشهد الزور ويبيع دينه لدنيا غيره .

وبينا نرى الجاحظ ينقل اليك كلام العقلاء ومذاهب العلماء والحكماء يروي لك نوادر من كلام الصبيان والمجرمين من الأعراب ونوادر كثيرة من كلام المجانين وأهل المرة من الموسوسين ومن كلام أهل الغفلة والنوكى وأصحاب التكلف من الحمقى . يجعل بعضها في باب الهزل والفكاهة ويقول ولكل جنس من هذا موضع يصلح له ولا بد لمن استكده الجد من الاستراحة الى بعض الهزل وان المزاح جد اذا اجتلب ليكون علة للجد .

ومن أعجب ما كان يأتيه في العبث بأعدائه وحساده ما رواه قال : « اني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة

والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبه الى نفسي فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من اهل العلم بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعته ونصاحته . وأكثر ما يكون هذا منهم اذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه القدرة على التقديم والتأخير والحط والرفع والترهيب والترغيب ، فانهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الابل المغتلمة ، فان أمكنتهم الحيلة في اسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي ألف له فهو الذي قصدوه وارادوه. وان كان السيد المؤلف فيه الكتاب نحريراً نقاباً ونقريساً بليغاً وحاذقاً فطناً ، وأعجزتهم الحيلة سرقوا معاني ذلك الكتاب وألفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً وأهدوه الى ملك آخر ومتّوا اليه به ، وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوباً اليّ وموسوماً بي ، وربما الفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه فأترجمه باسم غيري وأحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم ، الطاعنون على الكتاب الذي كان احكم من هذا الكتاب لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليّ ، ويكتبونه بخطوطهم ، ويصيرونه اماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدبون به ويستعملون الفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ، ويروونه عني لغيرهم من طلاب ذلك الجنس ، فتثبت له به رياسة يأتم بهم قوم فيه لأنه لم يترجم باسمي ، ولا نسب الى تأليفي » ،

وما كان امتاع الجاحظ بما كتب هذا الامتاع الا لانه لا يتكلف في اختيار الفاظه ويرسل النفس على سجيتها فيما يؤلف ، فجاءت تآليفه كلها نمطاً واحداً في البلاغة والفصاحة يكتب كما يتكلم من دون تزيّد ولا تعمّل. وربما نسب قسم عظيم في جودة تآليفه الى امتلاكه ناصية الكلام واعطاء كل موضوع حقه من الألفاظ والمعاني . وكأنه كان يضع بعض الفاظ او يستعمل ما لا عهد باستعماله قبله مثل قوله « القرويون والبلديون واللغويون والمعنويون » اطلق هذا على سكان الضياع والدساكر وسكان

المدن والحواضر ، وعلى من يشتغلون بالالفاظ ويشتغلون بالمعاني . وكثيراً ما استعمل بعض الألفاظ العامية عند نقله روايات المنادمة لأن النكتة لا تملح الا اذا رويت بألفاظها . وتمييز الجاحظ بين حي الالفاظ وميتها وسهلها وعويصها سبب أول في تفوقه ببلاغته .

وملاك الأمر عنده أبداً أن يكون اللفظ سمحاً لا كزّاً ، والابتعاد عن المعاني النافهة والقوالب المستكرهة . ولطالما أوصى طلاب البلاغة ألا يعمدوا الى استعمال اللفظ الساقط السوقي ولا الوحشي الغريب لأن « الاستعانة بالغريب عجز » « الا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي » والمعول عليه في هذا الباب أن « لا يكلم العامة بكلام الخاصة ولا الخاصة بكلام العامة » .

قال : وأنا أقول في هذا قولاً وأرجو أن يكون مرضياً ولم أقل أرجو لأني أعلم فيه خللا ، ولكنني أخذت بآداب وجوه أهل دعوتي وملتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي وهم العرب . وذلك أنه قيل لصُحار العبْدي : ما يقول الرجل لصاحبه عند تذكيره أياديه واحسانه ؟ قال : أما نحن فانا نرجو أن نكون قد بلغنا من أداء ما يجب علينا مبلغاً مَرْضياً ، وهو يعلم أنه قد وفاه حقه الواجب وتفضل بما لا يجب . قال صُحار : كانوا يستحبون أن يَدَعوا للقول متنفّساً وأن يتركوا فيه فضلاً ، وأن يتجافوا عن حق ان أرادوه لم يُمنعوا منه فلذلك قلت أرجو فافهم فهّمك الله » . قال : فان رأيي في هذا الضرب من اللفظ أن أكون ما دمت في المعاني التي هي عبارتها والعادة فيها أن ألفظ بالشيء العتيد الموجود وأدع التكلف لما عسى ان لا يسلس ولا يسهل الا بعد الرياضة الطويلة .

وقال ايضاً : «ومتى شاكل أبقاك الله اللفظ معناه وكان لذلك الحال وفقاً ، ولذلك القدر لفقا ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قميناً بحسن الموقع ، وحقيقاً بانتفاع المستمع ، وجديراً ان يمنع جانبه من تأول الطاعنين ، ويحمي عرضه من اعتراض العائبين ، ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور مأهولة ، ومتى كان اللفظ ايضاً كريماً في نفسه ، متخيراً من جنسه ، وكان سليماً من الفضول بريئاً من التعقيد ، حُبب الى النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت له الأسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخف على ألسن الرواة ، وشاع في الآفاق ذكره ، وعظم في الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الرّيّض ، ومن اعاره من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً ، حبب اليه المعاني ، وأسلس له نظام اللفظ ، وكان قد اغنى المستمع عن كد التكلف ، واراح قارىء الكتاب من علاج التفهم» . وعنده ان «المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي وانما الشأن في اقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته ، وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك» .

قال في رسالة القيان يصف القينات في عصره : «وكيف تسلم القينة من الفتنة ، او يمكنها ان تكون عفيفة ، وانما تكتسب الأهواء وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وانما هي تنشأ من لدن مولدها الى اوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله ، من لهو الحديث وصنوف اللعب والاخابيث ، وبين الخلعاء والمجان ، ومن لا يُسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع الى فقه ولا دين ، ولا صيانة مروءة ، وتروي الحاذقة منهن اربعة آلاف صوت فصاعداً ، يكون الصوت فيما بين البيتين الى اربعة أبيات ، عدد ما يدخل في ذلك من الشعر ، اذا ضربت بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله الا عن غفلة ، ولا ترهيب عن عقاب ولا ترغيب في ثواب

وانما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغلمة ، ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها ، منكبة عليها تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش وانشادهم مراودة ، وهي مضطرة الى ذلك في صناعتها لأنها ان جفتها تفلتت ، وان اهملتها نقصت ، وان لم تستفد منها وقفت ، وكل واقف فالى نقصان اقرب ، وانما فرق ما بين اصحاب الصناعات وبين من لايحسنها التزيد فيها والمواظبة عليها ، فهي لو ارادت الهدى لم تعرفه ، ولو بغت العفة لم تقدر عليها ، وان ثبتت حجة ابي الهُذَيل فيما يجب على المتفكر زال عنها خاصة ، لأن فكرها وقلبها ولسانها وبدنها مشاغيل بما هي فيه ، وعلى حسب ما اجتمع عليها من ذلك في نفسها لمن بُلي بمجالستها عليه وعليها » .

وقال في رسالة النساء : « ورأيت اكثر الناس من البصراء بجوهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدمون المجدولة ، والمجدولة من النساء تكون في منزلة بين السمينة والممشوقة ولا بدّ من جودة القدّ وحسن الخرط واعتدال المنكبين واستواء الظهر ، ولا بدّ من أن تكون كاسية العظام بين الممتلئة والقضيفة ، وانما يريدون بقولهم مجدولة ، جودة العصب وقلة الاسترخاء ، وكأنها جان ، وكأنها جدل عنان ، وكأنها قضيب خيزران ، والتثني في مشيها أحسن ما فيها ، ولا يمكن ذلك للضخمة والسمينة ، وذات الفضول والزوائد ، على ان النحافة في المجدولة أعم ، وهي بهذا تحبب على السمان الضخام ، وعلى الممشوقات والقضاف ، كما يحبب هذه الاصناف على المجدولات ، ووصفوا المجدولة بالكلام المنثور فقالوا : أعلاها قضيب وأسفلها كثيب » .

وقال في عدم تغليظ حجاب النساء : ثم لم يزل الملوك والاشراف اماء تختلفن في الحوائج ويدخلن في الدواوين ونساء يجلسن للناس . . . ثم كن يبرزن للناس أحسن ما كنّ وأشد ما يتزين به فما أنكر ذلك منكر ولا عابه عائب . . . والدليل على أن النظر الى النساء كلهن ليس

بحرام ان المرأة المغنية تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك فلو كان حراماً وهي شابة لم يحلّ اذا غنت ، ولكنه أمر أفرط فيه المعتدون حد الغيرة الى سوء الخلق وضيق العطن فصار عندهم كالحق الواجب » . وقال في كتاب النساء : « ولسنا نقول ولا يقول أحد ممن يعقل أن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر ولكننا رأينا أناساً يُزرون عليهن أشد الزراية ويحتقرونهن أشد الاحتقار ويبخسونهن أكثر حقوقهن ، وان من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والاعمام الا بان ينكر حقوق الأمهات والأخوال فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن . ولولا ان أناساً يفخرون بالجَلد وقوة المُنّة وانصراف النفس عن حب النساء حتى جعلوا شدة حب الرجل لأمته وزوجته وولده دليلاً على الضعف وباباً من الخَوَر لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه في هذا الكتاب . قال : ونحن وان رأينا ان فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكثر وأظهر فليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء ان يصغر حقوق الأمهات وكذلك الاخوة والأخوات والبنون والبنات وأنا وان كنت قلت ان حق هذا أعظم فان هذه أرحم .

ومن أجمل ما وصف به قاضي البصرة قوله : كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكماً زميتاً ركيناً ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك . كان يصلي الغداة في منزله وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكي فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا تحل حبوته ، ولا يحل رجلاً على أخرى ، ولا يعتمد على احد شقيه ، حتى كأنه بناء مبني ، أو صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك حتى يقوم الى صلاة الظهر ثم يعود الى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم الى صلاة العصر ثم يرجع لمجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما

عاد الى مجلسه ، بل كثيراً ماكان يكون ذلك اذا بقي عليه شيء من قراءة العهود والشروط والوثائق ، ثم يصلي العشاء الآخرة وينصرف .

فالحق يقال لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة الى الوضوء ، ولا احتاج اليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب ، كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها ، وفي صيفها وفي شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يداً ولا عضواً ولا يشير برأسه ، وليس الا أن يتكلم ثم يوجز ويبلغ باليسير من الكلام الى المعاني الكبيرة .

« فبينا هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه ، وفي السماطين بين يديه ، سقط على أنفه ذباب فأطال المكث ، ثم تحول الى موق عينيه ، فرام الصبر على سقوطه على الموق ، وصبر على عضته ونفاذ خرطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يحرك أرنبته ، أو يغضن وجهه ، أو يذب باصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب ، وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد الى مكان لايحتمل التغافل ، أطبق جفنه الاعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض ، فدعاه ذلك الى ان يوالي بين الاطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن جفنه ، ثم عاد الى موقه بأشد من مرته الأولى ، فغمس خرطومه في مكان كان قد آذاه فيه قبل ذلك . فكان احتماله أقل ، وعجزه عن الصبر عليه في الثانية أقوى ، فحرك أجفانه ، وزاد في شدة الحركة ، وألح في فتح العين ، وفي تتابع الفتح والاطباق ، فتنحى عنه بقدر ماسكنت حركته ، ثم عاد الى موضعه ، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بداً من أن يذب عن عينه بيده ففعل ، وعيون القوم ترمقه ، وكأنهم لايرونه ، فتنحى عنه بقدر ما رد يده وسكنت حركته ، ثم عاد الى موضعه ، ثم ألجأه الى ان ذب عن وجهه بطرف كمه ، ثم ألجأه الى أن تابع ذلك ، وعلم ان فعله كله بعين من حضره من أمنائه وجلسائه ، فلما نظروا اليه قال : اشهد

ان الذباب أَلجّ من الخنفساء ، وأزهي من الغراب ، قال : وأستغفر الله فما أكثر من اعجبته نفسه فأراد الله عز وجل ان يعرفه من ضعفه ماكان عنه مستوراً ، وقد علمتم اني عند نفسي وعند الناس من أرزن الناس فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : (وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) وكان بين اللسان قليل فضول الكلام ، وكان مهيباً في اصحابه ، وكان احد من لم يطعن عليه في نفسه ، ولا في تعريض اصحابه للمنالة » .

وبعد فقد عاش الجاحظ ، اذا تدبرت كتبه ، عيش المتفائل لا المتشائم ، تطلبه الخلفاء والأمراء فيتحاماهم ويقنع منهم براتب يعيش به وعطايا تدر عليه منهم اذا وشح تآليفه باسمائهم ، سأله أحدهم مرة اذا كان له بالبصرة ضيعة فتبسم وقال : انما انا وجارية وجارية تخدمها وخادم وحمار ، أهديت كتاب الحيوان الى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار ، واهديت كتاب البيان والتبيين الى ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل الى ابراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار فانصرفت الى البصرة ومعي ضيعة لاتحتاج الى تجديد ولا الى تسميد .

كان الجاحظ كريماً لايمسك مالاً فيعسر أحياناً . وكان الى الاعتدال أقرب في جدله ومناقشاته ولذلك كانت تكتب له الغلبة على خصومه ، نال منهم وما نالوا منه وضحك من عقولهم وما استطاع قط حساده ان يضحكوا منه ، طال عمره ومرض مرضاً عضالاً فى عشر الثمانين وما انقطع عن التأليف والافادة . « فعلى كل طالب علم يريد الجمع بين البلاغة والعلم ان يقرأ بتدبر كل ماأبقته الأيام من كتب الجاحظ يرددها كل عام ليظل على صلة بالكمال المطلق من الآداب التي تصلح لكل عصر ، وتحلو مهما تقادم العهد بواضعها » .

ولا يتسع المقام لاقتباس شذرات من كتبه المطبوعة ففي المطول منها والمختصر اشياء بجدر استظهارها والرجوع اليها ، ومن هذه الرسائل والكتب « الدلائل والاعتبار » ، « المحاسن والاضداد » ، « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » ، « تفضيل النطق على الصمت » ، « فصل مابين العداوة والحسد » ، « الوكلاء » ، « الرد على النصارى » ، « طبقات المغنين » ، « ذم صناعة القواد » ، « النساء » ، « الحجاب » ، « المعاد والمعاش » ، « كتمان السر وحفظ اللسان » ، « رسالة في الجد والهزل » ، « النابتة » ، « ذم العلوم ومدحها » ، « فصول مختارة منه لعبيد الله بن حسان الخ » .

(٤)

ابن قتيبة

أبو محمد عبد الله بن مسلم

(٢٧٦)

قتيبة تصغير قِتْبة واحدة الأقتاب أي الأمعاء . فارسي الجنس عربي المولد والمنشأ ، قيل لأبيه المروزي لأنه من أهل مرو الروذ أما ابنه فقيل انه ولد في الكوفة وقيل في بغداد . وفي مدينة السلام وهي في أرقى عصورها أخذ عن علمائها فن الحديث واللغـــة والتفسير والنحو والأدب وأخبار الناس . ولم يؤثر له شعر ، ونثره طبقة عالية كنثر أقعد المؤلفين في عصره وبعده .

يُذكر ابن قتيبة مع المكثرين من التأليف والمجودين فيه . وقد أقرأ تآليفه في بغداد طول حياته فألقاها محاضرات ودروساً على المستفيدين فزادها التكرار تحقيقاً ونظراً . وكانت كتبه مرغوباً فيها في الجبل (العراق العجمي) وفي الجبال اشتهر أيام كونه قاضياً في دِينوَر من عملها حتى قيل له الدِّينوَري لطول مقامه في تلك المدينة . وكما كانت تآليفه معتمدة في الشرق كانوا يعجبون بها في الغرب ، ويدعي أهله ان كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه . وكان يطلق عليه اسم الكاتب ، والكاتب العالم « لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة ان عنده العلم والمعرفة » ووصفوه بأنه خطيب أهل السنة على ما كان الجاحظ خطيب المعتزلة وكانا متعاصرين ، ظهر ابن قتيبة وشهرة الجاحظ قد طبقت الآفاق ، وربما حاول ان يسحب عليه ذيل النسيان ، فما أخذ كل من

المتعاصرين أكثر من حقه . كان ابن قتيبة عالماً كبيراً الا ان له أنداداً يماثلونه في علماء الملة أما مرتبة الجاحظ في العلوم المختلفة فلا ينازعه فيها منازع .

كان ابن قتيبة يحسن الفارسية وكثيراً ما يقول في بعض كتبه وقرأت في كتب العجم بيد أنه لم يكتب بغير العربية ، ولم يكن له حظ من الفلسفة لأن أهل الحديث يمقتونها ويحاربونها وهو من أئمتهم . وثارت في أيامه مسألة الشعوبية أي تفضيل العجم على العرب وكتب أحباب العنصرين كتباً ورسائل فما وسع ابن قتيبة الا أن يكتب كتاباً في فضل العرب وعلومهم برأ فيه أشراف العجم من بغضة العرب وألقاها على أوباشهم وسفلتهم . وكتابه هذا كأكثر كتبه منقول عن غيره ليس له فيه غير سطور معدودة .

واشتد ابن قتيبة على مخالفيه ولا سيما المعتزلة منهم وفي كتابه « مختلف تأويل الحديث » طعن مبرّح في الجاحظ قال فيه انه أكذب الامة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل ، فتجلى حسده تجلياً ظاهراً . وقديماً كان في العلماء الحسد . وما آخذ به الجاحظ بسبب قول الشيء وضده يعد من حسنات الجاحظ ، وكيف لعمري قضى ابن قتيبة على خصمه في مذهبه هذا القضاء وهو القائل في « عيون الاخبار » من تآليفه « وليس الطريق الى الله واحداً ، ولا كل الخير مجتمعاً في تهجد الليل وسرد الصيام وعلم الحلال والحرام ، بل الطرق اليه كثيرة ، وأبواب الخير واسعة ، وصلاح الدين بصلاح الزمان وصلاح الزمان بصلاح السلطان وصلاح السلطان بعد توفيق الله بالارشاد وحسن التبصير » .

هجن ابن قتيبة الجاحظ وكفّره ورماه بأعظم كبيرة وهي الكذب ، وسجل عليه أنه أكذب واحد في الامة لأنه كتب أشياء تنفع في تربية العقول في الدنيا كما كتب كل ما ينفع الدين ، وابتدع أدباً يسلي ويعلّم ، فهل من العدل أن يرمى بوضع الحديث ، وتشدده وتشدد أهل مذهبه

في تحري السليم من السقيم في الاحاديث لا يحتاج الى دليل ؟ ورمى أيضاً أبا الهذيل العلاف بما ليس فيه ووصفه بأنه كذاب أفاك وطعن فيه أشنع طعن ، وكذلك كان حظ ثمامة بن الاشرس منه وهما من الائمة ورمى هذا برقة الدين وتنقص الاسلام والاستهزاء به ، وطعن في النظام أيضاً وهو الذي رد على الملحدين والدهريين شطراً كبيراً من عمره . ولولا أن وقف هؤلاء المعتزلة وطبقتهم موقفهم المحمود في الحملة على أعداء الاسلام ، ولولا المتكلمون عامة لاستضر الدين ، وما نجا بجهود الفقهاء ورواة الحديث . ولذلك قال بعض من ترجموا لابن قتيبة أنه «كان خبيث اللسان يقع في كبار العلماء» وعلى شدة اعجاب ابن خلدون بأدب الكاتب لابن قتيبة ما حال اعجابه دون قول الحق فيه عند كلامه على التاريخ فقال «ان كتاب ابن جرير الطبري سالم من الاهواء الموجودة في كتب ابن قتيبة ، وكتاب ابن جرير أبعد من المطاعن في كبار الامة .

هذا وهو الثقة في علمه المدقق في روايته القائل «ونحن نستحب لمن قبل عنا وائتم بكتبنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه ، ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه ، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة وصناعته عن شين الكذب» وهو الذي قال عند ذكر أسماء الاعضاء «انها لا تؤثم وانما الاثم في شتم الاعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب» .

ثم جار ابن قتيبة في النيل من خصومه ، ولكثرة ما حمل على الفلاسفة والمتكلمين ودافع عن أهل الحديث اتهم هو بالانحلال فاضطر الى وضع كتاب في الرد على الجهمية والمشبهة ليدفع عن نفسه كما قال العلامة بروكلمان في الترجمة له في معلمة الاسلام . وفي كتابه تأويل مختلف الحديث ظهرت شخصية ابن قتيبة كل الظهور واستغرق ثلاثة أرباع الكتاب في تصحيح الاحاديث التي ادعى عليها المتكلمون التناقض ، والاحاديث التي تخالف عندهم كتاب الله تعالى ، والاحاديث التي يدفعها النظر وحجة العقل .

وقد قام كتابه هذا على الرد على أهل الكلام في ثلبهم أهل الحديث واسهابهم في الكتب بذمهم ، ورميهم بحمل الكذب ورواية التناقض حتى وقع الاختلاف وكثرت النحل وتقطعت العِصَم ، وتعادى المسلمون وأكفر بعضهم بعضاً وتعلق كل فريق منهم لمذهبه بجنس من الحديث » زاعماً أن أهل الكلام يقولون على الله ما لا يعلمون ، ويفتنون الناس بما يأتون ، ويبصرون القذى في عيون الناس وعيونهم تُطرَف على الأجذاع ، ويتهمون غيرهم في النقل ، ولا يتهمون آراءهم في التأويل .

طبع من كتب ابن قتيبة أدب الكاتب وتأويل مختلف الحديث والشعر والشعراء وعيون الأخبار وفضل العرب والتنبيه على علومها والقداح والميسر وكتاب الاشربة وبعض الرسائل اللغوية وكتاب المعارف . وأدب الكاتب عمدة في بابه وقد شرحه الجواليقي (— ٥٤٠) وابن السيد البطليوسي (— ٥٢١) فبيّنا ما يرد عليه فيه وما غلط في تصحيحه وغلّط الناقلين عنه وما منع منه وهو جائز . أما كتاب الامامة والسياسة المنسوب اليه فهو ما ألفه قط بل نحله اياه الناحلون ، وكثيراً ما نُحل عظماء المؤلفين تآليف ما خطّوا فيها قلماً ، ولا خطَوا الى وضعها قدماً . وهذا من فعل الورّاقين وأهل الأهواء على الأغلب ونعني بالورّاقين الناسخين . فأما الورق وبيعه فكان يقال له الكاغدي .

وكما ينحل الورافون مؤلفات لمؤلفين قد ينتحل بعض المؤلفين تآليف أو بعضاً من تآليف كتبها غيرهم . فقد قال المفضل بن سلمة الكوفي في الفاخر ان ابا محمد بن قتيبة نقل كتابه في المعارف من كتاب المحبّر لابن حبيب . وسواء صحت هذه التهمة أو لم تصح ونحن أميل الى نفيها لما عرف به ابن قتيبة من الأمانة في العلم ، فان عادة الانتحال كثرت بعد عصر ابن قتيبة في المؤلفين والوراقين .

تدور معظم كتب ابن قتيبة على تربية الملكة العربية وتحبيب اللغة الى الدارسين والشادين ، وليس أدبه الأدب الذي يعنيه العارفون بالادب

البوم ، يجمل الجمال والفن ويهذب النفس ويلهيها ويوسع خيالها . وكتبه كسائر كتب القدامى تختفي فيها شخصيته ولا تظهر غالباً الا اذا حاول الانحاء على مخالفيه فانه اذ ذاك يصاول ويطاول ويتعصب ويجلب بيبابه ، فتبدو نفسيته ويثبت أنه يحسن الايجاز كما يحسن التطويل ، ويحسن الانصاف كما يحسن الحنك . وقد يعتذر عنه بأنه لم يظلم خصماء مذهبه كثيراً ، وانه ماخرج في حوارهم عن عادة المؤلفين في الدين عامـة ، كل منهم يصحح مذهبه ويطلق على من يناقشه ضروب السباب والشتم ، ويكابر في الحق ويتوعد بالنار يوم القيامة كل من لا يقول قوله . وعلى هـذا يقول ابن قتيبة ان الناس لا يتساوون جميعاً في المعرفة والفضل وليس صنف من الناس الا وله حشو وشوب . وقال أيضاً : ولا أعلم أحداً من أهل العلم والأدب الا وقد أسقط في علمه أي أخطأ ، وقال : من ذا صفا فلم يكن له عيب وخاص فلم يكن فيه شوب . وقال : من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم .

وظاهرة بارزة في تآليف ابن قتيبة وتوخيه فيها الايجاز لتسهل روايتها ويخف محملها ولا تثقل مؤونتها قال : فعلت لمغفل التأديب كتباً خفافاً في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها على فن ، وأعفيته من التطويل والتثقيل لأنشطه لتحفظه ودراسته . واعتذر عن شدة ايجازه في كتابه المعارف بقوله : « وكان غرضي ، في جميع مااقتصصت الايجاز والتخفيف والقصد ، المشهور من الانباء دون المغمور ، ولما يجري له سبب على ألسنة الناس دون ما لا يجري له سبب ، ولو قصدت الاستقصاء لطال الكتاب حتى يعجز عن نسخه فضلاً عن حفظه ، ولاختلط الخفيّ بالجليّ فمجته الآذان ، وملته النفوس » .

وقد يكون من التطويل في التأليف ماتبدو به مقاتل المؤلف وهذا ماكان يتجنبه ابن قتيبة على ماظهر من اقتضابه في عيون الاخبار وفي

المعارف والشعر والشعراء . فقد قال في مقدمة الشعر والشعراء معتذراً عن استقصائهم : « ولعلك تظن ، رحمك الله ، انه يجب على من الف مثل كتابنا هذا الا يدع شاعراً قديماً ولا حديثاً الا ذكره ودلك عليه ، وتقدّر ان يكون الشعراء بمنزلة رواة الحديث والاخبار والملوك والاشراف الذين يبلغهم الاحصاء ويجمعهم العدد . والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والاسلام اكثر من ان يحيط بهم محيط ، او يقف من وراء عددهم واقف ، ولو انفد عمره في التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال ، ولا احسب احداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر الا عرفه ولا قصيدة الا رواها .

قال : « ولم اسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلد او استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل الى الفريقين ، واعطيت كلاً حظه ، ووفرت عليه حقه . فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيّره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا انه قيل في زمانه ، او انه رأى قائله . ولم يقصُر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره ، وكل شرف خارجية (١) في اوله . فقد كان جرير والفرزدق والاخطل وامثالهم يعدون محدثين وكان ابو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدَث وحسُن حتى لقد هممت بروايته . ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم ، وكذلك

---

(١) الخارجي الذي يخرُج ويشرُف بنفسه من غير ان يكون له قديم . وقيل الخارجي كل مافاق جنسه ونظائره

يكون من بعدهم لمن بعدنا كالحريمي والعتابي والحسن بن هانيء واشباههم » .

وهذا كلام جيد ان صدق على عصره فلا يصدق على العصور التالية وقد اصبحت الاجادة في الشعر والنثر تبعاً للحالة الاجتماعية والسياسية ، وتدنت الصناعتان كل التدني بفساد اللغة الناشيء من دخول الاعاجم في العرب . ولما ندر من يجيز على الشعر اصبح اداة من ادوات التسول والكدية فقط ، ولم تبق له تلك الروعة ولا هاتيك العبقة .

واعجب جهابذة الادب بعيون الاخبار كما اعجبوا بمعظم كتبه ولاسيما ادب الكاتب . قال السمعاني : سمعت الامير ابا نصر الميكالي يقول : تذاكرنا المتنزهات يوماً وابن دُرَيْد حاضر فقال بعضهم : انزه الاماكن غوطة دمشق . وقال آخرون بل نهر الأُبلة . وقال آخرون : بل سُغد سمرقند . وقال بعضهم : نهروان بغداد . وقال بعضهم شعب بوّان بأرض فارس . وقال بعضهم : نوبهار بلخ . فقال هذه متنزهات العيون فأين أنتم من متنزهات القلوب ، قلنا : وما هي يا أبا بكر ؟ قال عيون الاخبار للقتبي والزهرة لابن داود الخ .

وكتاب الأشربة أو كتاب الشراب كما أطلقه عليه المؤلف في أحد كتبه ، مزج فيه الأدب بالفقه على عادته . وكانت مسألة الأشربة قد شغلت أمناء الشرع والفقه في أيامه وفي الأيام السالفة والمشرعون بين محلل ومحرم للأنبذة كلٌّ يفتي بمبلغ علمه ، وما وصل الى رأيه من نصوص الكتاب والسنة . فكتب ابن قتيبة رأيه مستنداً الى أقوال الأئمة ذاكراً ماتعاور هذه المسألة من المرادّات فجاءت فتواه مستوفاة ، وحلّ المسألة المتنازع عليها باخلاص مما لم يكد يسبق للفقهاء بلوغ مثله ، ومعظم أرباب الفقه لم يُحكموا الأدب كما أحكمه ابن قتيبة فجاءت بعض كتاباتهم جافة لاتتذوقها النفوس .

أديب الفقهاء
كل أديب فقيه
وليس كل فقيه أديب

والناظر في كتاب الأشربة يتراءى له أنه يتصفح سفر أدب طريف يفهمه كل من يقرؤه ، ويعجب من توسع المؤلف في حريته وروايته

الاخبار والاشعار المستطرفة . ولجلالة المؤلف وجلالة ما كتب في الاشربة اعتمد من جاءوا بعد عهده من رواة الاخبار على ما كتب وشحنوا بمروياته أسفارهم على ما فعل ابن عبد ربه في العقد الفريد وغيره وكان لهم من تحقيقه خير عون على الخوض في مسألة يكاد لا ينجو الخائض فيها من ركوب مركب خشن جامح .

ومن مزايا ابن قتيبة انه كان عارفاً بزمانه ، وتقلده القضاء فتح له باباً ولج منه على معرفة حال الراعي والرعية . كان عصره آخر عصور الترقي في بني العباس وأول عصور التدني فوصفه وصفاً يدل على أن له قدم صدق في السياسة والاجتماع فقال فيه « انه خوى نجم الخير ، وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع أهله ، وصار العلم عاراً على صاحبه والفضل نقصاً ، وأموال الملوك وقفاً على شهوات النفوس ، والجاه الذي هو زكوة الشرف يباع بيع الخلَق ، وآضت المروآت في زخارف النجد(١) وتشييد البنيان ، ولذات النفوس في اصطفاق المزاهر ومعاطاة الندمان ، ونبذت الصنائع ، وجهل قدر المعروف ، وماتت الخواطر ، وسقطت همم النفوس ، وزهد في لسان الصدق » . ووصف العمال بأنهم « العلماء بتحلب الفيء وقتل النفوس فيه ، واخراب البلاد ، والتوفير العائد على السلطان بالخسران المبين » .

لاجرم ان ابن قتيبة من جهابذة العلماء الذين هضموا علمهم . وقد وفق الى اختيار أطايب أخبار القدماء ، ورزق حظاً من التنسيق والترتيب ، فأبرز تآليفه منقحة محررة . ولنا أن نقول أيضاً ان ابن قتيبة في ذاته لم يكن جامداً على ماقرأ في الكتب ، وكان يحسن استخدام عقله ويجيد التخلص من المآزق ، واذا رأى الخطر يوشك أن يدهمه يخف في الحال

(١) النجد ماينضّد به البيت من البسط والوسائد والفرش والجمع نجود ونجاد وقيل ماينجّد به البيت من المتاع أي يزين .

الى درئه عنه بنعومة ولباقة كما فعل في الرد على الشعوبية وفي الرد على الجهمية والمشبهة . ولعله ماجسر على الضرب في المعتزلة الا لما شاهد أن شمسهم آذنت بالمغيب ، وان مكانتهم في قصور خلفاء بني العباس أخذت تتزعزع ، والامة تحاربهم في كل أفق حرباً لاهوادة فيها ، وما جوّز الانحاء عليهم الا لما انقضى دور المأمون والمعتصم وهما من أكبر حماتهم وغالى في طعنه بما لايناسب عظمة علمه وأخلاقه . جلّ من لاعيب فيه .



(٦)

طيفور

احمد بن أبي طاهر

(٢٨٠)

كان ابوه طيفور من مرو الروذ من ابناء خراسان ومن اولاد الدولة ، وولد ابنه احمد في بغداد سنة اربع ومائتين ، واخذ الادب والحديث عن رجال عصره وروى عنه جماعة ، وانصرف الى الرواية والاخبار . وكان لأول نشأته مؤدب صبيان ، ثم جلس في سوق الورّاقين ، واشتهر بالشعر والكتابة ، قال فيه صاحب تاريخ بغداد : انه احد البلغاء الشعراء والرواة ، من اهل الفضل المذكورين في العلم . ووصفه المسعودي بالشاعر ، واورد له قصيدة رثى بها يحيى بن عمرو كان ظهر بالكوفة سنة ثمان واربعين ومائتين جاء فيها :

سلام على الاسلام فهو مودّع ... اذا ماقضى آل النبي فودعوا

الى ان يقول :

بني طاهر واللؤم فيكم سجية ... وللغدر منكم حاسر ومقنع

قواضبكم في الترك غير قواطع ... ولكنها في آل احمد تقطع

لكم كل يوم مشرب من دمائهم ... وغُلتها من شربها ليس تَنقع

رماحكم للطالبيين شُرّع ... وفيكم رماح الترك بالقتل شرّع

لكم مرتع في دار آل محمد ... وداركم للترك والحبش مرتع

وانشد بعض اهل الادب قوله في عبيد الله بن عبد الله بن طاهر الذي قاله :

اذا ابو احمد جادت لنا يده ... لم يحمد الأجودان البحر والمطر

ويختمها بقوله :

اذ جود كل جواد عنده خبر
الجود منه عيان لا ارتياب به

قالوا لو استعمل الانصاف لكان هذا احسن مدح قاله متقدم ومتأخر

ومن شعره

حسب الفتى ان يكون ذا حسب
من نفسه ليس حَسْبُه حَسَبُه

ليس الذي يبتدي به نسبٌ
مثل الذي ينتهي بـه نسبه

وليست مكانة ابن طيفور بشعره ، ولا بما روى من حديث ، فالشعر كان آلة من آلاته ، والمحدثون كثار ، ومنصرفون اليه في الليل والنهار . ولكن ابن طيفور كان عظيماً بروايته ، فان ما تركه من كتبه يبلغ خزانة صغيرة . ولقد وصفه ابو بكر الصولي وقال فيه انه صَحفي ، اي يروي الخطأ عن الصحف ولم يأخذ عن الشيوخ ، وانه حاطب ليل ، وانه يشترط في كتبه اختيار الشعر الجيد ويأتي بالرديء ، ويزعم انه يقلل فيكثر ، وفي اكثاره يسيء ، ثم يحكي الكذب ويخطئ في التاريخ ، وفي نسب الشعر ، هذا ماروي عنه انه قال فيه . ومَن من المؤلفين يا تُرى خلا من نقد ؟ وهل خلا الصولي نفسه منه فارتضى النقاد تدوينه ؟ وهل كان ذوقه عالياً كلما اراد اختيار شعر ونثر . والاجتهاد ما زال يختلف في الرجل الواحد ، وفي العام الواحد ، فما بالك في الرجال وفي العصور . وان راوية مكثراً مثل طيفور لا تكاد تجد كتاباً من الامهات التي ألفت بعد عصره الا وينقل او يكثر من النقل من كتبه ، لا يقدح في مروياته ولا يسقطه بأنها من بضاعته .

ثم أي عالم خلا من لحن وتصحيف ؟ ذكروا أن بعضهم قال فيه انه كان بليداً في علمه وأنه يلحن ، وأنه قال ذلك للبحتري فأقره عليه . وعرفنا أنه كانت بين البحتري وطيفور أمور تراخت بها صلاتهما ، فألف طيفور كتاباً في سرقات البحتري من أبي تمام ، فبالطبع يحمى أنف البحتري منه ويطعن في علمه وأدبه . أما هو فقد طعن البحتري في

أخلاقه طعنة نجلاء حرام رأبها على وجه الدهر ، قال فيه : ما رأيت أقل وفاءً من البحتري ولا أسقط : رأيته قائماً ينشد احمد بن الخصيب مدحاً له فيه ، فحلف عليه ليجلسن ، ثم وصله واسترضى له المنتصر ، وكان غضبان عليه ، ثم اوصل له مديحاً اليه وأخذ له منه مالاً فدفعه اليه . ثم نكب المستعين أحمد بن الخصيب بعد فعله هذا بشهور ، فلعهدي به قائماً ينشده :

لابن الخصيب الويل كيف انبرى　　　بافكه المردي وابطاله

كادَ امين الله في نفسه　　　وفي مواليه وفي ماله

ورام في الملك الذي رامه　　　بغشه فيه وادغاله

الى ان قال وكلها طعن في ابن الخصيب :

فهو حلال الدم والمال ان　　　نظرت في ظاهر احواله

قال ابن ابي طاهر : كان ابن العلجة فقيهاً ، يفتي الخلفاء في قتل الناس نزحه الله ، ثم ختم القصيدة بقوله :

والرأي كل الرأي في قتله　　　بالسيف واستصفاء أمواله

وهذا أعظم هجو يُهجى به البحتري ، وقد هجاه طيفور بقصيدة أيضاً ، فلا غرو أن يسقطه البحتري ويرذل ادبه .

وقال الذين صغروا شأن طيفور في الادب انه كان مع هذا جميل الأخلاق ظريف المعاشرة خلواً من الكهوب أي لا يتغير لونه ثابتاً في خلقه ، وهو الى هذا معروف بمرَحه ، يبتدع النكات ويحسن التقاطها وابرازها للناس ، وكتابه بلاغات النساء نموذج من منزعه وكثرة تتبعه (وهو جزء صغير من كتابه الكبير المنثور والمنظوم) . وألف في المزاح والمعاتبات وفي أمور فيها دعابة وأدب واقعي .

وقصيدته ليلة بات في « دير السوسن » في عودته من « سر من رأى » وقد زار بعض كتابها ومدحه فأحسن صلته ، ووهب له غلاماً رومياً حسن الوجه ، واعترافه بانه بات والغلام يسقيه ، والراهب نديمه حتى

كل هذه أمور اذا صحت
مات سكراً ، وطلبه المغفرة عما أتى من ربه - كل هذه أمور اذا صحت تصف جانباً ظاهراً من مَرَحه وتبذله . ومن هذه الأمور ما اقترفه في صباه ، ومنها ما أتاه في الكهولة ، وشعره لا يخلو من نكتة ، وربما قال بعض شعره من أجل نكتة فأعقبته نكبة ، كما حدَّث عن نفسه قال : خرجت من منزل أبي الصقر نصف النهار في تموز فقلت : ليس بقربي منزل أقرب من منزل المبرِّد ، اذ كنت لا أقدر أصل الى منزلي بباب الشام ، فجئته فأدخلني الى حويشة له ، وجاء بمائدة فأكلت معه لونين طيبين ، وسقاني ماءً بارداً ، وقال لي : أحدثك الى ان تنام ، فجعل يحدثني أحسن حديث . فحضرني لشؤمي وقلة شكري بيتان فقلت : قد حضرني بيتان أنشدهما ؟ فقال : ذاك اليك ، وهو يظن أني قد مدحته فأنشدته .

من السخر بما طرود

ويوم كحر الشوق في صدر عاشق ... على انه منـــه أحَرُّ وأرمد
ظللت بــه عند المبرد قائلاً ... فما زلت في ألفاظــه أتبرد

فقال لي : قد كان يسعك اذا لم تحمد ألا تذم ، ومـا لك عندي جزاء الا اخراجك ، والله لا جلست عندي بعد هذا . فأخرجني فمضيت الى منزلي بباب الشام ، فمرضت من الحر الذي نالني مدة ، فعدت باللوم على نفسي . وقد روي انه قال في المبرِّد ، وحسبك من عالم محقق .

كملت في المبرِّد الآداب ... واستقلت في عقـله الألباب
غير أنّ الفتى كما زعم النا ... س دعي مُصحفٌ كذاب

ربما زعم زاعم أنه ليس من الانصاف أن يقرن هذا العيار من الرجال الى عظماء العلماء المعروفين في علوم الدنيا والدين فالجواب ان في الحق ان يجعل هذا الرجل في الصف الاول بين الرجال لأن أدبـه أثمر ما لم يثمر غيره مثله ، والعبرة بمن يسد ثلمة صغيرة من بناء الآداب كانت لولاه خالية ، ومن يجوِّد فناً واحداً من فنونه بامتاع وابداع .

(٧)

المبرّد

محمد بن يزيد بن العباس الثمالي الأزدي أبو العباس

(٢٧٥)

ولد بالبصرة ، واختلف الباحثون في لقب المبرّد فقيل انه لقب بالمبرّد لأنه لما صنف المازني كتاب الألف واللام سأله عن دقيقه وعويصه فأجابه بأحسن جواب ، فقال له المازني : قم فأنت المبرد بكسر الراء أي المثبت للحق ، فحرفه الكوفيون وفتحوا الراء . وقيل في سبب هذه التسمية أن صاحب الشرطة طلبه للمنادمة والمذاكرة فكره ذلك ، فدخل الى ابي حاتم السجستاني فجاء رسول الوالي يطلبه فقال له ابو حاتم : ادخل في هذا ، يعني غلاف مزمّلة فارغاً فدخل فيه وغطى رأسه ، ثم خرج الرسول فقال له : ليس هو عندي ، فقال اخبرت أنه دخل اليك . فقال : أدخل الدار وفتشها ، فدخل وطاف في كل موضع في الدار ، ولم يفطن لغلاف المزملة . ثم خرج فجعل ابو حاتم يصفق وينادي على المزملة « المبرّد المبرّد » وتسامع الناس بذلك فلهجوا به . وهو ينتسب الى الأزد .

أخذ عن الجرمي والمازني والسجستاني وصار امام العربية في بغداد واليه انتهى علمها بعد طبقة الجرمي والمازني ، وغلب عليه النحو فعرفه أكثر القدماء « بمحمد ابن يزيد النحوي » وكان فصيحاً بليغاً مفوّهاً مليح الأخبار ثقة فيما يرويه كثير النوادر فيه طراوة ولباقة ، وكان الامام اسماعيل القاضي يقول : ما رأى محمد بن يزيد مثل نفسه . وقيل ان

الناس بالبصرة كانوا يقولون هذا . وقال هو عن نفسه وعجزه عن الكتابة مع كثرة علمه في الأدب : « لا احتاج الى وصف نفسي لعلم الناس بي انه ليس أحد من الخافقين تختلج في نفسه مشكلة الا لقيني بها ، وأعدّني لها ، فأنا عالم ومتعلم وحافظ ودارس ، لا يخفى عليّ مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنثور والخطب والرسائل . ولربما احتجت الى اعتذار من فلتة أو التماس حاجة ، فأجعل المعنى الذي أقصده نُصب عيني ، ثم لا أجد سبيلاً الى التعبير عنه بيد ولا لسان ، ولقد بلغني أن عبيد الله ابن سليمان ذكرني بخير ، فحاولت ان أكتب اليه رُقعة اشكره فيها ، واعرّض ببعض أموري ، فأتعبت نفسي يوماً في ذلك فلم أقدر على ما ارتضيه منها ، وكنت أحاول الافصاح عما في ضميري فينصرف لساني الى غيره ، فزيادة المنطق على الادب خدعة ، وزيادة الادب على المنطق هُجنة » أي انه لم يكن بالكاتب الذي يرتضي كتابته ، وان كان في الأدب امام الأئمة . قال الآمدي : وهذا محمد بن يزيد المبرّد ما علمناه دُوِّن له كبير شيء .

رجل أقرّ على نفسه بضعف الكتابة كان حظه منها كحظ أكثر النحويين واللغويين في المتقدمين والمحدثين ، ومع هذا ألف نحو خمسة وأربعين مصنفاً أجلّ المطبوع منها وأشهرها « الكامل » وهو كتاب ممتع يجيء مع البيان والتبيين والامالي والأغاني ، حوى قواعد نحوية وصرفية واشارات لغوية وأدبية وتاريخية قال هو فيه : هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ، ومثل سائر وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة . والنية فيه ان نفسر كل ماوقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مُسْتَغْلَق ، وان نشرح ما يعرض من الاعراب شرحاً شافياً ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً وعن ان يُرجع الى احد في تفسيره مستغنياً . وقال في خاتمة كتابه هذا : هذا كتاب قد وفيناه جميع حقوقه ،

ووفيتنا بجميع شروطه الا ما أذهل منه النسيان ، فانه قل ما يُخلى من ذلك . قال القاضي الفاضل انه طالع الكامل سبعين مرة وكل مرة يزداد منـــه فوائد .

وكان جل اعتماد المبرد على الشعر الجاهلي ولم يخـل كتابه من شعر المحدثين وخطبهم وان لم يكن بحجة ولكنهم يجيدون فيذكر شعرهم لجودته لا للاحتجاج به قال : وليس لقدم العهد يُفضّل القائل ، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يُعطى كل ما يستحق . وحجته في الاختيار من أشعار المولدين المستحسنة الحكيمة انه يحتاج اليها للتمثيل لأنها أشكل بالدهر ويستعار من ألفاظها في المخاطبات والخطب والكتب . أي انه لم يستغن عن شعر المحدثين وخطبهم لأن خطب الجاهلية ومحاوراتها لا تكفي في تخريج الطالب في الادب .

وأدرك المبرد ان كتابه قد يثقل على الهضم ، ولا يهتم عامة القراء لما فيه من قواعد التصريف ومشكلات النحو ، وحل الألفاظ العويصة ، فقال في بعض فصوله : نذكر في هذا الباب من كل شيء شيئاً لتكون منـه استراحة للقاريء ، وانتقال ينفي الملل لحسن موقع الاستطراف ، ونخلط ما فيه من الجد بشيء يسير من الهزل ليستريح اليه القلب وتسكن اليه النفس . فمؤلفنا اذاً كثير الأمالي ، حسن النوادر ، أملى ان المنصور أبا جعفر ولى رجلاً على العميان والايتام والقواعـد من النساء اللواتي لا أزواج لهن ، فدخل على هذا المتولي بعض المتخلفين ومعه ولده فقال : ان رأيت أصلحك الله أن تثبت اسمي مع القواعـد . فقال له المتولي : القواعد نساء فكيف أثبتك فيهن فقال : ففي العميان . فقال : أما هذا فنعم ، فان الله تعالى يقول « لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » . فقال : وتثبت ولدي في الأيتام ، فقال :

هذا أفعله أيضاً ، من يكن أنت أباه فهو يتيم ، فانصرف عنه وقد أثبته في العميان وولده في الايتام .

ومن أهم ما حوى كتاب الكامل أخبار الخوارج وشعرهم المرقص المطرب ، وسيرة بعض المشهورين من بلغائهم ، وقد استغرق ذلك جزءاً عظيماً من الكتاب . وختم باب الخوارج بقوله : وهذا الكتاب لم نبتدئه لتتصل فيه أخبار الخوارج ، ولكن ربما اتصل شيء بشيء ، والحديث ذو شجون ، ويقترح المقترح ما يفسخ به عزم صاحب الكتاب ، ويصده عن سَنَنه ويزيله عن طريقه ، ونحن راجعون ان شاء الله الى ما ابتدأنا له هذا الكتاب ، فان مرّ من اخبار الخوارج شيء مرَّ كما يمرُّ غيره ، ولو نَسَقْناه على ما جرى من ذكرهم لكان الذي يلي هذا خبر نَجدة وأبي فُدَيْك وعمارة الرجل الطويل وشبيب ، ولكان يكون الكتاب للخوارج مُخْلصاً .

وأبان المؤلف في مواطن كثيرة من الكامل انه في نقد الشعر واختيار جيده آية ومما قال : وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل اذا شبّه ، واحسن منه ما أصاب به الحقيقة ، ونبّه فيه بفطنته على ما يخفى عن غيره ، وساقه برصف قوي واختصار قريب ، قال قيس بن معاذ :

وأخرج من بين الجلوس لعلني احدث عنك النفس في السر خاليا
واني لأستغشي وما لي نعسة لعل خيالاً منك يلقى خياليا

وفي هذا الشعر :

أشوقاً ولما تمضِ لي غير ليلة رويدَ الهوى حتى يغيب لياليا

قال : هذا من اجود الكلام واوضحه معنى ، ويستحسن لذي الرمة قوله في مثل هذا المعنى :

أحب المكان القفر من اجل انني به اتغنى باسمها غير مُعْجَم

ومع هذا قال بعض المتقدمين ان ذوق المبرد في الشعر غير سليم ، وقال ابو بكر بن مجاهد : ما رأيت احسن جواباً من المبرد في معاني

القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم . وزعم بعض من ترجموا له انه كان ابخل الناس بكل شيء وانه قال : ما وضعت بحذاء الدرهم شيئاً قط الا رجح الدرهم في نفسي عليه ، هذا مع سعة كان فيها ووُجْد .
وقالوا كان ثعلب على مثل ما كان عليه المبرد في الامساك وفوقه في السعة ، غير ان المبرد كان يسأل سؤالاً صراحاً ، وكان ثعلب يعرّض ولا يصرح .
وقال بعضهم ولولا اني اكره ان اكون عياباً وللعلماء خاصة ، لأخبرتك عنهما (ثعلب والمبرد) من الأخبار التي تزيد على أخبار محمد بن الجهم والبرمكي والكندي وخالد بن صفوان والأصمعي في الامتاع . ولاحمد ابن عبد السلام الشاعر في مدح المبرد :

وأنت الذي لا يبلغ الوصف مدحه … وان اطنب المداح مع كل مطنب
رأيتك والفتح بن خاقان راكباً … وأنت عديل الفتح في كل موكب
وكان أمير المؤمنين اذا رنا … اليك يطيل الفكر بعد التعجب
وأوتيت علماً لا يحيط بكنهه … علوم بني الدنيا ولا علم ثعلب
يروح اليك الناس حتى كأنهم … ببابك في أعلى مِنًى والمحصّب

ومطلع هذه القصيدة :

يا ابن سراة الأزد ازد شنوءة … وازد العتيك الصدر رهط المهلب

وقال فيه أيضاً :

رأيت محمد بن يزيد يسمو … الى الخيرات في جاه وقدر
جليس خلائف وعَذيّ ملك … واعلم من رأيت بكل امر
وفتيانية الظرفاء فيه … وأبهة الكبير بغير كبر
فينثر ان اجال الفكر دراً … وينثر لؤلؤاً من غير فكر
وكان الشعر قد أودى فأحيا … ابو العباس داثر كل شعر

قوله جليس خلائف وعَذي ملك انه نبيل في أصله وفرعه، وان فيه مرح الشباب وأبهة الكبراء بدون كبر، وانه بليغ مفوه ، وانه أحيا الشعر الذي كان نسي .
كان بين المبرد وثعلب ما يكون بين المتعاصرين من المنافرة واشتهر ذلك حتى قال بعضهم :

كفى حزناً انا جميعاً ببلدة ويجمعنا في ارضها شر مشهد
وكل لكل مخلص الود وامق ولكنه في جانب عنه مفرد
نروح ونغدو لا تزاور بيننا وليس بمضروب لنا يوم موعد
فأبداننا في بلدة والتقاؤنا عسير كلقيا ثعلب والمبرد

وقال بعضهم في المبرد وثعلب :

ايا طالب العلم لا تجهلن وعذ بالمبرد او ثعلب
تجد عند هذين علم الورى فلا تك كالجمل الأجرب
علوم الخلائق مقرونة بهذين في المشرق والمغرب

وكان المبرد يحب الاجتماع بثعلب للمناظرة وثعلب يكره ذلك ، لأن المبرد حسن العبارة ، حسن الاشارة ، فصيح اللسان ، ظاهر البيان ، وثعلب مذهبه مذهب المعلمين ، فاذا اجتمعا في محفل حُكم للمبرد على الظاهر الى ان يعرف الباطن . ولما مات المبرد قال فيه ثعلب هذه الأبيات وهي لأبي بكر بن العلاف :

ذهب المبرد وانقضت أيامه وليذهبن اثر المبرد ثعلب
بيت من الآداب أضحى نصفه خرباً وباقي النصف منه سيخرب
فابكوا لما سلب الزمان ووطنوا للدهر أنفسكم على ما يسلب
وتزودوا من ثعلب فبكأس ما شرب المبرد عن قريب يشرب
اوصيكم ان تكتبوا انفاسه ان كانت الأنفاس مما يكتب

ومن شعر المبرد وقد بلغه ان ثعلباً نال منه :

رب من يعنيه حالي وهو لا يجرى ببالي
قلبه ملآن مني وفؤادي منه خالي

ومن شعر المبرد :

حبذا ماء العناقيد بريق الغانيات
بهما ينبت لحمي ودمي اي نبات
ايها الطالب شيئاً من لذيذ الشهوات
كل بماء المزن تفاح خدود ناعمات

(٨)

ابن عبد ربه

ابو عمر احمد بن عبد الله بن حبيب بن حُدَيْر بن سالم مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان

(٣٢٨)

أموي أصلا وفرعاً وبيئة ونشأة ، تخرج في الدين واللغة بعلماء بلده وغلب عليه الأدب فاشتهر به وقويت ملكته في الشعر والنثر باتصاله بالمنادمة مع ملكين من ملوك الامويين في الاندلس . ولا بد ان تكون الايام التي قضاها في قصر الملك خرّجته في السياسة ، وعرف آداب الملوك وما تتوقف عليه منادمتهم من الادوات ، ومنها الموسيقى والولع بالجمال ، وقد رزق الى هذا حساً شفافاً فكان شاعراً عظيماً وقد وصفوه بأنه كان فارس حلبة الشعر في القرن الرابع في الاندلس ، ولم تكن براعته في الشعر أقل من براعته في النثر . وصفه الحميدي مؤرخ الاندلس انه كانت له بالعلم جلالة ، وبالادب رياسة وشهرة ، مع ديانة وصيانة ، واتفقت له أيام وولايات للعلم بها نَفاق ، فساد بعد الخمول ، وأثرى بعد الفقر ، وأشير بالتفضيل اليه ، الا انه غلب عليه الشعر . وقال فيه ابن خلكان انه من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على أخبار الناس ، وصنف كتابه العقد وهو من الكتب الممتعة حوى من كل شيء .

نعم كان ابن عبد ربه مولعاً بالجمال والطرب وهو في الموسيقى من الافذاذ العارفين بها . وذكروا انه وقف تحت روشن لبعض الرؤساء فرُشّ بماء وكان فيه غناء حسن ولم يعرف فقال :

يا من يضنّ بصوت الطائر الفرد ما كنت أحسب هذا البخل في أحد
لو ان أسماع اهل الارض قاطبة اصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تضن على سمعي تقلده صوتاً يجول مجال الروح في الجسد
لو كان « زرْياب » حياً ثم أسمعه لذاب عن حسد او مات من كمد
أما النبيذ فاني لست أشربه ولست آتيك الا كِسرتي بيدي

وهو شاهد على تقواه وان ليس له أرب في غير الطرب من دون ارتكاب محرم ، واقتضته صناعة الشعر في صباه ان اوغل في غزله الى التي ليس بعدها فأقلع في آخر عمره عن صبوته ، وأخلص لله في توبته ، كما قالوا فيه ، ولقد اعتبر اشعاره التي قالها في الغزل واللهو ، وعمل على أعاريضها وقوافيها في الزهد ، وسماها الممحصات ، فمنها القطعة التي اولها « هلا ابتكرت لبين انت مبتكر » فمحصها بقوله :

يا قادراً ليس يعفو حين يقتدر ماذا الذي بعد شيب الرأس تنتظر
عاين بقلبك ان العين غافلة عن الحقيقة واعلم انها سقر
سوداء تزفر من غيظ اذا سعرت للظالمين فما تبقي ولا تذر
لو لم يكن لك غير الموت موعظة لكان فيه عن اللذات مزدجر
انت المقول له ما قلت مبتدئا « هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر »

واصل الابيات قالها ابو عمر في بعض من كان نال منه وقد ازمع على الرحيل في غداة عينها ، فاتت السماء في تلك الغداة بمطر جود منعه من الرحيل فكتب اليه ابن عبد ربه :

هلا ابتكرت لبين انت مبتكر هيهات يأبى عليك الله والقدر
مازلت ابكي حذار البين ملتهفاً حتى رثى لي فيك الريح والمطر
يابرده من حَيا مُزن على كبد نيرانها بقليل الشوق تستعر
آليت الا ارى شمساً ولا قمراً حتى أراكِ فأنت الشمس والقمر

نعم نقض كل قطعة قالها في الصبا والغزل بقطعة في المواعظ والزهد من ذلك قوله :

الا انما الدنيا غضارة ايكة　　اذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ما الآمال الا فجائع　　عليها ولا اللذات الا مصائب
وكم سخنت بالامس عيناً قريرة　　وقرت عيون دمعها الآن ساكب
فلا تكتحل عيناك منها بعبرة　　على ذاهب منها فانك ذاهب

ومن شعره وهو آخر ماقاله فيما قيل :

بَليت وابلتني الليالي بكرّها　　وصرْفان للايام معتوران
وما لي لاابكي لسبعين حجة　　وعشر اتت من بعدها سنتان

قال الحميدي وشعره كثير مجموع رأيت منه نيفاً وعشرين جزءاً ، من جملة ماجمع للحكم الملقب بالناصر الاموي ومن شعره السائر :

الجسم في بلد والروح في بلد　　ياوحشة الروح بل ياغربة الجسد
ان تبك عيناك لي يامن كلفت به　　من رحمة منهما سهمان في كبد

ومن شعره :

ودعتني بزفرة المشتاق　　ثم قالت متى يكون التلاقي
وبدت لي فأشرق الصبح منها　　بين تلك الجيوب والاطواق
ياسقيم الجفون من غير سقم　　بين عينيك مصرع العشاق
ان يوم الفراق افظع يوم　　ليتني مت قبل يوم الفراق

ومن شعره ايضاً والأصح أنها للأخطل :

ان الغواني اذا راينك طاوياً　　برد الشباب طوين عنك وصالا
واذا دعونك عمهن فانه　　نسب يزيدك عندهن خبالا

وكتاب العقد الفريد الذي خلد ذكره كما خلد بالاغاني اسم ابي الفرج الاصفهاني قسمه على خمسة وعشرين كتاباً في كل باب منها جزآن ، وكل كتاب باسم جوهرة من جواهر العقد ، فأولها كتاب اللؤلؤة في السلطان ثم كتاب الفريدة في الحروب ثم كتاب الزبرجدة في الاجواد ثم كتاب الجمانة في الوفود ثم كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك ثم كتاب الياقوتة في العلم والادب ثم كتاب الجوهرة في الامثال ثم كتاب الزمردة في

المواعظ ثم كتاب الدرة في التعازي والمراثي ثم اليتيمة في الانساب والمسجدة في كلام الاعراب الى غير ذلك مما يدخل فيه الاجوبة والخطب والتوقيعات والفصول والصدور واخبار الكتبة والخلفاء وأيامهم واخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة وايام العرب ووقائعهم وفضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه واعاريض الشعر وعلل القوافي والالحان والنساء وصفاتهن والمتنبئين والممرورين والطفيليين والتحف والهدايا والملح والطعام والشراب وطبائع الانسان والحيوان وتفاضل البلدان .

وفق المؤلف الى هذا التقسيم والتنسيق في تأليفه فحبب الى عشاق الادب تداوله ، وراج في الشرق على مر العصور وان كان اصله من ارضه ، تسوّقه مؤلفه من بضائع المشرق واسواقه . ندر من اجادوا جمع الادب ، والاجادة تتوقف على ذوق عالٍ ، ومادة واسعة في الشعر والخطب ، فابان فيما نقل عن حسن اختياره واختيار الكلام كما قال المؤلف اصعب من تأليفه ، واختيار الرجل وافد عقله . ورأينا مثالاً من ذلك في الاغاني ومحاضرات الراغب وعيون الاخبار لابن قتيبة . فكتاب العقد انتقاه اذاً غربي من كلام مشارقة فجاء زبدة من ادب العرب في زهو اللغة في الجاهلية والاسلام ، بل معلمة من كلام اهل القرون الثلاثة الاولى منقحة مصححة . وقالوا ان الصاحب بن عباد حرص على كتاب العقد حتى حصل عنده فلما تأمله قال : هذه بضاعتنا ردت الينا ، ظننت ان هذا الكتاب يشتمل على شيء من اخبار بلادهم وانما هو مشتمل على اخبار بلادنا ولا حاجة لنا فيه فرده . واذا ثبت حكم الصاحب على كتاب العقد فلا يعقل ان يرده بهذه السماجة وهو الذي جمع خزانة فيها الوف من الاجزاء وبعضها قد لا يكون من الممتع ، فالعقد الفريد لا يزهد فيه الصاحب على هذا الوجه ، وهو مهما كان مقداره قمين ان يجد له مكاناً في رفوف خزانته العظيمة .

(١٠)

المسعودى

ابو الحسن علي بن الحسين بن علي الهذلي

(٣٤٦)

قيل انه من ذرية عبد الله بن مسعود الصحابي ، ولد في ارض بابل وسكن ببغداد ونزل البصرة . ودأب في ريعان العمر على البحث في اخلاق الشعوب وطبائع الامم ، ودرس المظاهر الطبيعية والجغرافية والفلكية ، وكان اخبارياً علامة صاحب غرائب وملح ونوادر ، ومن المكثرين من التأليف والمجودين فيه .

نزل الشام ومصر مدة طويلة وفي سنة ٣١٤ كان في طبرية وفي سنة ٣٣٢ زار انطاكية ومدن الحدود الشامية وبعد رحلة قصيرة عاد الى البصرة وتوطن دمشق سنة ٣٣٤ وفي مصر مات سنة ٣٤٥ او ٣٤٦ ترجم له صاحب طبقات الشافعية على انه شافعي وقيل انه كان معتزلي العقيدة ، وقال صاحب روضات الجنات انه من أصحابه الامامية وانه الشيخ المتقدم الكامل باعتراف العدو والولي . وعده النجاشي من رواة الشيعة وقال ان له كتباً في اثبات الوصية لعلي بن ابي طالب . وقالوا انه مامون الحديث عند العامة والخاصة . يعنون بالعامة اهل السنة وبالخاصة الشيعة . وظاهر كلامه في كتابه « مروج الذهب » انه عامي او شيعي متق ، ولم يقبله بعض رجال الشيعة في جملتهم لأنه ذكر في مروج الذهب أيام خلافة الاول والثاني ثم خلافة علي ثم خلفاء بني أمية ثم بني العباس وذكر سيرهم وآثارهم وقصصهم وأخبارهم على طريقة العامة ونحو توارنجهم

من دون تعرض لذكر مساويهم وقبائحهم كظلمهم أهل البيت وغير ذلك .
ومعنى هذا انهم يريدون السكوت عما وقع وأن يطعن على كل من ولي الخلافة على غير شرطهم . والمسعودي ممن آمن على ما يظهر بالامر الواقع ، وما أحب أن يخرج عن طور المؤرخ في الجملة ، ولو نظرنا بعض ما قاله في يزيد بن معاوية مما لا يؤيده التاريخ لشهدنا أنه خدم التشيع خدمة ناقض فيها ثقات أصحاب الاخبار .

وربما كان المسعودي ممن يهتم للتاريخ اكثر اهتمامه بأن يقال فيه انه شيعي او سني . ومما امتاز به بين مؤرخي القرون الاولى انه كان من عشاق الرحلات طاف كما قال بلاد السند والزنج والصنف (جنوبي الكوشنشين) والصين والزابج (جاوة) وتقحم الشرق والغرب فتارة بأقصى خرسان وتارة بواسط وارمينية واذربيجان والران والبلقان ، وطوراً بالعراق وطوراً بالشام . وقال انه فاوض اصناف الملوك على تغاير اخلافهم ، وتباين هممهم وتباعد ديارهم ، ومع ان عصره خير عصور العلم في الاسلام شكا من كساده قائلاً ان العلم قد بادت آثاره ، وطمس مناره ، وكثر فيه الغباء وقل الفهماء ، فلا تعاين الا موهماً جاهلاً ، ومتعاطياً ناقصاً .

قد يذهب الظن ان صحت شيعية المسعودي الى انه تأثر بالدعوة الفاطمية ، او انه من دعاة الفاطميين وقد قاموا في ايامه بدعايات منظمة في وادي النيل وما اليه ، قبل ان يفتحها قائدهم جوهر الصقلي بزمن . ولا يعقل الا يطلع على دعوتهم ويطالبونه او يطالب نفسه بخدمتهم ، وهو الذي عرف من انحطاط بني العباس في ايامه ماتعالم امره ، وله من مذهبه مايحمله على الدعوة لآل البيت ، على انه لم يتعرض لهم كثيراً فيما وصلنا من كلامه ، وقد الف كتاب « التنبيه والاشراف » في سنة ٣٤٥ ودولة الفاطميين قامت في افريقية سنة ٢٩٦ وما انفك العبيديون يغزون مصر منذ سنة ٣٠١ ويبثون في الارجاء دعاتهم ويدعون سراً الى

مذهبهم . هذا رأي لنا والايام كفيلة بكشف ما اذا كان شيعياً او في حالة بين بين .

لم نعرف في الواقع نوع الدراسات التي تمحض لها المسعودي لأول أمره ، وكان من أساتذته : نفطويه ، والجمحي ، والبادي من كتبه انه عُني بالتاريخ والجغرافيا كل العناية ، وكذلك الأدب والمقالات والنحل وطبقات الأرض والمعادن والجواهر والفلك والسياسة والرجال . وما نقل من معلومات عن الشعوب والأمم والأجناس وتاريخها كان فيه اماماً عظيماً ، عاونه على الاجادة ولوعه بالبحث . وهو ممن كتبوا عن مشاهدة ، وما وصفه من الامصار والاقطار دليل على سعة معارفه وشدة ملاحظته حتى ليكاد يحسب ما كتبه من هـــذا القبيل المرجع الوحيد في بعض الموضوعات . وقد يتفق الا يتعمق في درس بعض المسائل ويذكرها كما رويت له ، لذلك أورد أساطير وخرافات أخذها كما رويت ولم يعلق عليها نقداً من عنده ، وليس لنا أن نطعن عليه في ذلك لان ما نقله كان شائعاً وهو يرمي الى تصوير الافكار في عصره ويتفلسف ما وسعته بيئته .

ألف المسعودي في ضروب المقالات وأنواع الديانات ككتاب « الابانة عن أصول الديانة » وكتاب « المقالات في أصول الديانات » وكتاب « سر الحياة » وكتاب « نظم الأدلة في أصول الملة » وما اشتمل عليه من أصول الفتوى وقوانين الاحكام وكتاب « الاستبصار في الامامة » ووصف اقاويل الناس في ذلك من اصحاب النص والاختيار وكتاب « الصفوة في الامامة » . وكتب في السياسة المدنية واجزاء المدنية والابانة عن المبادىء وكيفية تركيب العوالم والأجسام السماوية ، وما هو محسوس وغير محسوس من الكثيف واللطيف . وبعض كتبه تثبت انه كان صاحب منزع سياسي كما كان داعية علم ومدنية ، ولذلك رأيناه يعاشر اليهود وغيرهم من ارباب النحل ، وقد نوه في التنبيه والاشراف بأحبار اليهود في عصره ممن عنوا بترجمة التوراة من العبرية .

واهم كتبه المشهورة « مروج الذهب » و « التنبيه والاشراف »
وهو لايفتأ يحيل في كتابيه هذين على كتاب « أخبار الزمان » وكتابه
الأوسط وفنون المعارف وذخائر العلوم وتدابير الممالك والعساكر والاستذكار
لما جرى في سالف الأعصار . وضمن كتابه مروج الذهب خلاصة ما تضمنته
كتبه السالفة في التاريخ جمله تحفة الأشراف من الملوك واهل الدرايات
وقال انه لم يترك نوعاً من العلوم ، ولا فناً من الأخبار ، ولا طريقة
من الآثار ، الا اورده في كتابه مفصلاً او مجملاً او اشار اليه . واودع
كتابه التنبيه والاشراف لُمَعاً من ذكر الأفلاك وهيئاتها والنجوم
وتأثيراتها والعناصر وتراكيبها وكيفية أفعالها والبيان عن قسمة الأزمنة
وفصول السنة والرياح ومهابها والأرض وشكلها وتأثيراتها في سكانها .
وذكر الأقاليم السبعة وعروض البلدان واطوالها ، والأهوية وتأثيراتها ،
والبحار والأنهار ، ثم تكلم على الدول القديمة كالفرس والسريان والروم
وعلى دولة العرب من عصر الجاهلية الى قبيل وفاته .

قال انه ما دعاه الى تأليف كتبه هذه في التاريخ واخبار العالم محبة
احتذاء الشاكلة التي قصدها العلماء ، وان يبقى له ذكراً محموداً ، وعلماً
منظوماً عتيداً ، الا لأنه وجد مصنفي الكتب بين مجيد ومقصر ، ومسهب
ومختصر ، ولأنه وجد الأخبار زائدة وربما غاب البارع منها على الفطن
الذكي ، ولكل واحد قسطه يخصه بمقدار عنايته ، ولكل اقليم عجائب
يقتصر على عملها اهله ، وليس من لزم حجرات وطنه وقنع بما نُمي اليه
من الأخبار عن اقليمه ، كمن قسم عمره على قطع الأقطار ، ووزع
ايامه بين تقاذف الاسفار ، واستخرج كل دقيق من معدنه ، وأثار كل
نفيس من مكمنه . قال : ولو كان لا يؤلف كتاباً الا من حوى جميع
العلوم ، اذاً ما ألف احد كتاباً ولا تأتى له تصنيف .

قال العلامة بروكلمان : ان الاضطراب المتواصل في حياة المسعودي قد عين
صورة انتاجه الادبي وقد خلف معلومات ثمينة عما طافه من البلاد المتاخمة

للأقطار الاسلامية . وكان عرضه لما جمعه من المواد يشبه بنقصه بحثه ، اذ لم يتبع نظاماً معيناً ، وكان يحيد ابداً عن موضوعه ويستطرد استطرادات يراها ضرورية ، وتناولت ابحاثه ما كان يهم معاصريه من المعارف تقريباً كالفلسفة الطبيعية والادب والسياسة والملل والنحل .

اما العلامة كترمير فقد احسن ظنه بالمسعودي اكثر من هذا وقال : انه كان اجدر بالمؤرخين والجغرافيين العرب المتأخرين ان يتخذوا المسعودي اماماً في تاريخ الاديان والعلوم دون هؤلاء المؤرخين الرواة الجهلة المقصرين في التمحيص والنقد ، وقد حداه على درس اخلاق الشعوب وآرائهم ومذاهبهم حب الاستطلاع العلمي وبراءته من التعصب لرأي من الآراء ومذهب من المذاهب ، مما جعله على اتصال بالعلماء من كل مذهب ونحلة . وقال العلامة مايرهوف : ولسنا نعرف شيئاً عن فلسفته ، وغاية ما علمنا انه كان على صلة مستديمة مع فلاسفة بغداد ، ولم يبق من كتبه العشرين تقريباً وياللأسف الا كتاب التنبيه والمروج وجزء من كتاب أخبار الزمان وهي كتب غاصة بالأخبار التاريخية والجغرافية وبأخبار الملل والنحل ، وضياع كتبه الاخرى خسارة لتاريخ العلوم في مبدئها عند العرب لايمكن تعويضها .

كشفنا القناع بعض الشيء عن حياة المسعودي وذلك بالرجوع الى كتابيه المروج والتنبيه والى ما قاله من نظروا في سيرته من العرب والافرنج فثبت انه من افراد الدهر بعلمه وبحثه وبعد همته ، وغرامه بالتنقل في الآفاق ، بما لم يوفق الى احتذاء مثاله من سبقوه ولحقوه . لا جرم ان المسعودي المؤرخ يعرف مضرة التحزب بسمعته ، فلم يسعه وهو غير راض عن بعض الخلفاء الا ان يذكر تاريخهم ولو بلسان جمجم فيه وتعتع . وهذه الاخطاء التي ارتكبها عمداً او عن غير عمد ، فعبث ببهاء الحق في بعض احكامه ، لم تَحُل دون الانتفاع بتآليفه . ولشيعية المسعودي مدخل كبير في آرائه لأن من جوزوا الكذب على مخالفيهم وغلوا في حب الطالبيين حتى جعلوهم فوق البشر ، وزعموا لهم الكمال المطلق ، وان المعاصي

التاريخ . والمتعصب لفئة يجب
حلال لهم حرام على غيرهم لايؤتمنون على التاريخ . والمتعصب لفئة يجب
الاحتياط في الاخذ عنه بخلاف المتسامح الذي لاضلع له مع أحد . وما
خدم به المسعودي التشيع لم يرض به الشيعة فهو مخالف الاماميين والجماعيين ،
وكل فريق يريده ان يكون له وحده ، وان يقبل مذهبه بحذافيره ،
ويدافع عنه بالحق والباطل . والتشيع ما كان باديء ذي بدء الا بتفضيل
علي بالامامة على الشيخين ؛ حتى ان الشريف المرتضى من اكبر ائمتهم كان
يترضى عن الشيخين ويشمئز ممن ينالهما بسوء ، ويقول انهما وليا وعدلا ،
وكذلك شأن جده الاعلى امير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه
كان يقول ان ابا بكر وعمر ماظلماني ذرة وان ابا بكر أسلم وانا جذعة
اي فتى ، اقول فلا يسمع لقولي فكيف أكون احق بمقام ابي بكر .
عفا الله عن قوم اعمتهم السياسة فأنشأوا من حزب سياسي مذهباً
دينياً ، وكفروا كل من لم يوافقهم على هواهم ، وجاء متأخروهم فأدخلوا
في معتقداتهم ما لم يقل به متقدموهم وفرقوا بين اجزاء القلوب . وأشد
ما يمرض النفوس في هذا الباب ان يعبث بالتاريخ من أجل المذهب
ويموه السخفاء ليصوروا الاحداث على ما يشاؤون لتأييد مذهبهم[1] .

---

(١) ومن سفهائهم رجل اسمه شهراشوب من اهل القرن السادس كتب كتاباً في
مناقب آل ابي طالب حشاه كذباً واختلاقاً ما نظن عاقلاً في الأرض يوافقه عليه .
وكتابه من اسخف ما أثر من سلسلة تلك السخافات ، شتم فيه الصحابة الكرام كلهم ما عدا
بضعة منهم كانوا مع عليّ ، واختلق كل قبيح ألصقه برجال لا يدين الاسلام لغيرهم في
انتشاره ، وأورد من الشعر لاثبات أباطيله ما هو سبة على قائله وناقله على وجه الدهر .

(١١)

ابن جرير الطبري

محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب ابو جعفر

(٣١٠)

هذا رجل اشتغل لخدمة القرآن والحديث والفقه والتاريخ ولم يلتفت الى غير ما أخذ من نفسه ، وهيأته الفطرة له ، وعاش ماعاش وما عهد عليه ان زُنَّ بهناة ، او حاد قيدَ انملة عن الخطة التي اختطها في خدمة العلم . كان مثالاً باهراً بألمعيته وحريته ودهائه ومضائه . تجسدت فيه الامانة وهي الصفة الاولى للعالم فوقع الاجماع على قبول كلامه او كاد . كان عارفاً كل المعرفة بسياسة العلم فوصل بأناته الى ان تم له ماأراده من صنوفه ، وسعد بأن كتب البقاء لمصنفاته وستبقى من اهم المراجع مابقيت اللغة العربية والشريعة المحمدية .

ولد بآمل طبرستان سنة خمس وعشرين ومائتين وتوفي في بغداد . وكان اسمر اعين نحيف الجسم مديد القامة فصيح اللسان ، نبغ في العلم صغيراً فحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين وصلى بالناس وهو ابن ثماني سنين وكتب الحديث وهو ابن تسع سنين ، واخذ الفقه عن داود كما اخذ فقه مالك وفقه الشافعي ، وسمع الحديث في الريّ وبغداد والكوفة والبصرة والشام ومصر حتى « جمع من العلوم مالم يشاركه فيه احد من اهل عصره » و « نظر في المنطق والحساب والجبر والمقابلة وكثير من فنون ابواب الحساب وفي الطب » « وكان كالقارىء الذي لايعرف الا القرآن وكالمحدث الذي لايعرف الا الحديث وكالفقيه الذي لايعرف الا الفقه وكالنحوي الذي

لايعرف الا النحو وكالحاسب الذي لايعرف الا الحساب ... واذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت الكتبه فضلاً عن غيرها »

ولما دخل مصر لم يبق احد من اهل العلم الا لقيه وامتحنه في العلم الذي يتحقق به . قال « فجاءني رجل فسألني عن شيء من العروض ، ولم اكن نشطت له قبل ذلك ، فقلت عليَّ قول الا اتكلم اليوم في شيء من العروض ، فاذا كان في غد فصر اليّ ، وطلبت من صديق العروض للخليل بن احمد ، فجاء به فنظرت فيه ليلتي فامسيت غير عروضي واصبحت عروضياً » اي ان الرجل العارف بالقرآن البصير بالمعاني الفقيه بأحكام القرآن العالم بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها ، والحافظ اقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المخالفين في الاحكام ومسائل الحلال والحرام والعارف بأيام الناس - لم يحب لنفسه جهلها بالعروض فدرسه في ليلته وحذقه كما يحذقه من اشتغل به اشهراً .

هذه اوجه درسه وبحثه ، والاهم من هذا امتيازه باخلاقه وعقله وبها عدّ اماماً من ائمة العلم « يحكم بقوله ويرجع الى رأيه » « وتفرد بمسائل حفظت عنه » فله مذهب خاص انقطع اتباعه فيه بعد الاربعمائة ، وكان اظهر مذهب الشافعي وافتى به عشر سنين ، قال الفرغاني : فلما اتسع علمه اداه اجتهاده وبحثه الى مااختاره في كل صنف من العلوم في كتبه وهذه فقدت اي كتب مذهبه .

قالوا لما دخل بغداد كانت معه بضاعة يتقوّت منها فسرقت ، فقال له بعض اصدقائه : تنشط لتأديب ولد الوزير ابي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان فأجاب الى ذلك ، فأجرى عليه عشرة دنانير في الشهر ، فلما كتب الصبي اخذ الخادم اللوح ودخلوا مستبشرين فلم تبق جارية الا أهدت اليه صينية فيها دراهم ودنانير فرد الجميع وقال : قد شورطت على شيء وما هذا لي بحق ، وما آخذ الا ما شورطت عليه . ولما قال له الوزير : ان أمهات الأولاد يغممن من رده قال : هؤلاء عبيد ، والعبيد

لايملكون شيئاً ، فعظم في نفس الوزير . وكان ربما اهدى اليه بعض أصدقائه الشيء من المأكول فيقبله اتباعاً للسنة ، ويكافئه لعظم مروءته أضعافاً ، وربما يجحف به فكان اصدقاؤه يجتنبون مهاداته .

ولما ورد مصر في سنة ٢٥٦ نزل على الربيع بن سليمان فأمر من يأخذ له داراً قريبة منه قال « وجاءني اصحابه فقالوا : تحتاج الى قصرية وزير وحمارين وسدة فقلت : أما القصرية فانا لا ولد لي وما حللت سراويلي على حرام ولا على حلال قط ، وأما الزير فمن الملاهي وليس هذا من شأني ، واما الحماران فان ابي وهب لي بضاعة أنا استعين بها في طلب العلم ، فان صرفتها في ثمن حمارين فبأي شيء أطلب العلم . قال : فتبسموا . فقلت : الى كم يحتاج هذا ؟ فقالوا يحتاج الى درهمين وثلثين فأخذوا ذلك مني ، وعلمت انها اشياء متفقة ، وجاءوني بأجانة وجب للماء واربع خشبات قد شدوا وسطها بشريط وقالوا : الزير للماء والقصرية للخبز والحماران والسدة تنام عليها من البراغيث ، فكنت اذا جئت نزعت ثيابي وعلقتها على حبل قد شددته واتزرت وصعدت الى السدة . »

بقي ابن جرير يعيش من مال ابيه وكان ابوه من أهل اليسار ، وقد يضيق ولا يسفّ الى تناول شيء من أحد مهما عظمت منزلته ، وظل قانعاً بما يرد عليه من قرية يسيرة خلفها له أبوه بطبرستان ، وابطأت عليه نفقة والده مرة فاضطر الى ان يفتق كمي القميص ويبيعها . اراد المكتفي الخليفة ان يقف وقفاً تجتمع أقاويل العلماء على صحته ويسلم من الخلاف فأحضروا ابن جرير فأملى عليهم كتاباً لذلك فأخرجت له جائزة سنية فأبى أن يقبلها فقيل له لابد من جائزة أو قضاء حاجة فقال : نعم الحاجة أسأل أمير المؤمنين أن يتقدم الى الشُرَطَ ان يمنعوا السؤال من دخول المقصورة يوم الجمعة فتقدم بذلك وعظم في نفوسهم .

أرسل العباس بن الحسن الوزير الى ابن جرير : قد أحببت ان انظر

في الفقه ، وسأله أن يعمل مختصراً فعمل له كتاب الخفيف وأنفذه ، فوجه اليه الف الف دينار فلم يقبلها ، فقيل له تصدق بها فلم يفعل . ولما تقلد الخاقاني الوزارة وجه اليه بمال كثير فأبى ان يقبله فعرض عليه القضاء فامتنع فعاتبه أصحابه وقالوا له : لك في هذا ثواب وتحيي سنة قد درست ، وطمعوا في أن يقبل ولاية المظالم فانتهرهم وقال : قد كنت أظن اني لو رغبت في ذلك لنهيتموني عنه . ونحن نقول ان هذه العطايا لو منحها الامامان ابو يوسف والفخر الرازي لاستحلا أخذها وشكرا عليها وضماها بلباقة الى أموالها العظيمة . وابن جرير بهذا الاباء يبقى اسمه مقدساً بكل شفة ولسان على مر الزمان .

ومن شعر الطبري :

اذا أعسرت لم يعلم رفيقي — وأستغني فيستغني صديقي
حيائي حافظ لي ماءَ وجهي — ورفقي في مطالبتي رفيقي
ولو أني سمحت ببذل وجهي — لكنت الى الغنى سهل الطريق

وقال :

خلقان لاأرضى طريقهما — بطر الغنى ومذلة الفقر
فاذا غنيتَ فلا تكن بَطراً — واذا افتقرت فته على الدهر

مثال من بعد نظره وسعة عقله وعلمه بزمانه : لما خلع المقتدر وبويع ابن المعتز دخلوا على ابن جرير الطبري فقال : ما الخبر ؟ قيل بويع ابن المعتز ، قال : ومن رشح لوزارته ؟ قيل ابن الجراح . قال : فمن ذكر للقضاء ؟ قيل : ابو المثنى . فأطرق ثم قال : هذا امر لايتم ، قيل : وكيف ؟ قال : كل واحد من هؤلاء متقدم في معناه ، والزمان مدبر والدنيا مولية ، فما أرى هذا الا الى الاضمحلال وكان كما قال : جرت حرب بين غلمان المريدين للمقتدر وبين المريدين لابن المعتز ، فانهزم ابن المعتز وتفرق أصحابه ، ثم أمسك وحبس ليلتين وقتل خنقاً ، فكانت خلافته يوماً واحداً .

واذا عرضنا لذكر تآليف ابن جرير فانا نرى اعظمها تفسيره وتاريخه اما تفسيره فقد جوّده وبين فيه احكام القرآن وناسخه ومنسوخه ومشكله وغريبه ومعانيه واختلاف اهل التأويل والعلماء في احكامه وتأويله والصحيح لديه من ذلك واعراب حروفه والكلام على الملحدين فيه والقصص وأخبار الأمم والقيامة وغير ذلك مما حواه من الحكم والعجائب كلمة كلمة وآية آية ، من الاستعاذة الى ابي جاد ، فلو ادعى عالم ان يُصنّف منه عشرة كتب كل كتاب منها يحتوي على علم مفرد عجيب مستقصى لفعل .
وقد ضرب التوحيدي المثل بتفسير ابن جرير واسمه «جامع البيان» وقال السيوطي من المتأخرين انه يوجه الأقوال ويرجح بعضها على بعض ويعرب ويستنبط فهو يفوق بذلك تفاسير الاقدمين .

اطال ابن جرير في تفسيره وفي تاريخه وكانت النعمة على العلم في هذا التطويل . وكان من نيته ان يتوسع اكثر مما توسع فقد ذكروا أنه قال لاصحابه قبل وضع هذين الكتابين العظيمين : اتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ فقال ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا : هذا مما تفنى الاعمار قبل تمامه فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة . ثم قال : هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم الى وقتنا ؟ قالوا : كم قدره ؟ فذكر نحواً مما ذكره في التفسير ، فأجابوا بمثل ذلك فقال : انا لله ، ماتت الهمم ، فاختصره في نحو ما اختصر التفسير .

اما تاريخه فقد رتبه على السنين وضمنه ماخلت منه الكتب التي في الايدي ، واستفاد الناس من تطويله الذي ما ارتضاه وعده مختصراً . وصفه المسعودي المؤرخ فقال : انه الزاهي على المؤلفات ، والزائد على الكتب ، فقد جمع الاخبار ، وحوى فنون الآثار ، واشتمل على ضروب العلم ، وهو كتاب تكثر فائدته وتنفع عائدته وكيف لايكون كذلك ومؤلفه فقيه عصره ، وناسك دهره ، واليه انتهت علوم فقهاء الامصار ، وحملة السير والآثار .

وأكثر اعتماد ابن خلدون المؤرخ في النقل على تاريخ ابن جرير هذا ، قال : لأنه أوثق من رآه في ذلك وابعد عن المطاعن في كبار الأمة من خيارهم وعدولهم من الصحابة والتابعين . كلام حق وفي كتابه تقرأ تؤدة العلماء ووقار الحكماء وتقتنع انك تنفذ الى حقائق التاريخ لأن مؤلفه متصف بصفات الكمال لامطعن عليه في شيء ، حتى صار كتاب « الرسل والملوك » المصدر الاول في التاريخ الاسلامي أخذ عمن تقدمه ، ومنهم من أهل الاهواء المخالفين لمذهبه كأبي مخنف (١) فاقتبس من كلامه ماراقه واعتقد صحته ، أخذ النقاوة وترك النفاوة . وكتابه المصدر الوحيد لكل من جاء بعده ، يجد فيه كل طالب بغيته ، ويتجسم له الصدق يتدفق من خلال كلامه لا يجرح سليماً ، ولا يوثق كذوباً ، ولا يقذف في عظيم ، ولا يتهم بريئاً .

قال صاحبه الفرغاني : كان محمد بن جرير ممن لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولا يعدل في علمه وتبيانه عن حق يلزمه لربه وللمسلمين الى باطل لرغبة ولا رهبة ، مع عظيم ماكان يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد ، واما اهل العلم والدين فغير منكرين علمه وفضله وزهده وتركه الدنيا مع اقبالها عليه ، وقناعته بما كان يرد عليه من قرية خلفها له ابوه بطبرستان يسيرة .

١ التعصب المذهبي تعصب عليه الحنابلة ووقعوا فيه فتبعهم غيرهم ، ولذلك سبب : وهو ان الطبري جمع كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء لم يصنف مثله ، ولم يذكر فيه احمد بن حنبل ، فقيل له في ذلك فقال : لم يكن فقيهاً وانما كان محدثاً . فاشتد ذلك على الحنابلة فشغبوا عليه ، وكانوا يشغبون لأقل من هذا . حتى اضطر اصحابه ان يدفنوه في بيته مخافة ان تطول

---

(١) كان ابو مخنف لوط بن يحيى المؤرخ شيعياً (١٥٧) وكذلك الواقدي . وابو مخنف كما قال العلماء يزيد على غيره بأمر العراق واخبارها وفتوحها ، والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس ، والواقدي بالحجاز والسيرة . وقد اشتركوا في فتوح الشام .

اليه ايدي الحنابلة بالايذاء بعد وفاته ، قال المؤرخون : ادعوا عليه الرفض ثم ادعو عليه الالحاد !

هذه سيرة من اطيب سير الرجال يقل في وصف صاحبها ما اعتاد الناس ان يطلقوه من الألفاظ في وصف العلماء العاملين ، وكفى ان يقال انه كان مأموناً على الاسلام وعلى تاريخه ، وانه ما حاد ذرة عن هدي أرباب الاخلاق ، وما عدت له سقطة يسقط فيها أكثر المؤلفين ، وما أثر عنه انه اضاع دقيقة من حياته في غير الافادة والاستفادة . روى المعافا بن زكريا عن بعض الثقات انه كان بحضرة ابي جعفر الطبري رحمه الله قبل موته ، وتوفي بعد ساعة أو اقل منها ، فذكر له هذا الدعاء عن جعفر بن محمد فاستدعى محبرة وصحيفة فكتبها فقيل له : أفي هذه الحال ؟ فقال : ينبغي للانسان ألا يدع اقتباس العلم حتى الممات .

ابن دريد

ابو بكر محمد بن الحسن

(٣٢١)

يتصل نسبه بيعرب بن قحطان . ودُرَيْد تصغير ادرد الذي ليس فيه سن ، وهو من الازد . والازد سكنوا مأرب ، ولما تفرقوا نزل بعضهم لحمان ومنهم بعض اجداده . ولد ابن دريد في البصرة سنة ثلاث وعشرين ومائتين وعاش ثماني وتسعين سنة .

نشأ في عُمان والبصرة وفي هذه قرأ على ابي عثمان الأشناندانى وكفله عمه وعليه قرأ مبادىء العلم . ومن أساتذته ابو حاتم السجستاني والرياشي والتوزي والزيادي وغيرهم من أجلة العصر . كان اماماً في اللغة والنسب والشعر ، آية في الحفظ حفظ كثيراً من دواوين العرب ، وقيل انه أملى كتاب الجمهرة من حفظه وهو ابن اربع وسبعين سنة . ورحل ابن دريد الى الاهواز يؤدب اسماعيل بن ميكال وكان ابوه عبد الله تولاها وبقي مع الأب والابن مدة ولاية الأب عليها ، وقلده عبد الله ديوان فارس فكانت تصدر كتبها عن رأيه . وسكن بغداد كما سكن عمان وطاف في ارجاء الجزيرة جزيرة ابن عمر ، واتصل في بغداد بالخليفة المقتدر فأحله منه اجمل محل وأجرى عليه خمسين ديناراً ، وما كان ابن دريد مقتراً عليه طول حياته ، وكان اهله في سعة من العيش فأفاد مالاً منهم وممن اتصل بهم من الأمراء والخلفاء . كان سخياً سرياً جميل العشرة غير ضنين بعلمه . والغالب انه كان شافعي المذهب ، وان كان سكان عمان وما اليها في ايامه على مذهب الخوارج أي الشراة . وكان يرجع اليه في اللغة ويفتى

بقوله ، تصدّر في العلم ستين سنة . وقالوا ان العلم والشعر ما ازدحما في صدر احد ازدحامها في صدر خلف الاحمر وابن دريد . وقالوا انه كان في شعره طوراً يجزل وطوراً يرق ، وقد نظم في كثير من أغراض الشعر ، وأجمل مانظمه حكمه ومنها مقصورته وفيها مثال من تبحره في اللغة مدح بها الامير أبا العباس اسماعيل بن ميكال رئيس نيسابور ومقدمها وقدم له كتاب الجمهرة . قال أبو العباس : ان ابن دريد أملى عليه كتاب الجمهرة من اوله الى آخره حفظاً وما استعان عليه بالنظر في شيء من الكتب الا في باب الهمزة والألف فانه طالع له بعض الكتب . قال المسعودي : وكان ابن دريد ممن قد برع في زماننا هذا في الشعر وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل ابن احمد فيها ، وأورد اشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين . فان من جيد شعره القصيدة المقصورة التي يمدح بها الشاه بن ميكال ويقال انه أحاط فيها بأكثر المقصور وأولها :

وللشيخ محمد رضا
مقصورة على نهجها
ذكر فيها الاصلاح

أما ترى رأسي حاكى لونه طرّة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل الأبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جمر الغضى

ومنها :

ان الجديدين اذا ما استوليا على جديد أدنياه للبلى

ومنها يقول :

لست اذا ما بهظتني غمرة ممن يقول بلغ السيل الزبى
وان ثوت بين ضلوعي زفرة تملأ ما بين الرجا الى الرجا

ومن مشهور كتبه كتاب الاشتقاق ، وله غير ذلك منها ما طبع ومنها مالم يطبع . وقد « رمي بافتعال العربية وتوليد الالفاظ وادخال ماليس من كلام العرب في كلامها » وهذا مما نستبعده . والذي حصل والله أعلم انه نقل ألفاظاً غير مألوفة أدمجها في شعره ، وعند ظنه انه خدم بها اللغة العربية مثل قوله مثلاً :

أماطت لثاماً عن اقاح الدمائث بمثل أساريع الحقوف العثاعث

ونصت عن الغصن الرطيب سوالفاً | يَشُبُ سناها لون احوى جثاجث
ولاثت تُنَشي مِرطها دعص رملة | سقاها مجاج الطلِّ عَبٌ الدثائث

وبعض هذه الالفاظ مما يحتاج فهمه الى ان يرجع الى مثل الاصمعي وابي زيد لأنها من عويص اللغة تورث الصدر انقباضاً لمن اراد تفهمها ، وبعض من لم يعرف يقتصر الطريق ويقول ان ابن دريد يأتي بما ليس له أصل في اللغة من الكلمات ، بل ان الاصمعي قال في عدة مواقع وقد عرض عليه الكلام العويص انه لم يفهم . أنشدوه مرّة بيتاً لامريء القيس :

وسنٌ كسُنَيق سناء وسُنَّما | ذعَرْت بمدلاج الهجير نهوض

قال الأصمعي : لا أدري ما السن ولا السنيق ولا السنّم .

وقوله :

عصافير وذبان ودود | واجرأ من مجلجلة الذباب

وزاد في تقبيح ذلك وقوعه في ابيات منها :

فقد طوفت في الآفاق حتى | رضيت من الغنيمة بالاياب
وكل مكارم الاخلاق سارت | اليه همتي وبها اكتسابي

وقد استعمل ابن دريد الشعر في تقرير بعض المفردات وجعله سلماً الى تفسير امور صعبة تدخل في قواعد الالفاظ ؛ مثل مايذكر من الاعضاء ولا يؤنث ، وما يؤنث ولا يذكر ، وما يذكر ويؤنث .

ومن شعره العذب :

لو ان قلباً ذاب من كمد | ماكان بين ضلوعه قلب
لو كنت صباً او نسرُ هوى | لعلمتَ ما يتجرع الصب
يهوى اقترابك وهو قاتله | فشفاؤه وسقامه القرب

ومنه :

وليلة ساهرتْ عيني كواكبها | نادمت فيها الصّبا والنوم مطرودُ
تستنبط الراح ماتخفى النفوس وقد | جادت بما منعته الكاعب الرود
والراح تفتر عن درّ وعن ذهب | فالتبر منسبك والدر معقود

بالليل لا تُبح الاصباح حوزتنا   وليحم جانبَه اعطافك السود

وكتب الى ابي الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح الوزير :

ابا حسن ، والمرء يُخلق صورة   تُخبِّر عما ضُمِّنته الغرائز
اذا كنت لا تُرجى لنفع معجل   وامرك بين الشرق والغرب جائز
ولم تكُ يوم الحشر فينا مشفعاً   فرأي الذي يرجوك للنفع عاجز
علي بن عيسى خير يوميك ان تُرى   وفضلك مأمول ووعدك ناجز
واني لأخشى بعد هذا بان تُرى   وبين الذي تهوى وبينك حاجز

وقال :

وما احد من ألسن الناس سالماً   ولو انه ذاكَ النبي المطهر
فان كان مقداماً يقولون اهوج   وان كان مفضالاً يقولون مُبذر
وان كان سكيتاً يقولون ابكم   وان كان منطيقاً يقولون مِهذر
وان كان صواماً وبالليل قائماً   يقولون زرّاف يرائي ويَمكر
فلا تحتفل بالناس بالذم والثنا   ولا تخشَ غير الله فالله اكبر

ومن مليح شعره :

غراء لو جلت الخدور شعاعها   للشمس عند طلوعها لم تشرق
غصن على دِعص تأود فوقه   قمر تألق تحت ليل مطبق
لو قيل للحُسن احتكم لم يَعْدُها   او قيل خاطب غيرها لم يَنطق
وكأننا من فرعها في مغرب   وكأننا من وجهها في مشرق
تبدو فيهتف للعيون ضياؤها   الويل حل بمقلة لم تُطبق

وقال وهو مشهور ومتداول على الالسن :

وحمراء قبل المزج صفراء بعده   اتت بين ثوبي نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق قبل مزاجها   فلما مزجناها حكت خدّ عاشق

وقال :

لاتحقرن عالماً وان خَلقت   اثوابه في عيون رامقه
وانظر اليه بعين ذي خطر   مهذب الرأي في طرائقه

فالمسك بينا تراه ممتهناً بفهر عطاره وساحقه
حتى تراه بعارضي ملك او موضع التاج من مفارقه

وله ايضاً :

العالم العاقل ابن نفسه اغناه جنس علمه عن جنسه
كن ابن من شئت وكن مؤدباً فانما المرء بفضل كيسه
وليس من تكرمه لغيره مثل الذي تكرمه لنفسه

وقال في اخلاق الناس :

ارى الناس قد أغروا ببغي وريبة وغيّ اذا ما ميز الناسَ عاقل
وقد لزموا معنى الخلاف فكلهم الى نحو ما عاب الخليقة مائل
اذا ما رأوا خيراً رموه بظنة وان عاينوا شراً فكلٌ مناضل
وليس امرؤ منهم بناج من الاذى ولا فيهم عن زلة متغافل
وان عاينوا حبراً اديباً مهذباً حسيباً يقولوا انه لمخاتل
وان كان ذا ذهن رموه ببدعة وسموه زنديقاً وفيه يُحاول
وان كان ذا دين يُسمّوه نعجة وليس له عقل ولا فيه طائل
وان كان ذا صمت يقولون صورةٌ ممثلة بالعيّ بل هو جاهل
وان كان ذا شر فويل لأمه لما عنه يحكي من تضمّ المحافل
وان كان ذا أصل يقولون انما يفاخر بالموتى وما هو زائل
وان كان مجهولاً فذلك عندهم كبيض رمال ليس يعرف عامل
وان كان ذا مال يقولون ماله من السحت قد رابى وبئس المآكل
وان كان ذا فقر فقد ذلّ بينهم حقيراً مهيناً تزدريه الأراذل
وان قنع المسكين قالوا لقلة وشحة نفس قد حوتها الأنامل
وان هو لم يقنع يقولون انما يطالب من لم يعطه ويقاتل
وان يكتسب مالاً يقولوا بهيمةٌ أتاها من المقدور حظ ونائل
وان جاد قالوا مسرف ومبذر وان لم يجُد قالوا شحيح وباخل
وان صاحب الغلمان قالوا لريبة وان اجملوا في اللفظ قالوا مباذل
وان هويَ النسوان سمّوه فاجراً وان عفّ قالوا ذاك خنثى وباطل

وان تاب قالوا لم يتب منه عادة ... ولكن لافلاس وما ثمّ حاصل
وان حج قالوا ليس لله حجه ... وذاك رياء أنتجته المحافل
وان كان بالشطرنج والنرد لاعباً ... ولاعبَ ذا الآداب قالوا مداخل
وان كان في كل المذاهب فائزاً ... وكان خفيف الروح قالوا مثاقل
وان كان معزاماً يقولون أهوج ... وان كان ذا ثبت يقولون باطل
وان يعتلل يوماً يقولوا عقوبة ... لشر الذي يأتي وما هو فاعل
وان مات قالوا لم يمت حتف انفه ... لما هو من شر المآكل آكل
وما الناس الا جاحد ومعاند ... وذو حسد قد بان فيه التخاذل
فلا تتركن حقاً لخيفة قائل ... فان الذي تخشى وتحذر حاصل

هذا شعر ابن دريد وهذه حكمه وقد جاء منها في مقصورته الشيء الكثير حتى كاد يكون في حكم الأمثال ، ولم نطلع فيما اطلعنا عليه من مؤلفاته على شيء من نثره ولا شك ان له منه طائفة خصوصاً وقد تقلد الدواوين وكان الحاكم يصدر عن آرائه فبالشعر لاتتم هذه المقاصد ، ومن العادة ان يغفل النثر ويتهالك على جمع القريض ولو كان من السقط الذي يجب ان يرذل .

(١٣)

ابن الداية

احمد بن يوسف الكاتب

(٣٣٠)

كان يوسف بن ابراهيم ، والد احمد بن يوسف المعروف بابن الداية ولد داية ابن المهدي العباسي وكاتب ابراهيم بن المهدي ورضيعه ومدبّر امواله وضياعه ،يُعَدُّ من كتاب الدرجة الأولى ، له كتاب الطبيخ وكتاب اخبار ابراهيم بن المهدي . وانتقل من بغداد الى مصر ولم يعرف سبب انتقاله ولا سنة هجرته وغاية ماعُلم انه جاء دمشق سنة ٢٢٥ ولعل في هذا العام كانت هجرته من بغداد .

كان يوسف من اهل المروءات التامة والعصبيات العظيمة ، وكان متمولاً ابتاع الضياع وتقبّل المزارع فنمت امواله وافضل منها على عُفاته ، فكان يجري على عشرات من اهل الستر من الأشراف وغيرهم في مدينة الفسطاط . حبسه ابن طولون مرة في بعض داره ، وكان اعتقال الرجل في داره يؤيس من خلاصه ، فجاء جماعة الى احمد بن طولون وبكوا وطلبوا اليه ان يقتلهم ان كان معتزماً على قتله . وقالوا ان لهم ثلاثين سنة ما فكروا في ابتياع شيء مما احتاجوا له ولا وقفوا بباب غيره . وكل هذا يزيد في خوف ابن طولون من يوسف بن ابراهيم فيقوم في نفسه انه عَيْن عليه يتسقط اخباره وينهي بها الى بغداد وهو من صنائع خلفائها وربيب نعمتهم .

ولما هلك يوسف بن ابراهيم اخذ ابن طولون صندوقين من كتبه ، وبين يديه رجل من اشراف الطالبيين ، فوقع على دفتر جراياته على

الاشراف وغيرهم فوجد اسم الطالبي في الجراية فقال له : وكانت عليك جراية يوسف بن ابراهيم ؟ فقال له : نعم ايها الامير ، دخلت هذه المدينة وانا مملق ، فأجرى عليّ في كل سنة مائتي دينار ، اسوة بابن الأرفط والعقيقي وغيرهما ، ثم امتلأت يداي بطَوْل الأمير فاستعفيت منها .

في هذه البيئة الرُوِيّة بمكارم الاخلاق ، العريقة في الآداب والفضل نشأ احمد بن يوسف في نعمة سابغة ، وسراوة ظاهرة ، تخرج في الآداب ، وتفنن في اخذ العلوم ، فجاء كاتباً سريّاً ، وشاعراً مجيداً ، وطبيباً نطاسياً ، يحكم الرياضيات ، ويحذق الطبيعيات ، ويعلم النجوم . وصفه بعض واصفيه بانه مجسطي اوقليدسي ، وكان يعرف في العراق بالمهندس ، ذكروا انه عرف بالشعر ولم يذكروا ان انشاءه فوق كل هذا . ولم يصلنا من شعره سوى بضعة ابيات قالها على البديهة لما خرج عليه الاعراب في بعض ارجاء مصر وانقذه المُخَفّرون من شرهم فقال فيهم :

جزى الله خيراً معشراً حقنوا دمي — وقد شرعت نحوي المثقفة السُمرُ
دراهمهم مبذولة لضعيفهم — واعراضهم من دونها الغَفْر والستر
اذا ما اغاروا واستباحوا غنيمة — اغار عليهم في رحالهم الشكر
وان نزلوا قطراً من الارض شاسعاً — فما ضرّه الا يكون به قَطْر

وكان كتب الى صديقه ابي الفياض سوّار بن شُراعة الشاعر لما اعتزم الرجوع الى بغداد مقدار خمسين ورقة من شعره ، وكان يستحسنه ويعجب به ولم يؤثر منه الا بيت واحد :

ظَلِلنا بها نستنزل الدنّ صفوها — فينزل اقباساً بغير لهيب

كتب احمد بن يوسف سيرة احمد بن طولون وسيرة ابنه ابي الجيش خمارويه وسيرة هارون بن ابي الجيش ، واخبار غلمان بني طولون اي رجالهم والقائمين بأمرهم ، وفسّر كتاب الثمرة لبطلميوس ، ولعله كان في علم الفلك . ومن تآليفه أخبار الاطباء واخبار المنجمين ومختصر المنطق ألفه للوزير علي بن عيسى وغيرذلك ، والكتاب الصغير الذي عرّفنا

في الحقيقة الى احمد بن يوسف كتاب « المكافأة » روى فيه قصصا سمعها او رآها هو او رواها له من شاهدها في مصر والعراق ومنهم والده ورجال ابن طولون ، ساق احدى وثلاثين قصة في المكافأة على الحسن واحدى وعشرين قصة على القبيح وتسع عشرة قصة في حسن العقبى . رجاء « ان يكون ذلك عوناً للاستكثار من مواصلة الخير وتطلب العارفة في الحسن ، وزجر النفس عن متابعة الشر ، وابعادها عن سورة الانتقام في القبيح » قال في المدخل الى القسم الثالث : « رأيت ان اصل ذلك (حفظك الله) بطرف من اخبار من ابتلي فصبر . فكان ثمرة صبره حسن العقبى ، لان النفس اذا لم تُعن عند الشدائد بما يجدد قواها تولى عليها اليأس فأهلكها . وقد علم الانسان ان سُفور الحالة عن ضدها حتمٌ لا بد منه ، كما علم ان انجلاء الليل يُسفر عن النهار ، ولكن خَور الطبيعة اشد ما يلازم النفس عند نزول الكوارث ، فاذا لم نعالج بالدواء اشتدت العلة وازدادت المحنة ، والتفكر في اخبار هذا الباب مما يشجع النفس ويبعثها على ملازمة الصبر وحسن الأدب مع الرب (عز وجل) بحسن الظن في مواتاة الاحسان عند نهاية الامتحان . »

كل ذلك كتبه باسلوب رشيق وبألفاظ مختارة عذبة لا ترى أدنى اثر للتكلف في نسجها ، صاغ كلامه صياغة صناع اليد فأبدع جـــديداً وأتى بغرائب من اخبار الناس ، ومن اتاهم بمثل هذا الضرب الطريف من الأدب تعاظموه واكبروا بيانه . ولعل احمد بن يوسف لم يكن دون ابن المقفع ببلاغته وقد سلكَ معه في سلك واحد وينقل عنه ويقول ان هذا مما نقله ابن المقفع عن الفرس وتعالمه العرب ، وربما زاد على ابن المقفع انه كان اقرب الى الحياة لامتزاجه بالسوقة من فلاحين وتجار ورجال الدولة وعلمائها ومهندسيها وقوادها ، وكان يعيش وابوه من قبله من الزراعة فعرف طرق الكسب الحلال وطرق تثمير المال وعرف طبقات الناس بكل ما انطووا عليه من خير وشر .

ولو قد ابقت الأيام على بعض ما كتبه هذا المؤلف المظيم لكان منه مادة في البلاغة والتاريخ والسياسة والعلم توفي على الغاية ولا سيما ما كان منه خاصاً بوصف عصره ورجاله . ومن عجائب الدهر ان تفقد كتب من جودوا التأليف وتبقى مؤلفات من لم يحسنوا الاحسان المطلوب يتناقل الخلف تآليفهم .

وربما كان لنكبة الطولونيين (٢٩٢) وقضاء العباسيين على دولتهم صلة كبيرة بضياع كتب ابن الداية وفيها ولا شك الشيء الكثير من محاسن الطولونيين ، ومحاسنهم مما يشق على بني العباس نشره في الأمة ، وتخليده في الصحف لئلا يكون من بثها دعاية لهم ، وأبغض ما يكون الى المنافس الاشادة بفضائل منافسه ، لاسيما وقد كاد المؤرخون يجمعون على ان احمد بن طولون بعلمه وسياسته وعدله ارقى من كثير من الخلفاء

وعلى كثرة فضائل ابن الداية واتساعه في ادبه ونضجه في علمه ، لم يشتهر الشهرة التي هو قمين بها . ولو لم يعثر له على هذا الجزء من كتاب المكافأة لغطت الأيام على اسمه خصوصاً وهو لم يذكر الا في بعض تضاعيف الكتب ذكراً يكاد يكون مبتوراً ، ومعظم كتب الأدب حتى ما ألفه المصريون منها لاتذكره بكلمة الا نادراً ، ومن العجائب ايضاً الا يعده جهابذة الادب في جملة اعلامه والا يضعوه في الصف الاول بين رعيل قدماء البلغاء . وقديماً سدل الدهر قناع النسيان على كثير من العظماء بعد قليل من رحيلهم عن الأرض لفقد ما كتبوا بعامل من عوامل الفناء او لقلة انصارهم ومن أهمه امرهم . ومنهم من تضاعفت شهرتهم عند موتهم لسكوت حسادهم عنهم ومغالاة احبابهم في تقريظهم .

ولعل انتقال والد ابن الداية من بغداد الى الفسطاط ونشأته في مصر في زمن غضب فيه خلفاء بني العباس على مصر وعلى اميرها احمد بن طولون لاستقلاله بحكمها كان من جملة الدواعي في ضؤولة شهرته . على ان مصر الطولونية ومصر الفاطمية بعد حين ماساوت العراق بمنزلتها ،

ولا يتأتى ان يشتهر ابناؤها اشتهار البغداديين ، والى الحضرة او مدينة السلام كان يحمل كل جيل ، وينعت الناس اهلها بالنعوت الحسنة ، وتتأفق شهرة ادبائها وعلمائها لكثرة ماتردد اسماؤهم في كل مكان ، وكيف تتأتى الشهرة لأحمد بن يوسف في دولة ضعيفة لم تعترف بها دولة الخلافة وتعدها خارجة عليها .

لم يتصل احمد بن يوسف باحمد بن طولون اتصالاً وثيقاً في صباه وابن طولون مات سنة سبعين ومائتين وابن الداية مات سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة في اصح الاقوال والدولة الطولونية انقرضت سنة ثنتين وتسعين ومئتين فيكون ابن الداية على هذا كتب كتبه في بني طولون قبيل انقراض دولتهم .

نعم هذا هو الكتاب الذي به ظهر احمد بن يوسف في أندية الآداب يحمل ابداعاً في موضوعه وابداعاً في وضعه ، موضوع قلما عاناه احد قبله يقصد به تربية النفوس على الخير ويحبب اليها فعله ، ويُشيد بمن كان هذا مبلغهم من الاخلاق اشادة يقدسون بها تقديساً . ولم يصدر المؤلف في ماكتب به عن خيال ، بل أخذ مادته من قلبه وخُلقه ، تغنّى بما سبق له ولأبيه من المحامد ، وعدّاً من الطبيعة القيام بمثله ، وأراد ان يلقن أبناء المستقبل هذه المكرمات حتى لاتستغرق المادية الناس ، ويرتفع من بينهم التعاطف والايثار . وكتب فيها ورقات قليلة الجرم عظيمة النفع افادتنا ما لا تفيده المجلدات ، لأن المؤلف كتب واخلص في تأليفه وأراد به الدعوة الى المروآت لا التبجح ولا التنفج . بضعة كتب خطتها أنامله الفنانة قضى الله بذهابها وبقي له هذا الكتاب الصغير احيا به ذكره بعد ألف سنة على وفاته .

وهنا نكتفي بايراد قصص من قصصه رأيناها خير ما يترجم له ويقفنا على طريقته .

قال ابن الداية : « حدثني احمد بن ابي يعقوب قال : انكر المهدي

على هَرثمة ابن أعْيَن (من اكبر قواد المهدي) تحككه بمعن بن زائدة وامر بنفيه الى المغرب الأقصى ، فكلمه الرشيد فيه واستلّ سخيمته عليه ومات معن ، وزادت حال هرثمة ، وشكر للرشيد ما كان منه . وأفضت الخلافة الى موسى الهادي فتمكن منه هرثمة . وحدثت الهادي نفسه بخلع الرشيد ، وجمع الناس على تقليد ابنه العهد بعده ، وعلم بهذا هرثمة ، وتذكر عارفة الرشيد فتمارض ، وجمع الهادي الناس ودعاهم الى خلع الرشيد ونصب ابنه مكانه فأجابوه وحلفوا له ، وأحضر هرثمة فقالوا له : تبايع ياهرثمة ؟ فقال : ياأمير المؤمنين يميني مشغولة ببيعتك ، ويساري مشغولة ببيعة أخيك فبأي يد أبايع ؟ والله ياأمير المؤمنين لأكدت في الرقاب من بيعة ابنك اكثر مما أكده ابوك لأخيك في بيعته . ومن حنث في الأولى حنث في الأخرى . ولولا تأول هذه الجماعة بأنها مكرهة واسرارها فيك خلافَ ماأظهرت ، لأمسكت عن هذا . فقال لجماعة من حضر : شاهت وجوهكم ، والله لقد صدقني وكذبتموني ، ونصحني وغششتموني . وسلم اليّ الرشيد ماقدره الهادي فيه » .

قصة ثانية : «حدثني هرون بن مَلـُول قال حدثني ياسين بن زرارة قال : كان ببعض أرياف مصر نصراني من أهلها كثير المال فاشي النعمة سمح النفس ، وكانت له دار ضيافة ، وجرايات واسعة على ذوي الستر بالفسطاط . فهرب من المتوكل رجل كَنَّى عن اسمه لخطير منزلته ، لميل كان من المنتصر اليه ، فلما دخلها رأى فيها كثيراً من أهل بغداد ، فخاف ان يعرف فنزع الى أريافها ، فانتهى به المسير الى ضياع النصراني فرأى منه رجلاً جميل الامر ، وسأله النصراني عن حاله ، فذكر أن الاختلال انتهى به الى ماظهر عليه فغير هيئته ، وفوض اليه شيئاً من أمره ، فأحكم ماأسند اليه واضطلع به . ولم يزل حاله يتزايد عنده حتى غلب على جميع أمره ، وقام به احسن قيام ، وكان محل الرجل الهارب من النصراني بفضل كلّ ماذهب له .

« وورود على النصراني مستحث بحمل مال وجب عليه . (وسأله) النصراني عن خبر الفسطاط فقال : ورد خبر قتل المتوكل وتقلد المنتصر . ووافى رسول من المنتصر في طلب رجل هرب في ايام المتوكل يعرف بفلان بن فلان ويوعز الى عمال مصر والشام بأن يتلقوه بالتكرمة والتوسعة فيلحق امير المؤمنين في حال تشبه محله عنده ، فعدل النصراني بالمستحث الى بعض من انزله عليه ، وخلا الهارب بالنصراني فقال : احسن الله جزاءك ، فقد اوليت غاية الجميل واحتاج الى ان تأذن لي في دخول الفسطاط فقال : ياهذا ان كنت استقصرتني فاحتكم في مالي ، فاني لاارد امرك ولا ازول عن حكمك ؛ ولا تنأ عني ، فقال له : انا الرجل المطلوب بالفسطاط وقد خلفت شملا جماً ، ونعمة واسعة . انما عدل بي الخوف على نفسي . فقال له : ياسيدي فالمال في يدك وما عندك من الدواب فانت اعرف به مني فاحتكم فيه ، فاخذ بغالاً وما صلح لمثله ، وخرج النصراني معه . وقدم كتاباً الى عامل المعونة من مستقره ، فتلقاه عامل المعونة في بعض طريقه ، ووصاه وجميع العمال بالنصراني . وصار الى الحضرة فاصدر اليهم الكتب في الوصاة به الى ان قدم بعض العمال المتجرة فتتبع النصراني ورام الزيادة عليه فخرج الى بغداد .

« قال لي هرون ان ياسين قال له : ان النصراني حدثه انه دخل الى بغداد فلم ير بها ارقى محلاً ، واكثر قاصداً منه ، ثم استأذنت عليه وعنده جمع كثير فخرج اكثر غلمانه حتى استقبلوني . فلما رآني قام على رجليه ثم قال : مرحباً باستاذي وكافلي والقائم بي حين قعد الناس عني ، واجلسني معه وانكب على ولده وشمله ، وانا اتأمل مواقع الاحسان من الاحرار ، وسألني عن حالي في ضياعي فأخبرته خبر العامل ، وكان اخوه في مجلسه فنظر اليه من كُنّا عنده ، وقال له : كنت السبب في تقليد اخيك فصار اكبر سبب في مساءتي ، فكتب من مجلسه كتاباً اليه بجلية الخبر وانفذه . واقمت عنده حولاً في ارغد عيشة واعظم ترفه .

وورد عليَّ كتب اصحابي فخبروني بانصراف العامل عن جميع ماكان اعترض عليه في امري ، واخرج امر السلطان في اسقاط اكثر خراج ضياعي والاقتصار بي على يسير من مالها . قال ياسين : فكتب النصراني ببغداد حجة اشهد فيها على نفسه ان اسهمه في جميع الضياع التي في يده (وسماها وحددها) لهذا الرجل الذي كان هرب ، وصار بها اليه ، فقال له : قد سوغك الله هذه الضياع ، فاني اراك احق بها من سائر الناس ، فامتنع الرجل من ذلك وقال له : عليك فيها عادات تحسن ذكرك ، وترد الاضغان عنك ، ولست اقطعها بقبض هذه الضياع عنك ، ورجع النصراني الى الفسطاط فجدد الشهادة فيها . فلما توفي النصراني اقرها في يد اقاربه ، ولم يزالوا معه بأفضل حال » .

قصة ثالثة : وحدثتني ام آسية قابلة اولاد خُمارويه بن طولون (وكان لها دين ومذهب جميل ومحل لطيف من خمارويه) وقد تذاكرنا لطف الله (عز وجل) في ارزاق عباده ، وحسن الدفاع عنهم ، انه تزوجها واختها اخَوان . فاقبلت حال زوج اختها وادبرت حال زوجها . قالت وتوفي زوجها باسوإ حالة ، وخلّف لها بنات ، وتعذر عليها تجهيزه من اختلاله . وتوفي زوج اختها وقد خلف من العين والمساكن والاواني لولد اختها .

قالت : فكنت اجاهد في مؤونة ولدي ، واذا وقف امري صرت الى اختي فقلت : اقرضيني كذا وكذا استحياء من ان اقول لها : هبي لي . ودخل شهر رمضان فلما مضى نصفه اشتهوا علي صبياني حلواء في العيد ، فصرت الى اختي فقلت لها اقرضيني ديناراً اعمل به للصبيان حلواء في العيد . فقالت : يااختي تغيظيني بقولك : « اقرضيني » واذا اقرضتك من اين تعطيني ؟ أمن غلة دورك او بستانك ؟ ! لو قلت هَبي لي كان احسن . فقلت لها : اقصك من لطف الله تعالى الذي لا يحتسب ،

وجوده الذي يأتي من حيث لا يُرتقب . فتضاحكت وقالت : ياأخي ! هذا والله من المُنى ، والمُنى بضائع النَوكى ، فانصرفت عنها أجر رجليّ الى منزلي .

وكان في جوارنا خادم أسود لبنت اليتيم امرأة خمارويه . فلما بلغتُ حارتنا قال لي : في جوارنا امرأة تطلق قد أوجعت قلبي . ادخلي اليها فليس لها قابلة . قالت أم آسية : والله ما عاينت ممخوضةً قط . فدخلت اليها فمسحت جوفها وأجلستها كما كان القوابل يُجلسنني في طلقي فولدت من ساعتها ، فلما أمسك صياحها ، جاء الخادم يسأل عنها فقلتُ قد ولدت . فعجب من سرعة أمرها ، وظن ان هذا شيء قد اعتمدته بحذق صناعة ، ولُطف في مهنة ، فمضى الى ستِّه بنت اليتيم وكانت مُقرِباً بأول ولد حُمِـل لأبي الجيش ، وقـد عُرض عليها قوابل استثقلتهن ، فقال : في جوارنا قابلة أحضرناها لمرأة في حارتنا تطلق فوضعت يدها على جوفها فسقط ولدها . ووصفني بما لا يوجد في قدرة أحد الا بالله عز وجل . فقالت للخادم : اذا كان غدٌ فجئني بها . فأتى الغلام ودعاني الى مولاته فأجبت بانشراح صدر وثقة بالله تعالى . فاستخفَّت روحي وقالت : الى التمام تقدير الله تبارك وتعالى . ثم شكت مَغْساً تجده المُقْرِب ، فأدخلت يدي في ثيابها ومسحت جوفها ، وعججتُ الى الله تعالى في سرّي بتوفيقي ، وكنت أدعو ، ومن حضر من أهلها يتوهم اني أرْقي ، فسكن ما وجدته وتبركت بي ، ودخل اليها خُمارويه ، وقال : ما وجدت ؟ فقالت : مغساً في جوفي ، فوضعت قابلة أردتها يدها عليه فزال ما أجده . وأخرجتني اليه (وكان قريباً من حرمه) فقال لي : ارجو ان يخلصها الله (عز وجل) ببركتك .

قالت ام آسية : ودخلنا في العشر الاواخر من شهر رمضان ، وقد تمسكت من الاخـلاص لله (عز وجل) بما لا يصل اليـه من ساح في

الجبال ، خوفاً من شماتة أختي بي ، فلم تمض الا ثلاثة ايام حتى تمخضت فأجلستها الى كرسي الولادة (وكان مقدار طلقها ساعتين) فولدت ابناً اسهل ولادة ، وابو الجيش يقوم ويقعد ويذهب ويجيء ، فلما ولدت وكانت تتوقع من الولادة امراً عظيماً ، فلما ألقته قالت لي : هذا الطلق ؟ قلت : نعم . فقبّلت - يعلم الله - عيني من الفرح ، وصاح خمارويه : اخبريني بالمباركة بخبرها فقلت : وحياة الامير انها في عافية ، وقد ولدت غلاماً سويّ الخلق بحمد الله ، فوجّه اليّ بألف دينار ، وألح ابو الجيش في النظر اليها لفرط اشفاقه عليها . فاستوقفته الى ان نقلت حوائج الولادة ، وقلت لها ياسيدتي : اضحكي في وجهه لما تريْنه . فلما دخل اليها ضحكت في وجهه ، فتقدم بصدقة مال كثير عنها وعن ولده .

وقالت لي ام آسية : لما كان يوم الاسبوع « ووقع قبل العيد بيوم واحد » امرت لي بخمسمائة دينار ، وحصل من اتباعها الف دينار . فحصل لي ألفان وخمسمائة دينار . وخلعت عليّ وسائر حشمها اكثر من ثلاثين خلعة . وحُمل اليّ مما أعد للعيد ثلاث موائد خاصة . وانصرفت الى منزلي فأرسلت الى اختي مائدة ، ووافتني مهنئة ، وقد تقاصر طولها ، فاريتها ماحصل لي من المال والخلع والطيب وقلت لها : يا اختي أنكرت عليّ قولي : « أقرضيني » ومن هذا كنت اقضيك ، فلا تستصغري من كان الله مادته ، وعليه مدار ثقته وتعويضه .

واكتسبت هذه المرأة بمحلها من ابي الجيش مالا كثيراً ، وقضت لجماعة من وجوه البلد حوائج خطيرة اهـ .

وفي المكافأة فوائد طريفة وحقائق قد لا تجدها مكتوبة منها : وكنا لا نفضي من بلدان خراسان الى بلد الا وجدناه اغلظ طبعاً من البلد الذي فارقناه حتى بلغنا بخارى فرأينا قوماً في نهاية من غلظ الطباع فقال لي مذ رآني أتعجب منهم : كيف لو رأيت الترك وبلدانهم ؟ يقتلون المستحمّ منهم ويغير بعضهم على بعض فيهلك النازع اليهم بينهم .

هذا في المعاني ، وفي الالفاظ تفرد المؤلف بألفاظ عذبة لاعهد انا بمثلها قبله حاشا كبار البلغاء من الكتاب ومنها مالم يعثر له على اثر في المعاجم العربية ومنها مالا نزال نستعمله ولكن في معانٍ غير المعاني التي عبر بها عنها . أما التراكيب فهناك الاعجاز . كتاب المكافأة معجز بألفاظه وتراكيبه تقف فيه على ماليس له اليوم مايشبهه وتقرأ فيه صوراً من الظلم كان يقع من عمال السلطان بل على ماليس لهم علاقة به ، وجمعوا ثروتهم من تجاراتهم ، ووصف ما يعمله زبانية الملك او الامير او الخليفة لاستخراج الاموال بالتعذيب على صفة قلَّ ان جرى مثلها في ادوار الانسانية .



(١٤)

الصولى

(أبو بكر محمد بن يحيى)

(٣٣٥)

نشأ في بغداد واخـذ العلم عن أئمة عصره وتأدب به ناس ، وروى عنه الحديث بعض المشاهير ، وكانت محاضرته أجمل من شعره ونثره . وضع تآليف كثيرة وساعـده على التوسع في اخبار خلفاء بني العبـاس ووزرائهم وشعرائهم وعلى « ذكر غرائب لم تقع الى غيره واشياء تفرد بها لأنه شاهدها بنفسه » كونه نادم الراضي ، وكان أولاً يعلمه ، ونادم المكتفي ، ثم المقتدر دفعة واحدة فجال في أفق جديد تفرد بالتوسع فيه .

قالوا : « كان محظوظاً من العلم ، مجدوداً من المعرفة ، مرزوقاً من التصنيف ، حسن التأليف » وانه « حسن الاعتقاد جميل الطريقة ، مقبول القول » ،كان زينة المجالس موصوفاًبظرفه البغدادي ، رغب الخلفاءفي منادمته لسعة فضله ولطف عشرته . وقد استبطن اخبار الناس ودوّن كل ظريف روي عنهم ، فهو الى الطرافة فيما دونه من طريف وتالد ، يحسن الغناء وسائر فنون الأدب الرفيـع ، وكان ألعب اهل زمانه بالشطرنج ، ويمتاز بعلمه وفقهه وبعد نظره . وجميـع ادواته هـذه تجعله بين افراد قلائل صلحوا للمنادمة من كبار هذه الأمة ، فهو اديب يحسن الكلام والحوار ، وليس سلك المنادمة بالشيء السهل لما يحتاج اليه من آداب تؤيدها حافظة وذاكرة وتزينها طلاقة لسان وفضل بيان .

كانت له يد باسطة في نقـد الشعر ، ونظر ثاقب في تقـدير مراتب الشعراء الاسلاميين والجاهليين ، فهو نقادة راوية ، تقرأ أمثلة من نقداته

في كتاب الموشح لتلميذه المرزباني . اما فيما ينظم فلم يوفق التوفيق كله ، وما نشره له بعض اهل الأدب في كتبهم ، فانما كانت اجادته نسبية بالقياس الى بقية شعره ، وما كان من النوع الذي يرضون عنه . وهو نديم متكلم لا اديب يخلد ادبه ،،ورب خطيب لا يجيد الكتابة وكم من كاتب لا يجيد الخطابة» . حاول في كتابه الأوراق ان يأتي بقصائد ذات قواف مستغربة فأبهم وعمى ، وظهر التكلف على ماقرض .

يقول الصاحب في الكشف عن مساوىء شعر المتنبي ، « وهذا الصولي كان كثير الرواية حسن الأدب الا انه ساقط الشعر ، يقول في كتاب الخلفاء وقد حشاه بشعره : انما اثبت شعري ليعلم الناس أن في زمانهم من ان لم يسبق البحتري انتصف منه ، وليس في الاعجاب بالنفس نهاية .

وفي الصولي شيء من الضعف ظهر في مبالغته في محامد الراضي لأجل عطاياه له ، وما كان الراضي بالخليفة التي تهوي اليه النفوس اذا جرى التنظير بينه وبين الممتازين من اسلافه ، وملكه لايتجاوز اسوار مدينة بغداد وحكمه ايضاً غير نافذ فيها . وقد رأينا الصولي يستجدي الخليفة ويشكو الزمان والحرمان ، ولا يفتأ يقول فلان منحني وفلان حرمني . خُلق لايليق ان يتخلق به من يدعي انه من نسل ملوك ، وهو على أي حال يعاشر ملوكاً وامراء ولا يجوع في قربهم مهما عدا عليه الزمان .

تدور موضوعات كتب الصولي على اخبار الطبقات الراقية في عصره وعلى شعرهم وادبهم وظرفهم ، وكتابه « الاوراق » مثال جميل من ذلك . وكذلك ادب الكتاب « ألفه فيما يحتاج اليه اعلى الكتاب درجة واقلهم منزلة » وهو هنا اذا كتب بدأ ضعفه ، واذا روى جود النقل .

وما خلا الصولي من اناس يهرجوا علمه واستصغروا تآليفه ومنهم ابن النديم ، قال ان الصولي عوّل عند تأليفه « الاوراق » على كتاب المرثدي في الشعر والشعراء او على كتاب اشعار قريش ، وأنه نقله نقلاً وانتحله . وزعم ابن النديم انه رأى دستور الرجل في خزانة الصولي بخط المرثدي فافتضح به .

قد يكون الصولي اقتبس أموراً كثيرة من كتاب الشعر والشعراء او شعراء قريش او غيره لكن ما أتى به من عنده ظاهر ، وتعمد ابن النديم الطعن عليه ، يستنتج من وصفه اياه بأنه « جماعة الكتب » ولعل ذلك أتى من تنافس الرجلين في اقتناء الاسفار ، وابن النديم ورّاق قبل كل شيء . وذكروا انه كان للصولي بيت عظيم مملوء بالكتب وهي مصفوفة وجلودها مختلفة الألوان كل صف من الكتب لون : فصف احمر وآخر اخضر وآخر اصفر وغير ذلك . وكان الصولي يقول : هذه الكتب كلها سماعي .

ولعل بعضهم يعترض على سلكنا الصولي في عظماء المؤلفين ، وهو في الواقع منهم لانه أتى بجديد ، ولانه صورة غريبة من رجال تلك الايام ، فقد جاء حتى في عصره اعظم منه في الحديث وأكبر منه في الادب ولكن العبرة بمن يجمع هذه الادوات في ثقافة ذاك العصر ، ويحظى في قصور الخلفاء بتلك المكانة ، ولا يضيع مامر به من الفوائد فيقيدها ويخلفها للأجيال بعده تنتفع بها . اما نقلة المؤلفين عن غيرهم ، ولا سيما في الحديث والفقه فأي مزية لهم اذا لم ينفردوا بأشياء لم يسبقوا اليها ، فما اكثر عدد هؤلاء وما اقل من جمعوا الى فقههم أدباً وانتفعوا به ونفعوا ، وكان له على الايام صدى يتناقل فيطرب ويعجب .

قصة من مروياته : عن العتابي قال : كنا بباب الفضل بن يحيي البرمكي اربعة آلاف مابين شاعر وزائر ، وفينا فتى يحدثنا ونجتمع اليه . فبينا هو ذات يوم قاعد اذ أقبل اليه غلام له كأجمل الغلمان فقال له : ياMolاي أخرجتني من بين أبويّ وزعمت أن لك وصلة بالملوك فقد صرنا الى اسوإ مايكون من الحال وقال : ان رأيت ان تأذن لي فأنصرف الى أبويّ فعلت ، قال فاغرورقت عينا الفتى ثم قال : ائتني بدواة وقرطاس ، فأتاه بهما فقعد حجزة فكتب رقعة ، ثم عاد الى مجلسه ثم قال للغلام : انصرف الى وقت رجوعي اليك . فبينا نحن كذلك ، اذ

جاء رجل ليستأذن على الفضل ، فقام اليه الفتى فقال : توصل رقعتي هذه الى الامير قال : وما في رقعتك قال : امدح نفسي واحث الامير على قبولي . قال : هذه حاجة لك دون الامير ، فان رأيت ان تعفيني فعلت قال : قد فعلت . فعاد الى مجلسه فخرج الحاجب فقام اليه فقال له مثل مقاله الاولى فاستظرفه الحاجب وقال : ان رجلا يتصل بمثل الفضل يمدح نفسه لا يمدح الفضل عجيب . فأخذ منه الرقعة ثم دخل فلوحها للفضل ، فقرأ منها سطرين وهو مستلق على فراشه ، ثم استوى قاعداً وتناول الرقعة فقرأها فلما فرغ من الرقعة قال للحاجب : اين صاحب الرقعة ؟ قال : اعز الله الامير ، لا والله لاعرفه لكثرة من بالباب . فقال الفضل انا انبذه لك الساعة ؛ ياغلام اصعد القصر فناد : اين مادح نفسه ؟ فقام الغلام فصاح ، فقام الفتى من بيننا بغير رداء ولا حذاء ، فلما مثل بين يدي الفضل قال له : انت القائل مافيها ؟ قال : نعم . قال انشدني : فأنشده الفتى يقول :

انا من بغية الامير وكنز   من كنوز الامير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب بليغ   ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الريـ   ـشة مما يكون تحت الجناح

الى أن قال في قصيدته انه يروي شعراً عن ابن هرمة وعلماً عن ابن سيرين وله في النحو نفاذ ، وأنه قادر على منادمة الخلفاء يضطلع بالمهمات ، ويعرف ادب المجالسة ، وانه ابصر الناس بالجوارح والخيل والنساء ، وان فيه دعابة وهو غير ماجن الى آخر ما وصف به نفسه فقال له الفضل :

كاتب حاسب خطيب اديب   ناصح زائد على النصاح

قال : نعم ، أصلح الله الأمير . فقال الفضل : ياغلام الكتب التي وردت من فارس ، فأتى بها ، فقال للفتى : خذها فاقرأها وأجب عنها فجلس بين يدي الفضل يكتب ، فقال له الحاجب : اعتزل يكن أذهن

لك فقال : ههنا الرأي أجمع ، بحيث الرغبة والرهبة فلما فرغ من الكتب عرضها على الفضل ، فكأنما شق عن قلبه .

فقال الفضل : ياغلام بدرة بدرة فقال الفتى للغلام : اعز الله الأمير دنانير او دراهم . قال : دنانير ياغلام . فلما وضعت البدرة بين يديه قال الفضل : احملها بارك الله لك فيها . قال الفتى : والله أيها الأمير ماأنا بحمال ، وما للحمل خلقت ، فان رأى الأمير أن يأمر بعض غلمانه بحملها ، على أن الغلام لي ، فأشار الفضل الى بعض الغلمان ، فأشار الفتى اليه : مكانك . فقال : ان رأى الأمير ، أيده الله ، أن يجعل الخيار اليّ في الغلمان كما فعل بين البدرتين فعل . فقال : اختر ، فاختار اجلهم غلاماً فقال : احمل . فلما صارت البدرة على منكب الغلام بكى الفتى ، فاستفظع الفضل ذلك وقال : ويلك استقلالاً ؟ قال : لا والله ، أبدك الله ، ولقد اكثرت ، ولكن أسفاً أن الارض تواري مثلك ، قال الفضل : هذا أجود من الاول ، ياغلام زده كسوة وحملاناً . قال العتابي : فلقد كنت أرى ركاب الفتى تحت ركاب الفضل .

مات الصولي مستتراً بالبصرة لأنه روى خبراً في علي بن أبي طالب رضي الله عنه فطلبته الخاصة والعامة لتقتله .

(١٥)

الأشعري

ابو الحسن علي بن اسماعيل

(نيف وثلاثون وثلاثمائة)

بصري سكن بغداد الى ان توفى بها . نشأ من بيت عريق في العلم والفقه والمناظرة والقضاء والفتوى ، واخذ العلم عن ابي علي الجبائي امام المعتزلة ، وتبعه في الاعتزال ، وألف في نصرته والدعوة اليه ، واقام على الاعتزال اربعين سنة حتى صار للمعتزلة اماماً ، ثم تغيب في بيته عن الناس خمسة عشر يوماً ، وقالوا انه تاب من القول بالعدل وخلق القرآن ، وذلك في المسجد الجامع بالبصرة رقي كرسياً ونادى باعلى صوته في يوم الجمعة : من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فانا اعرفه بنفسي انا فلان بن فلان ، كنت اقول بخلق القرآن وان الله لاتراه الابصار وان أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع. وأهل العدل فرقة من اهل التوحيد تقول ان الله انما خلق الخلق اجمعين لصلاحهم ونفعهم .

قال : معاشر الناس انما تغيبت عنكم هذه المدة لاني نظرت فتكافأت عندي الادلة ولم يترجح شيء على شي ، فاستهديت الله فهداني الى اعتقاد ماأودعته في كتبي هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت اعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا . وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به . ودفع الكتب التي الفها على مذاهب اهل السنة الى الناس . قالوا ان المعتزلة كانوا قد رفعوا رؤوسهم حتى ظهر بدعوته فجحرهم في أقماع السمسم .

رواية غريبة مثلها ابو الحسن تمثيلاً مقبولاً ، فاتقى بها اتى صولة العامة ، واستمال قلوبهم واقنعهم بتوبته عن الاعتزال ، ورجوعه عن مذهب لايخالف

ماخرج اليه الا بما لابال له . وقد وفق في نزعته الجديدة توفيقاً لم يسبق له مثيل . ولما سلك طريقاً بين النفي الذي هو مذهب الاعتزال وبين الاثبات الذي هو مذهب اهل التجسيم(١)، وناظر على قوله هذا واحتج لمذهبه ، مال اليه جماعة وعولوا على رأيه منهم الباقلاني وابن فورك وابو اسحق الاسفرايني وابو حامد الغزالي والشهرستاني وفخر الدين الرازي وغيرهم ، ونصروا مذهبه وناظروا عليه وجادلوا فيه واستدلوا له في مصنفات كثيرة ، فانتشر مذهبه في العراق من نحو سنة ثمانين وثلثمائة وانتقل الى الشام .

يقول ابن خلدون ان الشيخ ابا الحسن الاشعري امام المتكلمين توسط بين الطرق ونفى التشبيه واثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ماقصره عليه السلف ، وشهدت له الادلة المخصصة لعمومه ، فاثبت الصفات الاربع المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل ، ورد على المبتدعة في ذلك كله ، وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والاصلح والتحسين والتقبيح ، وكمل العقائد في البعثة واحوال الجنة والنار والثواب والعقاب ، والحق بذلك الكلام في الامامة لما ظهر حينئذ من بدعة الامامية من قولهم انها من عقائد الايمان وانه يجب على النبي تعيينها والخروج عن العهدة في ذلك لمن هي له وكذلك على الامة .

تصدى الأشعري للرد على المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وغيرهم وقيل انه صنف خمسة وخمسين تصنيفاً وقال بعض الباحثين انه عدّها اكثر من ثلثمائة مصنف وبعضهـــا ردود ونقض أقوال من لايقول بقولهم من العلماء ، وقيل انه كان ضعيفاً في التأليف قوياً في المناظرة . والصحيح أنه كان قوياً في كليهما يفيض من علمه على ما يجب ويعرف اجتذاب القلوب اليه ، ويهتم لرضا العوام والخواص . صفات يتحتم تحقيقها في صاحب كل دعوة . اما صفاته الشخصية فخير صفات يستطيع بها من أوتيها استهواء العقول فلا ينفر منه احد ولو خالف رأيه . وما كان فيه جمود بعض العلماء ولا تزمتهم وعزوفهم ، وكان فيه دعابة ومرح ويحب المزاح كثيراً .

واما عيشه فكان مضموناً لايحتاج في تحصيله الى كد ، يأكل من غلة ضيعة وقفها جده بلال بن ابي بُردة بن ابي موسى الأشعري على عقبه ، وكانت نفقته كل يوم سبعة عشر درهماً ، وقيل أقل من ذلك ، أي أنه كان موسعاً عليه لايضطر الى الرواتب وتولي المناصب بما يقطعه عن غرضه الديني الشريف .

ان في القول بأن أبا الحسن الأشعري بعد ان قضى في مذهب الاعتزال أربعين سنة قد تاب وأناب مجالاً للتفكير الطويل . والمعقول انه بقي على تراتيب مذهبه الأصلي ، وما جاءه الفيض الا بالأخذ عن أئمة المعتزلة ، وما انفتق ذهنه الا بأصولهم والتشبع بطرائقهم في المناظرة والاجتهاد والتحقيق .

تعصبه للاعتزال

وكتاب الأشعري في « مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين » من امتع ما كتب عالم في الكشف عن فرق الاسلام . اخذ بعضه من الكتب المؤلفة قبله ونسقه وضمنه آراءه ومنازعه وحشاه بفوائد تاريخية وسياسية ، ووصف فيه مسائل علم الكلام واختلاف أرباب المذاهب فيها وصفاً دقيقاً مفهوماً ، ومما روى وقائع المطالبين بالخلافة وفصولاً في الامامة واعتقاد اهل الفرق فيها ، وفي الحكمين والحكم عليهما بما فعلا . اطلق في كل ذلك العنان لقلمه حتى ان النبيه المتصفح لكلامه لايشعر ان الأشعري خالف أصحابه القدماء . وخروجه عن مذهبه الاصلي بعد قضاء اكثر عمره فيه دليل مهارة استوجبها فرط حريته واخلاصه لدينه .

الاشعري « لم يبدع رأياً ولم ينشيء مذهباً وانما هو مقرر لمذاهب السلف ، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله ، فالانتساب اليه انما هو باعتبار انه عقد على طريق السلف نطاقاً وتمسك به ، واقام الحجة والبراهين ، فصار المقتدى به في ذلك ، والسالك سبيله في الدلائل يسمى أشعرياً » . ولما قرب حضور اجله قال لأحدهم اشهد عليَّ اني لا أكفر احداً من اهل هذه القبلة لأن الكل يشيرون الى معبود واحد وانما هذا

كله اختلاف العبارات . قال ابن عساكر في تبيين كذب المفتري : وحين كثرت المبتدعة في هذه الامة وتركوا ظاهر الكتاب والسنة وانكروا ما ورد به من صفات الله عز وجل نحو الحياة والقدرة والعلم والمشيئة والسمع والبصر والكلام ، وجحدوا ما دل عليه من المعراج وعذاب القبر والميزان ،وان الجنة والنار مخلوقتان ، وان اهل الايمان يخرجون من النيران وما لنبينا صلى الله عليه وسلم من الحوض والشفاعة ، وما لأهل الجنة من الرؤية ، وان الخلفاء الاربعة كانوا محقين فيما قاموا به من الولاية ، وزعموا ان شيئاً من ذلك لا يستقيم على العقل ولا يصح في الرأي اخرج الله عز وجل من نسل ابي موسى الأشعري رضي الله عنه اماماً قام بنصرة دين الله وجاهد بلسانه وبنانه من صد عن سبيل الله .

والأشعري من الكتب المطبوعة « الابانة في اصول الديانة » و « استحسان الخوض في الكلام » و « رسالة الى اهل الثغر بباب الابواب » . وامتعها « مقالات الاسلاميين » . وهو كاتب مجيد ، كتب الشريعة بلسان عذب لا تعقيد فيه حتى ليستدرجك الى الاعتقاد بعقيدته من حيث لاندري ، والاشعري بما اصدره من الطبعة الاخيرة من آرائه التي وافقت قبولاً من عظماء الملة ، ومرت في الافكار بدون ان تلقى تصادماً يعتد به ، قد اراح السواد الاعظم من المسلمين بأن عين لهم حدود المعتقدات فكان واضع أساس مذهب اهل السنة والجماعة وكان المؤمنون أزعجوا باختلاف الباحثين .

قالوا كان من الاعتزال ما كان من تفرق كلمة الفرق وكان لردّ الفرق بعضها على بعض رواج كثير ، ولما تعيات معتقدات التشيع والتسنن وانقرض المعتزلة انقرض بانقراضهم التفكير الحر مع الاسف ، وبات البحث في هذه الأمور وقفاً على خاصة الخاصة يدرسونه من باب الاطلاع على الشيء .

انقراض المعتز

قدامة بن جعفر

ابو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن رزبا

(٣٣٧)

سكن أبو جعفر البصرة ثم انتقل الى بغداد ، وكان من أهل الأدب والكتابة وله مصنفات ، وتولى بعض الدواوين ، وولد ابنه قدامة في بغداد على الأرجح ، في أول الربع الأخير من القرن الثالث ، ونشأ على النصرانية دين أبيه ، وتثقف ثقافة اسلامية ، فأحكم اللغة والأدب والفقه والكلام والفلسفة والرياضيات وغلب عليه الادب واللغة . ثم أسلم على يد الخليفة المكتفي وتولى في سنة ٢٩٧ بعض الأعمال في دواوين الأموال .

وسكتت الأخبار عن أصل أبي جعفر ، والغالب انه فارسي نزل أبوه أو جدّه العراق ، وتمازج بالمسلمين وتعلم من علومهم ما يستعين به على الكتابة والتصنيف . أما ابنه فتلقف علوم الملة الاسلامية شأن كثير من أذكياء العصور ومنهم ابن المقفع وعلي بن ربّن ثم امتلوا ملة الاسلام عن علم وثقافة .

يقول المسعودي ان أبا الفرج قدامة بن جعفر الكاتب كان حسن التأليف ، بارع التصنيف ، موجز الألفاظ ، مقرباً للمعاني ، واذا أردت علم ذلك فانظر الى كتابه في الأخبار المعروف بكتاب زهر الربيع ، وأشرف على كتابه المترجَم بكتاب الخراج ، فانك تشاهد بهما حقيقة

ما ذكرنا ، وصدق ما وصفنا » وقال ياقوت : ان قدامة أدرك زمن ثعلب والمبرد وأبي سعيد السكري وابن قتيبة وطبقتهم ، والأدب يومئذ طري ، نقرأ واجتهد وبرع في صناعتي البلاغة والحساب ، ثم قرأ صدراً صالحاً من المنطق ، وهو لائح على ديباجة تصانيفه ، واشتهر في زمانه بالبلاغة ونقد الشعر . وذكر له اسماء كتب كثيرة ألفها . وقال الخطيب البغدادي : هو من مشايخ الكتاب وعلمائهم ، وكان وافر الأدب ، حسن المعرفة ، وله مصنفات في الكتابة وغيرها . وضرب الحريري المثل في مقدمة مقاماته ببلاغة قدامة فقال : وان المتصدي بعده (أي بعد البديع الهمذاني) لانشاء مقامة ، ولو أوتي بلاغة قدامة ، لا يغترف الا من فضالته .

شهادات كلها متفقة على تفرد ابي الفرج ببلاغته ، وشفوف طبعه وغزارة علمه ، عرف بذلك بين الخواص ، واعترف له بمزاياه النادرة جهابذة النقد وأئمة البلاغة ، وان لم يشتهر كثيراً بين العوام ، وهؤلاء لا تستفيض شهرة أحد عندهم ان لم يقرب في تآليفه ودروسه من أفكارهم وتصوراتهم .

وأمّ ما لم يفقد من كتبه كتابه « نقد الشعر » دلّ فيه على نبوغ واحاطة ، ولو لم يكن من جلال الآداب بالمقام الأعلى ما ناقشه في بعض آرائه في البديع أئمة الأدب بعده أمثال المرزباني في الموشح ، والعسكري في الصناعتين وابن سنان فى سر البلاغة ، والآمدي في الموازنة بين أبي تمام والبحتري .

أما الكتاب الذي سموه « نقد النثر » ونسبوه اليه فهو مما لم يكتبه ، والظاهر انهم نحلوه اياه . ومن يتأمل عباراته يجدها اشبه بعبارات أهل القرن السادس والسابع ، وبلاغته موضع نظر . فقد رأيناه في مقدمة « نقد الشعر » يدخل على موضوعه مباشرة وفي مقدمة « نقد النثر » أسجاع تنادي بأن الكتابين لكاتبين متخالفين في الطريقة والاداء .

وكذلك نشك في نسبة كتاب جواهر الألفاظ الذي عزي اليه . ١١٨

وفي جريدة تآليفه ذكر لكتاب الألفاظ من تأليفه ، وبضعة سطور من مقدمته تحمل الناقد على الحاق كتاب جواهر الالفاظ بكتاب نقد النثر. قال في كتاب الجواهر وهو « كتاب يشتمل على ألفاظ مختلفة تدل على معان متفقة مؤتلفة ، وأبواب موضونة ، بحروف مسجعة مكنونة ، متقاربة الاوزان والمباني ، متناسبة الوجوه والمعاني ، تونق أبصار الناظرين ، وتروق بصائر المتوسمين ، وتتسع بها مذاهب الخطاب ، وتنفسح معها بلاغة الكتاب ، لأن مؤلف الكلام البليغ الفصيح ، واللفظ المسجع الصحيح ، كناظم الجوهر المرصع ، ومركب العقد الموشع ، يَعُدُّ اكثر أصنافه ، ليسهل عليه اتقان رصفه وائتلافه » .

أما كتابه « الخراج وصنعة الكتابة » وهو مما صنفه بعد نحو من عشرين سنة من اشتغاله في دواوين الاموال فهو نمط آخر من كتابة ليس فيه أثر من آثار السجع ويقل فيه الازدواج . مثال من كتابه في الخراج قوله في ذكر ثغور الاسلام والأمم والاجيال : « الامم والاجيال المخالفة للاسلام مكتنفة له من جميع أطرافه وغايات أعماله منهم المتقارب من دار مملكته ، ومنهم المتباعد عنها . وكانت ملوك الطوائف الذين ملكهم ذو القرنين يؤدون الاتاوة الى ملك الروم خمس مائة واحدى عشرة سنة الى أن جمع أردشير بن بابك المملكة بعد مشقة وطول مجاهدة فمنع حينئذ الاتاوة التي كانت الفرس تؤديها الى الروم فينبغي أن لا يكون المسلمون لصنوف أعدائهم أشد حذراً منهم للروم ، وقد جاءت بذلك آيات يظهر بها حقيقة ما قلته والله الموفق للمصلحة بقدرته » .

ونتجوز فننقل جملة أخرى من كلامه من هذا الكتاب أيضاً وهو قوله « ثم نتبع ذلك بوصف أحد أيام الغزوات ليكون علم ذلك محصلاً محفوظاً فنقول ان أجهدها مما يعرفه أهل الخبرة من الثغريين أن تقع الغزاة

التي تسمى الربيعية لعشرة أيام تخلو من أيار بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خيولهم فيقيمون ثلاثين يوماً وهي بقية أيار وعشرة من حزيران ، فانهم يجدون الكلأ في بلد الروم ممكناً وكأن دوابهم ترتبع ربيعاً ثانياً ، ثم يقفلون فيقيمون الى خمسة وعشرين يوماً وهي بقية حزيران وخمسة من تموز حتى يقوى ويسمن الظهر ، ويجتمع الناس لغزو الصائفة ثم يغزون لعشر تخلو من تموز فيقيمون الى وقت قفولهم ستين يوماً . فاما الشواتي فاني رأيتهم جميعاً يقولون : ان كان لا بد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل ، وليكن مسيره عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره وان يكون ذلك في آخر شباط فيقيم الغزاة الى أيام تمضي من آذار فانهم يجدون العدو في ذلك الوقت أضعف ما يكون نفساً ودواب ويجدون مواشيهم كثيرة ثم يرجعون ويربعون دوابهم » .

هذا نمط قدامة في الانشاء وليس فيه أثر من آثار التكلف غير حسن الصناعة وجمال الأداء . ولقائل أن يقول : ولكن قدامة هنا يقرر حقائق وهناك يكتب أدباً . فنقول ان من يدقق يدرك ادراكاً لا تعتوره ريبة أن قائل هذا الكلام لا يرضى لنفسه ذاك التكلف والتعسف .

« ان ما أصاب الخزائن من النكبات قضى بان يضيع القسم الأعظم مما كتبه المؤلفون ، وطول الزمن وانتشار الجهل كانا مدعاة الى أن تنسب بعض المصنفات الى غير مصنفيها . ولعل الأمة العربية اذا طبعت كل ما في الشرق والغرب من المخطوطات تصل الى كشف حقائق تتعذر اليوم الاحاطة بها » .

(١٧)

ابن حبان البستي

ابو حاتم محمد

(٣٥٤)

عربيٌّ اتصل نسبه بالياس بن مضر ونسب في احدى الروايات الى دارم ثم الى تميم بن مر ثم الى عدنان . نشأ في بُست مدينة بين سجستان وغزنين وهراة ، لايعرف عن نشأته الا ما قالوه من انه كان مكثراً من الحديث بالرحلة والشيوخ ، وانه سمع الحديث من خلائق في خراسان والعراق والحجاز والشام ومصر والجزيرة وغيرها ، وقال في بعض كتبه : ولعلنا كتبنا عن ألف شيخ ما بين الشاش والاسكندرية .

ولي قضاء سمرقند ثم قضاء نسا وغيرها ، ثم صرف من القضاء بدعوى انه زعم ان النبوات علم وعمل ، وانه صنف لأبي الطيب المصعبي كتاباً في القرامطة . وقال بعضهم ان له اوهاماً أنكرت عليه وانه طُعن عليه بهفوة منه بدرت ، ولها محل لو قبلت . وقيل ان الخليفة قتله بدعوى انه يعرف بعض العلوم الرياضية وهو في الثمانين من عمره ! وقيل مات حتف انفه . والارجح ان كتابه في القرامطة حمل افكاراً لايرضاها السلطان فنقموا منه ما كتب ، فكان مقتله سياسياً .

كان البستي عالماً بالمتون والاسانيد اخرج من علوم الحديث ما عجز عنه غيره ، وصحيحه فيه اصحُّ من سنن ابن ماجه ، وكانت الرحلة بخراسان الى مصنفاته ، لانه ادرك الأئمة والعلماء والاسانيد العالية ، وكان وعاء من اوعية العلم في اللغة والفقه والحديث والوعظ ، عارفاً بالطب والنجوم والكلام ، عاقلاً المعياً وكاتباً لوذعياً .

وذكر العارفون ان من الكتب التي تكثر منافعها ان كانت على قدر ما ترجها به واصفوها مصنفات ابي حاتم ؛ وهي في الحديث ومناقب الأئمة ، والعلوم وانواعها ، والهداية الى علم السنن . وقد سبّلها ووقفها وجمعها في دار رسمها بها جعلها لأصحابه ، وبنى مسكناً للغرباء الذين يقيمون بها من اهل الحديث والمتفقهة ، وجعل لهم جرايات يستنفقونها دارّة . وأوصى وصيّة ان تبذل كتبه لمن يريد نسخ شيء منها من غير ان يخرجها من دارها . وتشتت كتبه مع « تطاول الزمان وضعف السلطان واستيلاء ذوي العيث والفساد على تلك البلاد وجهل اهلها ، فلم تعاوَر بالنسخ » فضاع أصلها ولم يكثر فرعها .

لم نعرف ان كان طبع لابن حبان شيء من كتبه المحررة في العلم الذي اشتهر به في القاصية والدانية ، وغاية ما طبع له كتاب « روضة العقلاء ونزهة الفضلاء » وهو كتاب بديع قسمه الى زهاء خمسين مطلباً ابتدأ كل مطلب بحديث واتبعه بما قصد بيانه ، ووشاه بشواهد كثيرة من الشعر وغيره ، بحيث يستفيد منه الكبير والصغير ، ويتأدب به الأمير والأجير ، ويغني غناءه في تربية الرجال والنساء ، ببيان معجب وتنسيق جاءت معه فصوله ذات حجم واحد ، متوازية الفائدة آخذة من الحسن والاحسان بأوفر نصيب .

ابن حبان ينقل الشعر والنثر بالرواية على اصول المحدثين . ومنظومه طبقة يتنافس فيها ، ثم يأتي من عنده بكلام يدل على بعد غوره ولطف ادائه ، وقد يورد في بعض الفصول قصصاً تروق وتعلّم ، ويخاطب العقل وما يجدر بصاحبه عمله « لأن من جاوز الغاية في كل شيء صار الى النقص ، ولا ينفع العقل الا بالاستعمال ، كما لا تنفع الأعوان الا عند الفرصة ، ولا ينفع الرأي الا بالانتحال كما لا تتم الفرصة الا بحضور الاعوان »

قال أنشدني عبد الرحمن بن محمد المقاتلي :

فمن كان ذا عقل ولم يك ذا غنى   يكون كذي رجل وليست له نعل

ومن كان ذا مال ولم يك ذا حجى ... يكون كذي نعل وليست له رجل

ومما حكاه قال : سمعت اسحق بن احمد القطان البغدادي بتستر يقول : كان لنا جار ببغداد كنا نسميه طبيب القراء كان يتفقد الصالحين ويتعاهدهم ، فقال لي : دخلت يوماً على احمد بن حنبل فاذا هو مغموم مكروب فقلت : مالك ياأبا عبد الله . قال : خير . قلت ومع الخير ، قال : امتُحنت بتلك المحنة حتى ضُربت ثم عالجوني وبرأت ، الا أنه بقي في صلبي موضع يوجعني ، هو أشد عليَّ من ذلك الضرب . قال : قلت اكشف لي عن صلبك : قال : فكشف لي فلم أر فيه الا أثر الضرب فقط . فقلت : ليس لي بذي معرفة ، ولكن سأستخبر عن هذا . قال : فخرجت من عنده حتى أتيت صاحب الحبس ، وكان بيني وبينه فضل معرفة ، فقلت له : أدخل الحبس في حاجة قال : أدخل . فدخلت وجمعت فتيانهم ، وكان معي دريهمات فرقتها عليهم ، وجعلت أحدثهم حتى أنسوا بي . ثم قلت : من منكم ضرب أكثر ؟ قال : فأخذوا يتفاخرون حتى اتفقوا على واحد منهم أنه أكثرهم ضرباً وأشدهم صبراً . قال : فقلت له : أسألك عن شيء قال : هات . فقلت : شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم وضُرب على الجوع للقتل سياطاً يسيرة ، الا انه لم يمت ، وعالجوه وبرأ ، الا ان موضعاً في صلبه يوجعه وجعاً ليس له عليه صبر . قال : فضحك ، فقلت : مالك ؟ قال الذي عالجه كان حائكاً . قلت : ايش الخبر ؟ قال : ترك في صلبه قطعة لحم ميتة لم يقلعها قلت : فما الحيلة ؟ قال : يُبطُّ صلبه وتؤخذ تلك القطعة ويُرمى بها ، وان تركت بلغت الى فؤاده فقتلته . قال : فخرجت من الحبس فدخلت على احمد بن حنبل فوجدته على حالته ، فقصصت عليه القصة قال : ومن يبطه ؟ قلت أنا ، قال : أو تفعل ؟ قلت : نعم قال : فقام ودخل البيت ثم خرج وبيده مخدتان وعلى كتفه فوطة ، فوضع احداهما لي والأخرى له ثم قعد عليها وقال :

استخر الله فكشفت القوطة عن صلبه وقلت : أرني موضع الوجع قال : ضع اصبعك عليه فاني أخبرك به ، فوضعت اصبعي وقلت : هاهنا موضع الوجع ؟ قال : هينا احمد الله على العافية . فقلت : ههنا قال : هاهنا احمد الله على العافية . فقلت هاهنا قال : هاهنا اسأل الله العافية . قال : فعلمت انه موضع الوجع ، قال : فوضعت المبضع عليه فلما أحس بحرارة المبضع وضع يده على رأسه وجعل يقول : اللهم اغفر للمعتصم ، حتى بطلته . فأخذت القطعة الميتة ورميت بها وشددت العصابة عليه ، وهو لايزيد على قوله : اللهم اغفر للمعتصم . قال : ثم هدأ وسكن ثم قال : كأني كنت معلقاً فأحدرت . قلت : ياأبا عبد الله ان الناس اذا امتحنوا محنة دعوا على من ظلمهم ورأيتك تدعو للمعتصم . قال اني فكرت فيما تقول ، وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فكرهت آتي يوم القيامة وبيني وبين احد من قرابته خصومة ، وهو مني في حلّ .

ومن حكاياته ، وحكاياته على الأغلب ذات مغزى سياسي واجتماعي : انبأنا محمد بن صالح الطبري بالصيمرة حدثنا محمد بن عثمان العجلي قال : لما حدث شريك بحديث الاعمش عن سالم بن ثوبان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « استقيموا لقريش مااستقاموا لكم ، فاذا خالفوكم فضعوا سيوفكم على عواتقكم فأبيدوا خضراءهم ، فان لم تفعلوا فكونوا زراعين أشقياء » . سُعي به الى المهدي فبعث الى شريك فأتاه ، فقال : حدثت بها ؟ قال : نعم . قال : عمن رويتها ؟ قلت : عن الاعمش . قال : ويلي عليه لو عرفت مكان قبره لاخرجته فأحرقته بالنار . قلت : انه كان مأموناً على مايروي . قال : يازنديق لأقتلنك . قلت : الزنديق من يشرب الخمر ويسفك الدم . قال : والله لأقتلنك . قلت : أو يكفني الله ؟ قال : فخرجنا من عنده فاستقبلني الفضل بن الربيع فقال : ليس لك موضع تهرب اليه ؟ قلت : بلى ، قال : فانه أمر بقتلك قال : فخرجت الى

جبّل . وخرجت يوماً أتجسس الخبر فأقبل ملاح من بغداد فاستقبله ملاح آخر من البصرة ، فسأله ماالخبر ؟ قال : مات أمير المؤمنين . قلت : ياملاح قرّب ، فقرّب . وفي هذه القصة اشارة الى ظلم العباسيين وفي أقل منها كانوا يستبيحون اهلاك الناس ، ولذلك ماكان ابن حبان من المرضيّ عنهم في بلاط بغداد على مايظهر . وما أغناه انطواؤه على علم غزير وخير كثير . أفاد الامة من كل وجوه الاستفادة فما نال منها الا كفر ماأسدى وغمط ماأجدى .



(١٨)

أبو الفرج الاصفهاني

علي بن الحسين

(٣٥٦)

قيل انه من ولد هشام بن عبد الملك وساق ياقوت نسبه هكذا : علي بن الحسين بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الله بن مروان بن محمد ابن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد في اصفهان وأخذ العلم في بغداد عن ابن دريد وابن الأنباري والجمحي والأخفش ونفطويه ، وكتب عليه أن يتنقل في البلاد ، وانتهى الى أن أصبح من ندماء الوزير المهلبي ووصل الى سيف الدولة بن حمدان . ووصفه ياقوت بالعلامة النسابة الاخباري الحُفَظَة الجامع بين سعة الرواية والحذق في الدراسة . قال : لا أعلم لأحد أحسن من تصانيفه في فنها وحسن استيعاب ما يتصدى لجمعه . وكان مع ذلك شاعراً مجيداً .

وذكر التنوخي أنه كان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث المسندة والنسب ما لم يحفظ مثله أحد ، ويحفظ دون ذلك من علوم أخر منها اللغة والنحو والخرافات والسير والمغازي ، ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم والاشربة وغير ذلك ، وله شعر يجمع اتقان العلماء واحسان الظرفاء والشعراء .

كتب المؤلف مصنفات كثيرة أجاد فيها وأجلها كتاب الاغاني جمع فيه الاصوات القديمة وما قيل فيها وتراجم الادباء والشعراء وأخبار الحضارة والعلم بما لم يكتب لكثيرين أن يجيدوا فيه ، فالاغاني كتب

كثيرة في كتاب ، انتفع به كل مؤلف وكل أديب وكل شاعر وكل ناثر على اختلاف العصور ، ولو قد كتب له الضياع لفقد الادب العربي بفقده أعظم جزء مهم . ومن عظمة هذا الكتاب ان فيه أخباراً اقتبسها من كتب لم تصل الينا ، وقد حمله أشعاراً وقصصاً من الادب المكشوف لا تروق الافرنج طريقتها ، وتلائم العرب لمهدنا في الاشمئزاز من كتبها وتلاوتها وانشادها .

وقد استغرب من ترجموا لابي الفرج بانه كان على نزعة شيعية مع انه أموي من صميم بني أمية . والغالب ان بيئته اوحت اليه ذلك ، وكانت بعض الكتب التي اعتمد عليها من مؤلفات الشيعة . وقيل انه كان يؤلف بعض الكتب ويرسلها الى ذوي قرباه من الأمويين في الاندلس ويجيزونه عليها سراً . وهذا كتابه الاغاني اهداه لسيف الدولة بن حمدان وهو شيعي فأجازه عليه بألف دينار ، وبلغ الصاحب بن عباد فقال : لقد قصر سيف الدولة وانه يستاهل اضعافها ووصف الكتاب فأطنب ثم قال : ولقد اشتملت خزانتي على مائتين وستة آلاف مجلد ما منها ما هو سميري غيره ولا راقني منها سواه . قال ابو محمد المهلبي سألت ابا الفرج في كم جمعت هذا الكتاب فقال في خمسين سنة . قال ياقوت « ولعمري ان هذا الكتاب لجليل القدر ، شائع الذكر ، جمّ الفوائد عظيم العلم ، جامع بين الجد البحت ، والهزل النحت » .

جمع الاصفهاني كتابه من كتب من سبقوه الى خوض هذه الموضوعات ومن دواوين الشعر والخطب والاخبار ما عزّ على غيره استيفاء مثله . جمعه بذوق عال شفاف حتى لينسى قارئه أن أبا الفرج جمّاعة قلّ أن يأتي بشيء من عنده واذا أتى به كان من الجيد الممتع لا يخرج كتابه عن منهاجه ولا يحيد عن ترتيبه . وأسلوبه السهل الممتنع في الكتابة ، وربما كان كاتباً أكثر منه شاعراً وان نسب المؤلفون اليه الشعر ووصفوه بالجودة . فالأغاني مفخرة لغة العرب لو اقتصر متأدب عليه لجاء منه أول

اديب لأنه يظفر فيه بأدق الشعر واجزل الخطب الى ما هناك من اخبار وطرف وسيَر ومجالس وبدائع كتبها بحرية ظاهرة ، وما عمد الى شيء من التقية في تقييدها وتدوينها .

نقل صاحب الوافي عن الشيخ شمس الدين قال هذا : رأيت شيخنا ابن تيمية يضعفه ويتهمه في نقله ويستهول مايأتي به وما علمت فيه جرحاً الا قول ابن ابي الفوارس انه خلط قبل ان يموت . وقد اثنى على كتابه الأغاني جماعة من جلة الادباء انتهى . قال ابن غرس الموصلي كتب اليّ ابو تغلب بن ناصر الدولة يأمرني بابتياع كتاب الأغاني فابتعته له بعشرة آلاف درهم فلما حملته اليه ووقف عليه قال : لقد ظُلم ورّاقه المسكين وانه ليساوي عشرة آلاف دينار ، ولو فقد ما قدرت عليه الملوك الا بالرغائب وامر ان يكتب له به نسخة أخرى .

ورموا ابا الفرج بأنه كان مستهتراً في سيرته شأن بعض الندماء في العصر العباسي . وكيف يمتنع النديم عن اشياء حظرها العرف والشرع وهي معروضة عليه كل ساعة وبها قد ينفق على مخدومه . وكما اوصلته بيئته الاصلية الى القول بالتشيع لأهل البيت وهو من أُسرة منافسة لهم ، ساقته الندامة الى ارتكاب أمور كان بعف عنها لو لم يصل الى تلك المجالس والملاهي ، ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه .

ثم ان من الطبيعي ان يرجع من يكتب كتاب « مقاتل الطالبيين » الى مصادرهم ويرشح فكره من أفكارهم ، وكما ان من يتوسع في الترجمة لأبي نواس وينقل شعره العاهر بدون حرج يحكم على المؤلف انه كان في كتاب « مقاتل الطالبيين » شيعياً جلداً (١) وفي الشعر النواسي خليعاً

---

(١) يقول صديقي الاستاذ المحقق شفيق جبري انه امعن النظر كثيراً في كتاب الاغاني فرآه ينقل مايرميه بالتشيع وما تثبت به براءته منه ، فهو بريء من التشيع اذا اعتبرنا مجموع كلامه . واذا صح رأي الاستاذ الحبيب يخرج ابو الفرج من تهمة ألصقت به زمناً طويلاً لاني مارأيت مؤلفاً من القدامى الا قال بشيعيته .

وكتاب الاغاني على اي حال معلمة ادب او اكبر معلمة في ادب العرب ، لا يستغني عنه كاتب ولا مؤلف ولا تلميذ ولا استاذ . كتبه مؤلفه في السنين الطويلة ، كتبه ، في خمسين سنة ، ولم يدخر وسعاً في تجويده ، فجاء كما اراد هو واراد الادب ، وحاول بعض المترمتين اختصاره فما اتوا بكبير امر وبقيت قلوب الدارسين والمتلهين لا تعلق لها بغير قراءة الاصل والاعتماد عليه .

ألف كتاب الأغاني في عصر نضجت فيه الآداب نضجاً لم يتيسر لها في القرون التالية أن وُفقت الى اكثر منه ، فهو بلغته السامية ومادته الواسعة من النمط العالي ، وفي جودة تأليفه المثل السائر بين المؤلفات ، صرف مؤلفه في تصنيفه نقد عمره فخلد اسمه تخليداً لم يبلغه من ألفوا مجلدات اكثر من مجلداته ، ذلك لأن هؤلاء كتبوا برؤوس أناملهم من حاضر الوقت ، وكتاب ابي الفرج كتبه بتحقيقه وجمال ذوقه وخلع على ما جمع حلة شائقة من ظرفه ، ومجموع هذا دلّ على نبوغ تفرّد به في هذا الباب من دون اكثر المؤلفين ، ومثل هذا التأليف اذا ارادت امة عظيمة من امم الحضارة الحديثة ان تخرجه للناس لا يعمل فيه اقل من خمسين عالماً اخصائياً في فنه ، وابو الفرج عمل وحده وكان نسيج وحده ، فالأغاني كنز من كنوز الأجداد ومفخرة الآباء والابناء والاحفاد .

ومما روي من شعره ما قاله في هجو المهلبي :

أبعين مفتقر اليك رأيتني بعد الغنا فرميت بي من حالق
لست الملومَ انا الملوم لأنني املت للاحسان غير الخالق

ومنـــه :

حضرتكم دهراً وفي الكم تحفة فما أذن البواب لي في لقائكم
اذا كان هذا حالكم يوم اخذكم فما حالكم تالله يوم عطائكم

وذكروا ان صاحب الاغاني كان كاتباً لركن الدولة حظياً عنده محتشما له وكان يتوقع من الرئيس ابي الفضل بن العميد ان يكرمه

ويبجله ويتوفر عليه في دخوله وخروجه وعدم ذلك منه فقال :

مالك موفور فما باله اكسبك التيه على المعدم
ولِمْ اذا جئت نهضنا وان جئنا تطاولت ولم تتمم
وان خرجنا لم تقل مثل ما تقول « قدم طِرفه قدّم »
ان كنت ذا علم فمن ذا الذي مثل الذي تعلم لم يعلم
ولست في الغارب من دولة ونحن من دونك في المنسم
وقد ولينا وعزلنا كما انت فلم نصغر ولم نعظم
تكافأت احوالنا كلها فصل على الانصاف او فاصرم

وقد روى ابو حيان في كتاب الوزيرين من تصنيفه في خبر هذه الابيات غير هذا ومن قوله في المهلبي :

ولما انتجعنا عائذين بظله اعان وما عنّى ومنّ وما منّا
وردنا عليه مقترين فراشنا ورُدنا نداه مجدبين فأخصبنا

وله من قصيدة يستميحه :

رهنت ثيابي ، وحال القضاء دون القضاء ، وصد القدر
وهذا الشتاء كما قد ترى عسوف عليَّ قبيح الاثر
نغادي بصرٍّ من العاصفا ت او دمق مثل وخز الابر
وسكان داري ممن اعو ل يلقين من برده كل شر
فهذي تحن وهذي تئن وأدمع هاتيك تجري درر
اذا ما تململن تحت الظلام يعللن منك بحسن النظر
ولاحظن ربعك كالمحلين شاموا البروق رجاء المطر
يؤملن عودي بما ينتظرن كما يرتجى آيب من سفر

شعر لطيف ولكنه بعيد عن عزة النفس ما كان يليق صدوره من مثله .

(١٩)

القاضي علي بن عبد العزيز

(٣٦٦)

لم نعرف شيئاً عن حياة ابي الحسن علي بن عبد العزيز في طفولته وشبابه ، وغاية ما ترجموا له انه ولد في جرجان ، وأخذ العلم عن بعض علماء نَيْسابور ، وطَوَّف في العراق والشام ، واشتهر في انواع العلوم والآداب ، وانه تولى القضاء ، وآخر منصب تولاه قاضي قضاة الريّ . واتصل بالصاحب بن عَبّاد الوزير الأديب فكان لايفارقه مقيماً وظاعناً ويقول انه من افراد الدهر في كل قسم من اقسام الأدب والعلم ، وقالوا انه كان حسن السيرة صدوقاً في قضائه ، يقضي ويفتي على مذهب الشافعي وهو كصاحبه الصاحب معتزلي الرأي والمذهب . وكان اكثر اهل بلده جرجان في عصره حنفية والباقون شفعوية ، وللشيعة فيها جلبة وتقع فيها عصبيات على المذاهب .

كان القاضي علي بن عبد العزيز يجمع خطَّ ابن مُقلة الى نثر الجاحظ ونظم البُحتُري ، فهو امام في الصناعتين ، وامام في الفقه عظيم ، ومؤرخ حجة ثبت ، وقد ألّف في الفقه والتاريخ كما الف في الادب والشعر ، فهو غزير الفضل صحيح الحجة وديع النفس ، تامّ المروءة جمّ الوفاء ، سلمت يده من الرشا ، ونفسه من الدنايا ، وعرف كيف يقيم العدل ، ويذهب بعموم الفضل .

لانعلم اي الملكتين كانت اقوى في القاضي ابن عبد العزيز الشعر ام النثر ؟ ولا اي الفضيلتين ارسخ في قلبه العلم ام العمل . وشعره سلس

قرضه قصائد ومقطعات ولا سيما في الغزل ، ونثره السهل الممتنع . وما تنوقل شعره القرن بعد القرن الا لما فيه من حكم شائقة تتذوقها النفوس ؛ وندر ان يظفر بمثلها في كثير من دواوين الشعراء . وما كان لشعره طابعه الخاص الا لانه صورة من اخلاقه ، ومنزع من منازعه في الحياة ، ومما قال في وصف الشعر :

وما الشعر الا ما استقر بمدحاً ... واطرب مشتاقاً وارضى مغاضبا
اطاع فلم توجد قوافيه نفراً ... ولم تأته الالفاظ حسرى لواغبا

ومن شعره ماجرى مجرى الامثال ، لانه حوى ابداعاً ليس لغيره مثله ، قصيدته المشهورة التي يجب على كل من اتخذ العلم صناعة ان يجعلها دستوراً يسير عليه في حياته وهي :

يقولون لي فيك انقباض وانما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم ان كان كلما ... بدا طمع صيرتـــه لي سلما
وما زلت منحازاً بعرضي جانباً ... من الذل اعتد الصيانة مغنما
اذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما
أنزهها عن بعض ما لا يشينها ... مخافة أقوال العدا فيم أولما
فأصبح عن عيب اللئيم مسلما ... وقد رحت في نفس الكريم معظما
واني اذا ما فاتني الأمر لم أبت ... أقلب فكري اثره متندما
ولكنه ان جاء عفواً قبلتــه ... وان مال لم أتبعه هلاً وليتما
وأقبض خطوى عن حظوظ كثيرة ... اذا لم أنلها وافر العرض مكرما
وأكرم نفسي أن أضاحك عابساً ... وأن أتلقى بالمديح مذممـــا
وكم طالب رقي بنعماه لم يصل ... اليه وان كان الرئيس المعظما
وكم نعمة كانت على الحر نقمة ... وكم مغنم يعتده الحر مغرما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى بـه غرساً وأجنيـه ذلة ... اذاً فاتباع الجهل قد كان أحزما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما
وما كل برق لاح لي يستفزني ... ولا كل من في الأرض أرضاه منعما
ولكن اذا ما اضطرني الضر لم أبت ... أقلب فكري منجداً ثم متهما
الى أن أرى ما لا أغص بذكره ... اذا قلت قد أسدى الي وأنعما

ومن مقطعاته :

ما تطعمت لذة العيش حتى ... صرت للبيت والكتاب حليسا
ليس شيء أعز عندي من العلم ... فلا تبتغي سواه جليسا
انما الذل في مخالطة النا ... س فدعهم وعش عزيزاً رئيسا

وقال :

وقالوا اضطرب في الأرض فالرزق واسع ... فقلت ولكن مطلب الرزق ضيق
اذا لم يكن في الأرض حر يعينني ... ولم يك لي كسب فمن أين أرزق

وقال :

وقالوا توصل بالخضوع الى الغنى ... وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبيني وبين المال بابان حرما ... علي الغنى نفسي الأبية والدهر

وهذا من الشعر الذي يشعر بعظم نفس صاحبه ، ولم يتناقل شعره في الغزل والمديح على رقته تناقل شعر المجيدين مثله ، ولكن هذه المعاني وهذه الحكم عزت في شعر الشعراء فأصبحت كحكم المتنبي من خير ما حمله ديوانه .

أما نثره فهو مرسل على الأغلب ، تقرأ صفحات بارعة منه في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه في شعره . ومثله جدير بأن يدافع عن شعر شاعر عظيم ، وهو شاعر يعرف من أين تؤكل الكتف ، يعرف بعلمه وتوسعه في صناعة الكتابة كيف يورد حججه ويصدرها بهذا البيان المرقص المطرب . والسبب في دفاع القاضي أبي الحسن عن المتنبي أن الصاحب بن عباد لما عمل رسالته في اظهار مساوي المتنبي عمل هو كتاب

الوساطة ، ولم تمنعه صلته بالصاحب عن رده عليه ، وما حالت الصداقة دون تزييف رأيه ، والحق أولى بالصداقة من كل صديق .

وفي هذا الكتاب كما قال الثعالبي « أحسن وأبدع وأطال وأطاب ، وأصاب شاكلة الصواب ، واستولى على الأمد في فصل الخطاب ، واعرب عن تبحره في الادب ، وعلم العرب ، وتمكنه من جودة الحفظ وقوة النقد » . وكتاب الوساطة من أجمل كتب النقد العربي لانعرف له مثيلا قبله ، وكأنه تنبأ بطرق الغربيين في نقدهم في العصور المتأخرة ، وأوضح لهم المنهاج فساروا عليه وتوسعوا فيه . رد في كتابه أجمل رد على من تحاملوا على المتنبي ، وأسقطوه بغير حق . وعرض فيه لجمال هذا الشعر وابداعه وحكمه وبدائعه ، وما تأخر عن ايراد ما يرذل من شعره . ومما قال فيه : « وقد نجد كثيراً من أصحابك ينتحل تفضيل ابن الرومي ويغلو في تقديمه ، ونحن نستقريء القصيدة في شعره ، وهي تناهز المائة أو تربي أو تضعف ، فلا نعثر فيها الا بالبيت الذي يروق أو البيتين ثم قد تتنسخ قصائد منه وهي واقعة تحت ظلها جارية على رسلها لايحصل السامع منها الا على عدد القوافي وانتظار الفراغ ، وأنت لاتجد لأبي الطيب قصيدة تخلو من أبيات تختار ومعان تستفاد ، والفاظ تروق وتعذب ، وابداع يدل على الفطنة والذكاء ، وتصرف لايصدر الا عن غزارة واقتدار . ولو تأملت شعر أبي نواس حق التأمل ، ثم وازنت بين انحطاطه وارتفاعه ، وعددت منفيه ومختاره ، لعظمت من قدر صاحبنا ماصغرت ، ولاكبرت من شأنه مااستحقرت ، وعلمت أنك لاترى لقديم ولا محدث شعراً أعم اختلالاً ، واقبح تفاوتاً وأبين اضطراباً ، وأكثر سفسفة ، وأشد سقوطاً من شعره ، هذا وهو الشيخ المقدم ، والامام المفضل ، الذي شهد له خلف وأبو عبيدة والاصمعي ، ونشر ديوانه الكميت ، فهل طمست معايبه محاسنه ، وهل نقص رديئه من قدر جيده ؟

وتلطف واحتاط قائلا انه لم يدّع الاحاطة بشعر الاوائل والاواخر بل لم يزعم انه نصفه سماعاً وقراءة . قال وانما اجسر في الوقت بعد الوقت فا قدم على هذا الحكم انقياداً للظن ، واستنامة الى مايغلب على النفس ، فأما اليقين الثقة والعلم والاحاطة فمعاذ الله أن أدعيه ، ولو أدعيته لوجب أن لا تقبله مع علمك بكثرة الشعراء ، واختلاف الحظوظ وخمول أكثر ماقيل ، وضياع جلّ مانقل ، وأظنك قد سمعت وانتهى الى علمك أن البحتري أسقط خمسمائة شاعر في عصره فما يؤمنني من وقوع بعض أشعارهم الى غيري وما يدريني مافيها » .

وقال فيما ندعوه اليوم بالذوق الادبي : « وانا اعدل الى ذكر مارأيتك تنكر من معانيه والفاظه ، وتعيب من مذاهبه واغراضه وتحيل في ذلك الانكار على حجة أو شبهة ، وتعتمد فيما تعنيه على بينة أو تهمة اذا كان ما قدمت حكايته عنك ، وما عددته من مطاعنك واثبته من الابيات التي استقطعتها وملت على هذا الرجل لاجلها من باب مايمتحن بالطبع لابالفكر ، ومن القسم الذي لاحظ فيه المحاجة ولا طريق له الى المحاكمة ، وانما اقصى ماعند عايبه واكثر مايمكن معارضه أن يقول فيه جهامة سلبته القبول ، وكزازة نفرت عنه النفوس ، وهو خال من بهاء الرونق ، وحلاوة المنظر ، وعذوبة السمع ، ودماثة النثر ، ورشاقة المعرض ، قد حمل التعسف على ديباجته ، واحتكم التعمل في طلاوته . وخالف التكلف بين أطرافه ، وظهرت فجاجة التصنع في أعطافه ، واستهلك التعقيد معناه ، وقيد العويص مراده ، وهذا أمر تستخبر به النفوس المهذبة ، وتستشهد عليه الأذهان المثقفة . وانما الكلام أصوات محلها من الاسماع محل النواظر من الأبصار ، وأنت قد ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن ، وتستوفي أوصاف الكمال ، وتذهب في الانفس كل مذهب ، وتقف من التمام بكل طريق ، ثم تجد أخرى دونها في انتظام المحاسن ، والتئام الخلقة ، وتناصف الاجزاء ، وتقابل الاقسام ، وهي

أحظى بالحلاوة ، وأدنى الى القبول ، وأعلق بالنفس ، وأسرع ممازجة للقلب . . . » .

وقاضينا هذا كان مؤرخاً أيضاً كما قلنا ، اختصر تاريخ الطبري . ومما كتب في خطبة كتابه تهذيب التاريخ « لولا التاريخ لما تميز ناسخ من منسوخ ومتقدم من متأخر ، وما استقر من الشرائع ، وثبت مما أزيل ورفع ، ولا عرف ما كان أسبابها وكيف مست الحاجة اليها ، وحصلت وجوه المصلحة فيها ، ولا عرفت مغازي رسول الله وحروبه وسراياه وبعوثه ، ومتى قارب ولاين وسارر وخافت ، وفي أي وقت جاهر وكاشف ، ونبذ أعداءه وحارب ، وكيف دبر امر الله الذي ابتعثه له ، وقام بأعباء الحق الذي طوقه نقله ، وأي ذلك قدم وأيها أخر ، وبأيها بدأ وبأيها ثنى وثلث ، وان الولد البر ليتفقد ذلك من آثار والده ، والصاحب الشفيق ليعنى بمثله من شأن صاحبه الخ . . . »

هذا ما عرف من حال القاضي العظيم ، والمجال لا يتسع لايراد شواهد من كلامه ، وفي كتاب الوساطة نموذج مهم يرجع اليه من شاء .

(٢٠)

البلوي

ابو محمد عبد الله بن محمد بن عُميْر بن محفوظ المديني البلوي

(الثلث الثاني من القرن الرابع)

قبيلة بلي (كرضيّ وعلي) فرع من قضاعة ينتهي نسبا الى قحطان . ومنازل بلي اليوم في الوجه من ارض الحجاز جاء منها الصحابة والتابعون والعلماء والفصحاء والقواد . وكانت بلي في الشام فنادى رجل منها : يالَ قضاعة ! فبلغ ذلك امير المؤمنين عمر بن الخطاب فكتب الى عامل الشام ان يسير ثلث قضاعة الى مصر فتفرقت بلي في ارضها . وبلوينا كما فهم من نسبه حجازي وكما يفهم من تأليفه مصري ، والأرجح انه نشأ في مصر ان لم يكن ولد فيها .

وصفوه بأنه عالم فقيه واعظ ، ولم يصفوه بأنه مؤرخ مع اعتراف معاصريه له بهذه الصفة . وطعن عليه اهل السنة والشيعة بأنه وضاع الأحاديث كذاب . ولعله نقل احاديث لتأييد دعوته وهو اقرب الى ان يكون اسماعيلياً سبعياً وان كان مذهبه محل نظر بين العلماء المعاصرين . فقالوا انه امامي وقالوا اسماعيلي ، ونحن لانعلق على مذهبه كبير امر ونقول انه عالم من علماء المسلمين فقط له كتاب الابواب (الأنوار ?) وكتاب المعرفة وكتاب الدين ، وفرائضه ذكر له ذلك صاحب الفهرست ، وقيل ان له رحلة الشافعي وانه طولها ونمقها ، وقد ظفرنا له بكتاب سيرة احمد بن طولون وهذا الذي جلاه للناس بأنه مؤرخ من الطراز الأول . ولولا ظهور كتابه هذا لنسي اسمه ونسيت تآليفه .

نعم نحن لا يهمنا مذهب هذا المؤرخ هنا بقدر ما يهمنا ان نقول انه وضع تاريخاً لم يسبق احد الى وضع مثله ، وما صنف بعده احد على طريقته ، ولا انه طبع تآليفه في قالب ابتدعه لنفسه ، الا وهو تعليم التاريخ بالقصص فأورد لاحمد بن طولون المتغلب على مصر في القرن الثالث قصصاً وقعت له ، عرف بها نشأته وادبه وحكمه وادارته وعدله وظلمه وشجاعته واريحيته ورحمته وقسوته وكرمه وشرهه في جمع المال وغرامه بالنظام وبعده عن الفوضى ومراميه السياسية ودخوله في مسائل الخلافة العباسية لانه بايع ولي العهد ولا يرى ان يعبث بحقوقه وهو خليفة .

نقل المؤلف بعض الحكايات وقدرها تسعون قصة منها خمسون عن ابن الداية في سيرة ابن طولون وردت في كتابه المكافأة ومنها اربعون جاء بها من عنده على مايظهر . وعبارة البلوي اذا وضعت الى جانب كتابة ابن الداية لاتقل عنها فصاحة وجزالة . واذ اعتاد البلوي عدم العزو الى ابن الداية والى غيره اختلط الكلامان على مايخالف عرف المؤرخين والمحدثين . وما كتبه البلوي في كتابه من الفصول ظاهر لمن ينعم النظر والقول بأنهما اخذا من مصدر واحد وهو اضابير احمد بن طولون وجزازاته لايصح على اطلاقه لان الموضوعات التي كان يدونها امين سر ابن طولون بأمر سيده ليست كلها في موضوع كتاب المكافأة بل هي عبارة عن أوامر واحاديث صدرت من لسانه امام جلاسه ورعيته وقصاده وعماله ، واكثرها مما يدخل في موضوع الادارة والحكم .

ومع ان البلوي كتب تاريخه بعد انقراض الدولة الطولونية بستين سنة جمجم وما صرح عند ذكر مساويء ابن طولون وقد يعتذر عنه فيما اقترف . وأي مؤرخ في القديم والحديث لم تضطره السياسة الى استعمال التقية .

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

أما من حيث التأليف فانه لولا تقدم ابن الداية البلويَّ بتأليفه لما أتى كتابه آخذاً بحظ جزيل من الامتاع وسعة المادة ، ولولا ان تاريخ

البلوي كتب في عصر نجا المؤلف فيه من ضرورة المصانعة ، لما جاء أقرب الى الثقة من كتاب ابن الداية ، وتاريخ البلوي بما تعرض له من الحوادث سد ثلمة في تاريخنا كانت عظيمة في التواريخ التي وصلت الينا مما كتبه مؤرخو العرب .

ويعد في حسنات هذا التاريخ انه عرض لتفاصيل كثيرة قد يتخطاها معظم مؤرخينا لا يأبهون لها والدارسون يغتبطون بالوقوف على أشباهها لانها تجلي امامهم أشياء يعنى اهل العصر بمثلها . وبذلك نحكم باننا لم نعهد رجلاً من رجال السياسة الاسلامية كصاحب الدولة الطولونية أن تجلت سيرته للأعين تجلياً لم يكتب لغيره ، وما ذاك الا لان ابن طولون عظيم ، كيف دار المؤرخ يجد ما يسجله له وهو يكتب حياته ولأن ابن الداية عظيم في المؤرخين والكتاب كما ان البلوي عظيم في المؤرخين والمؤلفين .

يورد البلوي في تاريخه الحوادث مفصلة ويحللها ويعللها أحياناً ويبدي رأيه ويظهر شعوره ، يرويها بأسانيدها على عادة مؤرخي عصره ، واذا اقتبس من عبارة مسجوعة لغيره طرح الاسجاع واكتفى بلب العبارة ، وهو يترك السجع أكثر الاحيان ويستعمل الازدواج ، وما اقتبسه من ابن الداية يورده في الغالب بعبارته او يورد على الاقل مقدمته ويزيد عليها شيئاً من عنده .

كتاب البلوي وكتاب ابن الداية من الكتب التي تقرؤها عشر مرات وتحس بعدها انك تشتهي أيضاً ان تعاود قراءتها ذلك لانها استوفت عامة شروط التأليف وكفى ان البلاغة تتدفق من صفحاتها لا تعثر في سبكها وترتيبها على عيب تتعلق به . وللقوالب التي تصاغ بها الافكار دخل عظيم في تأثير الكلام ، وماكان لصوغ البلوي هذه الروعة لو لم يكن صادراً عن نفس رويت من معين الآداب وتمثلتها تمثلاً ظاهراً .

وهاكم الآن قصة من قصص البلوي لا ندري ان كان جاء بها من عنده او اقتبسها من ابن الداية .

حدث نسيم الخادم قال : كان أحمد بن طولون مولاي على غاية من

الميل والمحبة لمعمر الجوهري ، فلما مات مَعْمَر الجوهري حزن عليه أحمد ابن طولون حزناً عظيماً ، حتى ظهر ذلك منه للناس كلهم ، فلم يتعزَّ به ولم يسلُ عنه . فلحزنه عليه كان يبكر كل يوم سَحَراً الى قبره ، وأنا معه ، فيترحم عليه ويقرأ قليلاً ، ويعود الى قصره مع الصبح . فكنا عند موافاتنا قبره نجد في كل يوم امرأة قد سبقتنا الى قبر مقابل قبر مَعْمَر ، تبكي وتنتحب بِحُرقة موجعة مؤلمة لقلب من يسمعها ، فكانت تزيد في حزن احمد بن طولون وتبكيه .

فلما كثر ذلك عليه منها قال لها يوماً : ياامرأة أتبيتين ها هنا ؟ فقالت : لا أيها الامير . وعلم أنها قد عرفته . فقالت : وكيف لي لو تهيأ لي المبيت ، حتى أبيت ولا أفارق هذا القبر ، وأدفن فيه مع صاحبه . ولكني أسهر ليلي ، لما أجد في قلبي ؛ فاذا قرب الفجر خرجت وقد شغل الحزن قلبي عن الخوف من وحشة الطريق . فقال لها احمد بن طولون : وماهذه الحال العظيمة التي استحق بها هذا الفعل منك ؟ فقالت : أيها الأمير انها حال عظيمة عندي ، لايجوز لي أن أذكرها . فقال لها : لابدَّ أن تخبريني ذلك . ابنك هو ؟ قالت : لا . قال فأخوك ؟ قالت : لا . قال : فزوجك ؟ قالت : نعم . قال : أقسمت عليك لتخبرِنِيّ بما استوجب به منك هذا الفعل . فقالت : أيها الأمير ، اني أحتشم من ذكره ، وأرفع الأمير عن كشفه . قال لها : الزامي لك ذكره قد أزال حشمتك ، وأقام عذرك .

فقالت : أزوجني أبي هذا الرجل ، وأنا صبية ، مابلغت مبالغ النساء . فلما عقد النكاح سافر سفراً طال مدة أيسنا منه معها . فخلا بي من النساء من لاخير فيه ، وأنا مع أبي وأمي ، وأفسدوني واستولوا على عقلي وحملوني على أن ساعدتهم فيما كتب عليَّ ، بما لم يكن لي منه محيص ، وصبوت كما تصبو النساء وحملت . فلما تبين والداي جميعاً ذلك ، ورد عليهما مايرد مثله من المصائب ، فبينما هما يركضان في الحيرة في أمري

اذ قدم هذا الرجل من سفره ، فطالب بادخالي عليه ، فدافعه أبي وامي بما يحتاج الى اصلاحه لي ، ورجاء أن يزول مافي جوفي ، فلم يدعا شيئاً يعمل في طرحه حتى عملاه ، فما نفع ذلك ، لما قضى الله جل اسمه بكونه .

وقربت ولادتي فوافانا هذا الرجل ، وقد طالت المدافعة له ، فحلف بالطلاق أنه يأخذني بعد ثلاثة أيام ، فلم يجد أبي وأمي بدّاً من ادخالي عليه فدُفعت اليه ، وأنا على حال قد علمها الله جل اسمه غماً وقلقاً ، وأبي وأمي أعظم مما أنا فيه ، فلما أدخلت عليه ، وأخليت معه ، انصرفت أمي وسائر أهلي ، خوفاً من مشاهدة الفضيحة ، فلما حصلت معه في الكلة (١) ، ضربني الطلق ، وزاد الأمر عليّ ، فوثبت من الكلة ، أريد الخروج من البيت الى أمي ، وليس عندي أنها هربت . فما بلغت عتبة باب البيت حتى طرحت الولد من بين رجلي الى الارض ، وسقطت ولا عقل لي ، فوثب هذا الرجل يتأمل ، فرأى طفلاً مطروحاً يبكي فصاح بأخته ، فسمعته وأنا في كربي وغمي ، يقول لها : يا أختي ! اقض كل حق لي عليك ، بما تأتيه في أمر هذه الامرأة ، وانصرف عن البيت ، وتركني مع أخته ، فقامت بي أحسن قيام ، وتولت من أمري ما لا يتولى مثله امي : برفق واشفاق ، وانبساط وجه ، وحسن خلق ، ومزح ومداعبة ، حتى كأن الولد منهم ، وكل ذلك يزيدني خجلاً واحتشاماً ، الا انه قد سكن قلبي بعض السكون .

وبلغ أبي وأمي خبري فلم يقربني احد منهما حياء واحتشاماً ، وبت ليلتي ، فلما كان من الغد دخل الي بوجه منبسط طلق ضاحك ، فجلس عند رأسي ، وساءلني عن خبري ، وقال لي : ألك حاجة ؟ قلت ، ودموعي تجري : يبقيك الله . فبكى لبكائي ، ومضى بنفسه الى ابي وأمي ، فحلف عليهما حتى جاءني بهما وقال لهما : لامهرب من قضاء الله عز وجل ، اني ليس في يدي ولا في ايديكما ولا في يدي احد من عبيده

---

(١) الكلة : ستر رقيق وهي ما نعبر عنه اليوم بالناموسية واقية النائم من الناموس .

جل ذكره منه غير الصبر والحمد له تبارك وتعالى على البأساء والضراء والحمد لله الذي كان هذا من فيض (؟) الله جل اسمه ، له الصبر عليه والستر عليكم ، واحمدوا الله جل اسمه . فدعيا له وشكراه ، واستعبدهما بذلك .

فكان كل يوم يدخل اليَّ بكرة وبالعشي ، يسألني عن حالي ، ويسألني عن شيء اشتهيه ويستحلفني على ذلك ، فابوس يديه وادعو له حتى اذا مضى لي اربعون يوماً ، وهي أيام النفاس ، ودخلت الحمام وصلحت له ، دخل اليَّ مستبشراً طيب النفس ، فمازحني وجلس عندي واستحضر ابي وامي وانفق نفقة كبيرة واسعة حسنة ، حتى كانت مقام عرس ثانٍ . فلما انقضى يومنا وبات عندي ، وجرى بيني وبينه ماجري بين الرجل وزوجته ، وانا على غاية من الاحتشام والحياء منه ، واصبح ، وهب لي دنانير كثيرة ، وقطع لي ثياباً حساناً . فما مضى الا اشهر حتى حملت فولدت غلاماً فسرّ به غاية السرور ، فكأني انبسطتُ قليلاً اليه ، ودعا ايضاً ابي وامي وحلف عليهما ان يلزماني ولا ينقطعا عني ، وصاغ لي حُلِيّاً حسناً ، وما ترك شيئاً من اكرامي وسروري حتى بلغه لي ، وعاشرتني أخته ولأمي (١) أحسن عشرة ، وفعلت معنا اجمل فعل ، فكنا له ولها كالعبيد .

وما زلت معه على حال ما فوقها مزيد من الاحسان والمحبه ، حتى مضت لي عشر سنين ، وكبر ابني ، وحذق القرآن ، وعلّمه جميع الآداب ، وانجب فعظم بذلك سروره وسروري . ثم اعتلَّ علّته هذه التي مات فيها فسمعتهم يقرءُون في الوصية والذي خلفه من الولد ، ولدان ذكران ، وهما فلان وفلان ، وزوجة وهي فلانه ابنة فلان ، يريدني . فلما سمعت ذلك لحق قلبي ما يلحق قلوب النساء من الغيرة ، ثم فكرت في خيانتي وقبح فعلي ، وجميل فعله ، فأمسكت ، الا أني لما خرج العدول من عنده ، خرجت اليه من وراء مقطع كنت جالسة

---

(١) الأولى : وعاشرت أمي .

حلفه فقبلت رأسه ويده ، وقلت له : يا سيدي ، لك عليَّ من الاحسان والانعام وجميل الفعل ما قد استعبدتني به ، حتى لو وقفت على أن لك ثلاث نسوة وعدة جوار لحملتهن لك على رأسي ، فكان ذلك أقلَّ واجبك عليَّ ، فكيف يكون لك ولد غير ولدي من امرأة غيري أو جارية ، فلا تعرفني حتى أتولى خدمتها بنفسي ، وكان ذلك بعض ما تستحقه مني ؟ فقال : كأنك أنكرتي ما سمعتيه في وصيتي من ذكري ولدين ذكرين ، فقلت : نعم . فحوَّل وجهه عني الى الحائط فقال لي : ويحك ، هذا وذاك وتشهد ومات .

فأحضرتني أخته ذلك الطفل الذي كنت رميته ، ووالله ما قدَّرته يعيش ولا سألت عنه ولا فكرت فيه ، فقالت له : يا بني هذه أمك فبُس رأسها ، فانكبَّ على رأسي وبكيت وبكت أخته ، واذا بها قد اشترت له داية ، وأفردته في موضع معها ، وكبر فعلمته مع ابنه القرآن وجميع ما علمه ابنه من الآداب وانجب أيضاً ، على أنه بعض ولد الجيران ، وأحضرت أخاه فقالت له : يا ابن أخي هذا أخوك فتعانقا ، ووقف كل منهما على صورة الأمر ، واتفقت الحال بينهما فتسخمت أنا وأخته عليه ، وجززنا شعورنا ، ولزمنا الحزن عليه ،

فماتت أخته حزناً ، وبقيت أنا وابني وأخوه معي ، وخلف له شيئاً يسدّ حاجتنا . فأنا ألزم قبره ولا أنسى جميل فعله ، ولا يزول من قلبي حزنه . فقال لها أحمد بن طولون : رحمه الله ورضي عنه ، فما في الدنيا أكرم من هذا الرجل ولا أجمل فعلًا ، وأحسن الله جزاءَك إذ عرفت له مقدار فعله بك ، وكثر الله في النساء مثلك ، فان يكن لك حاجة ، أو نابتك نائبة ، فعرفيني فقد لزمني حقك ، ووجب عليَّ حفظك ، فدعت له وانصرف أحمد بن طولون وقد أبكته وأحزنته .

(٢١)

بديع الزمان الهمذاني

ابو الفضل احمد بن الحسين

(٣٨٠)

نسب الى همذان ، وسكن غزنة زمناً ، وتخرج بأبي الحسين احمد بن فارس واخذ عن غيره وخص بحافظة عجيبة « كان ينشد الشعر لم يسمعه قط وهو اكثر من خمسين بيتاً الا مرة واحدة فيحفظها كلها ، ويؤديها من اولها الى آخرها لا يخرم حرفاً ، وينظر في الأربعة والخمسة الأوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهزها عن ظهر قلبه هزاً ويسردها سرداً . وهذا حاله في الكتب الواردة وغيرها ، وكان يقترح عليه عمل قصيدة وانشاء رسالة في معنى بديع وباب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة . وكان ربما كتب الكتاب المقترح عليه فيبتديء بآخره ثم هلم جرّاً الى أوله ويخرجه كأحسن شيء وأملحه . ويوشح القصيدة الفريدة من قبله بالرسالة الشريفة من انشائه ، فيقرأ من النظم والنثر ، ويروي من النثر والنظم ، ويعطي القوافي الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيقة ، ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر ، فيرتجله أسرع من الطرف ، على ريق لم يبلعه ، ونفس لا يقطعه ، وكلامه كله عفو الساعة وفيض البديهة ، ومسارقة القلم ، ومسابقة اليد للفم ، وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة بالأبيات العربية فيجمع فيها بين الابداع والاسراع » .

قال فيه مترجموه انه كان « متعصباً لأهل الحديث والسنة ما أخرجت

همذان بعده مثله » . وأوصى « ان يتولى الصلاة عليه اهل الحديث واهل السنة » . وهو جماعي يصرح بمذهبه « وينعى على من ينالون من الشيخين ويقول : ولا كل سيرة عدل العمرين . ومما قال في انتشار الرفض : وهذه الكوفة مما اختط أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما ظهر الرفض بها دفعة ، ولا وقع الالحاد فيها وقعة ، انما كان اوله النياحة على الحسين بن علي رضي الله عنهما وذلك ما لم ينكره الأنام ، ثم تناولوا معاوية فأنكر قوم وتساهل آخرون ، فتدحرجوا الى عثمان فنفرت الطباع ونبت الاسماع ، وكان القراع والوقاع ، حتى مضى ذلك القرن وخلف من بعدهم خلف لم يحفظوا حدود هذا الأمر ، فارتقى الشتم الى بفاع ، وتناول الشيخين رضي الله عنهما » .

كان الهمذاني عربياً مجاهراً بعربيته في ارض فارسية كما كان صريحاً في نحلته في بلاد فيها جماع الاهواء . كتب الى الشيخ الرئيس ابي عامر « نحن أطال الله بقاء الشيخ اذا تكلمنا في فضل العرب على العجم وعلى سائر الامم أردنا بالفضل ما أحاطت به الجلود ، ولم ننكر ان تكون أمة احسنَ من العرب ملابس ، وأنعم منها مطاعم ، وأكثر ذخائر ، وابسط ممالك ، واعمر مساكن ، ولكنا نقول : العرب اوفى واوفر ، وارقى واوقر ، وانكى وانكر ، واعلى واعلم ، واحلى واحلم ، واقوى واقوم ، وابلى وابلغ ، واشجى واشجع ، وأسمى واسمع ، واعطى واعطف وألطى وألطف ، وأحصى واحصف ، وافقى وآفق ، ولا ينكر ذلك الا وقح وَتح ، ولا يجحده الا نغِل نغِر . وانما قدم الله تعالى مُلْك العجم ليحتج عليها ، وانما أخر ملك العرب ليحتج بها ، وما ملكت العجم حتى تواصلت ، وما ملكت العرب الا حين تصاولت ، وما تواصلت العجم الا يأساً من نفوسها ، ولا تصاولت العرب الا لما في رؤوسها ... » .

بَرَّز الهمذاني في الشعر والنثر ، ونثره ذو طابع خاص يهتز اهتزاز

الغصن الوريف ، وتسمع له جميل الحفيف والافيف ، وحفيفه منبعث من نفسه ورفيفه صادر عن قوى في حسه ، وقل في الكتاب من أحدث له طريقة كطريقته ، وأملى بها صورته وجسّم صوته ونُعَرَته ، وان كتب لك ان تتدبره تدرك في يسر وسهولة ماوصلت اليه الاخلاق في عصره ، وما حدث من متاعب ومعضلات في البقاع النائية من ارض الشرق ، وكأن ماكتب في رسائله لوحة نقشت عليها ما كان في زمنه من التزاويق والتهاويل ومن التعمية والتخليط ، فهو يعطيك ما يهمك من الاخبار مما قد تضن به عليك كتب التاريخ والسير . ويوضيك لانه كان بعيداً عن التقية لا يهاب شيئاً عند ارادته بث شعوره وافكاره ، صانع بعض الامراء ، لاعتقاده ان من يخاشنهم يُضرب ويُنكب ، وبالتقرب منهم يجمع من نوالهم وجوائزهم ما يعتقد به العقد وتسجل له به صكاك الضياع ، وهكذا كانت طريقة الناس في عصره ، وشعراؤه وكتابه هم ألسنته الناطقة الصداحة .

يتجلى روح الشباب في رسائل ابي الفضل تجلي اغراض اهل زمنه واغراضه هو ، وللشباب وثبات لايساويهم فيها الشيوخ ولو تكلفوا لها وحشدوا ، ولو اصطنع الشاب وقار الشيوخ والشيخ حماسة الفتيان لظهر للناس أمرهما وانكشف المدقق خبيئة نفسها . وفي كتابة الشباب مطامع وآمال ، وفي كتابة الشيوخ حكمة وأناة . وفي الاولى ابتسامات وتفاؤل ، وفي الثانية انقباض وتشاؤم .

وفي المناظرة التي جرت بين الهمذاني وابي بكر الخوارزمي بمشهد من القضاة والفقهاء والاشراف وغيرهم وما ظهر من آثار بديهة ابي الفضل ودهشة ابي بكر وسرعة خاطر الاول وجمود الثاني ما أطمع في هذا خصمه فبذه وجعله وراءه في قرض القريض وتحبير الخطب دليل على ان سكرة الشباب أحياناً افضل من وقار الشيوخ . هذا والخوارزمي علم من اعلام الادب ، عظيم في عصره ولكنه شيخ برد دمه أو كاد ، وصاحبه شاب كله حيوية .

ومع كثرة ماوقع بين المتناظرين ترفع الهمذاني عن الشماتة بخصمه وقت مرضه ، فقد هنأوه بمرض الخوارزمي فأجاب جواباً دلّ على عظم نفسه وقال : « فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها على نفسه ، ولا يعدمها في جنسه . والشامت ان أفلت فليس يفوت ، وان لم يمت فسيموت ، وما أقبح الشماتة ، بمن أمن الامانة ، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة ، وعقب كل لفظة ، والدهر غرثان طعمه الخيار ، وظمآن شربه الاحرار ، فهل يشمت المرء بأنياب آكله ، ام يُسر العاقل بسلاح قاتله ، وهذا الفاضل شفاه الله ، وان ظهر بالعداوة قليلاً ، فقد باطناه وداً جميلاً ، والحرّ عند الحمية لا يصطاد ، ولكنه عند الكرم ينقاد ، وعند الشدائد تذهب الأحقاد ، فلا تتصور حالي الا بصورتها من التوجع لملمّه ، والتحزن لمرضته ، وقاه الله المكروه ووقاني سماع السوء فيه بحوله ولطفه » ومعنى هذا ان الهمذاني وان ألهب للخوارزمي نار هجاء ، ونال منه وهو مغتاظ فأسقطه في بديهته وشعره ونثره ، لم تجد الشماتة بمرضه الى قلبه سبيلا ، وأبى ان يكون من النذالة وسفساف الخلق ماقد يكون على مثله بعض المتباغضين المتلاعنين والمتنافسين المختصمين .

أملى الهمذاني اربعمائة مقامة ما عُرف الا بعضها ، فهو واضع طريقة المقامات وان قالوا انه نقلها من غيره ، وغيره لم تؤثر له ولا مقامة . ومع أن مقاماته نسق واحد في صنعتها يتحدث بها عن عيسى بن هشام وينسبها الى بطلها ابي الفتح الاسكندري فان مقاماته على طرافتها كانت دون رسائله في الابانة عن حالة العصر .

وهذا الضرب من الادب لم يُفلح كثيراً عند العرب وهو نوع من القصة المخنوقة تبتديء وتنتهي على نسق واحد ، لا يُقصد بها التعليم اكثر مما يقصد بها بهرجة الالفاظ والاستكثار من زخارف البديع والترصيع والتجنيس ، ولا يقال فيها الا انها ابنة التطبع لا الطبع . ومقاماته ورسائله تُشعرك بسعة محفوظه في المنظوم والمنثور ، وبما وعت حافظته من متن اللغة وآدابها .

ونثره متساوق متناسب ، موجز الفقرات بادي القسمات ، تكاد تحمل كل فقرة منه معنى بذاته كقوله : هذا سوس لايقع الا في صوف الايتام ، وجراد لايسقط الا على الزرع الحرام ، ولص لاينقب الا خزانة الاوقاف ، وكردي لا يغير الا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله الا بين الركوع والسجود ، ومحارب لاينهب مال الله الا بين العهود والشهود .

ولو ادعى مدع ان الكتابة ماختمت بابن العميد كما قالوا بل بالهمذاني لكان حقاً ومذهباً . الهمذاني لا يستغني شادٍ في الادب عن الاخذ عنه ، ومثل ابن العميد كثار غير قلائل ، وبعضهم اكتب واشعر ، اخملهم تخلف الدنيا عنهم . وللشهرة اسباب قد تخطيء اعظم مستحق لها .

* * *

بقي ان نلمع الى مكانة بديع الزمان في الجد ومكانته في الهزل ، ولا احسن في الدلالة على ذلك من نقل نموذجين جميلين في هذين الموضوعين ، فانه في المقامة المضيرية كان من وراء الغاية في هزله ، كما جوّد كل التجويد في رسالته الى وزير محمود بن سُبُكتكين .

واليك المقامة المضيرية بنصها الرائق : حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت بالبصرة ومعي ابو الفتح الاسكندري رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه ، والبلاغة يأمرها فتطيعه ، وحضرنا معه دعوة بعض التجار فقدمت الينا مَضيرة تثني على الحضارة ، وتترجرج في الغضارة ، وتؤذن بالسلامة ، وتشهد لمعاوية رحمه الله بالامامة ، في قصعة يزل عنها الطرف ، ويموج فيها الظرف ، فلما اخذت من الخُوان مكانها ، ومن القلوب اوطانها ، قام ابو الفتح الاسكندري يلعنها وصاحبها ، ويمقتها وآكلها ، ويثلبها وطابخها ، وظنناه يمزح فاذا الأمر بالضد ، واذا المزاح عين الجد ، وتنحى عن الخوان ، وترك مساعدة الاخوان ، ورفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون ، وتحلبت لها الأفواه ، وتلمظت لها الشفاه ، واتقدت لها الأكباد ، ومضى في اثرها الفؤاد ، ولكنا ساعدناه على

هجرها ، وسألناه عن أمرها فقال : قصتي معها اطول من مصيبتي فيها ، ولو حدثتكم بها لم آمن المقت ، واضاعة الوقت . قلنا : هاتِ . قال : دعاني بعض التجار الى مضيرة وانا ببغداد ، ولزمني ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرقيم ، الى ان اجبته اليها وقمنا ، فجعل طول الطريق يثني على زوجته ، ويفديها بمهجته ، ويصف حذقها في صنعتها ، وتأنقها في طبخها . ويقول : يامولاي لو رأيتها ، والخرقة في وسطها ، وهي تدور في الدور ، من التنور الى القدور ، ومن القدور الى التنور ، تنفث بفيها النار ، وتدق بيديها الأبزار ، ولو رأيت الدخان وقد غبّر في ذلك الوجه الجميل ، واثر في ذلك الخد الصقيل ، لرأيت منظراً تحـار فيه العيون ، وانا اعشقها لأنها تعشقني ، ومن سعادة المرء ان يرزق المساعدة من حليلته ، وان يسعد بظعينته ، ولا سيما اذا كانت من طينته ، وهي ابنـة عمي لحّاً ، طينتها طينتي ، ومدينتها مدينتي ، وعمومتها عمومتي ، وأرومتها ارومتي ، لكنهـا اوسع مني خُلقاً واحسن خَلقاً . وصدّعني بصفات زوجته ، حتى انتهينا الى محلته . ثم قال : يا مولاي ترى هذه المحلة هي اشرف محال بغداد ، يتنافس الاخيار في نزولها ، ويتغاير الكبار في حلولها ، ثم لا يسكنها غـير التجار ، وانما المرء بالجار ، وداري في السطة من قلادتها ، والنقطة من دائرتها ، كم تقدر يا مولاي انفق على كل دار منها ؟ قله تخميناً ان لم تعرفه يقيناً ، قلت : الكثير ، فقال : ياسبحان الله ما اكبر هذا الغلط ، تقول الكثير فقط . وتنفس الصعداء وقال : سبحان من يعلم الاشياء . وانتهينا الى باب داره ، فقـال : هذه داري ، كم تقدر يامولاي انفقت على هـذه الطاقة ؟ انفقت والله عليها فوق الطاقة ، ووراء الفاقة . كيف ترى صنعتها وشكلها ؟ أرأيت بالله مثلها ؟ انظر الى دقائق الصنعة فيها ، وتأمل حسن تعريجها فكأنما خط بالبركار . وانظر الى حذق النجار في صنعة هذا الباب ، اتخذه من كم . قل : ومن اين اعلم . هو ساج من قطعة واحدة لا مأروضٌ ولا عفن ،

اذا حرّك أنّ ، واذا نُقر طنّ ، من اتخذه ياسيدي ؟ اتخذه ابو اسحق بن محمد البصري ، وهو والله رجل نظيف الأثواب ، بصير بصنعة الابواب ، خفيف اليد في العمل ، لله در ذلك الرجل ، بحياتي لا استعنت الا به على مثله ، وهذه الحلقة التي تراها اشتريتها في سوق الطرائف من عمران الطرائفي بثلاثة دنانير مُعِزّية ، وكم فيها يا سيدي من الشَبَه ، فيها ستة ارطال وهي تدور بلولب في الباب ، بالله دوّرها ثم انقرها وابصُرها ، وبحياتي عليك لا اشتريت الحلق الا منه ، فليس يبيع الا الاعلاق . ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال : عمرك الله يادار ، ولا خرّبك ياجدار ، فما امتن حيطانك ، واوثق بنيانك ، واقوى اساسك ، تأمل بالله معارجها ، وتبيّن مداخلها وخوارجها ، وسلني كيف حصّلتها ، وكم من حيلة احتلتها حتى عقدتها . كان لي جار يُكنى ابا سليمان يسكن هذه المحلة وله من المال ما لا يسعه الخزن ، ومن الصامت ما لا يحصره الوزن . مات رحمه الله وخلّف خلفاً اتلفه بين الخمر والزمر ، ومزقه بين النرد والقمر ، واشفقت ان يسوقه قائد الاضطرار الى بيع الدار ، فيبيعها في اثناء الضجر ، او يجعلها عرضة للخطر ، ثم اراها وقد فاتني شراها ، فأتقطع عليها حسرات الى يوم الممات ، فعمدت الى اثواب لا تنضّ تجارتها فحملتها اليه ، وعرضتها عليه ، وساومته على أن يشتريها نسيّة ، والمدبر يحسب النسية عطية ، والمتخلف يعتدها هدية ، وسألته وثيقة بأصل المال ففعل وعقدها لي ، ثم تغافلت عن اقتضائه ، حتى كادت حاشية حاله ترق ، فأتيته فاقتضيته ، واستمهلني فأنظرته ، والتمس غيرها من الثياب فأحضرته ، وسألته ان يجعل داره رهينة لديّ ووثيقة في يديّ ففعل ، ثم درجته بالمعاملات الى بيعها حتى حصلت لي بجدّ صاعد ، وبخت مساعد ، وقوة ساعد ، ورب ساعٍ لقاعد ، وانا بحمد الله مجدود ، وفي مثل هذه الاحوال محمود . وحسبك يامولاي اني كنت منذ ليال نائماً في البيت مع من فيه اذ قُرع علينا الباب فقلت : من الطارق المنتاب ؟ فاذا امرأة معها عقد لآل ، في جلدة ماءٍ ورقةِ آل

تعرضه للبيع ، فأخذته منها اخذة خلس ، واشتريته بثمن بخس ، وسيكون له نفع ظاهر ، وربح وافر بعون الله تعالى ودولتك ، وانما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدي في التجارة ، والسعادة تنبط الماء من الحجارة ، الله اكبر لاينبئك اصدق من نفسك ، ولا اقرب من امسك ، اشتريت هذا الحصير في المناداة ، وقد أخرج من دور آل الفرات ، وقت المصادرات وزمن الغارات . وكنت اطلب مثله منذ الزمن الاطول فلا أجد ، والدهر حُبلى ليس يُدرى مايلد . ثم اتفق اني حضرت باب الطاق ، وهذا يعرض في الاسواق ، فوزنت به كذا وكذا ديناراً ، تأمل بالله دقته ولينه وصنعته ولونه فهو عظيم القدر ، ولا يقع مثله الا في الندر ، واذا كنت سمعت بأبي عمران الحصيري فهو عمله ، وله ابن يخلفه الآن في حانوته ، لايوجد اعلاق الحصر الا عنده ، فبحياتي لااشتريت الحصر الا من دكانه ، فالمؤمن ناصح لاخوانه ، لاسيما من تحرّم بخوانه . ونعود الى حديث المضيرة ، فقد حان وقت الظهيرة . يا غلام : الطست والماء . فقلت الله اكبر ربما قرب الفرج ، وسهل المخرج ، وتقدم الغلام ، فقال : ترى هذا الغلام ، انه رومي الاصل ، عراقي النشء ، تقدم يا غلام واحسر عن رأسك ، وشمر عن ساقك ، وانضُ عن ذراعك ، وافترّ عن اسنانك ، وأقبل وأدبر ، ففعل الغلام ذلك . وقال التاجر : بالله من اشتراه ؟ اشتراه والله ابو العباس من النخاس ، ضع الطست وهات الابريق ، فوضعه الغلام وأخذه التاجر وقلبه وأدار فيه النظر ثم نقره فقال : انظر الى هذا الشبه كأنه جذوة اللهب ، او قطعة من الذهب : شبه الشام ، وصنعة العراق ، ليس من خلقان الأعلاق ، قد عرف دور الملوك ودارها . تأمل حسنه وسلني متى اشتريته ؟ اشتريته والله عام المجاعة ، وادخرته لهذه الساعة ، ياغلام : الابريق ، فقدّمه ، وأخذه التاجر فقلّبه . ثم قال : وانبوبه منه ، لا يصلح هذا الابريق الا لهذا الطست ، ولا يصلح هذا الطست الا مع هذا الدست ،

ولا يحسن هذا الدست الا في هذا البيت ، ولا يجمل هذا البيت الا مع هذا الضيف . ارسل الماء يا غلام ، فقد حان وقت الطعام . بالله ترى هذا الماء ما أصفاه ، ازرق كعين السنور ، وصاف كقضيب البلور استقي من الفرات ، واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة ، في صفاء الدمعة ، وليس الشأن في السقاء ، الشأن في الاناء ، لا يدلك على نظافة اسبابه ، اصدق من نظافة شرابه ، وهذا المنديل سلني عن قصته فهو نسج جرجان وعمل ارجان ، وقع اليّ فاشتريته فاتخذت امرأتي بعضه سراويلا ، واتخذت بعضه منديلا ، دخل في سراويلها عشرون ذراعاً ، وانتزعت من يدها هذا القدر انتزاعاً ، وأسلمته الى المطرز حتى صنعه كما تراه وطرزه ، ثم رددته من السوق ، وخزنته في الصندوق ، وادخرته للظراف ، من الاضياف ، لم تتبذله عرب العامة بأيديها ، ولا النساء لمآقيها ، فلكل علق يوم ، ولكل آلة قوم ، ياغلام الخوان ، فقد طال الزمان ، والقصاع ، فقد طال المصاع ، والطعام ، فقد كثر الكلام ، فاتى الغلام بالخوان ، وقلبه التاجر على المكان ، ونقره بالبنان ، وعجمه بالأسنان ، وقال : عمّر الله بغداد فما اجود متاعها ، واظرف صنّاعها ، تأمل بالله هذا الخوان ، وانظر الى عرض متنه ، وخفة وزنه ، وصلابة عوده وحسن شكله ، فقلت : هذا الشكل ، فمتى الأكل ؟ فقال : الآن ، عجل ياغلام الطعام ، لكن الخوان قوائمه منه . قال ابو الفتح : فجاشت نفسي وقلت : قد بقي الخبز وآلاته ، والخبز وصفاته ، والحنطة من اين اشتريت اصلا ، وكيف اكترى لها حملا ، وفي اي رحى طحن ، واجانة عجن ، وايّ تنور سجر ، وخباز استأجر ، وبقي الحطب من اين احتطب ، ومتى جلب ، وكيف صفّف حتى جفف ، وحبس ، حتى يبس ، وبقي الخباز ووصفه ، والتلميذ ونعته ، والدقيق ومدحه ، والخمير وشرحه ، والملح وملاحته ، وبقيت السُكُرُّجات من اتخذها ، وكيف انتقدها ، ومن استعملها ، ومن عملها ،

والخل كيف انتقى عنبه ، او اشتري رطبه ، وكيف صُهرجت معصرته ، واستخلص لبه ، وكيف قيّر حبه ، وكم يساوي دنه ، وبقي البقل كيف احتيل له حتى قطف ، وفي اي مبقلة رُصف ، وكيف تُؤُنِّق حتى نظف ، وبقيت المضيرة كيف اشترى لحمها ، ووفّي شحمها ، ونصبت قدرها ، وأججت نارها ، ودقت ابزارها ، حتى اجيد طبخها ، وعقّد مرقها ، وهذا خطب يطمّ وامر لا يتم ، فقمت ، فقال : اين تريد ؟ فقلت حاجة اقضيها . فقال : يامولاي تريد كنيفاً يزري بربيعي الامير وخريفي الوزير . قد جصص اعلاه ، وصُهرج اسفله ، وسطّح سقفه وفرشت بالمرمر ارضه ، يزل عن حائطه الذر فلا يعلق ، ويمشي على ارضه الذباب فيزلق ، عليه باب غيره انه من خليطي ساج وعاج ، مزدوجين احسن ازدواج ، يتمنى الضيف ان يأكل فيه ، فقلت : كل انت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف في الحساب . وخرجت نحو الباب ، واسرعت في الذهاب ، وجعلت اعدو وهو يتبعني ويصيح : يا أبا الفتح المضيرة ، وظن الصبيان ان المضيرة لقب لي فصاحوا صياحه فرميت احدهم بحجر ، من فرط الضجر ، فلقي رجل الحجر بعمامته ، فغاص في هامته ، فأخذت من النعال بما قَدُم وحَدُث ، ومن الصفع بما طاب وخبث ، وحشرت الى الحبس ، فأقمت عامين في ذلك النحس . فنذرت ان لا آكل مضيرة ماعشت ، فهل انا في ذا يا آل همذان ظالم ؟ قال عيسى بن هشام : فقبلنا عذره ، ونذرنا نذره ، وقلنا : قديماً جنت المضيرة على الاحرار ، وقدمت الارذال على الأخيار اهـ .

* * *

وهذه رسالته التي تدل على مبلغه من الجد كتب بها الى الفضل بن احمد الاسفرائيني وهو اول من استوزر لأبي القاسم محمود بن سبكتكين فاتح السند والهند :

ان الله وهو العلي العظيم المعطي ماشاء ، منّ على الانسان بهذا اللسان ،

خلق ابن آدم واودع فكيه مضغة لحم يتصرفها في القرون الماضية ، ويخبر بها عن الامم الآتية . يخبر بها عما كان بعد ماخُلق وعما يكون قبل ان يخلق ، ينطق بالتواريخ عما وقع من خطب وجرى من حرب ، وكان من يابس ورطب ، وينطق بالوحي عما سيكون بعد ، وصدق عن الله بالوعد ، ولم ينطق التاريخ بما كان ، ولا الوحي بما يكون بأن الله تعالى خصَّ احداً من عباده ليس النبيين ، بما خص به الامير السيد يمين الدولة وامين الملة . ودون الجاحد ان جحد اخبار الدولة العباسية ، والمدة المروانية ، والسنين الحربية ، والبيعة الهاشمية ، والايام الأموية ، والامارة العَدَوية ، والخلافة التيمية ، وعهد الرسالة وزمان الفترة . ولولا الاطالة لعَدَدنا الى عاد وثمود بطناً بطناً ، والى نوح وآدم قرناً قرناً ، ثم لم يجد قائل مقالاً ان ملكاً وان علا امره ، وعظم قدره وكبر سلطانه وهبت ريحه طرق الهند فأسر طاغيتها بسطة مَلِك ثم خلاَّه ، وعرض الارض قوة قلب وصبّح سجستان وهي المدينة العذراء ، والخطة العوراء والطيّة الغراء ، فأخذ ملكها اخذة عز وعنف ، ثم خلاه تخلية فضل ولُطف ، ثم لم يلبث ان خاض البحر الى بهاضية والسيل والليل جنودها والشوك والشجر سلاحها ، والضِّح والريح طريقها ، والبر والبحر حصارها والجن والانس انصارها ، فقتل رجالها وغنم اموالها ، وساق افيالها ، وكسر اصنامها وهدم اعلامها . كل ذلك في فُسحة شَتوة قبل ان ينطرقها الصيف ، توسطها السيف ، وهو الله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء . ثم حكمت علماء الأمة ، واتفق قول الأئمة ان سيوف الحق اربعة وسائرها للنار : سيف رسول الله في المشركين ، وسيف ابي بكر في المرتدين ، وسيف علي في الباغين ، وسيف القِصاص بين المسلمين ، وسيوف الامير وفقه الله في مواقفه لا تخرج عن هذه الاقسام . فسيفه بظاهر هراة فيمن عطل الحد ، واتهم بأنه ارتد ، وسيفه بظاهر غزنة سد في وجه العقوق ، نوعاً من الكفر والفسوق ،

وسيفه بظاهر مرو في من نقض العهد بعد تغليظه ، ونبذ اليمين بعد تأكيده وسيفه بظاهر سجستان في من نبه الحرب بعد رقودها ، وخلع الطاعة بعد قبولها ، وسيفه الآن في ديار الهند سيف قُرنت به الفتوح ، واثنت عليه الملائكة والروح ، وذلت به الاصنام ، وعزّ به الاسلام ، والنبي عليه السلام ، واختص بفضله الامام ، واشترك في خيره الانام ، وأرخت بذكره الايام ، وأحفيت بشرحه الاقلام . وسنذكر من حديث الهند وبلادها ، وغلظ اكبادها ، وشدة احقادها ، وقوة اعتقادها ، وصدق جلادها ، وكثرة اجنادها نبذاً ليعلم السامع اي غزوة غزاها الامير السيد ، انها بلاد لو لم تحجبها السحاب بدرها ، لأهلكتها الشمس بحرها ، فهي دولة بين الماء والنار ، ونوبة بين الشمس والامطار ، تقدمها صعاب الجبال ، وتحجبها رحاب القفار ، ويعصمها ملتفّ الغياض ، وتحفها طواغي الانهار . حتى اذا خرقت هذه الحجب خُلص الى عدد الرمل والحصى رجالاً ، وشبه الجبال افيالاً ، وانزاع المخاض جلاداً ، ومسناف الجمال طعاناً واركان الجبال ثباتاً ، ثم لايعرفون غدراً ولا بياتاً ، ولا يخافون موتاً ولا حياة ، ولا يبالون على اي جنبيه وقع الامر ، وينامون وتحتهم الجمر ، وربما عمد احدهم لغير ضرورة داعية ولا حمية باعثة فاتخذ لرأسه من الطين اكليلاً ، ثم قوّر قحفه فحشاه فتيلاً . ثم اضرم في الفتيل ناراً ولم يتأوه ، والنار تحطمه عضواً فعضواً ، وتأكله جزءاً فجزءاً . فأما محرق نفسه ومغرقها وآكل لحمه ومفصل عظمه والرامي بها من شاهق فأكثر من ان يعد ، واقلهم من يموت حتف انفه ، فاذا مات هذه الميتة احدهم سُبَّ بها اعقابه وعظم عندهم عقابه . بلاد هذه حالها ، وفيلة تلك اهوالها وجبال في السماء قلالها ، وفلاة يلمع آلها ، وغياض ضيق مجالها ، وانهار كثيرة اوحالها ، وطريق طويل مطالها ، ثم الهند ورجالها والهندوانية واستعمالها . زحم الامير السيد ادام الله ظله هذه الاهوال بمنكبه محتسباً نفسه معتمداً نصر الله وعونه ، فركض اليهم

بعون من الله لا يخذل ، ومدد من الله لا يفتر ، وقلب من الاهوال لا يجبن ، وحث على المطلوب لا يقصر ، وسيف على الضريبة لا ينكل . فسهل الله له الصعب ، وكشف به الخطب . ورجع ثانياً من عنانه بالاسارى تنظمهم الاغلال ، والسبايا تنقلهم الجمال ، والفيلة كأنها الجبال والاموال ولا الرمال ، فتح ذخره الله عن الملوك السالفة الخالية ، الكفرة الطاغية ، الجبابرة العاتية ، حتى وسمه بناره ، وجعله بعض آثاره . والحمد لله معز الدين وأهله ، ومذل الشرك وحزبه ، وصلى الله على محمد وآله .

(٢٢)

الخوارزمي

ابو بكر محمد بن العباس

(٣٨٣)

أصله من طبرستان ومولده ومنشؤه خوارزم وكان يتسم بالطبري ويعرف بالخوارزمي ويلقب بالطبرخزي ، لانه كانت امه من خوارزم وابوه من طبرستان وهو ابن اخت ابن جرير الطبري ، ادعى انه معتزلي وفي الواقع انه شيعي من نوع لم نعرفه . وخاله الطبري شيخ السنة وعلم أعلام الامة ، فارق وطنه في ريعان عمره وهو قوي المعرفة قويم الادب وكان قوياً في حفظ اللغة والشعر « وكانت قريحته تقصر عن حفظه » وكان يحاضر بأخبار العرب وأيامها ورواياتها ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر ، وشعره في جزالته لايقل عن نثره ، وطلاوة نثره آتية من كثرة ما كتب في المقاصد المختلفة . ولم يزل يتقلب في البلاد ويدخل كور العراق والشام ويأخذ عن العلماء ويقتبس من الشعراء . وقد لقي سيف الدولة في حلب وخدمه وورد بخارى وصحب ابا علي البلعمي ثم هجاه ، واتصل بالأمير ابي نصر الميكالي واستكثر من مدحه ، وداخل ابا الحسن القزويني وابا المنصور البغوي وابا الحسن الحكمي فارتفق بهم ، وارتفق من الأمير احمد ومدحه ، ونادم كثير بن احمد ، ثم قصد سجستان وتمكن من واليها طاهر بن محمد ومدحه واخذ صلته ثم هجاه واوحشه حتى اطال سجنه ، ثم نهض الى غَرْشستان وكانت حاله مع صاحبها كهي مع طاهر بن شاد ثم انه عاود نيسابور وأقام بها الى ان وفق بقصد حضرة الصاحب بن عباد ومدحه فضمه الى ندمائه ووصله بعضد الدولة بشيراز فارتاش وأيسر ولم يخل الصاحب أيضاً

من هجائه ، ثم عاد الى نيسابور واستوطنها واقتنى بها ضياعا وعقاراً ولما عاد الى شيراز أجري له رسم يصل اليه في كل سنة بنيسابور مع المال الذي كان يحمل من فارس الى خراسان . وكان يتعصب لآل بويه تعصباً شديداً ويبغض من سلطان خراسان فأطلق لسانه فيه حتى أخذ وحبس وقيد وصودر ، وأخذ خطه بمائتي الف درهم ، ثم اطلق سراحه ورد اليه ماأخذ منه فطاب عيشه وارتفع مقداره الى ان بلي بمساجلة البديع الهمذاني فانخزل انخزالاً شديداً ونفذ قضاء الله فيه .

هذه خلاصة ماترجم له الثعالبي في اليتيمة وقد عرفه عياناً ، وسيرته كما رأيت سيرة الشعراء المستجدين يمدح على الهوى ويذم على الهوى ويعلو ويسفل بحسب الحال ، وكان الى ذلك لما استقرت به الحال يدرس ويُملي من محفوظاته وينظم ويكتب في الاغراض التى تنبعث لها نفسه وشعره شعر اهل الطبقة الثانية من الشعراء ويجيد في المقطعات اذا كان الموضوع مما تأثر به ، ونثره فيه البديع ، وفيه المتكلف لالتزامه السجع . جاء اكثره مصنوعاً وما اجاد الا عندما صدر عن عاطفته . وقد بلغ من الغلو مبلغاً قل ان وصل الى أكثر منه معظم الشعراء والكتاب ، فضاعت لذلك صنعته في غمار اغرافه ودل على ان فارسيته شديدة وأن اماميته كانت مشوبة بتعصب وعصبية . نقل له الثعالبي طائفة من حكمه وأورد له مقطعات من شعره كانت تخرجه عن اتزانه ورويته أحياناً مع ان المفروض فيه غير ذلك .

وخير ماخطت أنامل الخوارزمي كتابه الى جماعة الشيعة بنيسابور وقد كتبه بعاطفته ، وهل التشيع الا عاطفة وعصبية . واذا قصدت الى ان تعرف مقدار الصدق في رسالته البديعة تسقط على ترهات لايدونها في القرطاس من يأخذ من نفسه للحق . معظم الكتاب كالشعراء يتعذر الركون اليهم في تقرير الصدق ، وخاصة اذا كانوا من الموتورين واصحاب الغايات والدعوات وكم في الكتب من اختلاق ، والنقاد هم الذين يخرجون من الحديد خبثه ومن الذهب بهرجه .

ان من يقول « ان بني امية الشجرة الملعونة في القرآن وأتباع الطاغوت

والشيطان ! » وفي بني العباس : « وما أصف من قوم هم نطف السكارى في ارحام القيان وماذا يقال في أهل بيت منهم نبغ البغا وفيهم راح التخنث وغدا وبهم عرف اللواط ! » ان يطمس الغرض على بصره ويقول « وقل في بني العباس فانك ستجد بحمد الله تعالى مقالاً ، وجل في عجائبهم فانك ترى ماشئت مجالا يجبى فيئهم فيفرق على الديلمي والتركي ، ويحمل الى المغربي والفرغاني ، ويموت امام من ائمة الهدى وسيد من سادات بيت المصطفى فلا تتبع جنازته ولا تجصص مقبرته ، ويموت ضراط لهم او لاعب ، او مسخرة او ضارب ، فتحضر جنازته العدول والقضاة ، ويعمر مسجد التعزية عنه القواد والولاة ، ويسلم فيهم من يعرفونه دهرياً او سوفسطائياً ، ولا يتعرضون لمن يدرس كتاباً فلسفياً ومانوياً ، ويقتلون من عرفوه شيعياً ، ويسفكون دم من سمى ابنه علياً ... » ويقول في بني العباس انهم « يولون انباط السواد وزارتهم ، وقلف العجم والطماطم قيادتهم ، ويمنعون آل ابي طالب ميراث امهم وفيء جدهم ، يشتهي العلوي الاكلة فيحرمها ، ويقترح على الايام الشهوة فلا يطعمها ، وخراج مصر والاهواز ، وصدقات الحرمين والحجاز تصرف الى ابن ابي مريم المديني والى ابراهيم الموصلي وابن جامع السهمي والى زلزل الضارب وبرصوم الزامر . واقطاع بختيشوع النصراني قوت اهل بلد ، وجاري بغا التركي والأفشين الاشروسني كفاية امة ذات عدد ، والمتوكل زعموا يتسرى باثني عشر الف سرية ، والسيد من سادات أهل البيت يتعفف بزنجية أو سندية ، وصفوة مال الخراج مقصور على ارزاق الصفاعنة ، وعلى موائد المخانثة ، وعلى طعمة الكلابين ، ورسوم القرادين ، وعلى مخارق وعلوية المغني ، وعلى زرزر وعمر بن بانة الملهي ، ويبخلون على الفاطمي بأكلة او شربة ويصارفونه على دانق وحبة ، ويشترون العوادة بالبدر ويجرون لها ما يفي برزق عسكر . .

ان من يقول هذا ويبالغ ويذم الامويين والعباسيين هذا الذم المقذع ويعمى عن اعمالهم الحسنة التي توازي أضعاف اضعاف ذلك ان

صحت كلها ، مطعون في أرائه ، ولا يقنع عاقل بصحة اقواله ، ولكن بني العباس عرفوا على الغالب نفسيته فطردوه عن بلدهم وحرموه عطاياهم فجال في اطراف ملكهم ينزل على ملوك الطوائف يستجديهم ويمدحهم ويهجوهم . فرسالته الى شيعته وشتم الامويين والعباسيين جاءت من هذا السخف ، والناقد يرذل من افكارها اكثر ما اورده . وخير الادب ماصدق قائله ، ومن دوّن الكذب وقال انه ادب فهو مغبون الصفقة . اما شعره في هجو من غضب عليه فقد حمل مقابح واقذاعاً لايليق صدورها عمن يصطنع الوقار والجلال أمثاله .

وفي الوافي : والظاهر أن الخوارزمي كان فيه ملل واستحالة لان ابا سعيد احمد بن شهيب الخوارزمي قال فيه :

ابو بكر له أدب وفضل ولكن لايدوم على الوفاء
مودته اذا دامت لخل فمن وقت الصباح الى المساء

وبعد فهذا مثال من أدب هذا الاديب ، وهذه صورة من أخلاقه وطعمته ، وهذا وفاؤه لمن آووه وأغنوه ، وهذه مصانعته لجماعته واغواؤه لمن يضلل عقولهم . وقد اثرت له حكم بعضها جميل واكثر معانيها مبتذلة مأخوذة عمن سبقه . ونعذر مثل الخوارزمي اذا لم يبرز في حكمه مادام جماع حكمته في حياته ان يَغني ويَنعم ويغلو ويغرق . ولا يعدم صاحب السخف مهما بلغ من خطته أن يجد مستمعين لقوله وان كان كلامه الهراء بعينه .

قال الحصري : كان ابو بكر الخوارزمي رافضياً غالياً . وقال ياقوت: قرأت في آخر ديوانه له :

بآمل مولدي وبنو جرير فأخوالي ويحكي المرء خاله
فها أنا رافضي عن تراث وغيري رافضي عن كلالة

صوّر من ترجموا للخوارزمي هذه الصورة التي نقلناها عنهم ، ودلتنا بعض رسائله على منازعه ، ولولا هذه المخزيات الملموسة في كتابته لكان بما اتقنه من علوم وآداب آية في فنه ، ومع انه جرى طلقاً مع عاطفته

فقد كانت رسائله مما يتعلم منه ، وقليل في حملة الاقلام من جودوا تجويده .
تأمل هذه الظاهرة في أخلاق الخوارزمي تره على كثرة ماجنى من مال واعتقد من ضياع ممن يصعب عليهم أداء مال السلطان . فما كتب الى صاحب ديوان الحضرة أنه ورد عليه من عمال الخراج من لا أطربه بجرمة ولا أتناوله بطرف ذريعة او وسيلة ، وكأني به وقد حشرني في جملة العامة ، وادخلني فى غمار سائر الرعية ، ووقفني على جسر قدامه الخسران وخلفه الهوان ، وفجعني بدريهمات جمعت بتقحم المهالك واختراق المسالك والمهالك ، ودنانير قطعت القفار ، وخاضت البحار ، وناطحت الحوادث والأقدار ، فان بذلتها أبرزت وفراً طالما كان مخزوناً ، وان منعتها ابتذلت عرضاً لم يزل مصوناً .

وكتب الى صاحب ديوان الخراج بالحضرة : وان درهماً يؤخذ مني لدرهم ثقيل الوضع على السلطان قبيح الأحدوثة في البلدان ، ولئن كان يعمر به بيت المال ، فانه يخرب بيت الجمال . ولئن كان يزيد به عدد الدراهم ، انه لينقص من عدد المكارم ، ولئن كان يسمى في العامة جباية ، انه يسمى في الخاصة خزاية . وللبس اكفان الموتى ، وسرق أدوية المرضى ، وقطع الطريق على حجاج بيت الله الحرام ، وزوار قبر النبي عليه السلام ، احسن في الاحدوثة وابعد من العار والنقيصة ، من الزام مثلي خراجاً ، وسومه غرامة واستخراجاً ! » .

وكتب في حالة أخرى الى صاحب ديوان الحضرة : « فان رأى ان لايفجع خراسان بلسانها ، ولا يخليها من سيفها وسنانها فعل » وكتب الى بعض حكام الرساتيق « وما ظن سيدي بضيعة الزمتني الجزية بعد ان كنت ألزمها الصغير والكبير ، واستأديها الرعية والأمير ، وأخرجتني من عز السلاطين الى ذل الدهاقين ، وجمعت عليّ فتون الأغنياء وغم المساكين ، وشغلني صداعها عن أشغال الدنيا والدين ، يستغل الناس الغلة ، وأنا أستغل القلة والذلة . ويزرعون في الأرض حباً ، فيحصدون حبوباً ،

وانا أزرع في قلبي كرباً واحصد كروباً ، وقد صرت من اجلها اخدم قوماً كنت استخدمهم ، وأسلم على أناس كنت اذا كلموني لاأكلمهم ، ويحجبني من لو حضر بابي من قبل حجبته ، ويعرض عني من لو سألني فيما مضى ما اجبته ..

ومن كتاب له الى صاحب ديوان الحضرة : ولقد خصني من بين الأزمان زمن لئيم ، ووقع في قسمي من البخوت بخت ذميم ، حيث صرت الزم خراجاً التزم بنو المدبّر أضعافه للبحتري ، واضايق في ضيعة وهب أمثالها محمد بن الهيثم الغنوي لأبي تمام الطائي حيث قال البحتري :

ولم لا أغالي بالضياع وقد دنا ... عليّ مداها واستقام اعوجاجها
اذا كان لي تربيعها واغتلالها ... وكان عليكم عشرها وخراجها

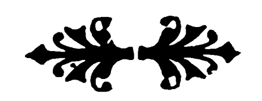
وقال ابو تمام الطائي :

فدع ذكر الضياع فبي شماس ... اذا ذكرت وبي عنها نفار
وما لي ضيعة غير المطايا ... وشعر لايباع ولا يعار

للخوارزمي مجازفات تعجب وان حادت عن المعقول مثل قوله لأحد الحجاب لما نكبه ابن عباد : وأنت أيدك الله تعلم انك كنت من الذل في مكان يتخطاك فيه الناظر ، ويدوسك الخف والحافر ، لايشرفك نسب ولا يرفعك أدب ، ولا يرجوك صديقك ولا يخافك عدوك ، عن يمينك الخمول ، وعن يسارك الذبول ، وبينهما الفقر الذي لو قسم على الأغنياء لصاروا فقراء ، والضعف الذي لو فرق على الاقوياء لعادوا ضعفاء ، تصبح في قُلّ ، وتمسي في ذلّ ، وتروح الى انثى وتغدو الى طفل : فأنصفك الدهر الظالم ، وانتبه لك البخت النائم ، واراد الله تعالى ان يرفع من حكمتك ، ويقوّم من قنبور حدبتك الخ . وهو كلام فاض باللؤم والشماتة .

كتب الى الصاحب يعرض نفسه فقال « فان اذن الوزير في ورود عسكره المحفوف بجناح النصرة ، المكنوف بجوانب الدولة والكرة ، رأى

مني بحمد الله تعالى فارساً ملء العين ، كما سمع مني عالما ملء الأذن ، فيعلم حينئذ ان اقباله خرج له تلميذاً انتظم فيه فروسية اللسان ، وفروسية السيف والسنان ، ويكر في معركة الطعان ، كما يكر في معركة البيان ويثبت اسمه في جريدة العلماء والفرسان » وهذا كأكثر مأثر عنه يفيض منه البأو وتتدفق الدعوى . ومن هذا البحر قوله : « وقد علم الأمير ان والدي رحمه الله تعالى خلف علي ما لو خلفه على اهل بلد لكفاهم ، ولو فرقه على فقراء الدنيا لأغناهم . فما زالت صروف الدهر بخوارزم تقاتلني جهراً ، وتخاتلني سراً ، حتى خرجت منها اعرى من حية ، بعد ما كنت أكسى من بصلة ، وافقر من الحجر ، بعد ما كنت أغنى من الكعبة وأعطل من المحرم » . وفي هذا أيضاً من الكذب ما لا يقبله طفل .



(٢٣)

القاضي التنوخي

أبو علي المحسِّن بن علي

(٣٨٤)

أخذ القاضي عن أئمة البصرة ، ونزل بغداد ، وتقلد القضاء زمناً طويلاً وعرف رجال السياسة في عصره ، ودرس مذاهبهم وأهواءهم ، ورأى مشاكل الناس ومتاعبهم فاتسع أفقه وكثرت آدابه وتجاربه . وهو من بيت كل أهله فضلاء وأدباء ، كان أبوه عالما وأديباً ، وهو عالم وأديب وكان سماعه صحيحاً ويميل للأدب والشعر والأخبار .

أتم ما بدأ به استاذه الصولي من تدوين اخبار المجتمع العباسي ، واقتصر الصولي على أخبار الخلفاء والوزراء والكتاب والشعراء ، ودوّن التنوخي الأخبار على اختلاف مصادرها وأشكالها . وقد يروي القصة بأكثر الفاظها ، وان كانت مولدة أو عامية لئلا يضيع من رونقها ، فهو من هذا النظر ناقل صحيح النقل يجوّد تصوير ما وقع بأمانة ، ولا يخرم شيئاً مما يبلغه عن الثقات ، أو يرى فيه نكتة وعبرة وتسلية .

من مصنفات القاضي التنوخي « الفرج بعد الشدة » و « نشوار المحاضرة » أو جامع التواريخ و « المستجاد من فعلات الأجواد » . ألف كتاب الفرج ليفزع اليه من أناخ الدهر بمكروهه عليه ، فيقرأ من الأخبار فيه ما يسليه ويتعظ به . وكان سبقه الى مثل هذا الموضوع ثلاثة من المؤلفين كتبوا فيه أوراقاً ، أما هو فاقتصر على أحسن ماروي من الأخبار ، مخالفاً مذهب من تقدمه في التأليف . نوّع الأخبار وجعلها أبواباً ، وعزا ما أخرجه من الكتب الثلاثة الى مؤلفيه تأدية للأمانة ، واستيثاقاً في

الرواية ، وتبييناً لما أتى به من الزيادة فأوجز ، وأسقط الحشو وترك الاكثار أي أنه جمع ماهب ودبّ أولاً ، ثم أسقط ما أسقط وأبقى ما أبقى . وحمل كتابه مع هذا من أنواع الخرافات صنوفاً ومن الامور النابية عن حد المعقول ضروباً ، ومن أخبار الفساق والمجان ما نقله على علاته ارادة الترويح عن النفوس ، وجاء بحكايات ونكات وبعضها مما دخل في كتابه نشوار المحاضرة . وفي الفرج بعد الشدة . يقول الثعالبي في اليتيمة : وله كتاب الفرج بعد الشدة وناهيك بحسنه وامتاع فنه ، وما جرى من الفأل بيمنه ، لا جرم أنه أسير من الأمثال ، وأجرى من الخيال .

ومعنى « النشوار » جرة الحيوانات المجترة استعملها بمعنى الحديث . وهو حكايات منقحة منسجمة ، كتبت بقلم كاتب تحتذى كتاباته من ترك التكلف ، وتكلفه كان ظاهراً في مقدمة كتابيه الفرج والنشوار . وقد قال في مقدمة النشوار : ولعل قارئها أن يستضعفها اذا وجدها خارجة عن السنن المعروف في الأخبار ، الراتبة في الكتب ، وذكر أصناف الذين دوّن أخبارهم حتى قطاع الطريق والمتلصصين والخراب والمنخربين وأصحاب العصبية والسكاكين وأهل الحمارة والعيارين . ولا تكاد تخطر بالبال طبقة من طبقات الخلق الا ويعرض لذكر أخبارها . فأثبت من ذلك ما سمعه منذ وعى على نفسه ، واعتقد اثبات كل ما سمعه من هذا الجنس مما يحث على قراءته من شعر لمتأخر من المحدثين ، او مجيد من الكتاب والمتأدبين ، او كلام منثور لرجل من أهل العصر أو رسالة أو كتاب بديع المعنى أو حسن النظم والنثر الى ما شاكل ذلك من مثل طري ، أو حكمة جديدة ، أو نادرة حديثة ، أو فائدة قريبة المولد ، ليعلم أن الزمان قد أبقى من القرائح والالباب في ضروب العلوم والآداب أكثر مما كان قديماً أو مثله ، ولكن تقبل أرباب تلك الدول الأدب أظهره ونشره ، وزهد هؤلاء الائمة في هذا الادب غمره وستره ، قال : والا فقد خرج من أعمارنا وما قاربها من السنين من مكنون أسرار العلم

ما أمله كان معتاصاً على الماضين ، وجرى من الحوادث الكبار والانقلابات العجيبة التي لا يوجد مثله سالفاً في أضعاف هذه السنين ما لو قُيد بتأليف الكتب لأوفى على ما سلف وتقدم في علو الرتب .

وزاد أن هذه المدونات نوع لم يسبق الى كتبه ، لأنها مقصورة في الأكثر على ضروب من الأحاديث السابقة والسالفة في زماننا التي تُظلم عندي بأن لا تكتب ، وهي تصلح لمن قد فرغ من أكثر العلوم ، واشتهى قراءة ما يدله على أخلاق أهل الأزمنة وسننهم وطرائقهم وعاداتهم ، وان يقايس بين ما نحن فيه وما مضى ، ليعلم كيف ماتت الدنيا وانقلبت الأهواء وانعكست الآراء ، وفقدت المكارم قال : « وحقاً لو نشر حكيم من أهل تلك الأزمنة حتى يرى ما حصلنا عليه ودفعنا اليه ما شك في قيام الساعة او أن الناس بُدّلوا بهائم مهملة أو جعلوا آلات غير مستعملة لفقد الأحرار ، وشدة الاعسار ، ولطول المتاعب ، وتواتر النوائب » .

وفي الكتاب ذكر معتقدات الناس وأوهامهم وكثير من الشعر الرائق والنثر الفائق . ولا نغالي اذا قلنا ان كتاب النشوار أفاد في الكشف عن أحوال القرن الرابع ما لا يستفاد من عشرات من الكتب ، ومنها ما لا يستبين منه حال العصر الذي كتبه فيه الا بشيء من الفرضيات والاستنتاجات . ولو سلم « النشوار » كله وانتقل الى أبناء هذا الجيل كما كتبه مؤلفه لكان أصدق صورة عن ذاك الزمن ، وعدّ في فنه من الأمهات .

ومن لم يكتب له مطالعة النشوار يحتاج الى مثال منه يعطيه فكرة في جلال موضوعه وأسلوبه ، قال التنوخي : حدثني القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله قال : حدثني مكرم بن أبي بكر عمر أبي الحسن بن مكرم القاضي قال : كنت خصيصاً بأبي الحسن علي بن عيسى (من أعظم وزراء بني العباس وأعفهم وأعلمهم) وربما شاورني في شيء من أمره قال : دخلت عليه يوماً وهو مغموم جداً فقدرت انه بلغه عن المقتدر أمر كرهه فقلت : هل حدث شيء وأومأت الى الخليفة فقال :

الوزير الصالح علي بن عيسى

ليس غمي من هذا الجنس ولكن مما أشد منـه ، فقلت : ان جاز أن أقف عليه فلعلي أقول شيئاً ، فقال : نعم كتب اليّ عاملنا بالثغر أن أسارى المسلمين في بلد الروم كانوا على رفق وصيانة الى أن وُلي آنفاً مُلك الروم حَدَثان فعسفا الأسارى وأجاعاهم وأعرياهم وعاقباهم وطالباهم بالتنصر ، وانهم في جهد جهيد وبلاء شديد ، وليس هذا مما لي فيه صلة لأنه أمر لا يبلغه سلطاننا ولا الخليفـة يطاوعني . فكنت انفق الأموال واجتهد وأجهز الجيوش حتى تطرق القسطنطينية . فقلت : أيها الأمير ها هنا رأي أسهل مما وقع لك يزول به هذا . فقال : قل يا مبارك ، فقلت : ان بأنطاكية عظيماً للنصارى يقـال له البطرك وببيت المقـدس آخر يقال له القاتليق (الجاثليق ؟) وأمرهما ينفذ على ملك الروم ، حتى أنهما ربما حرما الملك فيحرم عندهم ويحلانه فيحلُ ، وعند الروم أن من خالف منهم هذين كفر ، وانه لا يتم جلوس الملك ببلد الروم الا برأي هذين ، وأن يكون الملك قد دخل الى بيعتهما وتقرب بهما . والبلدان في سلطاننا والرجـلان في ذمتنا ، فيأمر الوزير بأن يكتب الى عاملي البلدين باحضارهما وتعريفهما ما يجري على الأسارى ، وان هذا خارج عن الملة ، وانهما ان لم يزيلا هـــذا لم يطالب بجريرته غـيرهما ، وينظر مايكون الجواب .

قال فاستدعى كاتباً وأملى عليه كتابين في ذلك وأنفذهما في الحال ، وقال سرّيت عني قليلًا . وافترقنا فلما كان بعد شهرين وأيام ، وقـد أنسيت الحديث جاءني فُرانق(١) من جهته يطلبني فركبت ، وأنا مشغول القلب بمعرفة السبب في ذلك ، حتى وصلت اليه ، فوجدته مسروراً ، فحين رآني قال : ياهذا أحسن الله جزاءك عن نفسك ودينك وعني ، فقلت : ماالخبر ؟ فقال : كان رأيك في أمر الاسارى أبرك رأي وأصحه وهـذا رسول العامل قد ورد بالخبر ، وأومأ الى رجل كان بحضرته)

(١) الذي يدل صاحب البريد على الطريق معرب پَروانك .

وقال له : خبرنا بما جرى ، فقال الرجل : أنفذني العامل مع رسول البطرك والقاثليق برسالتهما الى قسطنطينية وكتبا الى ملكيها : انكما قد خرجتما عن ملة المسيح بما فعلتماه بالاسارى ، وليس لكما ذلك فانه حرام عليكما ومخالف لما أمرنا به المسيح من كذا وكذا وعدد أشياء من دينهما ، فاما زلتما عن هذا واستأنفتما الاحسان الى الاسارى وتركتما مطالبتهم بالتنصر والا لعناكما على هذين الكرسيين وحرمناكما . قال فمضيت مع الرسول فلما صرنا بقسطنطينية حجبت عن الملكين أياماً ، وخليا بالرسول ثم استدعياني اليهما فسلمت عليهما فقال لي ترجمانهما : يقول لك الملكان ان الذي بلغ ملك العرب من فعلنا بالاسارى كذب وتشنيع وقد أذنا في ادخالك دار البلاط لتشاهد أساراكم فترى أحوالهم بخلاف ما بلغكم ، وتسمع من شكرهم لنا ضد ما اتصل بكم . قال : ثم حملت الى دار البلاط فرأيت الاسارى وكأن وجوههم قد أخرجت من القبور تشهد بالضرر وما كانوا فيه من العذاب الا أنهم مرفهون في ذلك الوقت ، وتأملت الى ثيابهم فاذا جميعها جُدُد فعلمت اني منعت من الوصول تلك الايام حتى غُيّر زي الاسارى . وقال لي الاسرى : نحن للملكين شاكرون فعل الله بهما وصنع ، وأومأوا اليّ أن الامر كما كان بلغكم ، ولكنه خفف عنا وأحسن الينا بعد حصولك هاهنا . وقالوا لي : كيف عرفت حالنا ومن تنبه علينا وأنفذك بسببنا . فقلت لهم : ولي الوزارة علي بن عيسى فبلغه ذلك فأنفذ من بغداد وفعل كذا وكذا قال : فلجوا بالدعاء الى الله تعالى للوزير ، وسمعت امرأة منهم تقول : مرّ يا علي بن عيسى لا نسي الله لك هذا الفعل . قال : فلما سمع ذلك علي بن عيسى أجهش بالبكاء وسجد حمداً لله سبحانه وتعالى وبرّ الرسول وصرفه ، فقلت له : أيها الوزير اسمعك دائماً تتبرم بالوزارة وتتمنى الانصراف عنها في خلواتك خوفاً من آثامها ، فلو كنت في بيتك هل كنت تقدر ان تحصل هذا الثواب ، ولو أنفقت فيه أكثر مالك ، ولا تفعل ولا تتبرم بهذا الامر

فلعل الله يمكنك ويجري على يديك أمثال هـذا الفعل فتفوز بثوابه في الآخرة كما تفردت بشرف الوزارة في الدنيا .

والكتاب الثالث من تأليف القاضي التنوخي « المستجاد من فعلات الاجواد » أورد فيه مئة وخمسين قصة في كرماء الجاهلية والاسلام الى عهده التقطها من أصدق المصادر فجاءت صحيفة حكمة وأدب واجتماع وأخلاق ذكر فيها من تقدموا عصره كما ذكر في النشوار من كانوا فيه أو قبله بقليل ، ورسم به صورة من الكرم قلّ أن اجتمع مثلها في مصحف واحد ، حملت أطايب الشعر وأزاهير جميلة من النثر ، ومنها ما كان من نسجه ومنها ما نسجه من قبله . فكأن هـذا المؤلف العظيم أحب أن يهذب الناس بحكايات جوّد ايرادها حتى تقع في نفوسهم موقعها وهاكم الآن قصة من قصصه في المستجاد وهي مما يجب على كل من يتعاطى الحكم والادارة ان يجعلها نُصب عينه ودليل حكمه :

قال عبد الله بن سليمان : كنت بحضرة والدي في ديوان الخراج بسرّ من رأى وهو يتولاه اذ دخل عليه أحمد بن أبي خالد [الصريفيني] الكاتب فقام له أبي من مجلسه وأقعده في صدره ، وتشاغل به ، فلم ينظر في عمل حتى نهض ، ثم قام معه وأمر غلمانه بالخروج بين يديه ، فاستعظمت أنا وكل من في المجلس هـذا ، لأن رسم أصحاب الدواوين صغارهم وكبارهم لا يقومون في الديوان لأحد ممن يدخل اليهم ، وتبين أبي ذلك في وجهي فقال لي : يابني اذا خلونا فسلني عن السبب فيما عملته مع هذا الرجل .

قال : وكان أبي يأكل في الديوان وينام فيه ويعمل عشياً الحسبانات فلما جلسنا نأكل لم أذكره الى أن كاد الطعام ينقضي ، فقال لي هو مبتدئاً : يابني شغلك الطعام عما قلت لك تذكرني به ؟ فقلت : لا ، ولكن أردت ان يكون ذلك على خلوة فقال : هذا وقت خلوة ثم قال : الست انكرت والحاضرون قيامي لأحمد بن ابي خالد في دخوله

وخروجه وعما عملته معه ؟ فقلت : بلى . قال : كان هذا يتقلد مصر سنين فوليت أعمالها وصرفته عنها ، وقد كانت مدته فيها طالت فتتبعته ، فرأيت آثار رجل لم أر أجمل آثاراً منه ، ولا أعف عن أموال السلطان والرعية ، ولا رأيت رعية لعامل أشكر من رعيته له ، وكان الحسين الخادم المعروف بعرق الموت صاحب البريد بمصر أصدق الناس له مع هذا ، وكان من أبغض الناس [الي] وأشدهم اضطراباً في اخلاقه ، فلم أتعلق عليه بحجة ، ووجدته قد أخر رفع الحسابات لسنة متقدمة وسنته التي هو فيها ولم يستتمها لصرفي له عنها ، ولم ينفذه الى الديوان ، فسمته ان يحط من الدخل ويزيد من النفقات والأرزاق ؛ ويكسر من البقايا في كل سنة مائة الف دينار لآخذها لنفسي ، فامتنع من ذلك ، فأغلظت له وتوعدته ونزلت معه الى مائة الف دينار واحدة للسنتين وحلفت له أيماناً مغلظة مؤكدة أني لا أقنع منه بأقل منها ، فأقام على امتناعه وقال : لا أخون لنفسي فكيف أخون لغيري ، وأزيل ماقام به جاهي من العفاف ؟ فحبسته وقيدته فلم يجب ، وأقام مقيداً في الحبس شهوراً . وكتب عرق الموت صاحب البريد الى المتوكل ، وحلف له أن أموال مصر لاتفي بنفقتي ومؤنتي ، ويصف أحمد بن أبي خالد ويذكر ميل الرعية اليه وعفته ، فأرسل المتوكل بتوليته . فأنا ذات يوم على المائدة آكل اذ وردت علي رقعة أحمد بن أبي خالد يسألني استدعاءه لمهم يلقيه الي ، فلم أشك أنه قد استضر بالحبس والقيد ، وقد عزم على لاستجابة لمرادي ، فلما غسلت يدي دعوته فاستخلاني فأخليته ، فقال : أما آن لك ياسيدي أن ترق لي بما أنا فيه من غير ذنب اليك [ولا جرم ولا قديم ذحل] ولا عداوة ؟ فقلت انت اخترت لنفسك ذلك ، وقد سمعت يميني وليس منها مخرج ، فاستجب لما أريده منك [واخرج] ، فأخذ يستعطفني [ويخدمني ويخدعني] ، [فجاءني ضد ماقدرته] فغاظني فشتمته ، وقلت له هذا الامر المهم الذي ذكرته لي في رقعتك أنك أردت القاءه الي هو أن تستعطفني

وتستجيرني وتخدعني ؟ فقال : ياسيدي وليس الآن عندك غير هذا ؟ فقلت : لا ، فقال : اذا كان ليس عندك غير هذا ، فاقرأ يا سيدي هذا ، وأخرج الي كتاباً لطيفاً مختوماً في ربع قرطاس ففضته فاذا هو بخط المتوكل الذي أعرفه [يأمرني فيه] بالانصراف وتسليم ما أتولاه الى أحمد بن أبي خالد ، والخروج اليه بما يُلزمني ورفع الحساب اليه والامتثال لأمره وطاعته ، والمسير عن مصر بعد ذلك ، فورد علي أقبح مورد لقرب عهد الرجل بشتمي له والاساءة اليه ، وأنه في الحال تحت حديدي ومكارهي ، فأمسكت مبهوتاً ، ولم ألبث أن دخل أمير مصر اذ ذاك في أصحابه وغلمانه ، فوكل بداري وجميع ما أملكه وأصحابي وغلماني وجهابذتي وكتابي . وجعلت أزحف من الصدر حتى صرت بين يدي أحمد بن أبي خالد ، ولست استطيع القيام وهو في قيوده بعد . فدعا أمير البلد بحداد فحلّ قيوده ، فمددت رجلاي ليوضع فيها القيد ، فقال لي : يا أبا أيوب ضُمَّ أقدامك ، فوثب قائماً ثم قال لي : يا أبا أيوب : أنت قريب عهد بعمالة هذا البلد ، ولا منزل لك فيه ولا صديق ومعك حُرَم وحاشية ، وليس يسعك الا هذه الدار ، وكانت دار العمالة ، وأما أنا فأجد عدة مواضع غيرها وليس لي كبير حاشية ، ومن نكبة وقيد خرجتُ ، فأقم مكانك ، وخرج عني وصرف التوكيل عني وعن الدار ، وأخذ كتابي وأشباعي اليه ، فلما انصرف قلت لغلماني : هذا الذي أراه في النوم ؟ انظروا من وَكل بنا فقالوا : ما وكل بنا أحداً ، فعجبت من ذلك عجباً شديداً ، وما صليت العصر حتى عاد اليّ من كان حمله معه من المتصرفين والكتاب والجهابذة مطلقين وقالوا : أخذ خطوطنا برفع الحساب ، وأمرنا بالملازمة وأطلقنا ، فازداد عجبي ، فلما كان من غد باكرني مسلماً ورحت اليه في عشية ذلك اليوم ، فأقمت ثلاثين يوماً ان سبقني الى المجيء والا رحت اليه ، وان راح اليّ والا باكرته ، وكل يوم تجيئني هداياه وألطافه من الثلج والفاكهة والحيوان والحلوى والطيب

فلما كان بعد ثلاثين يوماً جاءني فقال لي : قد عشقت مصر ياابا ايوب والله ما هي طيبة الهواء ولا عذبة ، وانما تطيب لغير أهلها بالولاية فيها والا كتساب ، ولو قد رحلت الى بغداد ومَر من رأى لما أقمت الا شهراً ، ثم تتقلد أجلّ الاعمال ، فقلت : والله ما أقمت الا متوقعاً لأمرك في الخروج ، فقال : أعطني خط كاتبك بأن عليه القيام بالحساب ، واخرج في حفظ الله ، فأحضرت كاتبي وأخذت خطه كما أراد ، وسلّمت الخط اليه ، فقال لي : اخرج أيّ وقت شئت ، فخرج من غد هو وأمير مصر وقاضيها ووجوهها وأهلها وشيعوني الى ظاهر مصر . وقال لي : تقيم في أول منزل على خمسة فراسخ الى أن أزيح علة قائد يصحبك برجاله الى الرملة ، فان الطريق فاسد ، فاستوحشت من ذلك وقلت : هذا انما غرني حتى أخرج كل ما أملكه وجميع ما كسبت فيتمكن منه في ظاهر البلد فيقبضه ثم يردني الى الحبس والتوكيل والمطالبة ، ويحتج علي بكتاب ثان ، يذكر أنه « صك » فخرجت وأقمت بالمرحلة التي ذكر مستسلماً للقضاء متوقعاً للشر ، الى أن رأيت أوائل عسكره مقبلاً من مصر ، فقلت لعله القائد الذي يريد أن يصحبنيه ، أو لعله يريد أن يقبض عليّ به ، فأمرت غلماني بمعرفة ذلك وما الخبر ؟ فقالوا : العامل أحمد بن أبي خالد قد جاء ، فلم أشك في أنه قد ورد البلاء بوروده ، فخرجت من مضربي وسلمت عليه ، فلما جلس قال : أخلونا ، فلم أشك في أنه للقبض علي فطار عقلي ، وقام من كان عندي فلما لم يبق عندي أحد قال : أنا أعلم ان أيامك لم تطل بمصر ، ولا حظيت فيها بكبير فائدة ، وذلك الباب الذي سألتنيه في ولايتك لم أستجب اليك ، وأخرت الاذن لك في الانصراف منذ أول الامر الى الآن ، لأني تشاغلت بالفراغ لك منه ، وقد حططت من الارتفاع وزدت في النفقات في كل سنة خمسة عشر الف دينار تكون للسنتين ثلاثين ألف دينار وهو يقرب ولا يظهر ، ويكون أيسر مما أردته مني في ذلك الوقت ، وقد تشاغلت به حتى جمعته لك ، وهذا المال على البغال ، وقد جئتك به فتقدم الى من يتسلمه

فتقدمت لقبضه وقبلت يده ، وقلت قد والله ياسيدي فعلت ما لم تفعل البرامكة ، فأنكر ذلك مني وتقبض عنه وقبّل يدي ورجلي .

وقال : ههنا شيء آخر أريد أن تقبله فقلت : ماهو قال : خمسة آلاف دينار وقد استحققتها من رزقي ، فامتنعت من ذلك ، وقلت : فيما قد تفضلت به كفاية ، فحلف بالطلاق أن أقبلها منه فقبلتها ، فقال : وههنا ألطاف من هدايا مصر أحببت أن أصحبك اياها ، فانك تمضي الى كتاب الدواوين ورؤساء الحضرة فيقولون لك : وَلِيت مصر فأين نصيبنا من هداياها ؟ ولم تطل أيامك فتعد ذلك لهم ، وقد جمعت لك منه ما يشتمل عليه هذا الثَّبْت ، وأخرج درجاً فيه ثبت جامع لكل شيء في الدنيا حسن طريف جليل القدر من كل جنس ، من ثياب دبيق وقصب وخدم وبغال ودواب وحمير وفرش وطيب حتى اقلام ومداد مايكون قيمته مالاً كثيراً ، فأمرت بتسلمه وزدت في شكره ، فقال لي : ياسيدي أنا مغرى بحب الفرش وقد استعملت لي بيتاً ارمنياً بارمينية وهو عشر مصلّيات بمخادّها ومساندها ومساورها ومطارحها وبسطها وهو بطرر مذهبة ، قد قام عليّ بخمسة آلاف دينار ، على شدة احتياطي ، وقد أهديته لك فان اهديته الى الوزير عَبَدك وان اهديته الى الخليفة ملكته به ، وان ابقيته لنفسك وتجملت به كان أحب اليّ ، قال : وحمله فما رأيت مثله قط ، ولم تسمح نفسي باهدائه لاحد ولا باستعماله ، فما ابتذلت منه شيئاً يابني الا يوم اعذارك ، فاني اتخذت منه الصدر ومسانده ومخاده ، أفتلومني يابني على ان اقوم لهذا الرجل ؟ فقلت : لا والله ياأبي ؛ ولا على ماهو أكثر من القيام ، لو كان مستطاعاً .

قال : فكان أبي بعد ذلك اذا صرف رجلاً عن عمل ، عامله بكل جميل ، ويقول : علمنا ابن ابي خالد أحسن الله جزاءه ، حسن الصرف .

(٢٤)

الباقلاني

القاضي محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر

(٤٠٣)

الباقلاني نسبة الى الباقلا وبيعه من كبار المتكلمين الأشاعرة ومن زعماء مذهب مالك : ولد في البصرة على أصح الاقوال وسكن بغداد وتولى القضاء « وكان حسن الفقه عظيم الجدل وكانت له ببغداد حلقة عظيمة » وصفوه بأنه « سيف أهل السنة في زمانه وامام متكلمي أهل الحق » « كان أعرف الناس بعلم الكلام وأحسنهم فيه خاطراً ، وأجودهم لساناً ، وأوضحهم بياناً ، وأصحهم عبارة » وقالوا « كل مصنف ببغداد انما ينقل من كتب الناس الا القاضي أبا بكر فان صدره يحوي علمه وعلم الناس » وقالوا « لو أوصى الرجل بثلث ماله لأفصح الناس لوجب أن يدفع الى أبي بكر الاشعري » وكان من المكثرين من التأليف والمجودين فيه يكتب كل ليلة خمساً وثلاثين ورقة تصنيفاً من حفظه « فاذا صلى الفجر دفع الى بعض أصحابه ما صنفه ليلته وأمره بقراءته عليه وأملى عليه الزيادات فيه » و « حسبت تواليف القاضي واملاءاته وقسمت على أيام عمره من مولده الى موته فوجد أنه يقع لكل يوم منها عشر ورقات أو نحوها » . واشتهر القاضي بمناظراته فكان في العراق وفارس يناظر المعتزلة ولما شاع ذكره ، وهو ما برح في سن الشباب ، استدعاه عضد الدولة فناخسرو لمناظرة المعتزلة في شيراز وكان عضد الدولة قال في مجلس له أن هذا المجلس عامر بالعلماء الا أني لا أرى أحداً من أهل السنة والاثبات ينصر مذهبه فقال له قاضي القضاة وكان

معتزلياً ان أهل السنة والاثبات عـامة رعاع أصحاب تقليد وأخبار وروايات يروون الخبر وضده ويعتقدونها وواحدهما ناسخ للثاني أو متأول. فجاءوا بالباقلاني وناظر المعتزلة فقيل انه غلبهم وحظي عند عضد الدولة البويهي وهذا من الشيعة وقد ندبه عنه في جواب رسالة الى الروم فناظر علماءهم في القسطنطينية وقالوا انه كان أبداً الظافر في مناظراته . وله أكثر من خمسين مؤلفاً ولم يطبع له منها الا اعجاز القرآن والتمهيد ، وألف هذا الكتاب لابن عضد الدولة وقد أسلمه أبوه اليه ليعلمه مذهب أهل السنة ، وهو في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة وفي حرص عضد الدولة على تعليم ابنه مذهب السنة دليل تسامحه وبعد نظره فانه رأى كثرة الامة من أهل السنة وأكثر رعيته منهم فأحب ان يتخرج ابنه في مذهبهم حتى يكون ملكاً على رأي الاكثرية بعد أبيه .

كان الباقلاني الى الاعتدال في محاجة المخالفين معتدلاً أكثر من غيره ممن يشتمون ويهزأون ولا يستنكفون من المبادرة الى تكفير خصمهم ، وقد عقد فصلا ممتعاً في آخر كتابه التمهيد عرض فيه لامامة ابي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ورد على من نالوا منهم وقالوا ان خلافتهم موضع نظر رداً دل على علو كعبه في التاريخ وعلى سعة استخراجه ومعرفته بنقض مايورده العقل . كتب كل ذلك من السهل الممتنع بدون سجع ولا تزيد في الالفاظ ، وأسلوبه هذا ، كما ظهر من اعجاز القرآن والتمهيد لم يحد عنه ، ولذلك حاز القبول وما رأينا له أسجاعاً الا في مقدمة كتابيه وهي أسجاع لطيفة لا تكلف فيها .

وكتابه « اعجاز القرآن » لم يسبق لعالم قبله ولا لعالم بعده أن وفق الى تأليف مثله وهو الى المقصد الذي قصد اليه كتاب في البيان والنقد واللغة حمل فوائد عظيمة في ورقات قليلة . والى القارىء نموذجاً منه وفيه دليل آخر على سعة علمه في الجدل قال : ان نظم القرآن على تصرف واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ،

ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله اسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد . وذلك ان الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم الى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم الى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم الى أصناف الكلام المعدل المسجع ، ثم الى معدل موزون غير مسجع ، ثم الى ما يرسل ارسالا فتطلب فيه الاصابة والافادة وافهام المعاني المعترضة على وجه بديع وترتيب لطيف وان لم يكن معتدلاً في وزنه ، وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمل ولا يتصنع له . . . والقرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق . . ، انه ليس من باب السجع ولا فيه شيء منه ، وكذلك ليس من قبيل الشعر ، لان من الناس من زعم انه كلام مسجع ، ومنهم من يدعي ان فيه شعراً كثيراً ... فاذا تأمله المتأمل تبين بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم - انه خارج عن العادة وانه معجز ، وهذه خصوصية ترجع الى جملة القرآن ، وتميز حاصل في جميعه .

ومنها أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة ، والتشابه في البراعة ، على هذا الطول وعلى هذا القدر . وانما تنسب الى حكيمهم كلمات معدودة والفاظ قليلة ، والى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال ، ويعترضها مانكشفه من الاختلاف ، ويقع فيها مانبديه من التعمل والتكلف والتجوز والتعسف ، وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسباً في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال عز من قائل « الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » فأخبر ان كلام الآدمي ان امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال . وهذا المعنى هو غير المعنى الأول الذي بدأنا بذكره فتأمله تعرف الفضل .

وان عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف

اليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام واعذار وانذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف وأوصاف وتعليم اخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها . ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الامور .

فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو ، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح ، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين ، ومنهم من يجود في التأبين دون التقريظ ، ومنهم من يغرب في وصف الابل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف الروض أو وصف الخمر أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتداوله الكلام ولذلك ضرب المثل بامرىء القيس اذا ركب ، والنابغة اذا رهب ، وبزهير اذا رغب ، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام . ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها ، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى فاذا جاء الى غيره قصر عنه ووقف دونه وبان الاختلاف على شعره . ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم لانه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر ولا شك في تبريزهم في مذهب النظم . فاذا كان الاختلال بيناً في شعرهم لاختلاف ما يتصرفون فيه استغنينا عن ذكر من هو دونهم وكذلك يستغنى به من تفصيل نحو هذا في الخطب والرسائل ونحوها . ثم نجد في الشعراء من يجوّد في الرجز ولا يمكنه نظم القصيد أصلاً ، ومنهم من ينظم القصيد ولكن يقصر فيه مهما تكلفه أو عمله ، ومن الناس من يجود في الكلام المرسل فاذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصاناً عجيباً ، ومنهم من يوجد بضد ذلك .

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والوصف ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا اسفاف فيه الى الرتبة الدنيا ، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف اليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة

والقصيرة ، فرأينا الاعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف ، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند اعادة ذكر القصة الواحدة ، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة ، فعلمنا بذلك انه مما لا يقدر عليه البشر لان الذين يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار وعند تباين الوجوه واختلاف الاسباب التي يتضمن .

وكلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً في الفصل والوصل والعلو والنزول والتقريب والتبعيد وغير ذلك كما ينقسم اليه الخطاب عند النظم وينصرف فيه القول عند الضم والجمع . الا ترى ان كثيراً من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى الى غيره والخروج من باب الى سواه ، حتى ان اهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري مع جودة نظمه وحسن وصفه في الخروج من النسيب الى المديح ، واطبقوا على انه لا يحسنه ولا يأتي فيه بشيء وانما اتفق له في مواضع معدودة خروج يرتضى وتنقل يستحسن ، وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء الى شيء والتحوّل من باب الى باب ، ونحن نفصل بعد هذا ونفسر هذه الجملة ونبين على ان القرآن على اختلاف ماينصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة — يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب والمتنافر في الافراد الى حد الآحاد . وهذا أمر عجيب تتبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة ويخرج به الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف اه .

والباقلاني كان على فرط اعتداله في المناظرات ورد كلام خصومه عارفاً بسياسة العلم وسياسة الخلق ، ذكياً مفرط الذكاء عنده لكل ضيق مخرج . في سفارته عن الملك البويهي الى ملك الروم قال ان هذا أخبر بمقدمنا فأرسل الينا من يلقانا وقال : لا تدخلوا على الملك بعمائمكم حتى تنزعوها الا ان تكون مناديل وحتى تنزعوا أخفافكم فقلت : لا أفعل ولا أدخل الا بما أنا عليه من الزي واللباس فان رضيتم والا فخذوا الكتب تقرأونها وأرسلوا بجوابها وأعود بها . فأخبر الملك بذلك فقال : أريد معرفة سبب هذا وامتناعه مما مضى عليه رسمي مع الرسل . فسئل القاضي عن ذلك فقال : أنا رجل من المسلمين وما تحبونه مني ذل وصَغار . والله تعالى قد رفعنا بالاسلام وأعزنا بنبينا

محمد صلى الله عليه وسلم وأيضاً فان من شأن الملوك اذا بعثوا رسلهم الى ملك آخر رفع أقدارهم ولا يتعمد اذلالهم سيما اذا كان الرسول من أهل العلم، ووضع قدره انهدام جانبه عند الله تعالى وعند المسلمين . فرضي الملك ان يدخل ومن معه كما يشاؤون . وفي رواية ان الملك رضي أن يدخل عليه الباقلاني كما جرى رسم الرعية ان يقبل الأرض بين يدي ملوكها فرأى أن يضع سريره من وراء باب لطيف لا يمكن أن يدخل أحد منه الا راكعاً فدخل القاضي من هـــذا الباب وأحنى رأسه راكعاً ودخل من الباب مستقبلا الملك بدبره حتى صار بين يديه ثم رفع رأسه ونصب ظهره ثم أدار وجهه الى الملك فعجب الملك من فطنته ووقعت له الهيبة في قلبه . وكانت هذه السفارة سنه ٣٧١ .

ولما اجتمع الى أحد الرهبان في حضرة ملك الروم سأله الباقلاني عن أهله وأولاده فتعجب الملك من سؤاله وقال اننـا ننزه هؤلاء عن الأهل والأولاد فأجاب : أنتم لا تنزهون الله سبحانه عن الاهل والولد فكأن هؤلاء عندكم أقدس وأجل من الله تعالى ؟ ولما سأله الملك عن قصة عائشة وما قيل فيها قال هما اثنتان قيل فيهما ما قيل : زوج نبينا ومريم بنت عمران فأما زوج نبينا فلم تلد وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها وقد برأها الله مما رميت به فانقطع الملك ولم يحر جواباً .

رزق الباقلاني حظاً عظيماً من البديهـة أعانته على التفرد بمناظراته ففيه سرعة الخاطر وفيه الحافظـة ، وبديهته نفعته في مناظراته الدينيـة ومواقفه السياسية وقلّ ظهور أمثاله في العلماء المشهورين وكثرت تآليفه لأنه كان كابن تيميـة لا يرجع الى الكتب فيما يؤلف بقدر ما يرجع الى صدره ويغترف من محفوظه .

وقد ترجم له العلامة بروكلمان في معلمة الاسلام فقال انه ادخل في علم الكلام آراء جديدة اقتبسها من الفلسفة اليونانية أو من معتقدات الكنيسة الشرقية كالقول بالاجزاء المفردة والقول بالخلاء والقول ان العرض لا يحمل عرضاً آخر وأنه لا يبقى زمانين .

(٢٥)

ابن هندو

أبو الفرج علي بن الحسين

(٤٢٠)

هو من أهل الري لا نعرف ان كان من العرب النازلين فيها أو أنه من أصل فارسي . وهو من رجال البلاغة كاتب شاعر . قالوا كان صاحب ابوة في بلده ولسلفه نباهة بالنيابة وخدمة السلطان هناك وكان متفلسفا قرأ كتب الأوائل على أبي الحسن الوائلي بنيسابور ثم على الحكيم أبي الخير بن الخمار . وكان أحد كتاب الانشاء في ديوان عضد الدولة . وقال البندنيجي الشاعر هو من أهل الري شاهدته بجرجان في سني بضع عشرة وأربعمائة كاتباً بها ، وأنه مشهور في تلك البلاد بجودة الشعر وكثرة الأدب والفضل . وقال فيه صاحب يتيمة الدهر : هو مع ضربه في الآداب والعلوم بالسهام الفائزة ، وملكه رقة البلاغة والبراعة ، فرد الدهر في الشعر ، وأحد أهل الفضل في صيد المعاني الشوارد ، ونظم الفرائد في القلائد ، مع تهذيب الألفاظ البليغة وتقريب الاغراض البعيدة .

ومن تآليفه « انموذج الحكمة » و « المفتاح » في فوائد علم الطب و « الرسالة المشرقية » و « كتاب النفس » ورسائل وديوان وكتب أخر . وفي كتاب المفتاح ان متكلماً كان في جواره وصنف كتاباً في ابطال علم الطب ، وحث تلامذته على درسه فعرض له صداع فبعث تفسرته الى الحكيم أبي الخير فقال الحكيم أبو الخير لرسوله : قل له ضع تصنيفك في ابطال علم الطب تحت وسادتك وضع عليها رأسك فانه لاحاجة لك

الى الطبيب والطب . فما عالجه واحد من الأطباء حتى اعترف ببطلان كلامه ومزق تصنيفه وتاب . ثم عالجناه وشفاه الله تبارك وتعالى .

وقال ان أحد المتكلمين في جواره عرض له خناق فعاده فقال له : ما ينفعني من طريق الطب ؟ فقلت له : ينفعك ماء الشعير الفاتر مع ماء الرمانين ورُبّ التوت وخل الجوز وماء الهندباء مع فلوس الخيارشنبر وفصد القيفال (عرق في اليد) وغير ذلك . فقال : وما يضرني فقلت ما فيه حرارة . فقال : كيف يكون العسل المصفى والعصيدة التمرية ؟ فقلت ، نعوذ بالله ففيها هلاكك . فقال لتلامذته : أنا اخالف رأي الاطباء عقيدة ومذهباً ، ولا غفر الله لي ان خالفت عقيدتي وأطعت طبيباً فقمت من عنده ، فتناول العسل والعصيدة ومات قبل غروب الشمس .

وابن هندو كان على ما ظهر بما قاله المؤرخون فيه عالماً ممتازاً فيما غلب عليه من صنوف الآداب ، قعد به الحظ فلم يظهر بالمظهر الذي كان جديراً به من الرياسات والمقامات فكان في الديوان كاتباً دون الدرجات العالية فأثر ذلك في نفسه وحنق على الدهر والأيام . من ذلك ما حدث به البندنيجي قال : كان الناس يظنون بمنوجهر بن قابوس ما كان في أبيه من الأدب والفضل ولم يكن كذلك ، فلما انتقل الأمر اليه قصد بما يقصد به مثله ، وكان لا يوصل اليه الا القليل ولا يتقبل ما يمدح به ، ولا يهش لشيء من هذا الجنس لتباعده عنه ، وكان مع هذه الحالة فروقة قليل البطش ، فمدحه ابن هندو بقصيدة وتأنق فيها وأنشده اياها فلم يفهمها ولم يثبه عليها فقال :

يا ويح فضلي أما في الناس من رجل   يحنو عليّ أما في الأرض من ملك
لأكرمنك يا فضلي بتركهم   واستهين بالأيام والفلك

فقيل لمنوجهر انه قد هجاك لأن لقبه كان « فلك المعالي » فطلبه ليقتله فهرب الى نيسابور وانفلت منه .

وتحدث أبو الفضل البندنيجي الشاعر قال : كان بابن هندو ضرب من السوداء كان قليل القدرة على شرب النبيذ لأجل ذلك ، واتفق أنه كان يوماً

عند أبي الفتح بن أبي علي كاتب قابوس بن وشمكير وأنا معه ، على عادة لنا في الاجتماع ، فدخل أبو علي الى الموضع ونظر الى ما كان بأيدينا من الكتب وتناشد هو وابن هندو الشعر وحضر الطعام فأكلنا وانتقلنا الى مجلس الشراب ، ولم يطق ابن هندو المساعدة على ذلك فكتب في رقعة كتبها اليه :

قد كفاني من المدام شميم صالحتني النهى وثاب الغريم
هي جهد العقول سمي راحاً مثل ما قيل للدَّيغ سليم
ان تكن جنة النعيم ففيها من أذى السكر والخمار جحيم

فلما قرأها ضحك وأعفاه من الشرب . وأنشد أبو الفضل له :

قالوا اشتغل عنهم يوماً بغيرهم وخادع النفس ان النفس تنخدع
قد صيغ قلبي على مقدار حبهم فما لحب سواهم فيه متسع

وحدث أبو الفضل هذا قال : كان ابن هندو يشرب يوماً عند أبي غانم القصري ، واقتصر على أقداح يسيرة ثم أمسك فسأله الزيادة فلم يفعل وقال :

أرى الخمر ناراً والنفوس جواهراً فان شُربت أبدت طباع الجواهر
فلا تفضحن النفس يوماً بشربها اذا لم تثق منها بحسن السرائر

وله أيضاً :

تعرضت الدنيا بلذة مطعم وزخرف موشي من اللبس رائق
أراد سفاهاً أن يموِّه قبحها على فِكر خاضت بحار الدقائق
فلا تخدعنا بالشراب فاننا قتلنا نهانا في طلاب الحقائق

وله :

ضعت بأهل الريّ في أهلها ضياع حرف الراء في اللثغة
صرت بها بعد بلوغ المنى احمد أن تبلغ بي البلغة

وله :

اذا ما عقدنا نعمة عند جاحد ولم نره الا جموحاً عن الشكر
رجعنا فعفينا الجميل بضده كذاك يجازى صاحب الشر بالشر

وله أيضاً :

وكافر بالمعاد أمسى يخلبني قوله الخلوب
قال اغتنم لذة الليالي وعدٌ عن آجل يريب
طال هواه وجاء يهذي طبت لعينيك يا طبيب
أأخطأ العالمون طراً وأنت من بينهم مصيب

وله :

حللت وقاريَ في شادن عيون الانام به تعقد
غدا وجهه كعبة للجمال ولي قلبه الحجر الاسود

وله :

الا ربَّ مولى غرّني من عهوده يمين عليها صافحتني يمينه
أكابد منه ضد ما أستحقه فأصدق في ودي له ويمين هو
عجيب لأخلاق اللئام كأنهم عن الكرم المعجون في شيمتي نهوا

وله :

يقولون لي مابال عينك مذ رأت محاسن هذا الظبي أدمعها هطل
فقلت زنت عيني بطلعة وجهه فكان لها من صوب أدمعها غسل

وقال :

قوّض خيامك من أرض تضام بها وجانب الذل ان الذل يجتنب
وارحل اذا كانت الاوطان منقصة فمندل الهند في أوطانه حطب

هذه أمثلة جميلة من شعره الذي حوى النكات مع السلاسة والابداع . بقي أن ننقل ما أثر له من النثر فمنه : انما المرء حيث يجعل نفسه . عظم العلم في ذاتك ، وصغر الدنيا في عينك ، واخرج من سلطان شهواتك وكن ضعيفاً عند الهزل ، قوياً عند الجد ، ولا تلم أحداً على فعل يمكن أن يعتذر منه ، ولا ترفع شكايتك الا الى من يرى نفعه عندك حتى تكون حكيماً كاملاً . ومن كلماته : العاقل لا يكلف نفسه ما لا يطيق ، ولا يسعى فيما لا يدرك ، ولا ينظر فيما لا يعنيه ، ولا ينفق الا بقدر ما يستفيد ، ولا يلتمس الجزاء الا بقدر ما عند صاحبه من الاستطاعة .

وكانت الحكمة تظهر في شعره ، يشبه في ذلك المتنبي كثيراً وقد التقط حكم اليونان وجمعها في مصنف سماه « الكلم الروحانية من الحكم اليونانية » اثبت من كلمات الفلاسفة اليونانيين ما يجري مع الأمثال السوائر ، ويدخل في النوادر ، دون ما يعد من غامض الفلسفة ، ويحصل معناه بعد الكلفة نجمع من شواردها ما ساعد عليه الوقت واستحضره الحفظ ، ناسباً أكثره الى قائليه ، وشافياً خفيه بما يجليه .

بدأ بحكم لأفلاطون وقد استغرقت نحو نصف المجموعة ثم ثناها بارسطاطاليس ثم سقراط ثم بمحاورات جرت بين أوريجانس وسقراط ثم كلمات لاميروس فالاسكندر فباسيليوس ففيثاغورس فبقراط فجالينوس فديمستانس فزينون فديقوميس ففيلمون فنوموس فأكساوقراطس ففورس فديمطس فديوجانس الى غيرهم من الفلاسفة غير المشهورين في أدبنا المتعارف

فمما نقله من حكم أفلاطون : لا تصحبوا الأشرار فانهم يمنون عليكم بالسلامة منهم . وقال لا تقسروا أولادكم على آدابكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم . وقال : لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده ، فان الناس لا يسألون عن مدة العمل ، وانما يسألون عن جودته . وقال : اذا اقبلت الدولة خدمت الشهوات العقول ، واذا أدبرت خدمت العقول الشهوات .

قال أفلاطن : (لغة في أفلاطون) لا تكمل خيرية الرجل حتى يكون صديقاً لمتعادين . وقال : اتقوا صولة الكريم اذا جاع واللئيم اذا شبع . وقال : موت الرؤساء أسهل من رئاسة السفلة . موقع الصواب من الجهال مثل موقع الجهل من العقلاء . اذا بلغ المرء من الدنيا فوق مقداره تنكرت أخلاقه للناس . لا تصحب الشرير فان طبعك يسرق منه وأنت لا تدري . وقال : لاتفارق طاعة الرأي والصبر في كل أمورك فانك ان لم تحرز الحظ الذى تبغيه كنت قد أحرزت العذر . قال المؤلف قد أحسن الشاعر في هذا حيث يقول :

لأبلغ عذراً أو أنال رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

وقال موت الصالح راحة لنفسه وموت الطالح راحة للناس . قال المؤلف : قريب من هذا ما يحكى عن غير افلاطن : ابك على العاقل يوم يموت وعلى الأحمق حتى يموت . وقال : الفضيلة تجمع أهلها على المحبة والرذيلة تفرق بين أهلها بالتنافر والبغضة ، الا ترى ان الصادق يحب الصادق ويستنيم اليه وكذلك الثقة مع الثقة والحسن الخلق مع الحسن الخلق ، وترى الكاذب يبغض الكاذب والسارق يخاف السارق وكل واحد منهما حذر من مجاورة صاحبه . وقال : المصغي الى الذم شريك لقائله قال بعض الشعراء :

والسامع الذم شريك له والمطعم المأكول كالآكل

وقال : الفقير اذا تشبه بالغني كان كمن به الورم ويوهم الناس أنه سمين وهو يستر ما به من الورم . قال المؤلف : كأن أبا الطيب المتنبي لحظ هذا الكلام حيث يقول :

أعيذها نظرات منك صادقة ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وقال ارسطوطاليس : الحكيم الصالح لا يخادع أحداً والعاقل الكامل لا يخدعه أحد . قال المؤلف : أن يكون الانسان مخدوعاً ليس بصفة محمودة لأنه يدخل في باب الغباوة وربما ظن الناس انه صفة مدح لما يسمعون من قولهم الكريم مخدوع :

ومن قول الشاعر : ان الكريم اذا ما خودع انخدعا .

ومن قول الآخر :

خادع خليفتنا عنها بمسألة ان الخليفة للسؤال ينخدع

وليس الامر كما يظنون وانما المراد بالانخداع ههنا التكلف مع المعرفة بالخديعة . وقد صرح أبو تمام الطائي بالواجب في هذا المعنى فقال :

ليس الغبيّ بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

سيد قومه المتغابي

وقال : يا اسكندر لا يكوننّ لجائزتك حد فان ذلك أبسط الأمل

فيك . وقال : يا اسكندر اعمر ما خرب بما أنشأه من تقدمك بعمر ما تبنيه من بعقبك . وقيل لسقراط لمَ لا نرى أثر حزن فيك ؟ قال : لاني لا أملك ما أحزن عليه اذا عدمته . قال بعض الشعراء :

الم ترَ ان الدهر يهدم ما بنى ويأخذ ماأعطى ويفسد مااسدى

فمن سره ان لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا

وقال اوميرس : الكذاب لايصلح لشيء حتى يصلح الثعلب الذنب . وقال : الانسان الخيّر افضل من جميع الحيوان الذي على وجه الارض والانسان الشرير اخسُّ من جميع الحيوان الذي على وجه الأرض . وقال : اني لأعجب من الناس ان مكنهم الله من الاقتداء بالملائكة فيدعون ذلك ويميلون للاقتداء بالبهائم . قال المؤلف : عندهم ان التفلسف هو الاقتداء بالله تعالى وأن تعلم الحق وتفعل الخير .

ومن كلام باسيليوس الملك : لاتغتر بحسن الكلام اذا كان الغرض منه ضاراً فان الذين يسمون الناس يخلطون السم بالحلاوات ، ولا يصعبن عليك الكلام الغليظ اذا كان الغرض منه نافعاً فان أكثر الأدوية الجالبة للصحة مرة بشعة .

من كلام فيثاغورس ويقال انه أول فيلسوف اجتمعت اليه التلاميذ قال لابنه : أوصيك بعشرة أشياء فاحفظها تسلم : لا تلاح حديداً ، ولا تشارب غيوراً ، ولا تساكن حسوداً ، ولا تجاور جاهلاً ، ولا تناهض من هو أقوى منك ، ولا تؤاخ مرائياً ، ولا تعامل كذاباً ، ولا تكثر مجالسة النساء ، ولا تصاحب بخيلاً . والعاشرة هي عمدة الوصية وبها سلامة نفسك الا تستودع سرك أحداً .

من كلام ديمستانس الخطيب ، قال : يجب على من اصطنع معروفاً ان يتناساه من ساعته ويجب على من أسدى اليه معروف ان يكون ذكره نصب عينيه . قال المؤلف : قيل في يحيي بن الفضل :

ينسى الذي كان من معروفه أبداً الى الرجال ولا ينسى الذي يعد ..

من كلام ديوجانس الكلبي - والكلبيون فرقة من الفلاسفة يستهينون بالعادات مثل أن يأكلوا في الطرقات ويلبسوا ما اتفق ويناموا حيث اتفق ولذلك شبهوا بالكلاب - رأى ديوجانس غلاماً منبوذاً أي ملقوطاً يرمي بالحجارة . فقال له : لا ترم فلعلك تصيب أباك وأنت لا تدري . قال المؤلف : نقل شاعر من العرب هذا المعنى فقال :

لا تهجون أسنّ منك فربما   تهجو أباك وأنت لا تدري

من كلام فندروس قال : كما أن الجسد اذا فارقته النفس فاح منه النتن في الخارج كذلك الجاهل الذي عدم الحكمة لا يخرج من فيه لفظة الا كانت أذى ونتناً على سامعها ، وكما ان الجسد لا يشعر بما يظهر منه من النتن لأنه ميت كذلك لا يحس الجاهل بنتن كلامه لأنه ميت التمييز .

قيل لسطيحوس ان اوميروس يكذب كثيراً فقال : الذي يُطلب من الشاعر انما هو الكلام الحسن اللذيذ فاما الصدق فانما يطلب من الانبياء عليهم السلام .

(٣٦)

التوحيدى

(٤١٤)

علي بن محمد بن العباس التوحيدي نسبة للتوحيد نوع من التمر كان يبيعه أبوه بالعراق ، أو الى التوحيد لقب المعتزلة وكانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد وهو الأرجح . وقال الذهبي : وأبو حيان هو الذي نسب نفسه الى التوحيد كما سمى ابن تومرت اتباعه فقال الموحدون وكما سمى صوفيه الفلاسفة نفوسهم باهل الوحدة وأهل الاتحاد . قيل انه شيرازي وقيل نيسابوري وقيل واسطي . وكنيته ابو حيان . ولد في أواخر العقد الثاني من القرن الرابع وجاء بغداد صغيراً . وسواء كان من أصل فارسي أو عربي فليس في ثقافته أثر ظاهر للفارسية يصح للحكم به على نسبه . قيل انه مات بشيراز سنة ٤١٤ .

تخرج بالسيرافي والرُّماني بالنحو ، وبالفقه الشافعي بأبي حامد المَرْوروزي وابي بكر الشافعي ، وحضر بين سنتي ٣٦١ — ٣٩١ دروس يحيى بن عدي وابي سليمان المنطقي وغيرهما من الفلاسفة مثل ابي الحسن العامري وابي النفيس الرياضي الفيلسوف .

وصفه ياقوت انه كان جاحظياً يسلك في تصانيفه مسلك الجاحظ ويشتهي ان ينتظم في سلكه ، فهو شيخ الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق أهل الكلام ، ومتكلم المحققين ، وامام البلغاء ، فرد الدنيا الذي لا نظير له ، ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم في كل فن ، حُفَظة واسع الرواية والدراية . وقال فيه انه كان

صوفي السمت والهيئة وانه كان فقيراً صابراً . وعده السبكي في طبقات الشافعية من المؤرخين .

ولم يكن للتوحيدي مرتزق من السلطان ، واشتغل زمناً بالوراقة في بغداد . ولما تزامى اليه نبأ مكارم ابن العميد والصاحب بن عباد من وزراء آل بُوَيْه في الشرق ، وكانا من حماة الأدب كالوزير المهلبي وسيف الدولة ابن حمدان قصدهما في بلديهما فلم يحظ بطائل . وكان من الصاحب أن عرض عليه نسخ كتاب في ثلاثين مجلداً . فقال نسخ مثله يأتي على العمر والبصر ، والوراقة كانت موجودة ببغداد . فأخذ الصاحب في نفسه عليه وعاد الى وطنه وهجاهما في كتاب اسماه مثالب الوزيرين أورد فيه حكايات من ثلبهما ومنها ما عزاه الى بعض من روى عنهم .

واذا فاتت التوحيدي عوارف ابن العميد وابن عباد فقد أكرمه الوزيران ابن سعدان وابن العارض ، ولابن سعدان الف كتاب الصداقة والصديق ولابن العارض كتاب الامتاع والمؤانسة . وللدُّلجي بشيراز ألف كتاب المحاضرات . وله غير ذلك من الكتب طبع منها الصداقة والصديق والمقابسات وثمرات العلوم . وأهم ما طبع من كتبه كتاب الامتاع والمؤانسة ينم عن مبلغ صاحبه من الأدب والعلم والفلسفة والتاريخ والرواية وفيه تقريع وتقريظ ونقد ولمز ووعظ وارشاد وأسئلة وأجوبة وروايات ومساجلات ومحاضرات ومحاضر جلسات باسلوب جديد حوى كل مفيد ، يدل على شدة تصرفه بالكلام والتلاعب بالآراء والأفكار وهو من نوع الأدب الطريف يدخل عقل المطالع بلا استئذان ويمتعه فيه بكل عجيب .

دون فيه ما دار بينه وبين الوزير ابن العارض في أربعين ليلة عرض فيها لموضوعات جمة في الشعر والكتابة والتفسير والحديث والفلسفة والكلام والملح والمجون والتاريخ والتصوف والطبيعة والحيوان ونفث فيه - كما قال - كل ما كان في نفسه من جد وهزل وغث وسمين وشاحب ونضير وفكاهة وطيب وأدب واحتجاج واعتذار واعتلال واستدلال وأشباه من

طريف المهالحة على وجه قل أن حمل كتاب للقدماء في الأدب مثل هذه الأبحاث الطريفة ، فان أكثر كتب القدماء نقول ينقل المتأخر عن المتقدم ، لا يعزون على الاكثر الى المصدر المأخوذ منه ، وكتاب الامتاع يحوي ما تحوي كتب القدماء ويكثر فيه الجديد الذي لم يسبق اليه . وأما الطريف حقاً فهو مجالس العلماء ومحاضرات الحكماء والحكم على المشهورين منهم ، صورهم صورة غريبة فصور بهم عصرهم بحسنه وقبحه .

وكان الوزير ابن العارض الذي جرت هذه الفوائد في مجلسه ، على ما ظهر من أسئلته وأجوبته في تلك الأسمار على جانب من العلم والفهم ومعرفة بالسياسة ، وكان الى هذا يعرف ضعف صاحبه الملك ويخافه فقال عن نفسه : انه وصل الى المجلس مرة فقيل له أعدت الخلعة فالبسها على الطائر الأسعد ، فقال : أفعل وفي تذكرتي أشياء لا بد عن ذكرها وعرضها ، فقال : يتقدم بكذا وكذا ويفعل كذا وكذا فقال صاحبه : عندي جميع ذلك امض هذا كله واصنع فيه ما ترى وما فوق يدك يد ، ولا عليك لأحد اعتراض . فانقلب الوزير الى زاوية في الحجرة وأخذت تتحدر دموعه ، ويعلو شهيقه ، ويتوالى نشيجه . فسئل الوزير عن سبب بكائه فقال : اني عرضت على صاحبي تذكرة مشتملة على أشياء مختلفة فأمضاها كلها ولم يناظرني في شيء منها ولا زادني شيئاً فيها ولا ناظرني عليها ولعلي قد بلوته بها ، وأخفيت مغزاي في ضمنها ، فخيّل اليَّ بهذه الحالة ان غيري يقف موقفي فيقول فيَّ قولاً مزخرفاً ، وينسب اليَّ أمراً مزيفاً فيمضي ذلك أيضاً له كما أمضاه لي . وصدق الوزير فان الملك لم يلبث أن قتله بوشاية منافس له .

سأل التوحيدي مسامره الوزير من أول ليلة ان يأذن له في كاف المخاطبة وتاء المواجهة حتى يتخلص من مزاحمة الكناية ومضايقة التعريض ويركب جدد القول من غير تقية ولا تحاش ولا محاباة فقال له : لك ذلك وأنت المأذون فيه وكذلك غيرك وقال : ان الله تعالى على علو

شأنه ، وبسطة ملكه ، وقدرته على جميع خلقه ، يواجه بالتاء والكاف ولو كان بالكناية بالهاء رفعة وجلالة وقدر ورتبة وتقديس وتمجيد لكان الله أحق بذلك ومقدماً فيه ، وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله عليهم السلام وأصحابه رضي الله عنهم والتابعون لهم باحسان رحمة الله عليهم . وهكذا الخلفاء فقد كان يقال للخليفة : ياأمير المؤمنين أعزك الله ، وياعمر أصلحك الله ، وما عاب هذا أحد وما أنف منه حسيب ولا نسيب ، ولا أباه كبير ولا شريف . واني لأعجب من قوم يرغبون عن هذا أو شبهه ويحسبون ان في ذلك ضعة أو نقيصة أو خطأ أو زراية وأظن ذلك لعجزهم وفسولتهم ، وما يجدونه من الغضاضة في أنفسهم وقال : هيهات لاتكون الرياسة حتى تصفو من شوائب الخيلاء ، ومن مقابح الزهو والكبرياء .

وبالقليل الذي نجا من كتب ابي حيان استدللنا انه كان متصوفاً وفيلسوفاً ، آية في العلوم المعادية والعلوم المعاشية ، لا يتلكأ في الأخذ من كل علم ولا يتعفف من الطعن فيمن لا ترضيه طريقتهم ، وربما سجل لبعضهم شيئاً من الهنات ، وأغفل كثيراً من حسناتهم ، وبهذا كثر خصومه فخاصموه في علمه وفي رزقه ، وهو النابغة الذي يمضي القرن والقرنان ولا ينبغ مثله في تفكيره .

أضاق ابو حيان في آخر عمره فأحرق كتبه سنة اربعمائة فقال لمن عذله على فعلته : ثم اعلم ، علمك الله الخير ، ان هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته ، فأما ما كان سراً فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغباً ، وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالباً ، على أني جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم ، ومدّ الجاه عندهم فحرمت ذلك كله . . . ومما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه أني فقدت ولداً نجيباً ، وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً ، وتابعاً أديباً ، ورئيساً منيباً ، فشق عليّ ان أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضي

اذا نظروا فيها ، ويشمتون بسهوي وغلطي اذا تصفحوها ، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها ، فان قلت ولمَ تَسِمهم بسوء الظن ، وتقرّع جماعتهم بهذا العيب ، فجوابي لك ان عياني منهم في الحياة ، هو الذي حقق ظني بهم بعد الممات ، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صحَّ لي من أحدهم وداد ، ولا ظهر لي من انسان منهم حفاظ ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في اوقات كثيرة الى أكل الخضر في الصحراء ، والى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، والى بيع الدين والمروءة ، والى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق ، والى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان بادية لعينيك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلته بخاف عليك ، مع معرفتك وفطنتك ، وشدة تتبعك وتفرغك ...

قال : والله يا سيدي لو لم أتعظ الا بمن فقدته من الاخوان والاخدان ، في هذا الصقع من الغرباء والأدباء والأحباء لكفى ، فكيف بمن كانت العين تقرُّ بهم ، والنفس تستنير بقربهم ، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والريّ وما والى هذه المواضع ، وتواتر اليَّ نعيهم ، واشتدت الواعية بهم ، فهل انا الا من عنصرهم ، وهل لي محيد عن مصيرهم . . . وماذا أقول وسامعي يصدق أن زماناً احوج مثلي الى ما بلغك ، لزمان تدمع له العين حزناً وأسى ، ويتقطع عليه القلب غيظاً وجوىً ، وضنى وشجى ، وما يصنع بما كان ، وحدث وبان ، ان احتجت الى العلم في خاصة نفسي فقليل ، والله تعالى شاف كاف ، وان احتجت اليه للناس ، ففي الصدر منه ما يملأ القرطاس بعد القرطاس ، الى ان تفنى الأنفاس بعد الانفاس . فلم تُعَنّني عيني ، أيدك الله ، بعد هذا بالحبر والورق والجلد ، والقراءة والمقابلة والتصحيح ، وبالسواد والبياض ، وهل أدرك السلف في الدين الدرجات العلى الا بالعمل الصالح واخلاص المعتقد والزهد الغالب في كل

ما راق من الدنيا وخدع بالزبرج وهوى بصاحبه الى المبوط؟ وهل وصل الحكماء والقدماء الى السعادة العظمى الا بالاقتصاد في السعي والا بالرضى بالميسور ، والا ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم . وختم كتابه بقوله : « على اني لو علمت في اي حال غلب على ما فعلته ، وعند اي مرض ، وعلى أي عسرة وفاقة ، لعرفت من عذري أضعاف ما أبديته ، واحتججت لي بأكثر ما نشرته وطويته .

بلغ التشاؤم أقصى حده من نفسه فأتى ما أتى من احراق كتبه وهو في عشر التسعين وقد أدقعه الفقر واستولى عليه اليأس ، وغلبت عليه السوداء ، ونفس عظيمة كنفس التوحيدي لم تحقق الايام أطماعها ، وفشل في مادياته وهي السُلّم الى معنوياته ، لا بد انه عَدِمَ اتزانه في شيخوخته ، والطموح الى العلى كان متجلياً فيه في الكهولة وانقلب في الشيخوخة الى قنوط ، وزاده ما ناله من أعدائه ومنهم من كان هو السبب الاول في استجلاب عداوتهم بما وصفهم به في كتبه من النقائص ، وما أرى انه سلم من لسانه الا أساتذته كعيسى الرماني وابي سليمان المنطقي ويحيى بن عدي وغيرهم اما من عداهم فذكر مساويهم على الغالب ، وما جنح لذكر محاسنهم مع انهم كانوا يعدون شيئاً في عصرهم ومصرهم .

قالوا انه كان قليل الرضى عند الاساءة اليه والاحسان ، الذم شأنه والثلب دكانه ، يشتكي صرف زمانه ، ويبكي في تضاعيفه على حرمانه وقد لامه أستاذه السيرافي يوماً وهو ينقل ذم أعرابي بقوله : « تأبى الا الاشتغال بالقدح والذم وثلب الناس » فأجاب : « أدام الله الاستاذ ، شغل كل انسان بما هو مبتلى به مدفوع اليه » .

أما اتهام بعض الاردياء الاغبياء لشيخنا التوحيدي بالزندقة فهي تهمة ألصقت بأكثر من ظهر التجدد في أفكارهم وآرائهم ، وما خلا قرن من قرون الاسلام من كثيرين اتهموا بما هم منه أبرياء ، ومنهم من عذبوا أو قتلوا ومنهم من عاشوا مشردين بعيدين عن عيالهم وأهلهم وعشيرتهم وأوطانهم

وكان حظهم من الكآبة والبؤس غير قليل ، ولو كتب للحكومات أن تحسن سياستهم لأنت على أيديهم خيرات جسيمة للعلم والعقل والمدنية .
وصفه صاحب تاريخ بغداد وصاحب معجم الادباء بأنه كان يتأله أي يتنسك ويتعبد ، والناس على ثقة من دينه وصحة عقيدته .

يتجلى النبوغ وسعة الادراك وفرط التجدد في كتب التوحيدي ، وكتبه من الاسفار التي يود الناظر فيها ان يعود الى قراءتها مرات فتنجلي له أمور ما انجلت له في قراءتها أول مرة . هكذا كان في المقابسات وهي وصف مجالس العلماء ، ولا سيما أحاديث استاذه أبي سليمان المنطقي محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني ، ذكر فيها بعض ما وقع اليه من مفاوضات علماء مشهورين كانوا في بغداد يختلفون الى مجلس استاذه ، ومنه أكثر مروياته ، فيتذاكرون في موضوعات شتى في الفلسفة وما وراء الطبيعة والادب وأكثرها على طريقة السؤال والجواب وكان فيهم المجوسي والصابي واليهودي واليعقوبي والنسطوري والملحد والمعتزلي والشافعي والشيعي .

وذكر في كتاب الصداقة والصديق ما يتصل بالوفاق والخلاف والهجر والصلة والعتب ، والمذق والاخلاص ، والرياء والنفاق ، والحيلة والخداع ، والاستقامة والالتواء ، والاستكانة والاحتجاج والاعتذار . قال : ولو أردنا ان نجمع ما قال كل ناظم في شعره ، وكل ناثر من لفظه لكان ذلك عسراً بل متعذراً ، فان انفاس الناس في هذا الباب طويلة ، وما من احد الا وله في هذا الفن حصة ، لانه لا يخلو احد من جار او معامل او حميم او صاحب او رفيق او سكن او حبيب او صديق او أليف او قريب او بعيد او ولي او خليط ، كما لا يخلو أيضاً من عدو او كاشح او مداج او مكاشف او حاسد او شامت او منافق او مؤذ او منابذ او معاند او مزل او مضل او مغل ...

قال : فقدت كل مؤنس وصاحب ، ومرافق ومشفق ، والله لربما صليت في الجامع فلا أرى الى جنبي من يصلي معي ، فان اتفق فبقال

او عصار ، او نداف او قصاب ، ومن اذا وقف الى جانبي أسدرني بصنانه ، وأسكرني بنتنه ، فقد امسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، محتملا للأذى ، يائساً من جميع من ترى ...

(ورسالته ثمرات العلوم كتبها لقوم لم يفهموا مقصده من العلم وتأولوا كلامه فجبههم بما كتب وأجاد . قال فيها : ولعمري ما زال الناس يعادون التقاذف والتقارف ، ولكن كانوا يرون التساعف والتناصف ، ولا يتناسون بينهم التعاون والتوازر والترادف والتناصر ، والذي هاجني لهذه الشكوى ، وأحوجني الى هذه الدعوى ، قول من قال منكم : ليس المنطق مدخل في الفقه ، ولا للفلسفة اتصال بالدين ، ولا للحكمة تأثير في الاحكام ، وهذا كلام من لو انعم النظر ، واستقصى الحال ، لوقف على ما عليه فيه ، وعرف ما له منه ، فكان يستبدل بالخلاف وفاقاً ، وبالمنازعة خلاقاً ، عاب هذا الرجل المنطق وهجن طريقة الاوائل ، وزرى على الحكمة . وفيّل رأي الناظر فيها ، وقبح اختيار الباحث عنها ؛ وهذا كله ان لم يكن قلة سوء تحصيل ، فانه يوشك أن يكون ضيق عطن ، وحرج صدر ، ومجازفة في القول ، وانحرافاً عن الصواب .

وفي الحق ان كتابه الامتاع والمؤانسة أمتع كتبه وأجمعها للفوائد وقد حل فيه مشكلات عظيمة منها القول في رسائل اخوان الصفا قال : « سأل الوزير أبا حيان التوحيدي في حدود سنة ٣٧٢ عن اخوان الصفا بقوله : اني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولاً يريبني ، ومذهباً لا عهد لي به ، وكناية عما لا احققه ، واشارة الى ما لايتوضح شيء منه ، يذكر الحروف ويذكر النقط ، ويزعم ان الباء لم تنقط من تحت واحدة الا لسبب والتاء لم تنقط من فوق اثنتين الا لعلة ، والالف لم تُعجم الا لغرض وأشباه هذا . واشهد منه في عُرض ذلك دعوى يتعاظم بها ، وينتفخ بذكرها ، فما حديثه وما شأنه وما دخلته ؟ فقد بلغني يا أبا

حيان انك تغشاه وتجلس اليه ، وتكثر عنده ، ولك معه نوادر معجبة ، ومن طالت عشرته لانسان صدقت خبرته ، وامكن اطلاعه على مستكن رأيه ، وخافي مذهبه ، قلت : أيها الوزير ، أنت الذي تعرفه قبلي قديماً وحديثاً بالاختبار والاستخدام ، وله منك الامرة القديمة ، والنسبة المعروفة . فقال : دع هذا وصفه لي ، فقلت : هناك ذكاء غالب ، وذهن وقاد ، ومتسع في قول النظم والنثر ، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة ، وحفظ أيام الناس ، وسماع المقالات ، وتبصر في الآراء والديانات ، وتصرف في كل فن ، اما بالشدو الموهم ، واما بالتوسط المفهم ، واما بالتناهي المفحم ، قال : فعلى هذا مـــا مذهبه ؟ قلت : لا ينسب الى شيء ولا يعرف برهط ، لجيشانه بكل شيء ، وغليانه بكل باب ، ولاختلاف ما يبدو من بسطته ببيانه وسطوته بلسانه ، وقد أقام بالبصرة زمناً طويلا وصادف بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة ، منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستي ويعرف بالمقدسي ، وأبو الحسن علي بن هرون الزنجاني وأبو أحمد المهرجاني والعوفي وغيرهم فصحبهم وخدمهم .

« وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله ، وذلك أنهم قالوا : ان الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها ، وأفردوا لها فهرساً وسموها « رسائل اخوان الصفا » وكتموا فيها أسماءهم ، وبثوها في الوراقين ، ووهبوها للناس ، وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة والطرق المموهة .

« قال الوزير : فهل رأيتَ هذه الرسائل ؟ قلت : قد رأيت جملة

منها ، وهي مبثوثة من كل فن بلا اشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات وكنايات ، وتلفيقات وتلزيقات ، وحملت عدة منها الى شيخنا ابي سليمان المنطقي السجستاني محمد بن بهرام ، وعرضتها عليه فنظر فيها أياماً وتبحرها طويلاً ثم ردّها عليّ وقال : تعبوا وما اغنوا ، ونَصِبوا وما أجدوا ، وحاموا وما وردوا ، وغنّوا وما اطربوا ، ونسجوا فهلهلوا ، ومشطوا ففلفلوا ، ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع ، ظنوا أنه يمكنهم ان يدسوا الفلسفة التي هي علم النجوم والأفلاك والمقادير والمجسطي وآثار الطبيعة ، والموسيقى الذي هو معرفة النغم والايقاعات والنقرات والأوزان ، والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال بالاضافات والكميات والكيفيات في الشريعة ، وان يربطوا الشريعة في الفلسفة ، وهذا مرام دونه حدد ، وقد تورد على هؤلاء قوم كانوا أحد أنياباً ، وأحضر أسباباً ، وأعظم اقداراً ، وأرفع اخطاراً ، وأوسع قوى ، وأوثق عرا ، فلم يتم لهم ما أرادوه ، ولا بلغوا منه ما أملوه ، وحصلوا على لوثات قبيحة ، ولطخات واضحة موحشة ، وعواقب مخزية ، فقال له البخاري بن العباس : ولِمَ ذلك أيها الشيخ ؟ فقال : ان الشريعة مأخوذة عن الله عز وجل بوساطة السفير بينه وبين الخلق ، من طريق الوحي وباب المناجاة ، وشهادة الآيات وظهور المعجزات ، وفي أثنائها ما لا سبيل الى البحث عنه والغوص فيه ، ولا بد من التسليم المدعو اليه ، والمنبّه عليه ، وهناك يسقط « لِمَ » ويبطل « كيف » ويزول « هلا » ويذهب « لو وليت » في الريح .. »

لا جرم أن القارىء سيدرك مما نقلناه من نماذج أقواله الى أي موطن من مواطن البلاغة بلغ قلم التوحيدي ، ويقف على دقة معانيه ورقة الفاظه وها كم نموذجاً آخر مما كتبه لصاحبه الوزير : بسم الله الرحمن الرحيم . أيها الوزير ، جعل الله أقدار دهرك جارية على تحكم آمالك ، ووصل توفيقه بمبالغ مرادك في أقوالك وأفعالك ، ومكنك من نواصي أعدائك ، وثبت أواخي دولتك على ما في نفوس أوليائك . يجب على كل من آتاه الله

رأياً ثاقباً ، ونصحاً حاضراً ، وتنبهاً نافعاً ، ان يخدمك متحرياً لرسوخ دعائم المملكة بسياستك وريادتك ، قاضياً بذلك حق الله عليه في تقويتك وحياطتك . واني أرى على بابك جماعة ليست بالكثيرة - ولعلها دون العشرة - يؤثرون لقاءك والوصول اليك ، لما تجن صدورهم من النصائح النافعة ، والبلاغات المجدية ، والدلالات المفيدة ، ويرون أنهم اذا أهلوا لذلك فقد قضوا حقك ، وأدوا ماوجب عليهم من حرمتك ، وبلغوا بذلك مرادهم من تفضلك واصطناعك ، وتقديمك وتكريمك ، والحجاب قد حال بينهم وبينك ، ولكل منهم وسيلة شافعة وخدمة للخيرات جامعة ، منهم - وهو أهل الوفاء - ذوو كفاية وأمانة ونباهة ولباقة ، ومنهم من يصلح للعمل الجليل ، ولرتق الفتق العظيم ، ومنهم من يُتبع اذا نادم ، ويشكر اذا اصطُنع ، ويبذل المجهود اذا رُفع ، ومنهم من ينظم الدر اذا مدح ، ويضحك الثغر اذا مزح ، ومنهم من قعد به الدهر لسنته العالية وجلابيبه البالية ، فهو موضع الاجر المذخور ، وناطق بالشكر المنظوم والمنثور ، ومنهم طائفة أخرى قد عكفوا في بيوتهم على ما يَعنيهم من أحوال أنفسهم ، في تزجية عيشهم ، وعمارة آخرتهم ، وهم مع ذلك من وراء خصاصة مُرة ، ومؤن غليظة وحاجات متوالية ، ولهم العلم والحكمة والبيان والتجربة ، ولو وثقوا بأنهم اذا عرضوا أنفسهم عليك ، وجهزوا ما معهم من الادب والفضل اليك حظوا منك ، واعتزوا بك ، لحضروا بابك ، وجشموا المشقة اليك ، لكن اليأس قد غلب عليهم ، وضعفت مُنّتهم ، وعكس أملهم ، ورأوا أن سف التراب ، أخف من الوقوف على الابواب ، اذا دنوا منها دُفعوا عنها ، فلو لحظت هؤلاء كلهم بفضلك ، وأدنيتهم بسعة ذرعك وكرم خيمك ، وأصغيت الى مقالتهم بسمعك ، وقابلتهم بملء عينك ، كان في ذلك بقاء للنعمة عليك ، وصيت فاش بذكرك ، وثواب مؤجل في صحيفتك ، وثناء معجل عند قريبك وبعيدك ، والايام معروفة بالتقلب

والليالي ماخضة بما يتعجب منه ذو اللب ، والمجدود من جُدَّ في جَدِّه ، أعني من كان جده في الدنيا موصولاً بحظه من الآخرة ، ولأن يوكل العاقل بالاعتبار بغيره ، خير من أن يوكل غيره بالاعتبار به .

أيها الوزير اصطناع الرجال صناعة قائمة برأسها ، قلّ من يفي بربها ، أو يتأتى لها ، أو يعرف حلاوتها ، وهي غير الكتابة التي تتعلق بالبلاغة والحساب . وسمعت ابن سورين يقول : آخر من شاهدنا ممن عرف الاصطناع واستحلى الصنائع ، وارتاح للذكر الطيب واهتز للمديح ، وطرب على نغمة السائل ، واغتنم خلة المحتاج ، وانتهب الكرم انتهاباً ، والتهب في عشق الثناء التهاباً ، ابو محمد المهلبي ، فانه قدم قوماً ونوّه بهم ، ونبه على فضلهم ، وأحوج الناظرين في أمر الملك اليهم والى كفايتهم ، منهم أبو الفضل العباس بن الحسين ، ومنهم ابن معروف القاضي ، ومنهم ابو عبد الله اليفرُنّي ، ومنهم أبو اسحق الصابي وأبو الخطاب الصابي ، ومنهم احمد الطويل ومنهم ابو العلاء صاعد ، ومنهم أبو أحمد بن الهيثم وابن حفص صاحب الديوان وفلان وفلان ، هؤلاء الى غير هؤلاء ، كأبي تمام الزينبي وابي بكر الزهري وابن قريعة وابي حامد المروروزي ، وابي عبد الله البصري وابي سعيد السيرافي ، وابي محمد الفارسي وابن درستويه وابن البقال والسري وممن لا يحصى كثرة من التجار والعدول .

وقال لي ابن سورين : كان ابو محمد يطرب على اصطناع الرجال كما يطرب سامع الغناء على الشبابير (آلة موسيقية) ، ويرتاح كما يرتاح مدير الكأس على العشائر . وقال عنه انه قال : والله لأكونن في دولة الديلم اول من يذكر ان فاتني ان كنت في دولة بني العباس آخر من يذكر اهـ .

هذا أسلوب التوحيدي السهل الممتنع . وشعره قليل وقد قال عن نفسه لست من الشعر والشعراء في شيء .

(٢٧)

الثعالبي

أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابوري

(٤٢٩)

هذه النسبة الى خياطة جلود الثعالب وعملها . قيل له ذلك لأنه كان فراءً . نشأ في نيسابور وطاف البلاد . والغالب أنه من أصل عربي ، أخذ عن أبي بكر الخوارزمي وسماه بعضهم جاحظ نيسابور . قال ابن خلكان فيه انه كان في وقته راعي تلعات العلم ، وجامع أشتات النثر والنظم رأس المؤلفين في زمانه ، سار ذكره سير المثل وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب وتواليفه كثيرة . وأكبر كتبه يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر وفيه يقول ابن قلاقس :

أبيات أشعار اليتيمة   أبكار أفكار قديمة

ماتوا وعاشت بعدهم   فلذاك سميت اليتيمة

كان شاعراً عظيماً وكاتباً مجيداً يعرف ما يختار ويدع ، وفي كل ما كتب أجاد وأبدع ونمَّ عن ذوق ظريف في الشعر والنثر .

وما جود الثعالبي هذه الاجادة النادرة في تأليف اليتيمة الا لأنه تصدى لتصنيفها والعمر في اقباله ، ثم تعاورها بالزيادة والنقص الى أوان نضجه واكتماله قال : « وحين أعرته على الأيام بصري وأعدت فيه نظري تبينت مصداق ما قرأته في بعض الكتب أن أول ما يبدو من ضعف ابن آدم أنه لا يكتب كتاباً فيبيت عنده ليلة الا أحب في غدها ان يزيد فيه أو ينقص منه ، هذا في ليلة واحدة فكيف في سنين عدة ، والنسخة

الاخيرة التي اعتمدها من اليتيمة تجمع « من بدائع أعيان الفضل ونجوم الارض من أهـل العصر ومن تقدمهم قليلا وسبقهم يسيراً تتضمن من ظرفهم وملحهم لطائف أمتع من بواكير الرياحين والثمار ، وأطيب من فوح نسيم الأسحار بروائح الأنوار والأزهار ما لم تتضمنه النسخة السائرة الاولى والشرط في هذه الأخرى ايراد لبّ اللب وحبة القلب وناظر العين ونكتة الكلمة وواسطة العقد ونقش الفصّ ، مع كلام في الاشارة الى النظائر والأحاسن والسرقات فتأخذ في طريق الاختصار ونبذ من أخبار المذكورين وغرر من فصوص فصول المترسلين يميل الى جانب الاقتصار »

بدأ بشعراء الشام وفضلهم في البلاغة على غيرهم وقال ان السبب في تبريز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم اياهم ، فجمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة. قال : كانت أشعار الاسلاميين أرقى من أشعار الجاهليين وأشعار المحدثين ثم كانت أشعار العصريين أجمع لنوادر المحاسن وأنظم للطائف البدائع من أشعار سائر المذكورين ولانتهائها الى أبعد غايات الحسن وبلوغها أقصى غايات الجودة والظرف ، تكاد تخرج من باب الاعجاب الى الاعجاز ، ومن حدّ الشعر الى السحر ، فكأن الزمان ادخر لنا من نتائج خواطرهم وثمرات قرائحهم وابكار أفكارهم أتم الألفاظ والمعاني استيفاء لاقسام البراعة ، وأوفرها نصيباً من كمال الصنعة ورونق الطلاوة .

بدأ اليتيمة بسيف الدولة والذين كانوا من شعرائه في الذروة ، ثم شعراء مصر والمغرب والموصل ، وشعراء بني بويه وكتابهم ، وشعراء البصرة والعراق وحده ، ثم بغداد وحدها ، واصبهان والجبل وفارس والاهواز وجرجان وطبرستان وخوارزم وخراسان ونيسابور وغيرهم من أهـل البلاد التي

اسمها الا من كتب التاريخ وتقويم البلدان ، وكانت تقيم الآداب نعي أسواقاً وتفضل على الادباء والشعراء فتنضر أوراقه وتينع ثماره .

وكتابه الثاني فقه اللغة وأسرار العربية وهو كتاب كاد يحيط باللغة قسمه أبواباً وضم كل معنى الى شكله وكل لفظ الى ما عاثله وجعله في متناول الخواص والعوام والبنات والبنين وهو كتاب آخذ بناصية الكمال من أوله الى آخره ، قدمه لأبي الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي وكان أقام عنده زمناً في ضيعته فيروزاباد من رستاق جوين وأمده بكتب من خزانته حتى كتب هذا الكتاب الدال على اغراقه في النظام والتنسيق ما يكاد يكون فيه منقطع النظير .

وكتابه الثالث « ثمار القلوب في المضاف والمنسوب » ليس اقل من الثاني تنسيقاً وجمالاً وقد خرجه « في احد وستين باباً ينطق كل منها بذكر ما يشتمل عليه أولاً ، ويفصح عن الاستشهاد وسياق المراد آخراً ، وما منها الا ما يتعلق من المثل بسبب ، ويوفي من اللغة والشعر على طرف ، ويضرب في التشبيهات والاستعارات بسهم ، ويأخذ من الأخبار والأنساب بقسم ، ويجيل في خصائص البلدان والاماكن قدحاً ، ويجري في أعاجيب الاحاديث شوطاً » ، وكتابه هذا كله علم وبحث .

أما كتبه الصغيرة فكثيرة وكلها من الامتاع والاجادة في القمة منها أحاسن كلام النبي والصحابة التابعين وملوك الجاهلية وملوك الاسلام ، ومنها كتاب من غاب عنه المطرب ،وأحسن ما سمعت ، والكنايات والتمثيل والمبهج ، وسحر البلاغة ، والاعجاز والايجاز والأمثال ، وبرد الأكباد في الأعداد ،وخاص الخاص ، وسر الأدب ، وغرر أخبار ملوك الفرس ، والفرائد والقلائد ، ونثر النظم وحل العقد ، والكناية والتعريض، ولطائف المعارف ، واللطائف والظرائف ، والمؤنس الوحيد ، ومرآة المروآت ، ومكارم الاخلاق والمنتحل الى غير ذلك مما طبع له وكله مجموعة فوائد وغرر في اللغة والتاريخ وتراجم الشعراء وأشعارهم والأدباء وأخبارهم والكتاب ومنثورهم

وجمع فيها أشعار الناس ورسائلهم وأخبارهم وأحوالهم دلالة على كثرة اطلاعه . ينقل ما ينقل من الكتب المعتمدة المشهورة في عصره وينظم بعضه بنظام راق وعلم واسع يستفيد منه المتعلم والمتفكه حتى لتتألف من كتبه خزانة لطيفة . وكان يلقى المشهورين من الشعراء المتازين ويستنشدهم شعرهم ويقتبس أحاديثهم ويأخذ من دواوينهم . ومن هؤلاء الذين عاصرهم ضم كتابه طائفة عظيمة كانوا حلية زمانهم وسادة أبناء صناعتهم . ولم يتقزز من نقل أكثر الشعر بذاءة كشعر الواساني وابن الحجاج مثلاً فجاءت يتيمته مرآة العصر الذي كتبت فيه ومثالاً من أدب أهله ومن سبقهم الى الارض .

وأعظم ما نفعه في تآليفه تنقله في حواضر الاسلام وأخذه من الكتب الموقوفة وكتب الخواص ما طاب له وكفاه ان نشأ في نيسابور ، وكانت في زمنه أعمر مدن الدنيا بالعلم والادب كادت تفوق بغداد في القرن الثالث والرابع ، ونيسابور كاصفهان نبغ بها من كل صنف من أصناف الرجال المشتغلين بعقولهم ما يتعذر احصاؤه .

ومن شعره :

وسائلٍ عن دمعي السائل ... وحال لوني الكاسف الحائل
قلت له والارض في ناظري ... أوسع منها كفة الحابل
بليت والله بمملوكة ... في مقلتيها ملكا بابل
فان لحاني عاذل في الهوى ... يوماً فما العاذل بالعادل

ومنه :

سقطت لحَيْني في فراشٍ لزمته ... أضم الى قلبي جناح مهيض
وما مَرَض بي غير حبي وانما ... ادلس فيكم عاشقاً بمريض

وكتب الى ابي نصر سهل بن المرزبان ، ولقد لسعته عقرب على قدمه فلما وجدت وقتلت زال الوجع ، بهذه الابيات :

يا عمدة الامراء والوزراء ... يا عـــمدة الادباء والشعراء
يا غرة الزمن البهيم وناظر الـ ... ـكرم الصميم وواحد الفضلاء
أرأيت همة عقرب وثبت الى ... قدم بهـا تخطو الى العلياء
لما ارتقت بالاسع أعظم مرتقى ... أحنت عليهـــا رتبة العظماء
ان ذقت ضراء العقارب فابقين ... بعقارب الاصداغ في سراء
يا طيب لسعة عقرب، درياقها ... ريق الحبيب بقهـوة عذراء

وله :

ثلاث قد مُنيت بهن أضحت ... لنار القلب مـــني كالاثافي
ديون أنقضت ظهري وجور ... من الايام شاب له غدافي
وفقدان الكفاف وأي عيش ... لمن يُمنى بفقدان الكفاف

ومن شعره ما كتبه الى الامير أبي الفضل الميكالي :

لك في المفاخر معجزات جمة ... أبداً لغيرك في الورى لم تجمع
بحران بحر في البلاغـة شابه ... شعر الوليد وحسن لفظ الاصمعي
وترسّل الصابي يزين علوّه ... خط ابن مقلة ذو المحل الارفع
كالنَّـوْر أو كالسحر أو كالبدر او ... كالوشي في بُرد عليه موشع
شكراً فكم من فقرة لك كالغنى ... وافى الكريم بُعَيْد فقر مدقع
واذا تفتق نَـوْر شعرك ناضراً ... فالحسن بين مرصع ومصرّع
أرجلت فرسان الكلام ورضت أفـ ... ـراس البديع وأنت أمجد مبدع
ونقشت في فص الزمان بدائعاً ... تزري بآثار الربيـع الممرع

ومن شعره :

لما بعثت فلم توجب مطالعتي ... وأمعنت نار شوقي في تلهبها
ولم أجد حيلة تبقي على رمقي ... قبلت عين رسولي اذ رآك بها

(٢٨)

أبو الريحان البيروني

(٤٤٠)

معنى بيرون بالفارسية خارج ، والبيروني (بكسر الباء الموحدة وسكون الياء آخر الحروف وضم الراء وبعدها الواو في آخرها النون) نسبة الى خارج خُوارزم فان بها من يكون خارج البلد ولا يكون من البلد نفسه .

بيرون منشأ أبي الريحان ومولده بلدة طيبة فيها غرائب وعجائب ولا غرو فان الدر ساكن الصدف . قال السمعاني وما علمنا هذه الغرائب ولم نعرف عن منشاه وأساتيذه شيئاً ، وغاية ما انتهى الينا من بعض المظان أنه تلميذ أبي نصر منصور بن علي الرياضي المشهور ولعلّ هذا ممن أدرك الاربعمائة من الهجرة .

سافر البيروني في بلاد الهند أربعين سنة وزادت تصانيفه على حمل بعير ، رأى ياقوت فهرستها في وقف الجامع بمرو في نحو الستين ورقة بخط مكتنظ وهي في النجوم والرياضيات والمنطق والحكمة والتاريخ طبع منها بعض علماء الالمان ثلاثة كتب فقط فقرأنا فيها كل مفيد . قال ياقوت : انه لما صنف القانون المسعودي أجازه السلطان محمود بن سبكتكين بحمل فيل من نقده الفضي ، فرده الى الخزانة بعذر الاستغناء عنه ورفض العادة في الاستغناء به . وكان رحمه الله مكباً على تحصيل العلوم منصباً الى تصنيف الكتب ، لا يكاد يفارق يده القلم ، وعينه النظر ، وقلبه الفكر ، الا في يومي النيروز والمهرجان من السنة لاعداد

ما تمس اليه الحاجة في المعاش . وهو أعظم رياضي قام في هذه الملة ولم يشق المحضرون غباره ولم يلحق المضمّرون المجيدون مضماره » .

دخل عليه أحد اصدقائه وهو يجود بنفسه فقال : كيف قلت لي يوماً حساب الجدات الفاسدة ؟ فقلت له اشفاقاً عليه : أفي هذه الحالة ؟ قال لي : يا هذا أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ألا يكون خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها . فأعدت ذلك عليه وحفظه ، وعلمني ما وعد ، وخرجت من عنده وأنا في الطريق فسمعت الصراخ .

دخل البيروني الهند مع ابن سبكتكين لما فتحها وأقام بينهم وتعلم لغتهم واقتبس علومهم ، وفيها الف كتابه الذي لا نظير له في حرية الفكر وانصاف المخالف في الدين والمذهب المعنون بتحقيق ما الهند من مقالة مقبولة في العقل أو مرذولة . وهو من أجل الاسفار التي وضعها علماء الاسلام في الملل والنحل . لم يكد علماء هذا العصر يكتبون مثلها مجردة عن الغرض عند الكلام على المخالف . ومن كتبه المطبوعة « الآثار الباقية عن القرون الخالية » وهو في النجوم والتاريخ ألفه للأمير شمس المعالي وبيّن فيه التواريخ التي تستعملها الامم والاختلاف في الاصول التي هي مباديها وفيه فوائد تاريخية عن ملوك اشور وبابل وكلدة والقبط واليونان والروم . قالوا وكان طيب العشرة خليعاً في الفاظه عفيفاً في أفعاله ، لم يأت الزمان بمثله علماً وفهماً . وله شعر منحط عن نثره كان يقوله في المناسبات وفيه بذاءة أحياناً ، وكان على عجمته معجباً باللغة العربية ، ولم يؤلف في غيرها ويقول ان الهجو بالعربية أحب اليه من المدح بالفارسية .

غاية ما عرف عن البيروني انه فارسي شغف بحب العرب ، وكان يعد من أئمة اللغة العربية وأدبائها ، يضاف ذلك الى علومه الكثيرة في الرياضيات والنجوم والتاريخ والملل والنحل . صحب الملوك فأفادهم أكثر مما استفاده منهم وكان على عزوف وزهد ، لاهم له الا تحصيل العلم وبثه في الناس واعتماده في ذلك على التأليف . ويقول العلامة بروكلمان انه كانت بينه

وبين الحكيم ابن سينا مكاتبات كان من مجموعها كتابة الآثار الباقية .
ولما فتحت الهند على يد محمود بن سبكتكين درس فيها العلوم اليونانية وأخذ من كنوز العلوم الهندية .

ولم نعرف جميع أساتذة البيروني ، وخوارزم كانت في عصره دار علم كسائر العواصم الاسلامية الكبرى . والبيروني مثل الأنظار وهو كبير وسكتوا عن نشأته وأساتيذه ، وكان قبل أن بلغ الكهولة رجلاً مذكوراً بدليل أنه كان من جملة رجال صاحب غزنة .

ومن تصفح كتاب الهند والآثار الباقية يدرك مكانة هذا العالم الذي لم يترجم له مترجموه بما يستحقه من التوسع ، ولعلهم كانوا يفضلون عليه بعض أرباب الحديث والفقه ، وهو الذي أتى أمته بجديد وخدمها فأفاد ولم يستخدمها في مظهر له ولا في طلب دنيا ، هو أحد أفراد نوابغ يعدون على الاصابع ومن اولئك تعد مئات ممن لم يبدع جديداً ومعظم ما دونوه وتناقشوا فيه لو حذف من الخزائن تعد كأنها لم تفقد شيئاً . أخلص للعلم وما شغف بغيره وما طلب عن غيره بديلاً .

قال البيروني : جل خطر الملوك عن المجازاة بالانتقام .

ليس للملك ان يحسد الا على حسن التدبير والسياسة .

الملك أقل الناس خوفاً من الفقر وأكثر الناس خطراً وقرباً الى الهلاك ، فليس له أن يبخل ويجبن فان ما قل عنده لا يكثر وما كثر لا يعدم .

المنّ يبطل احسان المحسن .

العاقل من استغنى بتدبير اليوم عن تدبير الغد .

لا تحقر الامر الصغير فالأمر الصغير موضع ينتفع به والأمر الكبير موقع لا يستغنى عنه .

ما اجتمعت عليه الالفة والعادة واصطلحت عليه العامة فلا تخالفه .

من كفاه التأديب بالكلام لا يؤدب بالسوط والسيف .

مدارسة أخلاق الحكماء والعلماء تحيي السنة الحسنة وتميت البدعة السيئة السنن الصالحة علامات الخير والحق .

الماوردى

ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب

(٤٥٠)

الماوردي نسبة الى بيع ماء الورد ، نشأ في البصرة وتلقى العلم فيها ، وهو امام في الفقه والأصول والتفسير ، بصير بالعربيـة والأدب ، من أعظم الكتاب ، معتدل في تآليفه ، هادىء في أفكاره ، أوحد في فنه وفهمه ، محمود الطريقة ، مطمئن النفس ، حريص على الاستفادة ، بعيد عن الدعوى والهوى . تولى القضاء في بلدان كثيرة ثم غدا أقضى القضاة ، يُفتي بمذهب الشافعي ، وقيل انه كان فيه ميل الى الاعتزال .

قال الصفدي انه كان متهماً بالاعتزال ، وكان لا يتظاهر بالانتساب اليهم ولكن لا يوافقهم على خلق القرآن ولا يرى صحة الرواية بالاجازة ، وانه شافعي المذهب . وكان القادر قد تقدم الى اربعة من الائمة في المذاهب الاربعة ليضع له كل واحد مختصراً في الفقه ، فوضع الماوردي الاقناع ووضع القدوري مختصره ووضع من الحنابلة واحد مختصراً ، وعرضت عليه فخرج الخادم الى الماوردي وقال له : قال لك أمير المؤمنـين حفظ الله علمك كما حفظت علينا ديننا . وتلقب باقضى القضاة الى ان توفي .

هذا غاية ما كتبه المؤرخون فيه . وأجمل ما خص به أسلوبه في أسفاره « الاحكام السلطانية » و « أدب الدنيا والدين » و « أعلام النبوة » و « قانون الوزارة » وفيها تتجلى شخصيته عن معرفة ثاقبة بأمور الدولة ، واضطلاع واسع بتاريخ الحركات الفكرية والسياسية في الاسلام .

لم يقتصر الماوردي على الأخذ عن الشيوخ وتصفح ما خلفه من تقدموه ، بل قرن الى علمه تجارب تنبيء عن نفسها ، ومعارف منوعة لقفها من الحياة وما عاناه من مشاكل العالم ، وعمّر حتى بلغ السادسة والثمانين ، فكان له دور سكون ارتاح فيه من هزاهز العيش ومشاكل الناس ، وانصرف الى التأليف وخدمة العلم .

تتمثل الماوردي وأنت تقرأ « الأحكام السلطانية » كأنك تقرأ كتاب عالم عصري قتل الأيام تجربة ، ودوّن زبدة الأحكام التي تشغل الأذهان . وكتبه من الكتب التي تدعوك الى نفسها أبداً وتتحبب اليك ، اذا تصفحتها مرة ساقتك بدون تعمد الى معاودة قراءتها ، وكلما تلوتها انصرفت عنها بجديد .

حقاً ان الأحكام السلطانية مرجع فريد في بابه ، ولو لم يكن له غيره من المصنفات لعدّ في زمرة من أبدعوا الابداع كله في مصنفاتهم . واذا حدقت النظر في هذا المصنف تراءى لك ان الماوردي لم يتقن من فنون العلم غير هذا الذي يحدثك فيه ويفيض عليك منه . ذلك لأنه لم يقتصر على الأخذ عن الشيوخ ، وتفهُّم نصوص العلماء في الكتاب والسنة ، بل شفع علمه بتجاربه وما درسه بذاته وعدته اليه الأحوال . جمع الى معرفته الواسعة معرفة أصول الاسلام وفروعه وعلمه وعمله ومنطوقه ومفهومه وكل ذلك يزينه وقوفه على سياسة الخلق ، ومهارته في حسن القضاء بينهم ، وحسن التأليف لأجيالهم .

أفاض في الأحكام السلطانية في الخلافة وتقليدها والوزارات وانواعها والامارات والولايات ، والقضاء وضروبه والمظالم والنقابات والجبايات والصدقات والاقطاعات ، وانواع الدواوين واحكام الجرائم والحسبة والمنكرات والمعروفات الى ماله مساس باقامة العدل بين الرعية . جمع ما كان متفرقاً في بطون الدفاتر ونسقه وعلق عليه وخالف عُرْفَ علماء وقته في مسائل اجتهد فيها فتحاموه وما شاكسوه . واكتفى من دنياه بما اعطته فكان خير معلم للناس في حياته وبعد مماته ، أتاهم بكتب تُتلى ولا تبلى جدتها على غابر الأحقاب .

ومن تدبر الأحكام السلطانية وقارنه بالاحكام السلطانية للقاضي أبي يعلى يتبين له الفرق بين رجل أفاده دخوله في المجتمع ، ورجل درس الحديث والفقه واقتصر على ما تلقاه في مجالس العلماء فجاء كتابه نظرياً ، وكان كتاب الماوردي عملياً . وكتابه هذا ما امتع هذا الامتاع الا لأن صاحبه كان قاضياً لامعاً وسياسياً مبرزاً ، يقل في أهل صناعته أمثاله ، وأوحت اليه مسائل الخلق والدول اشياء احسن تلقفها وتصويرها والانتفاع بها .

كان الماوردي قادراً على ضبط نفسه فيما ليس منه ضرر على الدين أو الدنيا ، يبتعد عمن اذا رأى عجبرة تطير منها ، وان وجد كتاباً أعرض عنه ، وان رأى متحلياً بالعلم هرب منه ، كأنه لم ير عالماً مقبلا ، وجاهلا مدبراً . قال : ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوي منازل وأحوال ، كنت أخفي عنهم ما يصحبني من محبرة وكتاب ، لئلا أكون عندهم مستثقلا ، وان كان البعد عنهم مؤنساً ومصلحاً ، والقرب منهم موحشاً مفسداً .

وكان اذا عرض أمر يعود على الدين بالضرر استأسد ويزمجر ، وينزع ثوب السياسي ويلبس ثوب العالم الشجاع ، على ما كان منه لما أمر الخليفة ان يزاد في ألقاب جلال الدولة بن بويه لقب « ملك الملوك » فما افتى الماوردي مع من أفتى بجواز ذلك مع انه كان من خواص جلال الدولة ، ولما أفتى بالمنع انقطع عنه ، فطلبه جلال الدولة فمضى اليه على وجل شديد ، فلما دخل عليه قال له : انا اتحقق أنك لو حابيت احداً لحابيتني لما بيني وبينك ، وما حملك الا الدين ، فزاد بذلك محلك عندي . ولذا قال المؤرخون انه كان محترماً عند الخلفاء والملوك « وكان ذا منزلة من ملوك بني بويه يرسلونه في التوسطات بينهم وبين من يناوئهم ، ويرتضون بوساطته ويقنعون بتقريراته » .

وكتابه الثاني « أدب الدنيا والدين » من أمتع ما كتب علماء الاخلاق والتربية ، مصادره الكتاب والسنة وأقوال الحكماء والبلغاء ، وفيه طائفة من الشعر البديع والنثر المنسجم . ومما قال عن نفسه في كتابه هذا :

« ومما اندرك به من حالي انني صنفت في البيوع كتاباً جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس ، واجهدت فيه نفسي وكددت فيه خاطري حتى اذا تهذب واستكمل ، وكدت أعجب به ، وتصورت أنني أشد الناس اضطلاعاً بعلمه ، حضرني وأنا في مجلسي أعرابيان فسألاني عن بيع عقداه في البادية على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لواحدة منها جواباً ، فأطرقت مفكراً ، وبحالي وحالهما معتبراً ، فقالا : ما عندك فيما سألنا جواب ، وأنت زعيم هذه الجماعة ؟ فقلت : لا . فقالا : واهاً لك . وانصرفا ثم أتيا من يتقدمه في العلم كثير من أصحابه ، فسألاه فأجابهما مسرعاً بما اقنعهما وانصرفا عنه راضيين بجوابه ، حامدين لعلمه . قال فبقيت مرتبكاً وبحالهما وحالي معتبراً ، وانني على ما كنت عليه في تلك المسائل الى وقتي . فكان ذاك زاجر نصيحة ، ونذير عظة ، تذلل بها قياد النفس ، وانخفض لها جناح العُجب ، توفيقاً مُنحته ، ورشداً أوتيته ، وحق على من ترك العجب بما يحسن ان يدع التكلف لما لا يحسن ، فقد نهى الناس عنهما ، واستعاذوا بالله منهما » .

وعلى ما عرف به الماوردي من بعد النظر والتحري في قضائه أورد أشياء في كتابه أعلام النبوة اذا وضعت على محك النقد كانت مثار العجب منه ، وهو الراوية الحسن الرواية والنقادة الذي يمتاز باستخراج السقيم من السليم ، وقد نسب اليه هذان البيتان :

وفي الجهل قبل الموت موت لاهله فأجسادهم دون القبور قبور
وان امرءاً لم يحيَ بالعلم صدره فليس له حتى المهات نشور

(٣٠)

ابن حزم

أبو محمد علي

(٤٥٦)

كان جده الأعلى أول من أسلم ، وكان مولى يزيد بن أبي سفيان الأموي ، وأصل أهله من فارس ، وجده الخامس خلف اول من دخل الاندلس من آبائه ، وسكن أول أمره في قرية مَنْت لِيْشم من اقليم الزاوية في عمل أونبه من كورة لَبْلة غرب الاندلس . وسكن أبوه قرطبة ووزر للمنصور محمد بن أبي عامر .

ولد علي سنة ٣٨٤ في قصر ماعرف فيه الا النعيم والنعم في صباه ، وتولى النساء تربيته ، ربي في حجورهن ، ونشأ بين أيديهن ، ولم يعرف غيرهن ، ولا جالس الرجال الا وهو في حد الشباب ، وحين تبقل وجهه ، وهنّ علّمنه القرآن ، وروّينه كثيراً من الأشعار ، ودرّبنه في الخط ، فكانت ثقافته أرقى ثقافة يثقفها أبناء العظماء . وما كانت المظاهر الخلابة التي شاهدها في قصر أبيه لتحول دون رغبته في التناغي بالعلم والغرام بالأدب ، وما كان ذاك الثراء ليبطره فيشغل نفسه بما لا يجدي عليه في حياته . وناقش مرة أحد علماء الاندلس فقال له هذا : ان أكثر مطالعاته كانت على سراج الحرس فأجابه عليّ : ان اكثر مطالعاته كانت على منابر الذهب والفضة ، يريد أن الغني أمنع لطلب العلم من الفقر .

ولما تغلب البربر على قرطبة وعليٌّ في الخامسة عشرة من عمره انتقل أبوه من دورهم المحدثة بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة الى

دورهم القديمة في الجانب الغربي ، ثم انتهب البربر دورهم في الجانب الغربي هذا ونزلوا فيها ، فخرج عن قرطبة وسكن المرية . وقال ابن حزم انهم شغلوا « بالنكبات وباعتداء ارباب دولة هشام المؤيد ، وامتحنوا بالاعتقال والترقيب والاغرام الفادح والاستتار . وأرزمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا » ثم نكبه صاحب المرية بدعوى أنه يسعى في القيام بدعوة الدولة الاموية فاعتقل أشهراً ، ثم أخرج على جهة التغريب ثم صار الى حصن القصر ولقي صاحبه التجيبي فأقام عنده شهوراً « في خير دار اقامة وبين خير أهل وجيران » ثم ركب البحر قاصداً بلنسية عند ظهور أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد وسكن بها وتولى له الوزارة ثم تولاها لهشام المعتمد بالله .

هذه بالاجمال سيرة ابن حزم السياسية الى العقد الثالث من عمره . ولما رأى ما رأى من تقلقل الدول في الاندلس وعزفت نفسه عن أمور « الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير الملك » أقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والانتفاع بدروس أجلّ رجال عصره .

نبغ ابن حزم في الادب والفلسفة والطب والحديث والفقه والتاريخ وكان أصولياً نظاراً كاتباً شاعراً ، يرتجل الشعر ويبتده الخطب ويضع الكتب ، وكان « أجمعَ أهل الاندلس قاطبةً لعلوم الاسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والاخبار » « وكان شافعياً أولاً ثم صار ظاهرياً على مذهب داود بن علي ابن خلف الاصفهاني ومن قال بقوله من أهل الظاهر ونفاة القياس ، وناضل عن مذهبه الجديد فنال منه فقهاء الاندلس ، وكان أكثرهم يميل الى القول بمذهب مالك ، ولولا أن حال صاحب المرية دون تحاملهم عليه لاوردوه حتفه ، واكتفوا بأن أحرقوا بعض كتبه في احدى ساحات اشبيلية وحرموا النظر فيما كتب ، ولولا أن حمل بعض تلاميذه كتبه الى الشرق لما انتشرت في الآفاق . اما هو فظلّ على كثرة معانديه يقرأ ويُقرئ ويدرس في ... حتى ... اسبابه

وفي احراق ابن عباد كتبه قال ابن حزم :

فان تحرقوا القرطاس لاتحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي وينزل ان انزل ويدفن في قبري
دعوني من احراق رق وكاغد وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
والا فعودوا في المكاتب بدأة فكم دون ما تبغون لله من ستر
كذاك النصارى يحرقون اذا علت أكفهم القرآن في مدن الثغر

وقال :

لايشمتن حاسدي ان نكبة عرضت فالدهر ليس على حال بمترك
ذو الفضل كالتبر طوراً تحت ميقعة وتارة في ذرى تاج على ملك

ومن شعره :

قالوا تحفظ فان الناس قد كثرت أقوالهم وأقاويل الورى محن
فقلت هل عيبهم لي غير اني لا أقول بالرأي اذ في رأيهم فتن
وانني مولع بالنص لست الى سواه أنحو ولا في نصره أهن
لا أنثني لمقاييس أقول بها في الدين بل حسبي القرآن والسنن
يا برد ذا القول في قلبي وفي كبدي ويا سروري به لو أنهم فطنوا
دعهم يعضوا على صم الحصى كمداً من مات من قوله عندي له كفن

ومما عدوه عليه أنه كانت « له مجالس مع أولي المذاهب المرفوضة من أهل الاسلام » أي أنه كان يجتمع الى غير السواد الاعظم ، وعابوا عليه أنه خالف ارسطو في بعض آرائه ، كأن الاجتماع بالمخالف ونقد صاحب الرأي من الكبائر . والذي ينتقد عليه في الحقيقة انحاؤه على بعض الائمة ومغالاته في رد كل من خالف مذهبه من فرق الاسلام ، يستعمل لهجة قاسية حتى قالوا انه كان يصك معارضه في علمه صك الجندل ، وينشقه ملقنه انتشاق الخردل . قالوا : وكان مما يزيد في شنآنه تشيعه لامراء بني أمية ماضيهم وباقيهم بالشرق والاندلس ، واعتقاد صحة امامتهم وانحرافه عمن سواهم من قريش .

قال عن نفسه معتذراً عما يبدو في كلامه من الشدة على من لم يتبع مذهبه انه كانت به علة شديدة أصابته فولدت عليه ربواً في الطحال شديداً ، فولّد ذلك عليه من الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر والنزق أمراً جاشت به نفسه . وقال انه انتفع بمحكِّ أهلِ الجهل منفعة عظيمة ، وهي أنه توقد طبعه ، واحتدم خاطره ، وحمي فكره ، وتهيج نشاطه فكان ذلك سبباً الى تواليف عظيمة النفع ، ولولا استثارتهم ساكنه ، واقتداحهم كامنه ، ما انبعثت لتلك التواليف .

وقال عن نفسه انه جُبل على طبيعتين لايهنؤه معهما عيش أبداً وهما وفاء لا يشوبه تلون ، قد استوت فيه الحضرة والمغيب والباطن والظاهر وعزة نفس لاتقر على الضيم مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف مؤثرة للموت عليه . فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو الى نفسها وقال : واني لأُجفى فاحتمل وأستعمل الأناة الطويلة والتلوّم الذي لايكاد يطيقه أحد ، فاذا أفرط الأمر وحميت نفسي تصبرت وفي القلب ما فيه .

وقال : غاظني أهل الجهل مرتين من عمري احداهما بكلامهم فيما لا يحسنونه أيام جهلي ، والثانية بسكوتهم على الكلام بحضرتي ، فهم أبداً ساكتون عما ينفعهم ناطقون فيما يضرهم . وسرّني اهل العلم مرتين من عمري احداهما بتعليمي أيام جهلي والثانية بمذاكرتي أيام علمي .

كان ابن حزم يعرف كيف يحاج المخالفين له ويبذهم ، لأنه كان ارقى منهم كما ظهر ، مع ما أوتيه من بلاغة اللسان وبلاغة القلم ، وحضور الذهن ، ووفرة المادة ، وشدة الاخلاص والصدق ، ولما ضاق به مخالفوه ذرعاً لجأوا الى السلطان فما استطاعوا ان يذلوه وهو العزيز ، ولا ان ينتقصوه وهو الكامل ، ولا ان يجهّلوه وهو العالم ، وكيف يصلون الى غاياتهم منه وهو الذي انتشرت في الاقطار كتبه في حياته وما وسع حتى أعداوه في رأيه ان ينكروا فضله العظيم . ألف تآليف كثيرة بلغت نحو أربعمائة مصنف تدخل في ثمانين الف ورقة فكان اكثر علماء الاسلام تآليف بعد ابن جرير الطبري .

وأنت ايها القارىء العزيز اذا أحببت ان تقرأ نمطاً عجيباً من رد ابن حزم على مخالفيه وكيف يزيف اقوالهم ويشتد في حوارهم طالع « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، واذا شئت ان تطلع على الحكم فيما اختلف فيه الناس من أصول الأحكام في الدين فطالع كتابه الجامع « الاحكام في أصول الأحكام » ، واذا سمت بك همتك الى التبحر في الحجاج ومعرفة الاختلاف وتصحيح الدلائل المؤدية الى معرفة الحق مما تنازع الناس فيه ، والاشراف على احكام القرآن والوقوف على جمهرة السنن الثابتة عن رسول الله وتمييزها مما لم يصح ، والوقوف على الثقات من رواة الأخبار وتمييزهم من غيرهم ، والتنبيه على فساد القياس وتناقضه ، وتناقض القائلين به ، فليكن تصفحك لكتابه « المحلّى » . واذا جنحت الى تعرف حكمة العشق يطلعك بمجالس في الحب وعلم النفس على تحليل ارواح النساء والرجال وكشف اسرار الجنسين ، وفي كل أولئك تدرك مبلغ ابن حزم من حرية القول وبعد التفكير ، وتتبين درجة أدبه على ما لا يخطر ببالك صدور مثله عن مثله . فاقرأ كتابه البارع « طوق الحمامة في الألفة والألاف » يثبت لك من هذا ان ابن حزم لا يقول بالتقية وهو القائل : « ولا انسك نسكاً أعجمياً ، ومن أدى الفرائض المأمور بها واجتنب المحارم المنهي عنها ، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس فقد وقع عليه اسم الاحسان ، ودعني مما سوى ذلك » . ومن أحب ان يقرأ فلسفته في الاخلاق وما يصلح الجماعات والمجتمعات فليقرأ كتابه « مداواة النفوس » وهذا كتاب كله زبدة يجزيء قارئه عن كثير مما كتب في موضوعه ويبين درجته من الحكمة .

ذاك بعض كتبه التي تخطتها حملات خصومه فسلمت ، وانك لتقرأ أسفاره في الشريعة فتدهش لما ترى من احاطته بأطراف كل موضوع خاض عبابه ، كأن مسائل الدين صفحة واحدة ماثلة امام عينه استظهرها في الصغر واستخرج ايام نضج عقله وعلمه كل ما فيها من دقائق الحقائق . فكان بهذا حقاً من أعظم علماء الاسلام لم يجيء في بابه بضعة رجال من عياره .

ابن حزم امام في كل شأن: في الدين والحكمة والاخلاق والادب والتاريخ، وفي كل ما اتقن من علم وتمثله وألف فيه ، فهو جد عظيم يملك عليك نفسك وانت تنظر فيما شرح او بسط وحاور وجادل ، يتعاظمك بسلطان علمه فتكبره وتكبر أدبه ، ويعجبك بشدة غيرته على بث دعوته ، ويسوءك ان يسيء اليه معاصروه وهو الذي كان كله احساناً. ومن « طوق الحمامة » تعرف أي اديب هو ومن « المحلى » تدرك اي عالم ديني هو ، وتنادي لا تبالي : هكذا فليكن العلماء . ناهيك من رجل ينشأ على الفضائل الموهوبة والمكسوبة ، ولم يلهه ترف القصور عن الاستغراق في معالجة صعاب المسائل . ولما علم تقصيره في بعض الفروع الشرعية وهو في نحو الثلاثين من عمره عاد فقعد مقعد المتعلم بين ايدي العلماء يحصل ما فاته ، وما برح يتلقى عن الشيوخ حتى بلغ درجة الاجتهاد ، وأعظم بها من مرتبة لا ينالها في قطره وعصره الا من استحقها الاستحقاق كله ، خصوصاً وهو بين ظهراني خصماء غير رحماء واعداء ارديا ، يحسدونه على نعمته ونعمة آبائه ، وعلى علمه وعلى مكانته ورجاحته .



ابن زيدون

ابو الوليد احمد بن عبد الله بن زيدون

(٤٦٣)

هو من قبيلة مخزوم النازلة في الاندلس ، وأهله من صدورها المعروفين بالحكم والقضاء . ولد في قرطبة سنة ٣٩٤ . ومات أبوه فأسلمه أوصياؤه الى أعاظم من علماء عصره فتأدب بأدبهم ، وظهرت عليه أمارات النجابة وهو في سن العشرين ، واستفاضت شهرته في الادب والحكمة ومعاناة السياسة ولما يبلغ الخامسة والعشرين .

ولما حاول دعاة بني أمية أن يعيدوا الملك فيهم ، وثار أهل قرطبة لطرد البربر عن ديارهم ، اضطر ابن زيدون بحكم مكانة بيته الى خوض تلك المعركة السياسية ، فكان في جملة رجال ابي الحزم بن جوهر صاحب قرطبة بعد جلاء البربر عن تلك الاصقاع .

وأحب ابن زيدون ولادة بنت المستكفي بالله فما عتم ان نازعه حبها ابن عبدوس وزير ابن جهور فهجاه ابن زيدون وهزأ به ، فأضمر له الحقد وما زال يشي به عند الملك حتى اتهمه بانه يدعو للدولة الأموية ، فاعتقله ثم رق له ابنه الوليد بن جهور وأطلقه من اعتقاله . ولكن كانت ولادة قد خرجت عن حكم ابن زيدون . وتشرد في الاقطار مدة ثم رجع الى قرطبة يخدم الوليد بن جهور بعد وفاة أبيه فوضع ثقته به ، وسفر عنه الى ملوك الاطراف ، ثم غضب عليه ففر . وكان يقيم تارةً في دانية وأخرى في باجة وطوراً في اشبيلية ، الى ان اتصل بالمعتضد أمير اشبيلية فجعله أمين سره

ثم ولاه أعظم وزاراته ، وظل بعد وفاة المعتضد على خدمة ابنه المعتمد فأعانه على فتح قرطبة وجعل منها عاصمة ملكه ، وكان منافسه في بلاط المعتمد الوزير ابن عمار قد زج بابن زيدون في فتنة نشبت بسبب اليهود فهلك ، فحزنت عليه عشيرته في قرطبة حزناً شديداً .

ترجم له صاحب الذخيرة بقوله : كان ابو الوليد صاحب منثور ومنظوم ، وخاتمة شعراء بني مخزوم ، أحد من جرّ الايام جراً ، وفاق الانام طراً ، وصرف السلطان نفعاً وضراً ، ووسع البيان نظماً ونثراً الى أدب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزُّهر اقترانه ، وحظ من النثر غريب المباني ، شعري الالفاظ والمعاني .

ووصفه صاحب القلائد بقوله : زعيم الفئة القرطبية ، ونشأة الدولة الجهورية ، الذي بهر بنظامه ، وظهر كالبدر ليلة تمامه ، فجاء من القول بسحر ، وقلده أبهى نحر ، لم يصرفه الا بين ريحان وراح ، ولم يطلعه الا في سماء مؤانسات وأفراح ، ولا تعدى به الرؤساء والملوك ، ولا تروّى منه الا حظوة كالشمس عند الدلوك ، فشرف بضائعه ، وأرهف بدائعه وروائعه ، وكلفت به تلك الدولة حتى صار ملهج لسانها ، وحلّ من عينها مكان انسانها .

أطلقوا على ابن زيدون لقب « بحتري المغرب » لسلاسة شعره وجزالة رصفه . وذكر العارفون بعلو طبقة الشعر ان ابا بكر بن عمار وابا الوليد ابن زيدون كانا في حسن الشعر فرسي رهان ورضيعي لبان ، وقال أكثر الادباء بالاندلس انهما أشعر أهل عصرهم . والمعقول ان يذهب كل شاعر بمزية لا يشاركه فيها غيره فابن هاني لا تنحط طبقته عن طبقة ابن زيدون وهكذا اذا أردنا المقارنة بين كبراء شعراء الاندلس .

واذا أجمع أرباب المعرفة على تفرد ابن زيدون في الشعر فان منهم من أشار الى أن نثره شعر أيضاً . اي انه نازل عن طبقته بين الكتاب

فهي شعره كل معاني الاحساس ، اما نثره فتحس فيه روحاً شعرياً وهذا لا يستحب كل حين . والطبيعة على ما علمنا لا تجود على كل انسان باتقان الصناعتين ، ولا بد ان تمتاز الملكة في الاولى عن الأخرى . كان هوى ابن زيدون بالشعر ليله ونهاره ، ونثره عارض يستخدمه عند الحاجة ويجيد ، ولكن لا كالشعر الذي أخذ من روحه وقلبه .

وكما كان آية فيما يكتب كان كذلك فيما يخطب : غزير البيان ، متدفق الطبع ، فصيح اللسان ، حاضر البديهة . قال أحد وزراء اشبيلية ونبه دليل على سعة بيانه : اعهدي بابي الوليد قائماً على جنازة بعض حرمه ، والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم ، فما سمع يجيب أحداً بمثل ما أجاب به غيره ، لسعة ميدانه وحضور جنانه . وذكروا ان أقل ما كان في تلك الجنازة وهو وزير الف رئيس ممن يتعين عليه أن يشكر له ، فيحتاج في هذا المقام الى الف عبارة مضمونها الشكر ، وهذا كبير الى الغاية لا سيما من محزون فقد قطعة من كبده

ولكنه صوب العقول اذا انبرت سحائب منه أعقبت بسحاب

ترى هل يدين ابن زيدون بشهرته لادبه وشعره ، ووزاراته وسفاراته ام ان لغرامه بولادة دخلاً كبيراً فيما كان له من عظمة . قد يهيم أعظم منه باعظم من محبوبته ولا يدري جمهرة الناس بهما ، وغرام ابن زيدون عظم في العيون لانه كان في حسناء تقول الشعر وتعرف أدب الملوك ، فهي كانت تدرك كل الادراك ما عند عشيقها من صفات تليق ببنات الملوك ، وهو موقن انه لا يجد في بنات السوقة أمثالها بجمالها وكمالها ، وكان من ذلك الشعر الذي كله روح وحسن .

وصف ابن زيدون أول اتصاله بحبيبته بقوله .

كنت في أيام الشباب ، وغمرة التصاب ، هائماً بغادة ، تدعى ولادة ، فلما قدر اللقاء ، وساعد القضاء ، كتبت الي :

ترقب اذا جنّ الظلام زيارتي فاني رأيت الليل أكتم للسر
وبي منك مالو كان بالبدر مابدا وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يسرِ

فلما طوى النهار كافوره ، ونشر الليل عنبره ، أقبلت بقد كالقضيب وردف كالكثيب ، وقد أطبقت نرجس المقل ، على ورد الخجل ، فملت الى روض مدبج ، وظل سجسج ، وقد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودر الطل منثور ، وجيب الراح مزرور ، فلما شببنا نارها وأدركت فينا ثارها ، باح كل منا بحبه ، وشكا اليم ما بقلبه ، وبتنا بليلة نجني اقحوان الثغور ، ونقطف رمان الصدور فلما انفصلت عنها صباحاً ، أنشدتها ارتياحا :

ودّع الصبر محبٌ ودّعكْ ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على ان لم يكن زادَ في تلك الخُطى اذ شيعك
يا أخا البدر سناءً وسناً حفظ الله زماناً أطلعك
ان يطل بعدك ليلي فلكم بت أشكو قصر الليل معك

ويذهب الفكر الى ان هذه العبارة ليست لابن زيدون بل صاغها غيره والمعنى له ، أو هكذا وقع غرام ولادة في قلب ابن زيدون ، وهو يعذر على ما بدا من هيامه لانها استوت على ما يظهر جميع صفات المعشوقات .

اشتهر في الآفاق شعره بسبب هذه الصبابة النادرة في العاشقين وما كان الغرام نفسه السبب الاكبر في شهرته بل لانه غرام كان على غير مثال .

ومن أشهر قصائده فيها القصيدة التي اشتهرت كل الاشتهار :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
اذ جانب العيش طلق من تألفنا ومورد اللهو صاف من تصافينا

ومنهـــا :

لم نعتقد بعدكم الا الوفاء لكم رأيا ولم نتقلد غيره دينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا ان طال ما غير النأي المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا ... ولا اتخذنا بديلاً منك يسلينا الخ

وله في ولادة :

يا نازحاً وضمير القلب مثواه ... أنستك دنياك عبداً أنت مولاه

ألهتك عنه فكاهات تلذ بها ... فليس يجري ببال منك ذكراه

علَّ الليالي تبقيني الى أمل ... الدهر يعلم والأيام معناه

وله يتشوق اليها :

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والافق طلق ووجه الارض قد راقا

وللنسيم اعتلال في أصائله ... كأنما رق لي فاعتل اشفاقا

والروض عن مائه الفضي مبتسم ... كما حللت عن اللبات أطواقا

يوم كأيام لذات لنا انصرمت ... بتنا لها حين نام الدهر سراقا

نلهو بما يستميل العين من زهر ... جال الندى فيه حتى مال اعناقا

كأن أعينه اذ عاينت أرقي ... بكت لما بي فجال الدمع رقراقا الخ

وله يتشوق اليها أيضاً :

غريب بأقصى الشرق يشكر للصبا ... تحملها منه السلام الى الغرب

وما ضر أنفاس الصبا في احتمالها ... سلامُ فتى يُهديه جسم الى قلب

ولا يبعد أن يكون ما قاله في ولادة أكثر مما روى الرواة في ديوانه ، امتنعوا من نقله كما امتنع صاحب الذخيرة من نقل شعر ولادة لأن فيه هجاء . وكما أجاد كل الاجادة في التغزل بولادة أجاد أيضاً في مدح ابن جهور والمعتمد والمعتضد ولا سيما فيما قدم له من النسيب من قصائد مدحهم ومدح غيرهم . فشعره في الملوك والوزراء والاصحاب شعر دنياه ومناصبه ، وشعره في الغزل والنسيب وتغزله بولادة شعر لذاته ونعيمه .

وما أحلى قوله :

يا من يُصح بمقلتيه ويسقم ... سأحب أعدائي لانك منهم

أصبحت تُسخطني فأمنحك الرضا ... محضاً وتظلمني فلا أتظلم

يا من تألف ليله ونهاره ... فالحسن بينهما مضيء مظلم

قدكان في شكوى الصبابة راحة لو أنني أشكو الى من يرحم

وله ، وقد قال صاحب الذخيرة انه كتب بها من بطليوس أيام تكدره عليها ، وهي من غرر نظامه ودرر كلامه :

يادمع صبّ ماشئت ان تصوبا ويا فؤادي آن أن تذوبا
ان الرزايا أصبحت ضروبا لم أر لي في أهلها ضريبا
قد ملأ الشوق الحشا ندوبا في الغرب ان رحت به غريبا
عليل دهر سامني تعذيبا أضنى الضنا اذ ابعد الطبيبا
ليت القبول احدثت هبوبا ريح يروح عهدها قريبا
بالافق المهدي الينا طيبا تعطرت منه الصبا جنوبا
يبرد حرّ الكبد المشبوبا يا متبعاً اساءه التأويبا
مشرقاً قد سئم التغريبا أما سمعت المثل المضروبا
ارسل حكيماً واستشر لبيبا الخ

وقال من أخرى :

أنت معنى الضنى وسر الضلوع وسبيل الهوى وقصد الدموع
أنت والشمس ضرّتان ولكن لك عند الغروب فضل الطلوع
ليس بالمؤذي تكلفك العتـ ـب دلالاً من الرضا المطبوع
انما أنت ، والحسود معنى كوكب يستقيم بعد الرجوع

وقال :

ما جال بعدك لحظي في سنا القمر الا ذكرتك ذكر العين بالاثر
ولا استطلت زمام الليل من أسف الا على ليلة مرت مع القصر
يا ليت ذاك السواد الجون متصل قد استعار سواد القلب والبصر
جمعت معنى الهوى في لحظ طرفك لي ان الحوار لمفهوم من الحور

هذه نماذج قليلة من شعره المرقص المطرب ، أما نثره فألطف ما وصفوه به أنه أقرب الى الشعر . وليس معنى هذا أن فيه ما يعاب وهو على كل أحط من شعره وفيه التكلف ماثل أحياناً . وقد ملأ بعض رسائله

بمسائل تاريخية واشارات أدبية ومنازع هزلية وجدية ، شرحها الشراح ودلوا على ما فيها من لمع أدبية وغيرها .

وهذه رسالة كتب بها الى رئيسه ابي الوليد بن جهور من ملوك الطوائف بالأندلس (٤٤٣) يستعطفه لما كان في اعتقاله :

يا مولاي وسيدي الذي ودادي له واعتمادي عليه واعتدادي به ومن أبقاه الله ماضي حد العزم ، واري زند الأمل ، ثابت عهد النعمة .

اذا سلبتني أعزك الله لباس انعامك ، وعطلتني من حلي ايناسك ، واظمأتني الى برود اسعافك ، ونفضت بي كف حياطتك ، وغضضت عني طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى الى تأميلي لك ، وسمع الأصم ثنائي عليك ، وأحس الجماد باستنادي اليك ، فلا غرو فقد يغص الماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفي به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمني في أمنيته ، « والحين قد يسبق جهد الحريص » .

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شماتة الحساد

واني لأتجلد وأري الشامتين « اني لريب الدهر لا أتضعضع » فأقول : هل أنا الا يد أدماها سوارها ، وجبين عض به اكليله ، ومشرفي الصقه بالأرض صاقله ، وسمهري عرضه على النار مثقفه ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذي يقول :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي ، وهذه النكبة « سحابة صيف عن قليل تقشع » .

وان يريبني من سيدي ان ابطأ سحابه ، أو تأخر غير ضنين غناؤه ، فابطأ الدلاء فيضاً أملؤها ، وأثقل السحاب مشياً احفلها ، وأنفع الحيا ما صادف جدباً ، وألذ الشراب ما أصاب غليلا ، ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب . له الحمد على اهتباله ، ولا عتب عليه في اغفاله .

وان يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللاتي سررن ألوف

واعود فأقول : ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك ، والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك ، والتطاول الذي لم يستغرقه تطولك ، والتحامل الذي لم يف به احتمالك . لا أخلو من أن أكون بريئاً فأين عدلك ، أو مسيئاً فأين فضلك .

الا يكن ذنب فعدلك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع

حنانيك قد بلغ السيل الزبى ، ونالني ما حسبي به وكفى ، وما أراني الا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت ، وقال لي نوح اركب معنا فقلت : سآوي الى جبل يعصمني من الماء ، وأمرت ببناء صرح لعلي اطلع الى اله موسى ، وعكفت على العجل ، واعتديت في السبت ، وتعاطيت فعقرت ، وشربت من النهر الذي ابتلى به جيوش طالوت ، وقدت الفيل لأبرهة ، وعاهدت قريشاً على ما في الصحيفة ، وتأولت في بيعة العقبة ، ونفرت الى العير ببدر ، وانخذلت بثلث الناس يوم أحد ، وتخلفت عن صلاة العصر في بني قريظة ، وجئت بالافك على عائشة الصديقة ، وأنفت من أمارة أسامة ، وزعمت ان خلافة أبي بكر كانت فلتة ، ورويت رمحي من كتيبة خالد ، ومزقت الاديم الذي باركت يد الله عليه ، وضحيت بالاشمط الذي عنوان المسجود به وبذلت لقطام

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب علي بالحسام المصمم

. . . والله ما غششتك بعد النصيحة ، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية ، ولا نصبت لك بعد التشيع فيك ، ولا أزمعت يأساً منك مع ضمان تكلفت به الثقة عنك ، وعهد أخذه حسن الظن بك ، ففيم عبث الجفاء بأزمتي ، وعاث العقوق في مواتي ، وتمكن الضياع من وسائلي ، ولم ضاقت منه اهبتي ، وأكدت مطالبي ، وعلام رضيت من المركب بالتعليق بل من الغنيمة بالاياب ، واني غلبني المغلب ، وفخر علي العاجز الضعيف ، ولطمتني غير ذات سوار ، ومالك لم تمنع مني قبل ان افترس ، وتدركني ولما أمزق ، أم كيف لا تتضرم جوانح الاكفاء حسداً لي على الخصوص بك وتنقطع

أنفاس النظراء منافسة في الكرامـة عليك ، وقد زانني اسم خدمتك ، وزهاني وسم نعمتك ، وأبليت البـلاء الجميل في سماطك ، وقمت المقام المحمود في بساطك .

والرسالة مطولة اكتفينا منها بهذا دلالة على أسلوب ابن زيدون في النثر .

وله رسالة خاطب بها أبا مروان بن حيّان مؤرخ الاندلس وقد أهداه احمالاً من الزيت والبُرّ في سنة محلة قال في فصل منها : والذي اسكن اليه من حسن قبولك وجميل تأويلك ، أقابل بالحقير وأواجه بالتافه اليسير ويعلم الله تعالى اني لو ناصفتك عمري ماراًيت ان ذلك كفؤ بقدرك ولا وفاء ببرك فكيف ما دونه ، فلك المنزلة التي لا تسامى ، والجلالة التي لاتوازى ، وما شيء وان جلّ الا محتقر لك مستصغر عند محلك . ويصل مع موصل كتابي هذا ما ثبت ذكره في المدرجة طيه وأنت بمعاليك تتفضل بقبوله وتصل أجمل صلة بالتغاضي عن رتاحته (؟) والاستجازة لنزارته ، مقتضياً بذلك شكري وحمدي ، ومستبداً منها بجميع ما عندي .

قد يسأل من تلا هذه النموذجات القليلة من نظم ابن زيدون ونثره واطلع على جانب من حياته السياسية : هل كان اشتهاره بشعره النادر أم كان بما ساس من أمور الملك وتنقل بين صاحبي قرطبة واشبيلية يجالس الملوك في خلواتهم ويصيرونه في خواصهم وصحابتهم ويسفر لهم في مهامهم ثم يغضبون عليه ويعتقلونه أو يصبح طريداً شريداً ؟ الارجح ان استفاضة شهرته أتت من حبه ولادة ، والارجح ان غرامه بها زاد في طلاوة أدبه . ومتى أدرك الكاتب والشاعر ان كلامه سيتلوه من يعجب به يتأنق فيه الى التي ليس بعدها ويمده الله بمدد لا يدرك سره .

قالوا ان عبث الاغنياء وموت الفقراء لا يحس بهما ، وعبث ابي الوليد اشتهر وذاع وملأ القلوب والاسماع ، فكان في ذلك سعادته بأدبه حياً وميتاً ، وكذلك كان شأن عمر بن أبي ربيعة ، سبحانه خص من شاء بما شاء .

عبد القاهر الجرجاني

ابو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن وقيل ابن عبد الواحد

(٤٧١ — ٤٧٤)

خلاصة ما قال فيه مترجموه انه كان من كبار أئمة العربيه أخذها عن ابي الحسين الفارسي النحوي ابن اخت ابي علي الفارسي ، وقرأ على القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني واغترف من بحره ، وكان اذا ذكره في كتبه تبخبخ به وشمخ بأنفه بالانتماء اليه ، وكان يُرحل اليه من الآفاق ، ولقب بالنحوي ، وقال صاحب الطراز : انه علم المحققين ، وأول من أسس قواعد علم البلاغة ، وفكّ قيد الغرائب بالتقييد ، وفتح أزهاره من أكمامها ، وفتق ازراره بعد استغلاقها واستبهامها . وقالوا انه شافعي المذهب متكلماً على طريقة الاشعري مع تدين وورع ، ولم يخرج من بلده . وقالوا انه كتب كتباً في النحو منها شرح الايضاح في ثلاثين مجلداً وله غيره . وأهم كتبه المطبوعة « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » وبهما خلد اسمه في عالم الادب . ودلائل الاعجاز صحيفة من الادب العالي لم يكتب البيان ولا النحو ولا الفقه بمثل هذا اللسان العذب . ولا نجازف اذا قلنا ان جودة كلام عبد القاهر في تقرير القواعد والدساتير قلّ ان يدانيه فيه أحد من المصنفين ، ونعني بالمصنفين أرباب التواليف في قرون ازدهار اللغة والكتابة . تظن نفسك وأنت تتلو فصلاً من دلائل الاعجاز انك في كتاب ادب كتب بسلاسة وعذوبة لا في كتاب علم جاف يقرر حقائق ويأتي بمسائل فيحلها ، ويناقش مخالفيه ويغضب منهم ويغضبهم ، ويورد

من الامثلة ما يؤيد دعواه . وربما لا نعدو الحق اذا قلنا ان عبد القاهر كاتب القرن الخامس ، وهو اكتب من صديقه جار الله الزمخشري ، فجار الله انما اشتغل بمتن اللغة كثيراً ، وهذا انصرف الى البيان والتبيين وجمع بين صحة المباني وجودة المعاني . وخصلة أخرى وهي انك اذا قرأت صفحة من دلائل الاعجاز تعتقد لساعتك ان المؤلف من الرعيل الذين هضموا ما تعلموا ، وعرفوا كيف يحملونه الى من يحاولون تعليمهم .

كان الجرجاني ينظم الشعر في بعض ما تتأثر به نفسه وعرفنا بالقليل الذي رووه عنه انه كان حانقاً على الايام متبرماً باهل زمانه . فما عزوه اليه وهو مشهور قوله :

كبّر على العلم يا خليلي (١) ومل الى الجهل ميل هائم
وعش بليداً (٢) تعش سعيداً فالسعد في طالع البهائم

وله في شكاية أبناء الزمان واستيلاء نقصهم على فضله :

هذا زمان ليس فيـ ـه سوى النذالة والجهاله
لم يرقَ فيه صاعد الا وسلّمه النذاله

وله أيضاً :

لا يوحشنك انهم ما ارتاحوا بما جلاه عليهم المداح
فهم كقوم علّقت بازائهم بيض المرائي والوجوه قباح

ومن شعره :

لا تأمن النفثة من شاعر ما دام حياً سالماً ناطقا
فان من يمدحكم كاذباً يحسن أن يهجوكم صادقا

ذكروا له شعره ولم يذكروا كتابته ، وكتابته هي موضع السمو فيه ، ذلك لأنه لم يتول من أعمال السلطان ما تكتب له به شهرة ، وجرت

---

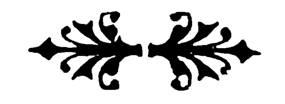
(١) في تاريخ الاسلام للذهبي : لا ترمه ، بدل يا خليلي .
(٢) وفي المصدر نفسه : حماراً ، بدل بليداً .

عادة أصحاب التراجم ان يهتموا أبداً بتلقط شعر المترجم لهم اكثر من اهتمامهم بالتقاط نثر الناثرين وكتابة المنشئين .

ومن كلامه يصف كساد سوق الفضل في عصره : « ثم انا وان كنا في زمان هو على ما هو عليه من احالة الامور عن جهاتها ، وتحويل الاشياء عن حالاتها ، ونقل النفوس عن طباعها ، وقلب الحقائق المحمودة الى اضدادها ، ودهر ليس للفضل وأهله لديه الا الشر صرفاً ، والغيظ بحتاً ، والا ما يدهش عقولهم ، ويسلبهم معقولهم ، حتى صار أعجز الناس رأياً عند الجميع من كانت له همة في ان يستفيد علماً ، أو يزداد فهماً ، أو يكتسب فضلاً ، أو يجعل له ذلك بحال شغلاً » .

الازدواج في كلام عبد القادر أكثر من السجع ، واذا سجع فسجعه ينطوي على معنى آخر قد لا تجده في السجعة الاولى ، ورصف الالفاظ ومتانة التراكيب هو محل العجب في كلامه . ونرى ان عدم التكلف في ارسال جمله هو الذي سلس به بيانه . انظر اليه يقول في وصف اعجاز القرآن لا يخرج عما يقوله في درس او يحاور به شخصاً : فاذا كنت لا تشك في ان لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن الا ان الوصف الذي له كان معجزاً قائم فيه أبداً وان الطريق الى العلم به موجود والوصول اليه ممكن فانظر اي رجل تكون اذا انت زهدت في ان تعرف حجة الله تعالى ، وآثرت الجهل فيه على العلم ، وعدم الاستبانة على وجودها ، وكان التقليد فيها أحب اليك ، والتعويل على علم غيره آثر لديك ، ونحّ الهوى عنك ، وراجع عقلك ، واصدق نفسك ، يبن لك فحش الغلط فيما رأيت ، وقبح الخطأ الذي توهمت . وهل رأيت رأياً اعجز ، واختياراً اقبح ، ممن كره ان تعرف حجة الله تعالى ، من الجهة التي اذا عرفت عنها كانت أنور وأبهر ، وأقوى وأقهر ، وآثر ان لا يقوى سلطانها على الشرك كل القوة ولا تعلو على الكفر كل العلو .

ونختم الكلام في هذا العظيم ، ونحن معترفون بالعجز عن توفيته حقه ، بقوله في خلط بعض المفسرين في عدم التفريق بين الحقيقة والمجاز في الالفاظ قال : ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم ان توهموا ابداً في الالفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل انها على ظواهرها فيفسدوا المعنى بذلك ويبطلوا الغرض ويمنعوا انفسهم والسامع منهم العلم بموضوع البلاغة وبمكان الشرف ، وناهيك بهم اذا هم اخذوا في ذكر الوجوه وجعلوا يكثرون في غير طائل . هناك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه ، وزند ضلالة قد قدحوا به .



(٣٣)

أبو عبيد البكري

عبد الله بن عبد العزيز بن محمد

(٤٨٧)

كان جده قاضياً في لَبْلَةَ وأبوه من الأمراء وكان قائداً في شلطيش وأوُنبة من قواد الخليفة الأموي هشام المؤيد . ولما سقطت دولته ولم يستطع ابنه عبد العزيز بعده أن يعصي أمير اشبيلية المعتضد ، وكان هذا يرمي الى توحيد امارات الأندلس بأسرها ، فرّ من شلطيش بذخائره سراً ومعه ابنه عبد الله ثم اعتصم بقرطبة . وفي هـذه المدينة نشأ أبو عبيد وأتم ثقافته على أعاظم علماء تلك الحاضرة . ثم اتصل بأمير المَرِيّة وتصرّف له ، وفيها أخذ عن ابن حيان مؤرخ الأندلس وسفر عن صاحب المرية ، ولمـا استولى المرابطون على الأندلس اعتزل العمل في قرطبة وانصرف الى العلم والتأليف .

اشتهر البكري بالشعر ، ومعظم شهرته بأبحاثه اللغوية والجغرافية والأدبية والتاريخية . قال ابن مكتوم انه من أهل شلطيش سكن قرطبة يكنى أبا عبيد ، روى عن أبي مروان بن حيان وابي بكر المصحفي وابي العباس العذري سمع منه بالمريّة وأجـاز له ابو عمر بن عبد البر الحافظ وغيرهم وكان من أهل اللغة والآداب الواسعة والمعرفة بمعاني الشعر والغريب والأنساب والاخبار متقناً لما قيده ، ضابطاً لما كتبه ، جميل الكتب ، مهتماً بها ، يُمسكها في ثياب الشَّرْب (أي الرقيق من الكتان) وغيرها اكراماً لها وصيانة . رواه ابن بُشكوال .

وترجمه الفتح بن خاقان في قلائد العقيان بما صورته : عالم الأوان ومصنفه ، ومقرط البيان ومشنفه ، بتواليف كأنها الخرائد ، وتصانيف أبهى من القلائد ، حلى بها من الزمان عاطلا ، وأرسل بها غمام الاحسان هاطلا ، وضعها في فنون مختلفة وأنواع ، وأقطعها ماشاء من اتقان وابداع . وأما الادب فهو كان منتهاه ، ومحل سهاه ، وقطب مداره ، وفلك تمامه وابداره . وكان كل ملك من ملوك الأندلس يتهاداه تهادي المقل للكرى ، والآذان للبشرى ، على هنات كانت فيه فانه رحمه الله مباكر للراح ولا يصحو من خمارها ، ولايمحو رسم ادمانه من مضمارها ، ولا يريح الا على تعاطيها ، ولا يستريح الا الى معاطيها ، قد اتخذ ادمانها هجّيره ، ونبذ من الاقلاع عنها نبذ عاصم بن الأيمن مجيره ، فاذا حان انقراض شعبان وانصرامه كانت فيه مستبشعة الذكر ، مستشنعة النّكر ، تمجها الاوهام والخواطر ، ويثبتها السماع المتواتر .

وقد أثبت مايشهد لك بتقدمه ، ويريك منتهى قدمه . رأيته وأنا غلام ما أقمر هلالي ، ولا نبع في الذكاء كوثري ولا زلالي ، في مجلس ابن منظور ، وهو في هيئة كأنما كسيت بالبهاء والنور ، وله سبَلة يروق العيون ايماضها ، ويغرق السوادَ بياضُها ، وقد بلغ سن ابن محلم ، وهو يتكلم فيفوق كل متكلم . فجرى ذكر ابن مقلة وخطه ، وأفيض في رفعه وحطه فقال :

خط ابن مقلة من أرعاه مقلته ... ودّت جوارحه لو أصبحت مقلا
فالدر يصفرُّ لاستحسانه حسداً ... والورد يحمر من ابداعه خجلا

وله فصل في كتاب راجع به الفقيه الاستاذ أبا الحسن بن دري رحمهما الله :

وتالله أني لأطعم جنى محاورتك فيقف في اللهاة ، وأجد لتخيل مجالستك مايجده الغريق للنجاة ، وأعتقد في مجاورتك مايعتقده الجبان في الحياة .

متى تخطيء الأيام فيَّ بأن أرى ... بغيضاً ينائي أو حبيباً يقرّب

ورأيت رغبتك في الكتاب الذي لم يتحرر ولم يتهذب ، وكيف التفرغ لقضاء أرب ، والنشاط قد ولى وذهب ، فما أجده إلا كما قيل :

نزراً كما استكرهت عائر نفحة   من فارة المسك التي لم تفتق

وبعد فقد رأيت مما ترجم له صاحب القلائد كيف طعن عليه لادمانه ابنة العنقود وكيف شهد ضمناً بأنه يمتنع عن تعاطيها في شهر رمضان أي أنه مؤمن بخطيئته . والغالب أن طول عشرته للملوك والامراء جنت عليه من هذه الناحية فزادته غراماً بالخمر ، وحسناته الكثيرة تغفر له هذه الزلة ولو لم يكن من كبار العلماء ما كانت تعد شيئاً يذكر ، والسكارى أكثر من الصحاة .

وأهم ما وضع أبو عبيد من التآليف معجم ما استعجم ذكر فيه جملة ما ورد في الحديث والأخبار والتواريخ والأسفار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة محدودة . وافاض في المقدمة في الكلام على جزيرة العرب وحدودها وقبائلها وما الى ذلك من الفوائد الجغرافية واللغوية والنحوية . وعده السيوطي في النحاة وترجم له في طبقاتهم .

رتب أبو عبيد معجمه على حروف ابي جاد ، وهي طريقة المغاربة في المعاجم وغيرها ، وذلك لتسهل عليه المبالغة في التنقيح في كل صفحة من صفحاته ولكتابه من اسمه نصيب (معجم ما استعجم) وكان ، كما قال احد علماء المشرقيات ، ضرورياً يرجع اليه في دراسة التاريخ القديم وعلم تقويم البلدان وشعراء الأقدمين والحديث . وعلق أستاذنا طاهر الجزائري على نسختنا ان عدد الأسماء التي في هذا المعجم نحو ٤١٠٠ وأما الأبيات فهي أكثر من ذلك بكثير .

ورزق أبو عبيد حظاً كبيراً من النقد يشهد له معجمه الذي طبقت الآفاق شهرته ، وكان آية تدقيقه وضبطه ، وكذلك كان كتابه « التنبيه على أوهام ابي علي في أماليه » نقد فيه أمالي ابي علي القالي ، وفيه ايضاً مثال

من أدبه الجم ، قال في مقدمته : « هذا كتاب نبهت فيه على أوهام ابي علي في أماليه تنبيه المنصف لا المتعسف ولا المعاند ، محتجاً على جميع ذلك بالشاهد والدليل . فاني رأيت من تولى مثل هذا من الرد على العلماء ، والاصلاح لاغلاطهم والتنبيه على أوهامهم ، لم يعدل في كثير مما رده عليهم ، ولا أنصف في جمل مما نسب اليهم ، وأبو علي رحمه الله من الحفظ وسعة العلم والنبل ، ومن الثقة في الضبط والنقل ، بالمحل الذي لا يجهل ، وبحيث يقصر عنه من الثناء الاحفل ، ولكن البشر غير معصومين من الزلل ، ولا مبرئين من الوهم والخطل ، والعالم من عدت هفواته ، وأحصيت سقطاته . وكفى المرء نبلاً ان تعد معايبه » . وبهذا الادب نقد ذاك الراوية العظيم المشهود له في كل نادٍ فدلّ أيضاً على صفاء نفسه وعالي خلقه .

هذا غاية ما عرف من سيرة فريد قطره ووحيد فنه ، ابن الاندلس العظيم في عهد ترديها السياسي ، وقد وقاه الله شر السياسة فلم ينغمس فيها كما انغمس أجداده ، فأحبه ملوكهم وأخذوا يتهادونه ووسيلته اليهم بل وسيلتهم اليه ادبه وعلمه . [illegible] نفوسهم واغتبطوا بمنادمته فأعطى لكل عمل وقته ، حقق وأجاد في تحقيقه ، وأبدع فأحسن في ابداعه ، لاتقول وانت تنظر في موضوعاته وهي مما لاتقبله كل الاذواق الا أنك في صحابة رجل جذّاب الحديث يأخذ كلامه بمجامع القلوب وأنه تمثل ماحمل عن أولئك العظماء ، ولا سيما ابن حيان مؤرخ الاندلس وكاتبه الاكتب . واذا لم تكتب له الشهرة من طريق السياسة وفيها ما فيها من اضاعة العمر على الاكثر ، فقد كُتبت له الشهرة بتآليفه ، وكانت بيئته صالحة كل الصلاح لمن كان في مثل حاله من المؤلفين ، عرف ما عند المشايخ وما عند الخاصة والعامة وما عند الملوك والعظماء ووقف على ما يجري في مجالسهم وما تجول فيه أفكارهم .

(٣٤)

الراغب الاصفهاني

الحسين بن محمد

(٥٠٢)

لاتصال العلماء والأدباء برجال السلطان وتعرفهم لهم في القضاء والعمالات او تقربهم منهم بالمنادمة والتأديب والشعر دخل كبير في استفاضة شهرتهم وتناقل آرائهم وتآليفهم . وكم من عظيم لم يتول قضاء ولا عملاً للدولة بقي على خمول لايكاد يشعر به ، ولا يعرفه غير بعض ابناء حيّه ، ومنهم على مايظهر الراغب الاصفهاني .

لم يترجم له حتى اصحاب الطبقات من اهل مذهبه وغاية مااتصل بنا من أخباره انه كان صاحب لغة وعربية وحديث وشعر وكتابة وأخلاق وحكمة ، وانه عارف بعلوم الأوائل وغير ذلك ، وانه كان مقبولاً عند الخاصة والعامة ومن أئمة السنة شافعي المذهب ، وقرنوه بالغزالي ، وقيل ان الغزالي كان يستصحب كتابه الذريعة ويستحسنه لنفاسته ، وان القاضي البيضاوي اعتمد على كتابه مفردات الراغب في التفسير .

أما اين قرأ الراغب وعمن اخذ ، وكيف نبغ وكيف نفع الى غير ذلك من خصائصه وحليته ورحلته فلم نقف على شيء منه يبلّ الغلة . وكانت اصفهان في أيامه عش العلماء والأئمة على ماكانت نيسابور ، لم تكد تخرج مدينة من المدن في فارس امثالهم في كل فن ولا سيما الحديث وحفاظه على اننا لانعرف ان كان الراغب نشأ في تلك المدينة الجميلة ام أنها موطن أسرته وهو عاش في مدينة أخرى من فارس .

وكأن لسان الحال نادى من غفلوا أو تغافلوا عن التنويه به في كتبهم : انكم ياهؤلاء اذا اهملتموني فالقدرة تعلقت بأن تناقل الناس كتبي وانتفعوا بها في مختلف الاعصار والاقطار . وهل يستغني طالب الوقوف على اسرار التنزيل عن الأخذ من كتابه « المفردات في غريب القرآن » وقد شاع بين الناس باسم « مفردات الراغب » ؟ وهل تسد حاجة المتفقه بغير كتابه « الذريعة الى مكارم الشريعة » اذا أراد الجمع بين احكام الشرع ومكارمه علماً وعملاً ؟ وهل يتم أدب المتأدب اذا لم يأخذ من كتابه « محاضرات الادباء ومحاولات الشعراء والبلغاء » الذي أطلق عليه الناس اسم « محاضرات الراغب » تخفيفاً فاقترن باسمه على الدهر ؟ وهل المتعلم في غنية عن مدارسة كتابه « تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين » .

الراغب لايتكلم عن نفسه ، بل ينقل في العلم والأدب — اللهم اذا حكمنا عليه بما بقي لنا من بمتع تراثه هذا ، وهي الكتب الاربعة السابقة — كلام من تقدمه ويضع الدساتير ويختط الخطط ، وقد امتاز بأن العقل يتجلى في سطوره ، فهو من أعظم العلماء الذين يحسنون استخراج الآي من القرآن ويوردونها عند الاقتضاء دليلاً على مايريدون الافاضة فيه . ومن اعظم من طبقوا الحكمة أي علم العقل على الشرع ، كما امتاز بتنسيق فصول كتبه وسهولة عبارتها مع بلاغتها ، واقتصاره في تقريره على مايجب ان يبقى في الذهن ولا تعافه النفس لطوله ولفه ودورانه .

يقول لك الراغب في المفردات « ان اول مايحتاج ان يُشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية ، ومن العلوم اللفظية تحقيق الالفاظ المفردة فتحصيل معاني مفردات الفاظ القرآن فى كونه من اوائل المعاون لمن يريد ان يدرك معانيه كتحصيل اللبن في كونه من أول المعاون في بناء مايريد ان يبنيه ، وليس ذلك نافعاً في علوم القرآن فقط ، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع ، فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب

وزبدته وواسطته وكرائمه ، وعليهما اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم ، واليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم ... »

ويقول لك في الذريعة انه باكتساب المكرمة يستحق الانسان ان يوصف بكونه خليفة الله تعالى المعني بقوله تعالى : « اني جاعل في الارض خليفة » ، وبقوله تعالى « ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون » وبقوله تعالى : « وهو الذي جعلكم خلائف في الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم . » وان خلافة الله عز وجل لا تصح الا بطهارة النفس كما ان اشرف العبادات لاتصح الا بطهارة الجسم .

ويقول لك في تفصيل النشأتين ان العقل لن يهتدي الا بالشرع والشرع لايتبين الا بالعقل فالعقل كالاس والشرع كالبناء ، ولن يغني أس مالم يكن بناء ، وان يثبت بناء مالم يكن أس . وأيضاً فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع ولن يغني البصر مالم يكن شعاع من خارج ، ولن يغني الشعاع مالم يكن بصر ، ولهذا قال الله تعالى « لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سُبُل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه » ، وأيضاً فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمده فان لم يكن زيت لم يحصل السراج ومالم يكن سراج لم يضيء الزيت قال الله تعالى « الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء » والله هو الهادي ، وأيضاً فالشرع عقل من خارج العقل شرع من داخل وهما متعاضدان بل متحدان ولكون الشرع عقلا من خارج سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن نحو قوله : « صم بكم عمي فهم لايعقلون » ، ولكون العقل شرعاً من داخل قال في وصف العقل « فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » فسمى العقل ديناً ولكونهما متحدين قال « نور

على نور » اي نور الشرع ونور العقل ثم قال « يهدي الله لنوره من يشاء » فجعلهما نوراً واحداً ، فالشرع اذا فقد العقل عجز عن أكثر الامور عجز العين عند فقد الشعاع » .

بينا يقول لك هذا اذا به في محاضراته اديب لايتورع عن نقل كل ماندعوه بالادب الواقع أو المكشوف في جملة ماينقل من فرائد الشعر ويتيمات النثر ، هو هناك اديب على أكمل وجه عرف به اديب ويقول « ومن لايتحلى في مجلس اللهو الا بمعرفة اللغة والنحو كان من الحصر صورة ممثلة أو بهيمة مهملة ، ومن لايتمتع طرفاً من الفضائل المخلدة من ألسنة الاوائل كان ناقص العقل .

ويبدأ كتابه بباب العقل والعلم . فهو معلم صادق في كل ما كتب لايحب التزمت ويبعد عن التقية ، ويلقنك مايعتقد صحته وفصاحته بدون مواربة . كتب كتابه هذا لأمير من أولئك الامراء على مايظهر وخاطبه بسيدنا عمر الله بمكانه مرابع الكرم ، ليجعل هذه المحاضرات « صيقل الفهم ومادة العلم » لانه كان ممن سلك في زمانه طريقاً قلّ سالكوه ، جعل مراعاة الادب شعاره ودثاره .

قالوا ان فضل الراغب ، صاحب اللغة والعربية والحديث والشعر والكتابة والاخلاق والحكمة وعلوم الاوائل وغير ذلك ، أشهر من ان يوصف . وفي « روضات الجنات » : كفاه منقبة أن له قبول العامة والخاصة أي اهل السنة والشيعة .

هذه نتفة من سيرة عظيم الشرع ونابغة العقل ، ولم نعرفه إلا كما عرفنا اكثر العلماء ، مثلوهم لاعيننا كباراً من أول يوم وما وقفوا على بيوتهم ونشأتهم ودراستهم وشيوخهم ومعاشهم وصفاتهم وما وقع لهم من الاحداث في حياتهم مما كانوا لايرون فيه كبير أمر وممن لا نتصور الرجال الا به .

(٣٥)

الغزالي

أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي

(٥٠٥)

من الرواة من يشددون الزاي من الغزالي ومنهم من يخففها وهي الرواية الشائعة . ولد ابو حامد بطوس من بلاد خراسان سنة خمسين واربعمائة ، وقيل انه ولد في غزالة من اعمال طوس ، وقيل كان والده يغزل الصوف ويبيعه . وحرص الأب على ان يكون ابنه فقيهاً لحبه الفقهاء واختلاطه بهم ، واوصى به وبأخيه احد الصوفية وقال انه يأسف أسفاً عظيماً على عدم تعلمه الخط وأشتهي استدراك مافاتني في ولدي هذين ، فعلمهما ولا عليك ان تنفذ جميع ماأخلفه لهما . فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما الى ان فني المال فجعلهما في مدرسة ليحصلا على قوتهما . وكان الغزالي يحكي هذا ويقول : طلبنا العلم لغير الله فأبى الا ان يكون لله .

قرأ ابو حامد في صباه طرفاً صالحاً من الفقه ببلده ثم سافر الى جرجان واتصل بابي نصر الاسماعيلي ، وعلق عنه التعليقة ، ثم رجع الى طوس ، ثم قدم نيسابور ولازم امام الحرمين ، ونبغ في أيام استاذه هذا وصنف وهو شاب قال سبط ابن الجوزي : وتفقه على ابي المعالي الجويني وبرع في النظر في مدة قريبة وفاق الاقران وتوحد وصنف الكتب الحسان في الاصول والفروع التي تفرد بحسن وضعها وترتيبها وتحقيق الكلام فيها حتى انه صنف في حياة استاذه الجويني فنظر في كتابه المسمى بالمنخول فقال : دفنتني وأنا حي هلا صبرت حتى اموت ، واراد ان كتابك قد غطى على كتابي . ولما هلك أستاذه قصد الوزير نظام الملك ، وكان

مجلسه بجمع أهل العلم وملاذهم ، فناظر العلماء فاعترفوا بفضله فولاه التدريس في المدرسة النظامية ببغداد فقدمها في سنة اربع وثمانين واربعمائة ، فأعجب الخلقَ حسنُ كلامه وكمال فضله وفصاحته ، وبعد سنين قضاها في النظامية خرج الى الحج ودخل دمشق وبيت المقدس ، ثم عاد الى جلق وأخذ يطوف الاصقاع ، فدخل مصر وتوجه منها الى الاسكندرية فأقام بها مدة حاول على مايظهر ان يركب البحر من الاسكندرية الى المغرب ليلتحق بابن تومرت صاحب الدولة هناك . وكان جاء العراق وأخذ عن ابي حامد مذهب الاشعري فلما عاد الى المغرب قام في المصامدة يفقههم ويعلمهم . فلما بلغت ابا حامد وفاة ابن تومرت رجع . وقيل ان الغزالي كان يبطن مذهباً سياسياً اراد ان يتعاون مع تلميذه ابن تومرت على تحقيقه خدمة للدين أو بغية قيام دولة فتية . وعاد ابو حامد الى نيسابور ودرّس مدة بالمدرسة النظامية ، ثم رجع الى طوس واتخذ الى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاهاً للصوفية ، ووزع أوقاته على وظائف من تلاوة القرآن ومجالسة ارباب القلوب وتدريس طلبة العلم ، الى ان انتقل الى جوار ربه .

خلق الغزالي صوفياً ومارس التصوف زمناً ، ولكن العلم غلب عليه فتبحر في الفقه والكلام والفلسفة ، ورزق لساناً بليغاً وقلماً سيالاً وحافظة نادرة وذاكرة واعية وجرأة لايني معها عن الصدع بالحق الذي عرفه ، والنور الذي قذف في قلبه ، وكثيراً مانعى على علماء السوء الذين نافقوا في دينهم ، وتقربوا من الأمراء والسلاطين بالعبث بالدنيا والدين . وان رجلا يحضر مجلس درسه في النظامية ببغداد ثلثمائة عالم من الأعيان المدرسين ، وأكثر من مائة من أبناء الأمراء ، لأهل أن يحسد ويسعى به الى الملوك . ولقد طعن في بعض كتبه المصنفة في أسرار المعاملات فقام المشاغبون يزعمون ان فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين والمشايخ المتكلمين وقالوا ان العدول عن مذهب الأشعري ولو في قيد شبر كفراً ، ومباينته

ولو في شيء نزر ضلال وخسر، فكتب رسالة « التفرقة بين الاسلام والزندقة »، ومما قال فيها : « واستحقر من لا يُحسد ولا يُقذف ، واستصغر من بالكفر أو الضلال لا يُعرف ، فأي داع أكمل وأعقل من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وقد قالوا انه مجنون من المجانين ، وأي كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين وقد قالوا انه أساطير الأولين . واياك ان تشتغل بخصامهم ، وتطمع في افحامهم ، فتطمع في غير مطمع ، وتصوت في غير مسمع ، أما سمعت ما قيل :

كل العداوة قد ترجى سلامتها ... الا عداوة من عاداك من حسد

قيل انه صنف الاحياء في دمشق وقت اغترابه فانتفع الخلق به لاحتوائه على أدب الشريعة باسلوب مرتب منظم حتى قال فيه بعض المحققين « لو لم يكن للناس من الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والاثر غيره لكفى » وغالى بعضهم فقال : لو ضاعت الشريعة لأجزأ الاحياء عنها . لا جرم انه كتاب التربية الاسلامية العالية مشوب بقليل من التصوف والدعوة الى مجاهدة النفس والعزوف عن الدنيا .

أملى المؤلف من ذلك اجزاءً كبيرة فيها افاضة في كل ما أثر . ولو كان فيه الضعيف من الأثر . وكل ما فيه ينمُّ عن فكر على أي حال طبق فيه الغابر على الحاضر ، وأبدع في التأليف وتفنن في حصر مسائل بعينها ومناقشتها . فالاحياء كتاب حمل ماجاء عن الشارع ، يخلص منه قارئه الى مارآه مؤلفه من البدع والضلالات ورده باعتدال . ولما كان التصوف غالباً عليه خصوصاً في أخريات أيامه رشح قلمه منه بالضرورة رشحات لا يقول بأكثرها بعض الراسخين في العلم من الأقدمين والمحدثين ، لأنها تزهد الناس في الحياة ، والحياة تتوقف على عمل وجهاد ، وهذا مافهم من روح الشريعة . وكأن الغزالي طلب الكثير من المؤمنين ليصح له القليل ، وهو ممن لا يرى التضييق والحرج ، ويقول ان من أشد الناس غلواً واسرافاً طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا ان من

لا يعرف الكلام معرفتهم ، ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتهم التي حرروها فهو كافر . فقال « انهم ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده اولاً ، وجعلوا الجنة وقفاً على شرذمة يسيرة من المتكلمين » .

حل الاحياء آراء كثيرة للغزالي كاد يتفرد بها منها : الشيخ في قومه كالنبي في أمته ، وليس ذلك لكثرة ماله ولا لكبر شخصه ولا لزيادة قوته ، بل لزيادة تجربته التي هي ثمرة عقله ، ولذلك ترى الاتراك والاكراد واجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع . ومنها : فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد فكيف في القرى والبوادي ومنهم الاعراب والاكراد والتركمانية وسائر أصناف الخلق . ومنها : ان الفتوى قام بها جماعة ولا يخلو بلد من جملة الفروض المهملة ولا يلتفت الفقهاء اليها واقربها الطب اذ لا يوجد في أكثر البلاد طبيب مسلم يجوز اعتماد شهادته فيما يعول فيه على قول الطبيب شرعاً ، ولا يرغب احد من الفقهاء في الاشتغال به . ومنها في الكلام على غرام بعض الفقهاء في المناظرات : ولا ترى المتناظرين يهتمون بانتقاد المسائل التي تعم البلوى بالفتوى فيها بل يطلبون الطبوليات التي تسمع فيتسع مجال الجهل فيها . اطلق الطبوليات والطبول على المسائل التي يراد بها الشهرة . ومنها : ولاينفك المناظر عن التكبر على الاقران والامثال والترفع الى فوق قدره ، حتى انهم ليتقاتلون على مجلس من المجالس يتنافسون فيه فى الارتفاع والانخفاض والقرب من وسادة الصدر والبعد منها ، والتقدم في الدخول عند مضايق الطرق .

من أجمل الظاهرات في تآليف الغزالي انه يبسط الكلام ويأتي بحجج خصومه وينقضها على نظام مدقق ، ففي كتاب تهافت الفلاسفة ، قال ان أقوم الفلاسفة بالنقل والتحقيق من المتفلسفة في الاسلام الفارابي ابو النصر وابن سينا ، فاقتصر على ابطال ما اختاروه ورأوه الصحيح من مذهب رؤسائهم ، ورأى تكفيرهم في ثلاث مسائل فقط : قِدم العالم وقولهم ان

الجواهر كلها قديمة وقولهم ان الله لا يحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الاشخاص ، وانكارهم بعث الاجساد وحشرها .

قال وما عدا هذه المسائل الثلاث من تصرفهم في الصناعات الالهية واعتقاد التوحيد فيها فمذهبهم قريب من مذاهب المعتزلة ، ومذهبهم في تلازم الاسباب الطبيعية هو الذي صرح المعتزلة به في التولد ، وكذلك جميع ما نقلناه عنهم قد نطق به فريق من فرق الاسلام الا هذه الاصول الثلاثة فمن يرى تكفير اهل البدع من فرق الاسلام يكفرهم أيضاً ومن يتوقف عن التكفير يقتصر على تكفيرهم بهذه المسائل .

وصرح بمثل هذا في كتابه « الاقتصاد في الاعتقاد » فقال الذين يصدقون بالصانع والنبوة ويصدقون النبي ولكن يعتقدون أموراً تخالف نصوص الشرع ويقولون ان النبي محق ، وما قصد بما ذكره الا صلاح الخلق ، ولكن لم يقدر على التصريح بالحق لكلال افهام الخلق عن دركه ، وهؤلاء هم الفلاسفة ويجب القطع بتكفيرهم في ثلاث مسائل : انكارهم حشر الاجساد والتعذيب بالنار والتنعيم في الجنة وقولهم ان الله لا يعلم الجزئيات وانما يعلم الكليات وقولهم ان العالم قديم وان الله تعالى متقدم على العالم بالرتبة .

ولولا ان الخوض في مباحث الفلسفة يخرجنا عن موضوعنا لنقلنا زبدة ما رد به ابن رشد على الغزالي في كتابه « تهافت التهافت » وهو الكتاب الذي كسره فيلسوف الغرب في الاسلام على نقد تهافت الفلاسفة للغزالي . ولا يزال الفقهاء والفلاسفة مختلفين منذ انتشرت الفلسفة في الامة الاسلامية . كل يصحح رأيه ويرمي مخالفه بالبهتان والضلال .

افتح أي كتاب أو رسالة من تأليف الغزالي تقع في الحال على منزعه وتنشق ريح تصوفه وتدرك مبلغ عطفه على المتصوفة وهو الذي اعتقد ان « حاصل علمهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى » . وكان عنده ان اصناف الطالبين اربع فرق : المتكلمون والباطنية والفلاسفة

والصوفية ، وقال انه درس مذاهب هؤلاء كلها درساً عميقاً ثم تعلق قلبه بالصوفية . ورأى الثلاث الفرق الأولى ليست الطريق الموصل الى الحق ، فحاول ان يحمل الناس على الأخذ بنزعة ما نزع اليها لولا مزاج خاص فيه ، عنينا بذلك التصوف . وهذه نقطة الضعف في الغزالي أعلم علماء الشافعية على الاطلاق ، وأي كبير او أي انسان تجرد من الضعف .

وكتابه « المنقذ من الضلال » هو تقاييد ما عرض له من أول أمره الى قبيل وفاته بسنين قليلة قال فيه : « ولم ازل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن وقد أناف السن على الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور لاخوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، واتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميّز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ... وقد كان التعطش الى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي لا باختياري وحيلتي . حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة » .

ورأى علم الكلام بعد ان حصله وعقله وصنف فيه غير واف بمقصوده فتركه ، وبعد الفراغ منه أخذ بالتعمق في الفلسفة لأن « من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي اعلمهم في أصل العلم ثم يزيد عليه ويجاوز درجته » لايغني الغناء المطلوب . قال : انه لم ير أحداً من علماء الاسلام صرف همته وعنايته الى ذلك فاستبان له الضرر من علوم الفلاسفة بعد البحث الشديد ، ونظر كذلك في مذهب التعليم أو الباطنية ، وبعد أن وصفهم ووصف علومهم قال : فهذه حقيقة حالهم فاخبرهم تقلهم ، فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضاً .

ووصف السبب الذي حداه على ترك التدريس بالمدرسة النظامية في بغداد ، وقد تولى التدريس فيها أربع عشرة سنة كان فيها موضع اعجاب

العلماء ، فقال انه رأى الا مطمع له في سعادة الآخرة الا بالتقوى ، وكفّ النفس عن الهوى ، وان ذلك لايتم الا بالاعراض عن الجاه والمال ، ورأى نيته في التدريس غير خالصة لوجه الله ، بل باعثها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فصمم على الخروج من بغداد ، وشهوات الدنيا تتجاذبه سلاسلها الى المُقام ، ومنادي الايمان يناديه : الرحيل الرحيل . فلم يزل يتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة اشهر ، أصاب خلالها بشيء من عقدة اللسان ، وقطع الاطباء طمعهم عن العلاج ، فصح عزمه على مغادرة تلك البلاد معرضاً عن الجاه والمال والاهل والولد والاصحاب ، وأظهر عزمه على الخروج الى مكة وهو يورّي في نفسه سفر الشام حذراً أن يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمه في المقام بالشام ، فتلطف بلطائف الحيل في الخروج عن بغداد على عزم أن لا يعاودها ، واستهدف لائمة أهل العراق كافة ، اذ لم يكن فيهم من يجوّز أن يكون الاعراض عما كان فيه سبباً دينياً . قال وكان ذلك مبلغهم من العلم « ففارقت بغداد وفرقت ماكان معي من المال ، ولم أدخر الا قدر الكفاف وقوت الاطفال ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفاً على المسلمين ، فلم أرَ في العالم مالاً يأخذه العالِم أصلح منه » .

قال : « ثم دخلت الشام وأقمت به قريباً من سنتين لاشغل لي الا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالاً بتزكية النفس وتهذيب الاخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية ، فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسي » . قال ثم تحركت فيه داعية فريضة الحج ولم يذكر هنا أنه زار مصر ودخل الاسكندرية الى أن قال : ودمت على ذلك مقدار عشر سنين وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذي أذكره لينتفع به اني علمت يقيناً

أن الصوفيه هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وان سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق الى آخر قوله .

قال : وبعد طول الغربة والحاح الاهل بالعودة ، أمر سلطان الوقت ، من نفسه لا بتحريك من خارج ، أمر الزام بالنهوض الى نيسابور لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الالزام حداً كاد ينتهي لو أصررت على الخلاف الى حد الوحشة ، وبعد أن استشار جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات عرف أن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدرها الله سبحانه على رأس هذه المائة ، وقدر عليه سبحانه باحياء دينه ، يشير الى ماورد في الاثر من أن الله تعالى يبعث هذه الامة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها . وبعد عزلة احدى عشرة سنة عاد الى نيسابور .

كتب الغزالي زهاء سبعين مصنفاً بين كتاب في مجلدة أو مجلدات وبين رسالة . طبع منها لحسن الحظ نحو خمسين بنيت أكثرها على فكر خاص ذات موضوع تشتد حاجة المسلمين اليه . وألف بالفارسية كتاب « التبر المسبوك في نصيحة الملوك » وعربه غيره و « عمدة المحققين وبرهان اليقين » ألفه للسلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي . وكتب بالفارسية كيمياء السعادة وخلاصة التصانيف . ومن تآليفه « فضائح الباطنية » أهداه الى الخليفة المستظهر العباسي وكتبه باشارته على مايظهر ، وله « القسطاس المستقيم » و « المضنون به على غير أهله » ومن أجلّ كتبه « المستصفى » في الاصول ، وعلم الفقه وأصوله ، يأخذ كما قال من صفو الشرع والعقل سواء السبيل فلا هو تصرف بمحض العقول بحيث لا يتلقاه الشرع بالقبول ، ولا هو مبني على محض التقليد الذي لا يشهد له العقل بالتأييد والتسديد ، يقول شيخنا العلامة طاهر الجزائري ان أهم الكتب التي ألفت في هذا العهد على طريقة المتكلمين أربعة كتب كتاب البرهان لامام الحرمين والمستصفى للغزالي ، وهما من أهل السنة ، وكتاب العمد للقاضي عبد الجبار وشرحه المعتمد لأبي الحسين البصري وهما من المعتزلة .

ومن تآليفه « معارج القدس في مدارج معرفة النفس » يريد به العروج من مدارج معرفة النفس الى معرفة الحق جل جلاله يعتمد في فهمه على المنطق « أما الجامد البليد الذي يأخذ العلم بالتقليد ، فهو عن معرفة مثل هذه العلوم بعيد ، اذ كل ميسر لما خلق له » .

ولم تصادف كتب الغزالي اجماعاً على قبولها واعلها أحرزت أكثرية ، فأصحاب الحديث ومنهم ابن تيمية يزيفونها ، والمتصوفة ، على ماغمست فيه من التصوف ، لم يرضوا كثيراً عنها ، مع أن كتبه من أحسن ما كتب في عصره وفي العصور الاخيرة في معنى التصوف . يقول ابن تيمية في النبوات : ان أبا حامد الغزالي بين علماء المسلمين وبين علماء الفلاسفة ، علماء المسلمين يذمونه على ماشارك فيه الفلاسفة مما يخالف دين الاسلام ، والفلاسفة يعيبونه على مابقي معه من الاسلام ، وعلى كونه لم ينسلخ منه بالكلية الى قول الفلاسفة ، ولهذا كان الحفيد ابن رشد ينشد فيه :

يوماً يمان اذا ماجئت ذا يمن وان لقيت معدياً فعدناني

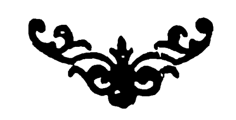
ولما دخلت كتب الغزالي المغرب أمر أمير المسلمين باحراقها ، وتوعد بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال الى من وجد عنده شيء منها ، واشتد الامر في ذلك ثم رفع عنها هذا الحرج وضعف التضييق عن كتبه والنظر فيها .

وذمه أبو نصر القشيري على الفلسفة ، وكانوا يقولون أبو حامد قد أمرضه الشفاء - كتاب شفاء ابن سينا - ولبعض العلماء كلام كثير في ذمه على مادخل فيه من الفلسفة ، واعلماء الاندلس في ذلك مجموع كثير . وذكروا أن الغزالي قال في ميزان العمل : ان الفاضل له ثلاث عقائد عقيدة مع العوام يعيش بها في الدنيا كالفقه مثلاً ، وعقيدة مع الطلبة يدرسها لهم كالكلام ، الثالثة لا يطلع عليه أحد الا الخواص ، ولهذا صنف الكتب المضنون بها على غير أهلها وهي فلسفة محضة سلك فيها مسلك ابن سينا .

قال ابن الجوزي في « تلبيس ابليس » ان أبا حامد صنف للصوفية كتاب الاحياء على طريقة القوم ، وملأه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلانها ، وتكلم في علم المكاشفة وخرج عن قانون الفقه ، وقال كلاما من جنس كلام الباطنية . وان الصوفية في حال يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الانبياء ويسمعون أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور الى درجات يضيق عنها نطاق العقل ! .

وقال سبط ابن الجوزي في المرآة ان الغزالي أخذ في تصنيف الاحياء في القدس ثم تممه في دمشق الا أنه وضعه على مذهب الصوفية وترك فيه قانون الفقه .

وكيف كان حكم بعض العلماء على الغزالي فان الهنات التي عزوها اليه لا تقدح كثيراً في كتبه ، ومن سعادته أن آراءه تنوقلت وهو حي حتى قال انه سمع مرة أحد المدرسين في دمشق يقول : وقال الغزالي ، فترك البلد من الغد ، والناس لايعرفون ان الغزالي حاضر في الدرس ثم قال انه فعل ذلك مخافة أن يقع في الغرور .



(٣٦)

الحريرى

ابو محمد القاسم بن علي البصري

(٥١٦)

الحريري نسبة لصنع الحرير أو بيعه ، نشأ الحريري عليها ثم تركها وانقطع للعلم والادب ، فبرز في النحو واللغة وفي النثر والشعر ، ولقب بالشيخ الرئيس ، وتولى في بلده « المشان » على مقربة من البصرة منصب صاحب الخبر (الاستخبارات) واشتهر بالغنى ، ويحكى أنه كان يملك ثمانية عشر ألف نخلة وكان يغشى منزله في البصرة عظماء القوم وفضلاؤهم .

وقال سبط الجوزي : ولم يزل الحريري صاحب الخبر بالبصرة في ديوان الخليفة ، ووجدت هذا المنصب لاولاده الى آخر العهد المقتفوي ، وله رسائل معجبة وكلام غريب كالضَّرَب ماله ضريب . . . كان مسكنه البصرة في محلة بني حرام وبيت عمله المشان .

هذا ماعرف من حياته المادية ، وحياته الادبية عظيمة ، وعظمتها بتأليفه المقامات التي كانت كما قال فيها تحتوي على جد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وملح الادب ونوادره ، الى ماوشحها به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورصعه فيها من الامثال العربية ، واللطائف الادبية ، والاحاجي النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبرة ، والمواعظ المبكية ، والاضاحيك الملهية .

وصفه ابن خلكان بأنه أحد أئمة عصره ، ورزق بالمقامات الحظوة التامة ، لما اشتملت عليه من كلام العرب من لغاتها وامثالها ، ورموز أسرار

كلامها ، قال : ومن عرفها حق معرفتها ، استدل بها على فضل هذا الرجل وكثرة اطلاعه وغزارة مادته . وكان سبب وضعه لها ما حكاه ولده ابو القاسم عبد الله قال : كان أبي جالساً في مسجد بني حرام فدخل شيخ ذو طمرين عليه أهبة السفر ، رث الحال ، فصيح الكلام ، حسن العبارة ، فسأله الجماعة من أين الشيخ فقال : من سروج . فاستخبروه عن كنيته فقال أبو زيد ، فعمل ابي المقامة المعروفة بالحرامية وهي الثامنة والاربعون وعزاها الى ابي زيد المذكور واشتهرت فبلغ خبرها وزير المسترشد بالله ، قيل انه القاشاني وقيل ابن صدقة ، فاعجبته واشار على والدي أن يضم اليها غيرها فاتمها خمسين مقامة ، والى الوزير المذكور أشار الحريري في خطبة المقامات بقوله : فأشار من اشارته حُكم ، وطاعته غُنم ، الى أن أنشيء مقامات أتلو فيها تلو البديع ، وان لم يدرك الظالع شأو الضليع .

وأما تسمية الراوي بالحارث بن همام فانما عنى به نفسه ، وهو مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم كلكم حارث وكلكم همام . فالحارث الكاسب والهمام الكثير الاهتمام . وما من شخص الا وهو حارث وهمام ، لان كل واحد كاسب يهتم بأموره .

قال الحريري : فاجتمع عندي عشية ذلك اليوم - يوم رؤية أبي زيد السروجي - فضلاء البصرة فحكيت لهم ماشاهدت من ذلك السائل فحكى كل واحد منهم أنه سمع من هذا السائل في مسجده معنى آخر فضلاً مما سمعت ، وكان يغير في كل مسجد زيه وشكله فتعجبوا منه ، فأنشأت المقامة الحرامية ثم بنيت عليها سائر المقامات . عملها أربعين مقامة أولاً ثم حملها من البصرة الى بغداد وادعاها ، فلم يصدقه في ذلك جماعة من الادباء ، وقالوا انها ليست من تصنيفه بل هي لرجل مغربي من أهل البلاغة مات بالبصرة ووقعت أوراقه اليه فادعاها ، فاستدعاه الوزير الى الديوان وسأله عن صناعته فقال : أنا رجل منشيء . فاقترح عليه انشاء رسالة في واقعة عيّنها ، فانفرد في ناحية من الديوان وأخذ الدواة والورقة ومكث

زمناً كثيراً فلم يفتح الله سبحانه عليه بشيء من ذلك . فقام وهو خجلان ، فلما رجع الى بلده عمل عشر مقامات أخر وسيّرهن واعتذر من عيّه وحَصَره في الديوان بما لحقه من المهابة .

والغالب ان وظيفته الرسمية شهرت اسمه في البصرة وبغداد وهو لا يعدم حيلة لبلوغ الشهرة . وكان في حياته يباهي بانه أمر بنسخ سبعمائة نسخة من مقاماته ، وتعاورها الشراح بالشرح شأنهم في كل كتاب نفيس . وترجمت في عهدنا الى عدة لغات ومنها الألمانية والانكليزية وعني بدراستها كثير من المستعربين من علماء المشرقيات معجبين بها وبصاحبها .

فتح بديع الزمان الطريق أمام الحريري بما أنشأ من مقاماته ، والبديع أقرب الى عدم التكلف وتصنيع الحريري ظاهر ، الا أنه مقبول . ومقاماته كلها متشابهة وموضوعاتها ليست مما يأخذ بالالباب . لاتشبه القصة التي وضع الافرنج طريقتها ولا تشبه طريقة الأخبار على ما ترى مثالاً منها في كتب طيفور والصولي والقاضي التنوخي وأبي حيان ، هي من نمط يكاد يكون جديداً او غير تلك الأنماط المتعارفة ، والمحور الذي تدور عليه التفنن في ايراد الالفاظ وصياغتها على الاسلوب الذي عرف في عصر الحريري وهو أرقى أسلوب في نظر الأدباء يومئذ .

طريقة المقامات بعيده عن التوسع في الخيال والتفنن بما ترتاح اليه نفس القاريء ، لأن طالب المقامات لا يبغي منها الا اللغة أولاً وفي سبيل التقاط دررها يغتفر هذا التكلف ، ولو خلت المقامات من هذا التحبير ما رزق بها صاحبها هذه الحظوة ، وما تناقل طلاب الادب كلامه خلفاً عن سلف وما تنافس في تفهم فصاحته من يقره على طريقته ومن لايقره .

فالمقامات ينظر فيها الادباء أولاً الى النكات الادبية واللغوية وفيها من الشعر المستملح قدر غير يسير ، وربما كان النقد الى نثره أكثر من نقد شعره لان الشعر تستتر عيوبه بقوافيه وأوزانه وليس كذلك النثر .

فمن سجعه المتكلف وقد يقع له في اول المقامة قوله : « ظعنت الى دمياط عام هياط ومياط » « أزمعت الشخوص الى برقعيد وقد شمت

برق عيد » «آنست من قلبي القساوة حين حلت سارة » «يممت ميافارقين مع رفقة موافقين » «عاشرت بقطيمة الربيع في ابان الربيع » «حللت سوق الاهواز لابساً حلة الاعواز » «الجأني حكم دهر قاسط الى ان انتجع واسط » «اصعدت الى صعدة وأنا ذو شطاط يحكي الصعدة واشتداد يبدر بنات صعدة » «فطوحت الى مرو ولا غرو » «ازمعت التبريز من تبريز حين نبت بالذليل والعزيز وخلت من المجير والمجيز » «نزع بي الى حلب شوق غلب وطلب ياله من طلب » الخ .

ويقال على الجملة ان اسلوب المقامات اسلوب خاص بدأه البديع وكمل بالحريري والزمخشري نضج معهما واحترق بعدهما . هو أسلوب لا يصلح للرسائل ولا للخطب ولا للتأليف ، جعل لهذا النوع من الفكاهة والحكاية استعذبه أهل عصور السجع ولذ لهم كثيراً فما حاسبوا صاحبه ان كان كلامه منطوياً على المعاني والخيالات ، وبقيت للمقامات روعتها ما دام السجع رائجاً فلما كسدت سوقه ، وكانت قائمة منذ القرن الثالث الى القرن الثالث عشر اي مدة الف سنة ، زهد رجال الادب في هذا الضرب من الكلام الذي حرم الانسجام وراحوا ينظرون في الكتب المسجوعة نظرهم الى أثر تاريخي غريب يقدرون نسجه ولا يتكلفون احتذاء مثاله .

وملاك الامر في السجع كما قال ابن الاثير في المثل السائر ان تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه أختها ، فان كان المعنى فيهما سواء فذاك هو التطويل بعينه ، لان التطويل انما هو الدلالة على المعنى بالفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها ، واذا وردت سجعتان تدلان على معنى واحد كانت احداهما كافية في الدلالة عليه ، وجل كلام الناس المسجوع جار عليه ، واذا تأملت كتابة المفلقين ممن تقدم كالصابي وابن العميد وابن عباد وفلان وفلان فانك ترى أكثر المسجوع منه كذلك والاقل منه على ما أشرت اليه . ولقد تصفحت المقامات الحريرية والخطب النباتية على غرام الناس بها واكبابهم عليها فوجدت الاكثر من السجع فيها على الاسلوب الذي أنكرته . هذا ما قاله ابن

الاثير صاحب البأو المعجب بكلامه ، وسجعه ماخلا من هذه المآخذ ، وسجع الحريري انما كان نمطاً خاصاً بالمقامات وهاكم نموذجاً من نثره وبديع شعره في المقامة الدينارية :

روى الحارث بن همام قال : نظمني واخداناً لي ناد ، لم يخب فيه مناد ، ولا كبا قدح زناد ، ولا ذكت نار عناد ، فبينا نحن نتجاذب فيه أطراف الاناشيد ، ونتوارد طرف الاسانيد ، اذ وقف بنا شخص عليه سمل ، وفي مشيته قزل ، فقال : ياأخاير الذخائر ، وبشائر العشائر عموا صباحا ، وانعموا اصطباحا ، وانظروا الى من كان ذا نديّ وَندى وجدة وجدى ، وعقار وقرى ، ومقار وقِرى ، فما زال به قطوب الخطوب ، وحروب الكروب ، وشرر شر الحسود ، وانتياب النوب السود حتى صفرت الراحة ، وقرعت الساحة ، وغار المنبع ، ونبا المربع ، وأقوى المجمع ، وأقض المضجع ، واستحالت الحال ، وأعول العيال ، وخلت المرابط ، ورحم الغابط ، وأودى الناطق والصامت ، ورثى لنا الحاسد والشامت ، وآل بنا الدهر الموقع ، والفقر المدقع ، الى ان احتذينا الوجى ، واغتذينا الشجى ، واستبطنا الجوى ، وطوينا الاحشاء على الطوى ، واكتحلنا السهاد ، واستوطنا الوهاد ، واستوطأنا القتاد ، وتناسينا الاقتاد ، واستطبنا الحين المجتاح ، واستبطأنا اليوم المتاح ، فهل من حرّ آس ، او سمح مواس ، فوالذي استخرجني من قيلة ، لقد أمسيت أخا عيلة ، لا أملك بيت ليلة .

قال الحارث بن همام فأويت لمفاقره ، ولويت الى استنباط فقره ، فأبرزت دينارا ، وقلت له اختبارا ، ان مدحته نظماً ، فهو لك حتما ، فانبرى ينشد في الحال ، من غير انتحال :

أكرم به أصفر راقت صفرته — جوّاب آفاق ترامت سفرته
مأثورة سمعته وشهرتـــه — قد أودعت سر الغنى أسرّته
وقارنت نجح المساعي خطرته — وحُبِّبت الى الانام غرّتـه
كأنما مـن القلوب نقرتـه — به يصول من حوته صرته

وان تفانت أو توانت عترته | يا حبذا نضاره ونضرته
وحبذا مغنانـه ونصرتـه | كم آمر به استتبت امرته
ومترَف لولاه دامت حسرته | وجيش هم هزمته كرته
وبدر تمّ أنزلته بدرتـه | ومستشيط تتلظى جمرته
أسرةً نجواه فلانت شرتـه | وكم أسير اسلمته أسرته
أنقذه حتى صفت مسرتـه | وحق مولى أبدعته فطرته
لولا التقى اقلت جلت قدرته

ثم بسط يده ، بعد ما أنشده ، وقال : انجز حرٌّ ما وعد ، وسحَّ خال اذ رعد ، فنبذت الدينار اليه ، وقلت له : خذه غير مأسوف عليه ، فوضعه في فيه ، وقال : بارك الله فيه ، ثم شمر للانثناء ، بعد توفيه الثناء ، فنشأت لي من فكاهته نشوة غرام ، سهلت عليَّ ائتناف اغترام ، فجردت ديناراً آخر وقلت : هل لك في أن تذمه ، ثم تضمه ، فأنشد مرتجلا وشدا عجلا :

تباً له من خادع ممـاذق | أصفر ذي وجهين كالمنافق
يبدو بوصفين لعين الرامق | زينة معشوق ولون عاشق
وحبه عند ذوي الحقائق | يدعو الى ارتكاب سخط الخالق
لولاه لم تقطع يمين سارق | ولا بدت مظلمة من فاسق
ولا اشمأز باخل من طارق | ولاشكا المطول مطل العائق
ولا استُعيذ من حسود راشق | وشر ما فيه من الخلائق
ان ليس يغني عنك في المضايق | الا اذا فرَّ فرار الآبـق
واهاً لمن يقذفه من حالق | ومن اذا ناجاه نجوى الوامق
قال له قول المحق الصادق | لا رأي في وصلك لي ففارق

فقلت له : ما أغزر وبلك ، فقال والشرط املك ، فنفحته بالدينار الثاني ، وقلت له عوذهما بالمثاني ، فألقاه في فمه ، وقرنه بتوأمه ، وانكفأ يحمد مغداه ، ويمدح النادي ونداه .

قال الحارث بن همام : فناجاني قلبي بانه ابو زيد ، وان تعارجه لكيد . فاستعدته وقلت له قد عرَفت بوشيك ، فاستقم في مشيك . فقال : ان كنت ابن همام فحييت باكرام ، وحييت بين كرام ، فقلت : أنا الحارث ، فكيف حالك والحوادث ، فقال : أتقلب في الحالين بؤس ورخاء ، وأنقلب مع الريحين زعزع ورخاء ، فقلت كيف ادعيت القزل ، وما مثلك من هزل ، فاستسرّ بشره الذي كان تجلى ، ثم أنشد حين ولى :

تعارجت لا رغبة في العرج   ولكن لأقرع باب الفرج
وألقي حبلي على غاربي   وأسلك مسلك من قد مرج
فان لامني القوم قلت اعذروا   المليس على أعرج من حرج

ومن شعره الذي خلا من التكلف قوله :

إني امرؤ أبدع بي   بعد الوجى والتعب
وشقتي شاسعة   يقصر عنها خببي
وما معي خردلة   مطبوعة من ذهب
فحيلتي منسدة   وحيرتي تلعب بي
ان ارتحلت راجلا   حقت دواعي العطب
وان تخلفت عن الر   فقة ضاق مذهبي
فزفرتي في صعد   وعبرتي في صبب
وأنت منتجع الـ   راجي ومرمى الطلب
لها كم منهلة   ولا انهلال السحب
وجاركم في حرم   ووفركم في حرب
مالاذ مرتاع بكم   فخاف ناب النوب
ولا استدر آمل   حباكم فما حبي
فانعطفوا في مقتي   وأحسنوا منقلبي
فلو بلوتم عيشتي   في مطعمي ومشربي

أساءكم ضري الذي أسلمني للكرب
ولو خبرتم حسبي ونسبي ومذهبي
وما حوت معرفتي من العلوم النخب
لما اعترتكم شبهة في أن دائي أدبي
فليت اني لم أكن أرضعت ثدي الأدب
فقد دهاني شؤمه وعقني فيه أبي

وليس أجمل من هذا في الوصول الى الغرض الذي يتطلبه ابو زيد السروجي ممن قصد اليهم ليقمش من مالهم . ومثال آخر :

اذا ما حويت جنى نخلة فلا تقربنها الى قابل
واما سقطت على بيدر فحوصل من السنبل الحاصل
ولا تلبثن اذا ما لقط ت فتنشب في كفة الحابل
ولا توغلن اذا ما سبح ت فان السلامة في الساحل
وخاطب بهات وجاوب بسوف وبع آجلا منك بالعاجل
ولا تكثرن على صاحب فما مل قط سوى الواصل

نموذجات لا تخلو من نكتة وخفة روح . ومن شعره في الحكمة :

لا تقعدن على ضر ومسغبة لكي يقال عزيز النفس مصطبر
وانظر بعينيك هل أرض معطلة من النبات كأرض حفها الشجر
فعدّ عما تشير الأغبياء به فأيّ فضل لعود ما له ثمر
وارحل ركابك عن ربع ظمئت به الى الجناب الذي يهمي به المطر
واستنزل الريّ من درّ السحاب به بلّت يداك به فليهنك الظفر

ومن الحكم قوله :

لا تزر من تحب في كل شهر غير يوم ولا تزده عليه
فاجتلاء الهلال في الشهر يوم ثم لا تنظر العيون اليه

ومن شعره :

أخمد بحلمك ما يذكيه ذو سفه من نار غيظك واصفح ان جنى جاني
فالحلم أفضل ما ازدان اللبيب به والاخذ بالعفو احلى ما جنى جاني

وبقدر ما تحمل المقامات من ألفاظ وألغاز وأحاج ، يحمل كتابه « درة الغواص في أوهام الخواص » من تحقيقات لغوية ونقد تراكيب مرت على الألسن والأقلام في عهده ، وهذا أيضاً نموذج من أسلوبه فيه :

« ... ومثله في اختلاف الرواية قول عروة بن أذينة :

لقد علمت وما الاسراف من خلقي ان الذي هو رزقي سوف يأتيني

فروى أكثرهم لفظة الاسراف بالسين المغفلة وبعضهم بالشين المعجمة ليكون معناها التطلع الى الشيء والاستشراف له وهو اختيار المرتضى ابي القاسم الموسوي رحمه الله . ولهذا البيت حكاية تحث على استشعار اليقين واعلاق الأمل بالخالق دون المخلوقين فجنحته بها تحلية اعاطله ونبهة على صدق قائله ، وهي ما رويته من عدة طرق ان عروة هذا وفد على هشام ابن عبد الملك في جماعة من الشعراء فلما دخلوا عليه عرف عروة فقال له ألست القائل :

لقد علمت وما الاسراف من خلقي ان الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى له فيعنّيني تطلبــه ولو قعــدت أتاني لا يعنّيني

وأراك قد جئت تضرب من الحجاز الى الشام في طلب الرزق فقال له : لقد وعظت يا أمير المؤمنين فبالغت في الوعظ واذكرت ما أنسانيه الدهر . وخرج من فوره الى راحلته فركبها وسار راجعاً نحو الحجاز . فمكث هشام يومه غافلاً عنه ، فلما كان في الليل تعار على فراشه فذكره وقال في نفسه : رجل من قريش قال حكمة ووفد الي فجبهته ورددته عن حاجته ، وهو مع هذا شاعر لا آمن ما يقول . فلما أصبح سأل عنــه فأخبر بانصرافه فقال : لا جرم ليعلمن ان الرزق سيأتيه . ثم دعا بمولى له وأعطاه ألفي دينار وقال له : الحق بهذه ابن أذينة فأعطه اياها فسار اليه فلم يدركه الا وقد دخل بيته ، فقرع الباب عليه فخرج فأعطاه المال . فقال : أبلغ أمير المؤمنين السلام وقل له : كيف رأيت قولي سعيت فأكديت ورجعت الى بيتي فأتاني فيه الرزق .

(٣٧)

الزمخشري

ابو القاسم محمود بن عمر

(٥٣٨)

ولد ابو القاسم الزمخشري سنة ٤٦٧ في قرية كبيرة من قرى زمخشر من بلاد خوارزم (وتوفي في جرجانية خوارزم) وأخذ العلم في بخارى وورد بغداد غير مرة ، وأخذ الأدب عن ابي الحسن علي ابن المظفر النيسابوري وتخرج بأبي مُضَر محمود بن جرير الضبي الاصفهاني . وكان هذا وحيد دهره في علم اللغة والنحو والطب . أقام بخوارزم مدة وتخرج به جماعة من الأكابر منهم الزمخشري ، وهو الذي ادخل الى خوارزم مذهب المعتزلة ونشره بها ، فاجتمع عليه الخلق لجلالته وتمذهبوا بمذهبه ، ومنهم الزمخشري وكان حنفياً فأخذ بمذهب أهل العدل والتوحيد وجاهر به .

أخذ أبو القاسم عن كثير من الشيوخ في خوارزم والعراق ، وجاور في مكة فتلقب بجار الله وفخر خوارزم . وما منعه من التنقل في الاقطار ما كان من عاهة في رجله ، وكان أصابه في شبابه خراج فيها فقطعها ووضع عوضها رجلا من خشب . وكان مقبولاً من القلوب كثير الاصحاب والتلامذة ، وعلل هو اشادة العلماء والشعراء بذكره بما رأوا من حسن النصح للمسلمين ، وبلوغ الشفقة على المستفيدين ، وقطع المطامع ، وعزة النفس ، والاقبال على خويصته . فهذه الصفات أورثته مكانة زادت في الاقبال عليه ، وحببت الاخذ عنه والانتفاع بكتبه .

كان جار الله اماماً في التفسير ، وتفسيره الكشاف من خير التفاسير

وهو المعتمد عند أكثر طلاب هذا العلم في عصرنا هذا وقبله ، وكتابه « أساس البلاغة » وفيه فرق بين الحقيقة والمجاز آية في التحقيق . واشتهر له بالطبع كتب أخرى وهذان الكتابان أجلهما . ومن كتبه « الفائق في غريب الحديث » لم يقتصر فيه على أحاديث الرسول بل تعرض لشرح احاديث الصحابة والتابعين وتابعيهم فهو كتاب جيد في بليغ القول جمله كأساس البلاغة على حروف المعجم وشرحه . ومن كتبه مقدمة الأدب ومقاماته ، واطباق الذهب في المواعظ والخطب ، واعجب العجب شرح لامية العرب وكتاب الجبال والامكنة والمياه ، والكلم النوابغ أو نوابغ الكلم ، والمفصل في صناعة الاعراب . وكلها مفيدة لا تخرج عن اللغة والاعراب ، والمفصل أمتنها وأفيدها لما حمل من شواهد تدعم القواعد ، أما طريقته في الانشاء فطريقة أهل القرن الخامس والسادس الا انها تنم عن تمكنه في اللغة تمكناً عظيماً . ونعني بهذه الطريقة اعتماده على التسجيع في كلامه حتى كاد يأتي على محاسن كلامه ويذهب برونق بلاغته ، ولا نحيل القارئ الا على مقدمتي الكشاف والأساس وهما كتاباه الخالدان ، ولو عرتا من السجع لاستجمعتا أسباب الكمال كله ، وكذلك مقاماته وأطواقه ونوابغ كلمه . ومن رأيه « ان ما سماه الناس البديع من تحسين الالفاظ وتزيينها بطلب الطباق فيها والتجنيس والترصيع لا يملح ولا يبرع حتى يوازي مصنوعه مطبوعه ، والا فما قلق في أماكنه ، ونبا عن مواقعه ، فمنبوذ بالعراء ، مرفوض عند الخطباء والشعراء » .

واضطلاع الزمخشري باللغة اضطلاع اللغوي الذي تمثل مانقل وبوبه ونسقه وأبرزه في قالب أخرجه من جفاف اللغة بعض الشيء . ومن يطالع كتبه يستفيد لغةً وألفاظاً وتراكيب فصيحة ، أما البلاغة وهي في السبك فأمر ثان ، ذلك لأن عصره متأخر وهو يقصد في الكشاف والمفصل ومقدمة الأدب امداد من يريد اتقان العربية بالمادة اللازمة بادئ بدء ، ثم هو وان درس دراسة عظيمة قلَّ ان يتيسر مثلها لغير أبناء العربية لا يخرج عن

كونه أعجمياً وبيئته غالبة عليه ، على كثرة مقامه في أرض العرب ، قالوا : وكان لا ينطق بلغته الاصلية الا اذا أراد ان يشرح شيئاً لمن يأخذون عنه ، والا فهو يتكلم العربية ، وقد فاخر في مقدمة المفصل بنفسه فقال : الله احمد على ان جعلني من علماء العربيـة . وجبلني على الغضب للعرب والعصبية . وحمده على ان لم ينضو الى لفيف الشعوبية قال : ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها ، ويريدون أن يخفضوا مارفع الله من منارها حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه في عُجْم خلقه ولكن في عربه ، لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج ، وزيغاً عن سواء المنهج . والذي يقضي منـه العجب حال هؤلاء في قلة انصافهم ، وفرط جورهم واعتسافهم ، وذلك انهم لا يجـدون علما من العلوم الاسلامية فقهها وكلامها وعلمي تفسيرها واخبارها الا وافتقاره الى العربية بيّن لا يزيغ .

ان الرجل الذي ضرب به المثل في علم الادب وكان الغاية في ادب النفس والعزوف عن الدنيا لم يخل من حساد أيضاً ، ومن كلامه يخاطبهم :

اذا سألوا عن مذهبي لم ابح به … وأكتمه كتمانه لي أسلم
فان حنفياً قلت قالوا بأنني … أبيح الطلا وهو الشراب المحرم
وان مالكياً قلت قالوا بأنني … أبيح لهم أكل الكلاب وهم هم
وان شافعياً قلت قالوا بأنني … أبيح نكاح البنت والبنت تحرم
وان حنبلياً قلت قالوا بأنني … ثقيل حلولي بغيض مجسم
وان قلت من أهل الحديث وحزبه … يقولون تيس ليس يدري ويفهم
تعجبت من هـذا الزمان وأهله … فما أحد من ألسن الناس يسلم
وأخرني دهري وقدّم معشراً … على أنهم لا يعلمون وأعلم
ومذ أفلح الجهال أيقنت أنني … أنا الميم والأيام أفلح اعلم

وقال :

زمان كل حب فيه خِبٌ … وطعم الخِلّ خَلٌّ لو يذاق
لهم سوق بضاعتـه نفاق … فنافق فالنفاق له نفـاق

ولما مات استاذه ابو مُضَر قال في رثائه :

وقائلة ما هـــذه الدرر التي   تساقطها عيناك سمطين سمطين

فقلت لها الدر الذي كان قد ملا   أبو مضر أذني تساقط من عيني

أصيب جار الله في سنة ثنتي عشرة بعد الخمسمائة بالمرضة المنهكة التي سماها المنذرة فكانت سبب انابته وفيئته ، فأخذ على نفسه الميثاق ان منّ الله عليه بالصحة ان لا يطأ بأخمصه عتبة السلطان ، ولا واصل بخدمة السلطان اذياله ، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن قرض الشعر فيهم ، ورفع العقيرة في المدح بين أيديهم ، وان يعف عن ارتزاق عطيانهم ، وافتراض صلاتهم ، مرسوماً وادراراً وتسويفاً ونحوه ، ويجد في اسقاط اسمه من الديوان.

ان ما خلفه الزمخشري من مصنفاته لاغنية لطالب لغة العرب عن تدارسه كلما عرض له مشكل من مشاكلها ، وكلها منسوجة أجمل نسج ، مرتبة خير ترتيب واضحة كل الايضاح ، ليست بالمطولة حتى يملها الطالب ولا بالمختصرة حتى ينقطع دون بغيته ، ومن حفظ الكشاف والأساس والفائق والمفصل جاء منه عالم لا يحتاج الى أشياء كثيرة أخرى .

(٣٨)

ابن القلانسي

حمزة بن أسد بن علي أبو يعلى التميمي

(٥٥٥)

ترجم له ابن عساكر فوصفه بالعميد وانه كانت له عناية بالحديث وكان أديباً له خط حسن ونثر ونظم . وكان فيه تخصص وصنع تاريخاً للحوادث بعد سنة اربعين واربعمائة الى حين وفاته ، وتولى رياسة دمشق مرتين ، وكان يكتب له في سماعه ابو العلاء المسلم بن القلانسي وذكر انه هو وانه كذلك كان يسمى

وفي تاريخ الاسلام انه كان كاتباً أديباً ، وجمع بين كتابة الانشاء وكتابة الحساب ، وحمدت ولايته . توفي في عشر التسعين . وفي طبقات الأدباء انه الأديب الكاتب الشاعر المؤرخ ، كان من اعيان دمشق ومن أفاضلها المبرزين ، ولي رياسة ديوانها مرتين . وقالوا فيه أيضاً انه كان كاتباً مترسلاً أي متثبتاً ومعنى انه كان فيه تخصص انه يعرف علوماً اختص بها لايعرفها غيره او فاق فيها غيره .

وكل ذلك لايفي بالغرض في الترجمة له وكأن السياسة غالت أدبه ، والرياسات تقتضي صرف أوقات . ولم يصرح من ترجم لابن القلانسي هل كانت ملكة السياسة فيه أمتن أم ملكة العلم والأدب ؟ وعندي ان كل واحد منهما اعان الشق الآخر على النمو ، ولولا أدبه ماوصل الى هذه المرتبة ، ولولا سياسته ماانتفعت به بلده وعد من حسناته ، ولولا جميل اخلاقه ماحمدت ولايته . والأرجح أن ابن القلانسي حصر جهوده في مدينته وما ينفعها ولم يتعد اجتهاده الى بحث

غيرها فانقص ذلك من شهرته ، ولو رحل الى عواصم أخرى وأطال لرحلة لذكرته تواريخ هذا الشرق القريب ولعرفنا أموراً نجهلها عنه بما شغل به في خدمة وطنه .

الف ابن القلانسي تاريخه وسماه الذيل ، وكان فيه قسم لأواخر عهد الفاطميين وقد ذكر من ظلمهم وتقلقل سياستهم ما كان فيه حجة لأنه دمشقي يكتب في دولة ظالمة تحكم امة يخالف سوادها الأعظم في مذهبهم . وهو من سياسة البلدة في صميمها ومن بعد النظر وسعة العقل بالمكان الأسمى .

وصف بعض رجال الفواطم وبعض ملوكهم أجمل وصف كما أحسن الاحسان كله في الترجمة لمن ترجم لهم من الطارئين على الفيحاء من العلماء ، ومنهم من رثاهم على قرب عهده بصداقتهم . وما أجمل قوله في وصف الحاكم بأمر الله : وقال المغالون في المذهب انه غائب في سره (؟) ولا بد ان يؤوب ، ومستتر في غيبه ولا بد ان يرجع الى منصبه ويثوب . ووصف ولاية معلى بن حيدرة بن منزو على دمشق وقد وليها قهراً وغلبة وقسراً من غير تقليد ، ولم يلق أهل البلد من التعجرف والظلم والعسف بعد جيش بن الصمصامة ما لقوه في ولايته . وفي أيام الفاطميين تغلب على دمشق قسام الحارثي من أهل تلفيتا في جبل سنير وكان ترّاباً ينقل التراب على ظهور الدواب .

ومن ذكاء ابن القلانسي انه كان يلتزم الكتمان في بعض الاحوال وبخاصة هو يعرف أن الدول في عصره متقلقلة متحولة ، فمن فاطمية الى سلجوقية الى نورية وهو لا يعرف لمن تتم الغلبة الاخيرة ، ولهذا كان يجمجم أحياناً وهو على صواب في جمجمته ، ويتقي وهو غير آثم في تقيته قال : ولما اضطربت المسالك والاعمال ، وانطلقت أيدي التركمان والحرامية في الافساد في الاطراف ، واستولى نور الدين محمود على دمشق قال قصيدة مطولة وقال انها نظمت (للمجهول) في صفة هذه الحال أبيات

شعر تنطق بذكرها بأنها له لأنه سبق له أن نظم في الحكم كثيراً .
جاء في آخرها :

ومن ذا الذي ينجو من الدهر سالماً · اذا ما أتاه الأمر والله حاتمه (؟)
ومن رام صفواً في الحياة فما يرى · له صفو عيش والحمام يحاومه
فاياك لا تغبط مليكاً بملكه · ودعه فان الدهر لاشك قاصمه
فان كان ذا عدل وأمن لخائف · فلا شك أن الله بالعدل راحمه
وقل للذي يبني الحصون لحفظه · رويدك ماتبني فدهرك هادمه
فكم ملك قد شاد قصراً مزخرفاً · وفارق ماقد شاده وهو عادمه
وأصبح ذاك القصر من بعد بهجة · وقد درست آثاره ومعالمه
وفي مثل هذا عبرة ومواعظ · بها يتناسى المرء ماهو عازمه

ومن شعره :

يا من تملك قلبي طرفه فغدا · معذباً بين أشواق وأشجان
أمنن بوصل لعلي أستجير به · من سطوة البين في صد وهجران
مالي منيت بممنوع يعذبني · ولا يزيد فؤادي غير أحزان
لا برأ الله قلبي من تخوفه · ان شبت حبي له يوماً بسلوان
اذا ترنم قمريّ على فنن · في ليلة زاد في حزني وأشجاني
وكم أسر غرامي ثم أعلنه · وليس يخفى لكم سري واعلاني
لا برد الله شوقي ان نويت لكم · تغيراً لي بمال أو بسلوان

وله أيضاً :

يانفس لاتجزعي من شدة عظمت · وأيقني من إله الخلق بالفرج
كم شدة عرضت ثم انجلت ومضت · من بعد تأثيرها في المال والمهج

وله أيضاً :

اياك تقنط عند كل شديدة · فشدائد الايام سوف تهون
وانظر أوائل كل أمر حادث · أبداً كما هو كائن سيكون

وبعد فليس تاريخه المختصر الذي جمله على السنين ومزجت فيه السياسة بوفيات الرجال هو كل ما يجب ان يخلفه ابن القلانسي المفنن البارع ، والغالب ان مشاغل البلد وسياستها شغلته عن وضع تآليف ، وقد طال عمره ، اذا لم يؤلفها أمثاله ممن يؤلفها بيد انه لم يفعل . والرياسات مهما كانت أعباؤها خفيفة تستغرق الوقت ، وهو ما قصد من تاريخه الا الوفاء بغرض ان لم يقم هو به ضاعت حوادث كثيرة من تاريخ الاسلام ولا سيما تاريخ بلده ، وهو يحبه ويتفانى في محبته خصوصاً ما كان منها متعلقاً بأخبار الفاطميين الذين شهد ظلمهم الفظيع وتعصبهم الذميم لا يدوّن بعضها أشياعهم وأتباعهم .



البيهقي

ظهير الدين ابو الحسن علي بن زيد

(٥٦٥)

البيهقي هذا من سلالة خُزيمة بن ثابت الملقب بذي الشهادتين صاحب رسول الله . وكان خزيمة قاتل مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في صفين سنة تسع وثلاثين وقتل في جملة مَن قتل من عظماء الملة ، ونزل أبناء خزيمة فارس وما أنستهم بيئتهم الجـديدة نسبهم العربي الصحيح ولا أدخلت الضيم على لغتهم وأضافوا اليها لغة أخرى وأدباً حديثاً ، شأن ألوف من العرب حلوا أرض العجم .

وفي قصبة سابزوار من نواحي بيهق من أعمال نيسابور عاصمة خراسان ولد ظهير الدين سنة ٤٩٩ ﻫ من أب عالم وام حافظة للقرآن عالمة بوجوه تفاسيره . ثم رحل به أبوه الى ناحية ششتمذ من قرى تلك العمالة ، ولوالده بها ضياع . فأسلمه الى الكتاب وحفظ كتاب الهادي للشادي ، والسامي في الأسامي من تصنيف الميداني صاحب الامثال ، واستظهر المصادر للزوزني والتلخيص في النحو والمجمل في اللغة . وحضر بنيسابور دروس أبي جعفر المقرئ مصنف كتاب ينابيع اللغة ، وحفظ كتابه تاج المصادر ، وقرأ عليه نحو ابن فضال وفصلاً من كتابه المقتصد والامثال لابي عبيد والامثال للميكالي . ثم حضر درس الميداني وصحح عليه السامي في الاسامي وجمع الامثال وكتاب المصادر للقاضي والمنتحل وغريب الحديث لابي عبيـد

وصحاح اللغة للجوهري . وأخذ الكلام عن ابراهيم الحرار ، وسمع من محمد الفزاري غريب الحديث للخطابي . واختلف مدة الى الامام ابي الهيصم الهروي وقرأ عليه ما شاء من دقائق العلوم .

وانتقل بعد وفاة والده الى مرو فقرأ على يحيى بن عبد الملك بن عبيد ابن صاعد ووصفه بأنه كان مَلَكاً في صورة انسان ، وخاض في المناظرة والمجادلة سنة جرداء حتى رضي عن نفسه ورضي عنه أستاذه . وأخذ يعقد مجالس الوعظ في الجوامع . وكان في تلك الحقبة ينظر في الحساب والجبر والمقابلة وأحكام النجوم ، فأتم هذه الصناعة في خراسان على أستاذها عثمان ابن جاذوكار فصار فيها مشاراً اليه ، ومضى الى سرخس وقد شهد من نفسه أنه مقصر في علم الحكمة فاتصل بالطبسي النصري ولم يفارقه إلا في سنة ٥٣٦ أي بعد أن بلغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً .

هذا ما كتب للبيهقي ان يدرسه من العلوم وهؤلاء من أخذ عنهم من الائمة . روى ذلك صاحب طبقات الادباء ولم يقل لنا كيف أتقن الفارسية حتى ألف فيها أيضاً فكأنه عدها شيئاً طارئا عليه لا شأن له بالنسبة الى الفروع التي أتقنها بالعربية ، فجاء كاتباً شاعراً واعظاً مؤلفاً مفكراً . او ان من ترجم له ذكر النواحي التي أهمته من حياته وما احتفل بما أتقن من أمور أخرى لا تخلو من أثر في تكوين شخصيته العظيمة .

وقد عدد ياقوت كتبه فكانت أربعة وسبعين كتاباً ، منها ما دخل في مجلدين فأكثر ، ومعظمها في العلوم الدينية ، ومنها ما كان في الادب والتاريخ مثل تتمة دمية القصر ، ودرة الوشاح ، ومشارب التجارب ، وعرائس النفائس ، وذخائر الحكم ، ومنها بضعة كتب في الحكمة ككتاب أسرار الحكم وأطعمة المرضى والمعالجات الاعتبارية ، وكتاب السموم وكتاب في الحساب وخلاصة الزيجة وأساس الادوية وخواصها ومنافعها وهو المعنون بتفاسير العقاقير وكتاب أمثلة الاعمال النجومية وكتاب مؤامراتها وكتاب

معرفة ذات الحلقة والكرة والاسطرلاب ، وكتاب احكام القراءات الى غير ذلك . ووضع بضعة كتب بالفارسية ومنها تاريخ بيهق . ويقول الصفدي في الوافي بالوفيات : للبيهقي تاريخ بيهق ، لعله كتبه بالعربية أو كتبه بالفارسية أولاً ثم نقله الى العربية (طبع في أوربا)

وقد ذكر صاحب المعجم طرفاً من شعره وقال انه كان يبتده الشعر . ونقل ما قاله العماد الكاتب الاصفهاني في الخريدة من وصفه له بالرياسة والشرف ، وروى ما قاله والد العماد في معرض الثناء على البيهقي انه ما نظر الى نظيره ولا مثلت لعينيه عين مثله . وذكره ابن خلكان في ترجمة الباخرزي صاحب دمية القصر . ومن شعره .

يا خالق الخلق حمَلت الورى　　لما طغى الماء على جاريه
وعبـــدك الآن طغى ماؤه　　في الصلب فاحمله على جاريه

ومن شعره :

تراجعت الامور على قفاها　　كما يتراجع البغـــل الجموح
وتستبق الحوادث مقدمات　　كما يتقدم الكبش النطوح

وقال من قصيدة :

الى كم أرجّي من زماني مسرة　　وقد شاب من رأس الزمان قذال
وبالٌ على الطاووس ألوان ريشه　　وعلم الفتى حقاً عليـــه وبال
وللدهر تفريق الاحبة عادة　　وللجهل داء في الطبـاع عُضال
لقد ساد بالمال المصون معاشر　　وأخلاقهم للمخزيات عيـــال
وبينهم ذلُ المطامع عزّةٌ　　وعندهم كسب الحرام حـلال

وترجم له الصفدي في الوافي واستشهدله من شعره بقصيدة جاء في مطلعها :

سرى طيفه وهنا ولي فيه مطمع　　وبرق الاماني في دجى الهجر يلمع

وعلق عليها بقوله : شعر متوسط واستعارات بعيدة ، وأراد بقوله فسكن ماء العين البيت أن يذكر الاربعة العناصر كما قال الآخر :

جفوني تذكي نارها نار حاسدي   اذا الريح جاءتنا بريّا ترابها

فلم يلطف مثل هذا » .

كان البيهقي سنياً جماعياً ، وكثرة أهل بلده متشيعة غالية ، يُفهم ذلك من تثبّت مشايخه الذين أخذ عنهم وكانوا من أهل السنة والجماعة .

شهد في أيامه مشهداً مؤلماً ، شهد الغزّ الترك يخربون في سنتي ٥٤٨ و ٥٥٦ بلاد خراسان ولا سيما نيسابور دار العلم فيها ويدكون جوامعها ويحرقون خزائن كتبها ويقتلون علماءها ويخربون مدارس الشافعية والحنفية .

قضى ظهير الدين حياته متعلماً يرتاد البلاد ويلقى الرجال ويأخذ عنهم وتثقف ثقافة جمعت بين علم الآخرة والدنيا فكان عالماً واعظاً متكلماً أديباً مؤرخاً حكيماً طبيباً ، وانصرف الى التأليف والوعظ والتدريس وتمحض للعلوم والآداب ، وكان فوض اليه ، وهو في السابعة والعشرين من سنه ، قضاء بيهق فقال عن نفسه : انه بخل بزمانه وعمره على انفاقه في مثل هذه الامور التي قصاراها ما قال شُرَيح القاضي : أصبحت ونصف الناس علي غضبان » والغالب انه كان من الموسع عليهم يعيش من ريع ما تركه له ابوه من ملك ، فما أحب التصرف ولا تولى القضاء .

للمؤلف كتاب تتمة صوان الحكمة تأليف أبي سليمان المنطقي السجستاني من حكماء القرن الرابع ، وهو الذي نشرناه باسم تاريخ حكماء الاسلام ولم يذكر المؤلف في التتمة ما سبق لصاحب الصوان ذكره لايقانه أنه جوّد في الترجمة لهم ، واقتصر على بعض حكماء خوارزم وخراسان وفارس والعراق. والتتمة كتاب في الفلسفة فيه تراجم حكماء اليونان خاصة . ولم يتعرض لذكر أحد من الشام وافريقية والاندلس . وكان على ما يظهر من بُعد المؤلف عن الشام وما وراءها ، وشدة الحروب الصليبية في أيامه ، وانقطاع المواصلات بين الشرق والغرب معذرة على ما يظهر عن قصوره في الترجمة لاهل الحكمة من أبناء الشرق القريب . على أن سوق الفلسفة كانت كاسدة في الشام ومصر وغيرها من اقطار الاسلام ، حاشا الاندلس ، فان

عظماء فلاسفتها نبغوا في تلك الحقبة . وفي الحق ان مصر والشام لم تخرج فلاسفة كما أخرجت أرض العجم والاندلس ، وكان غرامها بالحديث والفقه والشعر ثم التاريخ ونقل علوم القدماء .

فمعظم من ترجم لهم البيهقي كانوا من أهل القرن الخامس والسادس وبعضهم من الصابئة والمجوس واليهود واليعاقبة والنساطرة ممن نشأوا في ديار الاسلام وكتبوا تآليف بلغته . وأكثر غير المسلمين فيهم من أهل القرن الثالث والرابع ممن اقتبسوا الحكمة من يونان . ويمكن ان يقال ان تتمة صوان الحكمة كتب في زمن نضجت فيه الفلسفة عند المسلمين . ولم ينشأ في القرن السابع وما بعده فلاسفة عظماء على ما كان في القرن الثالث الى السادس ، ولا قام عالم من عيار الرازي والبيروني وابن هيثم وابن زهر وابن باجة الا على الندرة ، وفي القرون الكثيرة مثل ابن خلدون في افريقية وكمال الدين بن يونس في الموصل .

وعرفنا ممن ترجم لهم المؤلف كثيراً من الحكماء والمهندسين والاطباء والفلكيين والمنجمين وما كان لهم من تصانيف في الطب والحكمة والنجوم والهندسة وما وضعوه من الازياج والتقاويم ، وعرفنا بعض الاماكن التي حفظت فيها كتب الحكمة وضنانة الحكماء بها ، ورأيه فيما قرأه واستفاده ، وغرام الملوك والسوقة بالازياج وأخذ الطوالع من الافلاك ، ومبلغ اعتقادهم في صحتها على ما كان العرب في الجاهلية يعتقدون بالجن .

وادركنا حرص اصحاب السلطان على ارتباط الحكماء والاطباء بهم والانقطاع الى قصورهم ، وان بعض العظماء كانوا يشاركون مشاركة حسنة في العلم ، وان من الحكماء من تجردت نفوسهم عن المطامع فكانت نسبة الزاهدين فيهم أعلى من نسبتها في الفقهاء والمتصوفة ، وان الالفاظ الطنانة استفاضت في عصر المؤلف وقبله بعد أن كان يكتفي بتكنية مثل ابن سينا بابي علي والفارابي بابي نصر على جلالة قدرهما في العلوم والحكمة ، وعرفنا من كتابه ان التعصب كان بعيداً جداً عن الحكماء وعهدنا بأكثر

المؤلفين في تلك القرون يترجمون لاهل الاسلام كما يترجمون لمن لم يتل ملته بدون غرض ولا هوى . وقد ترجم المؤلف لنحو عشرين منهم من أصل مئة وخمسة عشر حكيماً ، وأعطاهم حقهم غير منقوص عاداً لهم جزءاً من أجزاء العلم الاسلامي ، ومفخرة من مفاخر تلك الاقطار كأهل صناعتهم من المسلمين حذو القذة بالقذة .

وأتانا كتابه ببرهان آخر على ان المدنية الاسلامية وحدة لا تتجزأ وان كل قطر متمم للاقطار الاخرى ، فاذا كانت خراسان خصت برجال الحكمة ، فالاقطار السائرة أخرجت رجالاً في فروع العلم غير قليلة ، واذا امتازت دمشق مثلاً بمؤرخيها وشعرائها ومحدثيها فان بغداد امتازت بفقهائها ومؤدبيها وندمائها .

ترجم البيهقي من ترجم لهم بالايجاز على الاكثر ، وقد توسع في ترجمة ابن سينا خاصة وأوجز في الترجمة للفارابي والبيروني والرازي وابن الهيثم وابن سهلان والراغب ومسكويه والبتاني وابي زيد البلخي والبوزجاني ويحيى بن عدي وحنين ابن اسحق وابن الضبي .

ومن أهم ما حرص على ذكره ما أثر لهم من حكم لطيفة اهتم بالتقاطها أكثر من اهتمامه بتدوين سني ولاداتهم ووفياتهم . وقد يغفل ترجمة الرجل ويكتفي بنقل ما عزي اليه من كلام جميل ، وكثيراً ما يذكر الرجل بكنيته فقط ، ولا يعني بتحقيق اسمه واسم ابيه ، وقد يذكر أم الرجل كما يذكر أباه .

وقد صور لنا كيف كانت تعج نيسابور واصفهان وجرجان وزنجان وشيراز ومرو والري وبلخ وغزنة بالحكماء ، هذا وهو لم يترجم لغير النابهين ، وهناك المغمورون ، وهناك الشادون ممن لم يكتب لهم حظ الانضمام الى المترجم لهم . علمنا مبلغ عناية أهل عصره بالاخذ من كتب أرسطو والفارابي وابن سينا.

وأتانا المؤلف ببرهان آخر على أن العربية كانت في بلاد فارس كما هي في كل بلد دخله الاسلام لغة الدين والعلم والدولة ، وانه قلَّ في هؤلاء الحكماء من كتب كتبه بغير العربية وندر فيهم من ألَّفوا باللغتين العربية والفارسية .

واذا جئنا نعارض بين تراجم حكماء الاسلام للبيهقي وطبقات الحكماء للقفطي نجد لكل من الكتابين مزية اختص بها لا يكاد يشاركه فيها صنوه فالقفطي ألف كتابه بعد البيهقي بنحو مئة سنة وفيه تراجم حكماء اليونان وبعضهم لم نعرف عنه شيئاً الا من كتابه . أما البيهقي فترجم لعظماء من فلاسفة الاسلام لم يتعرض لهم القفطي لانه لم يطلع على ما كتب سلفه ولو وقع القفطي على ما دون البيهقي قبله لضم تراجمهم الى كتابه ، وهم أحرياء أن يحشروا الى جانب أمثالهم من حكماء الاندلس ومصر والشام والعراق وغيرها ، وكذلك رأينا البيهقي أغفل جماعة أبي حيان التوحيدي لعدم اطلاعه على أمرهم .

(٤٠)

الحافظ ابن عساكر

ابو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن الملقب ثقة الدين والمعروف بابن عساكر

(٥٧١)

معظم من ترجموا للحافظ ابن عساكر ومنهم ابنه في سماعاته لم يذكروه بهذه الكنية ، وقيل انه ما كان يرتاح الى التكني بها ، ومع ذلك ما اشتهر بغيرها . وبيت ابن عساكر من بيوت دمشق المشهورة بالعلم ، تسلسل فيها بطناً بعد بطن . وكان خاله أبا المعالي محمد بن يحيى بن علي القرشي قاضي دمشق ، وكان الحديث والفقه أهم ما تدور عليه معارفهم . واشتهر بنو عساكر بالتقوى والتصدي لنفع الناس في دينهم .

ولد الحافظ في دمشق سنة تسع وتسعين واربعمائة وأخذ شيئاً من العلم عن أهله وانتفع بصحبة جده ابي الفضل في النحو ، وتفقه في حداثته على الفقيه ابي الحسن السلمي ، ورحل في صباه الى الشرق رحلة دامت خمس سنين ، وقام برحلات غيرها طالت أشهراً ، وسمع بمكة ومنى والمدينة والكوفة واصبهان القديمة واليهودية ومرو الشاهجان ونيسابور وهراة وسرخس وأبيورد وطوس وبسطام والري وزنجان وببلاد كثيرة في العراق وخراسان والجزيرة والشام والحجاز .

والظاهر انه اكتفى بمن أخذ عنهم من الشيوخ في هذا الجزء من آسيا ولم يتعدها الى افريقية ، لما اشتهر من تخلف المصريين في علم الحديث ، وحضر الدرس بالمدرسة النظامية في بغداد ، وعلق مسائل الخلاف على

ابي سعيد الكرماني . وبلغ عدة شيوخه ألفاً وثلاثمائة شيخ وثمانين امرأة ونيفاً ، وممن أخذ عنهم فأكثر ابو سعيد السمعاني ، وروى هو عنه وكان رفيقه في بعض رحلاته .

حفل وطاب الحافظ بما تلقاه من محدثي عصره وعلمائه ، فغدا محدث الشام ومن أعيان فقهاء الشافعية ، بل « فخر الشافعية وامام أهل الحديث في زمانه وحامل لوائهم » و « غلب عليه الحديث واشتهر به وبالغ في طلبه الى ان جمع منه مالم يتفق لغيره » قال ابن خلكان : « وصنف التصانيف المفيدة وخرج التخاريج ، وكان حسن الكلام على الاحاديث محظوظاً في الجمع والتأليف » . وقالوا فيه انه كان « مواظباً على صلاة الجماعة ملازماً لقراءة القرآن وكان يختم في رمضان والعشر كل يوم ختمة ، ولم يُر الا في الاشتغال بعلم وعبادة يحاسب نفسه على كل لحظة » و « لم يجتمع في شيوخه ما اجتمع فيه من لزوم طريقة واحدة منذ اربعين سنة ؛ يلازم الجماعة في الصف المقدم ، الا من عذر مانع » و « الاعتكاف والمواظبة في الجامع ، واخراج حق الله ، وعدم التطلع الى اسباب الدنيا ، واعراضه عن المناصب الدينية كالامامة والخطابة بعد ان عرضتا عليه » و « كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي قد بنى له دار الحديث النورية فدرس بها الى حين وفاته غير ملتفت الى غيرها ولا متطلع الى زخرف الدنيا » .

اتصل الحافظ بالملكين العادلين نور الدين محمود بن زنكي وصلاح الدين يوسف بن أيوب اتصالاً وثيقاً يأخذان عنه الحديث والفقه ، وكان لهما المستشار الامين ينصح ولا يقول الا الحق ، وكان من تشاكل الاستاذ مع الآخذين عنه في الفكر والسياسة ما عاد بالنفع على الامة ، ولو لم يكن الملكان من المعجبين بالحافظ ما اقتطعا من وقتهما الثمين ساعات للتلقي عنه والتبرك بروايته ودرايته ، في عصر كثرت فيه المشاكل السياسية من حرب الصليبيين العظيمة وفيها ما يشغل عن كل شيء . ولما مات الحافظ شيع صلاح الدين جنازته وحضر الصلاة عليه ، والعظيم يعرف العظيم . ولا نعدو الصواب

ذا ادعينا ان منزلة الحافظ من الملكين العظيمين كانت منزلة الاستاذ من تلميذه أو الأخ من أخيه . ويروى انه بينا كان يلقي الحديث على صلاح الدين في المدرسة العادلية سقطت مرموجة على طرف ثوب السلطان رماها بعض مماليكه عن غير قصد وهو يلعب مع رفاقه ، فتشاغل الملك عنهم فالتفت اليه ابن عساكر وكلمه كلاماً فيه بعض اللوم على الافراط في الحلم وقال له انه كان أيام الماضي نور الدين يروي الحديث فيستمع اليه كل من في الدار كأن على رؤوسهم الطير . ونور الدين هو الذي كان السبب في تعجيل الحافظ بتأليف كتابه تاريخ دمشق .

بلغت تآليف ابن عساكر اربعين مصنفاً واجلها « تاريخ مدينة دمشق واخبارها وتسمية من حلها أو وردها او اجتاز بنواحيها » ، وهو على نسق تاريخ بغداد ، اتى فيه بالعجائب كما قال العارفون : قال ابن خلكان : وقد جرى ذكر هذا التاريخ مع العلامة المنذري حافظ مصر واخرج منه مجلداً ، وكان الحديث في امره واستعظامه ، ما أظن هذا الرجل الا عزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه وشرع في الجمع من ذلك الوقت ، والا فالعمر يقصر عن ان يجمع فيه الانسان مثل هذا الكتاب ، بعد الاشتغال والتنبه . واردف ابن خلكان ذلك بقوله : ولقد قال الحق ، ومن وقف عليه عرف حقيقة هذا القول ، ومتى يتسع للانسان الوقت حتى يضع مثله ، وهذا الذي ظهر هو الذي اختاره ، وما صح له هذا الا بعد مسودات ما يكاد ينضبط حصرها وله غيره تواليف حسنة » . وعبارته في مقدمة تاريخه « ورقي خبر جمعي له الى حضرة الملك الكامل العادل الزاهد المجاهد المرابط الهمام ابي القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر الامام ادام الله ظل دولته ... وبلغني تشوقه الى الاستنجاز له والاستتمام ، ليلم بما فيه : ما تيسر من بعض الالمام ، فراجعت العمل فيه راجياً الظفر بالتمام ... »

ومن تآليفه « تبيين كذب المفتري على ابي الحسن الاشعري » وهو كتاب تتجلى فيه شخصيته الدينية كما نم عليه تاريخه العظيم الذي ظهر به

تفننه في الترجمة للناس والعرض لاخبارهم وشعرهم ونثرهم ، وقد جمعه على شرط المحدثين بالسند والرواية ، ولا شك انه طالع مئات من الكتب ليقتبس ما يلزمه منها ، وهو كنز عظيم من كنوز الاجداد عجز الجماعة عن وضع مثله فكيف بفرد لم يعمر طويلا بالقياس الى المعمرين ، ولكن الحافظ بورك له بساعات عمره لما حرص هو على عدم اضاعته .

ماخرج ابن عساكر عن الحديث والفقه والتاريخ والاخبار والادب وهي الموضوعات التي خاض عبابها ، وما كان اعتماده على النقل فقط بل كان يستعمل العقل ، وفي القليل مما وصل الينا من مصنفاته برهان على ذلك . فقد رأيناه معنياً بحل المشاكل يناقش ويجادل بعيداً في الجملة عن تعصب أهل مذهبه ، وكأنه أقرب الى الاجتهاد منه الى الجمود والتقليد ، والوقوف عند أقوال من كان قبله ، والتاريخ يوسع العقل ويورث صاحبه نوراً لا يستضيء بمثله عقل من لم يرزق حظاً عظيماً من النظر فيه .

نفعت الحافظ صفاته الشخصية الممتازة ومن أهمها أمانة المؤرخ وصدق المحدث ، وهما من أعظم ما يطلب منهما ، فكانت له الحظوة التامة عند الامة وعند الملوك ، ومن اشتهر بهذه الصفات الغر كان حرياً بأن يقبل الناس على ما يقول ويكتب ، ومن أهم ما نفعه في دراسته رحلاته المتعددة في ديار الاسلام أيام صباه ، وتلقيه العلم على أئمة العلماء ، والأخذ عمن اشتهر في الأمصار من الرجال فعلا سنده وغزر علمه ، واتسع أفق نظره وزادت معارفه فيما أخذ نفسه به وذلك بالاطلاع على مجاميع ومصنفات ما كانت تتيسر له في بلده . ولما كان الجدُّ مرماه في عامة أموره ، أدى ذلك الى جودة انتاجه ووفرته .

يعدُّ ابن عساكر من المكثرين من التأليف والمجودين فيه ، ألف ما ألف لدواع دعته ، ومناسبات تقاضته جهداً عظيمة ، ولا قصد له الا خدمة الاسلام والمسلمين ، ولو قد سلمت مصنفاته كلها من التلف لكان منها خزانة لطيفة تنطق ببعد غور صاحبها ، وبها أثبت أن شهرته

كفاء علمه الواسع ، وأنه من أنبغ رجال الدين ، عُني بتعبيد الطرق الى اقتباس العلم وتقريب مناله على المستفيدين .

ترجم للحافظ رفيقه وصديقه الحافظ السمعاني فقال : انه كان كثير العلم غزير الفضل حافظاً متقناً ديناً خيراً ، حسن السمت ، جمع بين معرفة المتون والأسانيد ، متثبتاً محتاطاً . وقال العماد في الخريدة انه كان يتردد اليه في دمشق ورآه قد صنف تاريخ دمشق وذكر انه في سبعمائة كراسة كل كراسة عشرون ورقة . وقال انه في خمسمائة وسبعين جزءاً والنسخة الجديدة ثمانمائة جزء . قال العماد : وسمعت بعضه منه ، ودخلت عليه ذات يوم فعرضت عليه ما أورده السمعاني في حقه وسمعت المقطعات الثلاث اللامية والتائية والغينية من لفظه . وقال : صدق السمعاني . قال العماد : هو الحافظ الذي تفرد بعلم الحديث والاعتقاد الصحيح ، المنزه عن التشبيه ، المحلى بالتنزيه ، المتوحد بالتوحيد ، المظهر شعار الاشعري بالحد الحديد والجد الجديد والأيد السديد .

قال : ومما أنشدنيه لنفسه وقد أعفى الملك نور الدين أهل دمشق من المطالبة بالخشب فورد الخبر باستيلاء عسكره على مصر فكتب اليه يهنئه قصيدة من أبياتها .

لما سمحت لأهل الشام بالخشب عُوّضت مصر بما فيها من النشب
وان بذلت لفتح القدس محتسباً الأجر جوزيت خيراً غير محتسب
ولست تعذر في ترك الجهاد وقد أصبحت تملك من مصر الى حلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا وفي القيامة تلقى حسن منقلب

وشعر ابن عساكر شعر الفقهاء . وكان يختم معظم دروسه بايراد شيء من شعره ، ونثره ارقى نثر في عصره ، واذا ترك السجع واستعمل المرسل كان وصفه من الجيد البديع .

قد يسأل سائل وهل تعدت يا ترى شهرة ابن عساكر أرض الشام

وما اليها أو تجاوزتها الى بيئات أخرى ؟ فالظاهر انه كان علماً في شهرته بين أرباب الحديث وحملة التاريخ في الاقطار ، وانتقلت أخبار علمه الى بلدان ما كان له بحسب الظاهر اتصال بها . وفي حياته كان صيته بحديثه على ما يظهر أكثر من شهرته بتاريخه ، وبعد مماته شهر بتاريخه واستفاضت شهرته حتى سرت الى من لم يكن يظهر انها تسير اليهم . والناس في معظم العصور مولعون بهذين الفنين السهلين الصعبين الحديث والتاريخ فلذلك كثر الآخذون من تأليف مؤلفنا ، لأنهـــا أخذت بنصيب من التنقيح والامتاع .

ويكفي أن يقال عن تاريخ دمشق انه حوى عدة كتب مستقلة ، كما قالوا في تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري ، فكل طالب يجد فيه ضالته ، وقد يستغني الناس عن كتاب لأن في غيره ما يشبهه او يقرب منه ، ولكن تاريخ دمشق لاغنية لكل مهذب عن النظر فيـه ، واتخاذه جليسه وسميره ، والاعتماد عليه في الوقوف على تراجم من كان لهم شأن في هذا المجتمع . أخذ عمن سبقه وجوّد الأخذ ، وتعلقت الاقدار ان ضاع بعض مصادره ، ولولا ان جمعها في هذا التصنيف الممتع لضاع جانب عظيم من تراجم الرجال ، وتاريخ هذه الأمة .

ومن أجل هذه المزايا التي جمعها هذا التاريخ كان ينظر اليه على أنه تاريخ العالم الاسلامي وينظر اليه أهل كل قطر نظرهم الى كتاب حوى بغيتهم ولا يستغنون عن الأخذ منه .

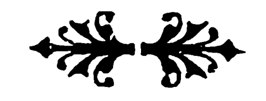
وكأن مؤلفنا شعر بأن الناظرين في تاريخه العظيم قد يعروهم الملل من كثرة أسانيده فحلاه بالشعر يرويه لمن كان لهم شعر من الرجال ، ويستطرد استطرادات في محلها للترويح عن النفوس ، فأثبت أنه فنان يحسن التأثير في قلب سامعه . ومع هذا بدا لبعض العلماء من القديم أن يختصروا تاريخه ليخف محمله فاقتصروا منه على ما يروقهم من صفحاته فقد اختصر المؤرخ أبو شامة (٦٦٥) صاحب كتاب الروضتين الاكبر

من مختصره في خمسة عشر مجلداً ، والاصغر في خمس مجلدات ، وكان القوم يتلقون من أبي شامة في جامع دمشق تاريخ ابن عساكر وتاريخ الروضتين ، واختصر تاريخ دمشق ابن عبد الدائم المقدسي (٦٨٠) وسماه « فاكهة المجالس وفكاهة المجالس » أخذ ما راقه من الشعر والنثر والجد والهزل وأخبار الماضين والملوك السالفين ، وممن اختصره ابن المكرم (٧١١) صاحب لسان العرب في نحو ربعه ، وبدر الدين العيني (٨٧٥) ، وانتقى منه جلال الدين السيوطي (٩١١) سماه « تحفة المذاكر المنتقى من تاريخ ابن عساكر » واختصره من المتأخرين الشيخ عبد القادر بدران . ولتاريخ دمشق أذيال منها ذيل ولد المصنف القاسم ولم يكمله ، وذيل صدر الدين البكري ، وذيل عمر بن الحاجب ، وذيل عليه الحافظ علم الدين البرزالي وذيل ابي يعلي بن القلانسي وغيرهم .

قلنا ان تاريخ دمشق كتاب عظيم يحمل في تضاعيفه عدة كتب ويسهل استخراج دراسات مختلفة الموضوعات منه . وكان للمؤلف الفضل في جمع هذه الاخبار والاساطير لأنه حرص على ألا يخلي كتابه مما يفيد جميع الطبقات ، وقد يسرد أشياء لا يعتقدها فيما نحسب ، والعقل يمحص وينفي الزغل . وأي كتاب للمحدثين والاقدمين سلم من نقد ومؤاخذة . وكانت أماني الباحثين أن يحمل اليهم الكتاب القديم كما كتبه مؤلفه . وكان يقوم من العلماء القرن بعد القرن من يجمع وينسق وينشره للعبرة أو للتفكهة أو لغير ذلك من المقاصد . وليس من العقل اختيار كل شيء وفي هذا التاريخ على سقم بعض الروايات أشياء مهمة من الصحاح تدل على عناية العلماء قديماً برواية الحديث والفصل بين صحيحه وسقيمه .

وبعد فان عقلاً كعقل الحافظ ابن عساكر من المستحيل ان يقول بهذه الخرافات والاساطير التي وردت في مقدمة تاريخه وهو من أعرف العلماء بالاحاديث الضعيفة والموضوعة ، وقد قال العلماء مثلاً كل ما يروى من الاحاديث في فضل

البلدان لا أصل له . والمؤرخ قد ينقل أخبار أهل النحل والمذاهب من دون ان ينفيها أو يقرها على ما جرى أبو الريحان البيروني في وصف مذاهب الهند ولم يطعن فيها ولا هزأ بما يعتقد المعتقدون فيها ، واكتفى بتصحيح الرواية وابتعد عن التزيد . ثم ان العلم في القرن السادس كان غير ما هو عليه في هذا القرن ، والمؤلف انما كان يكتب في قرن ما ارتقت فيه العلوم ارتقاءها لعهدنا ، وما ألف المؤلفون أن يدرسوا التاريخ كما أخذ المعاصرون يدرسونه ، وكان الفضل في ذلك لابن خلدون واضع فلسفة التاريخ .



(٤١)

عماد الدين الكاتب

محمد بن محمد

(٥٩٧)

قالوا خرج من اصبهان من العلماء والأئمة في كل فن مالم يخرج من مدينة من المدن وعلى الخصوص علم الاسناد فان أعمار أهلها تطول ولهم مع ذلك عناية وافرة بسماع الحديث ، وبها من الحفاظ خلق لايحصون ولها عدة تواريخ . والعماد الكاتب هو من هذه المدينة الجميلة ، نشأ بها وجاء بغداد شاباً ، فانتظم في سلك طلبة المدرسة النظامية وتفقه بأجلة فقهائها ومحدثيها واجازوا له ، ثم رجع الى اصفهان فتفقه بها أيضاً على الجندي والوركاني ، وعاد الى بغداد واشتغل بصناعة الكتابة فبرع فيها ونبغ . واتصل بالوزير يحيي بن هبيرة فولاه النظر في البصرة ثم بواسط ، ولما توفي ابن هبيرة أقام العماد ببغداد مدة منكد العيش ، ثم انتقل الى دمشق فأنزله قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري بالمدرسة النورية ، وكان للعماد معرفة بنجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين ، عرفه بتكريت حين كان نجم الدين والياً عليها ، فلما سمع نجم الدين بوصوله بادر للسلام عليه في منزله ومدحه العماد بقصيدة جاء في مطلعها :

يوم النوى ليس من عمري بمحسوب ولا الفراق الى عيشي بمنسوب
مااخترت بعدك لكن الزمان أتى كرها بما ليس يامحبوب محبوبي

وكان القاضي الشهرزوري يذكر العماد عند السلطان نور الدين وذكر له تقدمه في العلم والكتابة وأهله لكتابة الانشاء ، فتردد العماد في الدخول

فيما لم يتقدم له اشتغال طويل به ، مع توفر مواد هذه الصناعة عنده ، خوفاً من التقصير فيما لم يمارسه ، ثم أقدم بعد الاحجام فباشرها وأجاد فيها حتى زاحم القاضي الفاضل بمنكب ضخم . وكان ينشيء الرسائل بالفارسية أيضاً فيجيد فيها اجادته بالعربية .

وعلت منزلته عند نور الدين وصار صاحب سره وفوض اليه تدريس المدرسة العمادية ، وولاه الاشراف على ديوان الانشاء . ولما توفي نور الدين وولي ابنه الملك الصالح اسماعيل اغراه بالعماد جماعة كانوا يحسدونه ويكرهونه ، فخاف على نفسه وخرج من دمشق قاصداً بغداد ، فوصل الى الموصل ومرض بها ، ولما أبل من مرضه بلغه خروج السلطان صلاح الدين من مصر قاصداً دمشق ليستولي عليها ، فعزم على الرجوع الى الشام وخرج من الموصل فوصل الى دمشق وسار منها الى حلب فلزم بابه ينزل بنزول السلطان ويرحل برحيله .

هذا مانقله ياقوت ، قال : ولم يزل يغشى مجالسه ملازماً لخدمته ، حتى قربه واستكتبه واعتمد عليه ، فتصدر وزاحم الوزراء وأعيان الدولة ، وعلا قدره وطار صيته . قالوا ولما دخل القاضي الفاضل على صلاح الدين لما أدخل عليه العماد الكاتب قال له غداً يأتيك تراجم الاعاجم وما يحلها مثل العماد . فقال له السلطان مالي عنك مندوحة أنت كاتبي ووزيري ورأيت على وجهك البركة ، فاذا استكتبتُ غيرك تحدث الناس . فقال : العماد يحل التراجم ولربما أغيب أنا فاذا غبت قام مقامي . وكان اذا انقطع القاضي الفاضل عن الديوان ناب عنه في النظر عليه ، وألقى اليه السلطان مقاليده وركن اليه باسراره فتقدم الأعيان وأُشير اليه بالبنان .

وكان عماد الدين محل ثقة القاضي الفاضل آمناً من توثبه عليه ولهذا كان يطمئن اليه اذا غاب عن السلطان . وكان شديد الحرص على تحصيل الدنيا ، وكان الفاضل يلومه ويعتبه ويعزله ويؤنبه على ذلك فلا يرعوي وله في هذا حكايات منها أن رجلاً من اهل حمص جاءه بطبق كيزان

وتفصيلة كتان قيمة ذلك كله نحو خمسين درهماً ، وسأل حاجة فأخذ قصته وقرأها على السلطان وكان قد بلغه الخبر فلم يجبه ، فأعاد العماد عرض القصه وقراءتها مرات في مجالس عدة والسلطان لايأمر فيها ولا ينهي ، ففطن العماد وعلم ان الخبر قد اتصل بالسلطان فأعاد عرض القصة فلم يجبه عنها . قال : يامولانا الطبق الذي أحضره صاحب هذه القصة باق الى الآن لم أتصرف فيه ، فان كان ماينقضي شغله اعدت عليه طبقه ، فضحك السلطان وعجب من دناءة نفسه وأمر بقضاء شغل الرجل .

وكان شديد التهافت على اخذ الختوم الذهب التي تجيء على كتب الفرنج ، فوصل منهم كتاب بغير حضوره ففتحه السلطان بيده وأخذ بعض الحاشية الختم ، فلما جاء العماد قيل له اكتب جواب هذا الكتاب فقال يكتب جوابه من اخذ الختم فعز قوله على السلطان وقال له : قم اخرج ، الوقت ماهو محتاج اليك . فأتى الى الفاضل وعرّفه ماكان فقال له رُح الى الخانكاه واقعد بها مع الفقراء والبس زيهم ، فاذا طلبك السلطان قل انا دخلت في أمر لاأخرج منه ثم لاتخرج حتى يأتيك السلطان بنفسه مترضياً . وكان من هـذا التدبير ان جاءه السلطان وترضاه .

ومن شعره :

هي كتبي فليس تصلح من بعـ ... دي لغير العطار والاسكاف
هي اما مزاود للعقاقيـ ... ـر واما بطائن للخفـاف

ولما توفي صلاح الدين اختلت احوال العماد ولزم بيته وأقبل على التصنيف والافادة حتى توفي . وله من المصنفات خريدة القصر وجريدة العصر تراجم شعراء الشام والعراق ومصر والجزيرة والمغرب وفارس ممن كان بعد المائة الخامسة الى مابعد سنة سبعين وخمسمائة ، وله البرق الشامي والفتح القسي في الفتح القدسي وهـذا مطبوع ، وله غير ذلك من الكتب والدواوين .

أما انشاؤه فسجع وفي الفتح القسي منه مثال يأتي على حلم الحالم ،

لما أكثر فيه من الجناس وأتى من أنواع البديع . وقد شهد القاضي الفاضل بأنه كالزناد ظاهره بارد وباطنه فيه نار . ونحن نقول ان شهرته أعظم من حقيقته . لا جرم أنه متمكن من اللغة يصرفها كما يشاء بقلمه ، وتكلفه لا يخفى على صاحب هذا الفن . وفي الفصل الذي عقده في الفتح القسي لوصف نساء الافرنج اللاتي فدين أنفسهن في الحروب الصليبية للترفيه عن بني قومهن في فلسطين مثال بين من ذلك . وما قيل في نثره يقال في شعره ، فانه يكثر فيه الجناس أيضاً حتى يفقد سلاسته ، ولنا أن نقول انه شاعر أرقى من الوسط وناثر كذلك ، هيأت له الأيام شهرة طالما تخطت من بذوه وما ساواهم في أدبهم وأخلاقهم . ومن قصائده الطوال في مدح السلطان صلاح الدين قصيدة ضمنها فتح القدس وفلسطين قال في مطلعها :

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا ... وتعتاض من ذكراكم وحشتي أنسا
وأسأل عنكم عافيات دوارس ... غدت بلسان الحال ناطقة خرسا
معاهدكم ما بالها كعهودكم ... وقد كررت من درس آثارها درسا
وقد كان في حدس لكم كل طارف ... وما جئتم من هجركم خالف الحدسا
أري حدثان الدهر ينسي حديثه ... وأما حديث الغدر منكم فلا ينسى
تزول الجبال الراسيات وثابت ... رسيس غرام في فؤادي لكم أرسى
حسبت حبيبي قاسي القلب وحده ... وقلب الذي يهوى بحمل الهوى أقسى

ومنها :

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا ... وأشرف من أضحى واكرم من أمسى
وقيل لنا في الارض سبعة أبحر ... ولسنا نرى الا أنامله الخمسا
سجيته الحسنى وشيمته الرضى ... وبطشته الكبرى وعزته القعسا
فلا عدمت أيامنا منه مشرقاً ... ينير بما يولي لياليها الدمسا
جنودك أملاك السماء وظنهم ... أعاديك جناً في المعارك او انسا

ومن غزلياته قوله :

أفدي الذي خلبت قلبي لواحظه وخلفت لذعات الوجد في كبدي
صفات ناظره سقم بلا ألم سكر بلا قدح جرح بلا قود
على محياه من نار الصبا شعل وورد خديه من ماء الجمال ندي

ومن حكمياته :

اقنع ولا تطمع فان الغنى كماله في عزة النفس
فانما ينقص بدر الدجى لأخذه الضوء من الشمس

وقال :

وما هذه الايام الا صحائف يؤرخ فيها ثم يمحى ويمحق
ولم أر في دهري كدائرة المنى توسعها الآمال والعمر ضيق

ا
و
و
بما
م

ياقوت

عبد الله شهاب الدين

(٦٢٦)

كان مولد ياقوت في الروم ، وأخذه المسلمون أسيراً وهو طفل ، واشتراه في بغداد تاجر يعرف بعسكر الحموي فنسب اليه فقيل له ياقوت الحموي كما قيل له الرومي ، وجعله سيده في الكتاب يتعلم ما يستفيد هو منه في ضبط متاجره ، وقرأ شيئاً من النحو واللغة وشغله مولاه بالأسفار ، وفي سنة ٥٩٦ أعتقه فاشتغل بالنسخ بالاجرة وحصل بالمطالعة فوائد .

ودعاه مولاه القديم فأعطاه شيئاً وسفره الى كيش وعمان ولما عاد من سفرته كان سيده قد مات ، فأعطى أولاده وزوجته ما أرضاهم به ، وبقيت بيده بقية جعلها رأس ماله وسافر بها وجعل بعض تجارته كتباً ، وسهل عليه ان يطوف الشام والعراق والجزيرة وخراسان واستوطن مرو ودخل خوارزم وجاب البلاد مابين جيحون والنيل ، وكانت له همة عالية في تحصيل المعارف ، وشهد غارات التتر في خراسان ايام كونه فيها ووصف أعمالهم في الاقطار الاسلامية ، وفقد ثروته غير مرة فعدّ من المفلوكين .

قيل انه كان طالع شيئاً من كتب الخوارج فاشتبك في ذهنه منها طرف قوي ، وتوجه الى دمشق في سنة ٦١٣ وقعد في بعض أسواقها وناظر بعض من يتعصب لعلي وجرى بينهما كلام أدى الى ذكره علياً بما لا يسوغ ، فثار الناس عليه ثورة كادوا يقتلونه فسلم منهم ، وخرج من دمشق منهزماً .

ويدرك المرء بعد هذه الالمامة اليسيرة بسيرة ياقوت كيف ساعدته الاقدار فدرس الكتب واستفاد من نسخها وزاده تنقله في الاقطار توسعاً في المعارف فاطلع على ما لم يطلع عليه غير قلائل من المؤلفين ، فكان ذلك مما ضاعف الامتاع بكتبه فكتب لها البقاء لحاجة الناس اليها ، ولأن صاحبها كتبها عن درس ومشاهدة وخبرة ، ويمتاز على غيره بأنه عرف جزءاً عظيماً من ديار الاسلام معرفة اكيدة وأدرك الرجال ولقي شيوخ عصره.

كان ياقوت رقيق العاطفة مرهف الحس دؤوباً على العمل يحمل نفساً زكية دراكة . كان صريحاً في قوله لا يدالس ولا يصانع ، يقول ما يعم وان اغضب وارضى ، فيه صدع العلماء بالحق وصدق الصادقين من الرواة .

قال عن نفسه : اني كنت قدمت نيسابور في سنة ٦١٣ وهي الشاذياخ فاستطبتها وصادفت بها من الدهر غفلة خرج بها عن عادته واشتريت بها جارية تركية لا ارى الله تعالى خلق احسن منها خَلقاً وخُلقاً ، وصادفت من نفسي محلاً كريماً ، ثم ابطرتني النعمة فاحتججت بضيق اليد فبعتها فامتنع عليَّ القرار ، وجانبت المأكول والمشروب حتى أشرفت على البوار فأشار عليَّ بعض النصحاء باسترجاعها فعمدت لذلك واجتهدت بكل ما أمكن فلم يكن الى ذلك سبيل لأن الذي اشتراها كان مولاً ، وصادفت من قلبه أضعاف ما صادفت مني ، وكان لها ميل اليَّ يضاعف ميلي اليها فخاطبت مولاها في ردها عليَّ بما أوجبت به على نفسها عقوبة فقال في ذلك قصيدة يصف الحال :

ألا هل ليالي الشاذياخ تؤوب ... فاني اليها ما حييت طروب
بلاد بها تصبي الصبا ويشوقنا ... الشمال ويقتاد القلوب جنوب
لذاك فؤادي لا يزال مروّعا ... ودمعي لفقدان الحبيب سكوب
ويوم فراق لم يرده ملالة ... محب ولم يجمع عليه حبيب
ولم يحد صاد بالرحيل ولم يرع ... عن الالف حزن أو يحول كثيب
أإنٌ ومن أهواه يسمع أنتي ... ويدعو غرامي وجده فيجيب

وأبكي فيبكي مسعداً لي فيلتقي شهيق وأنفاس له ونحيب
على أن دهري لم يزل مذ عرفته يشتت خلاّن الصفا ويُريب
ألا يا حبيباً حال دون بهائه على القرب باب محكم ورقيب
فمن يصح من داءِ الخمار فليس من خمار خمار للمحب طبيب
بنفسي أفدّي من أحب وصاله ويهوى وصالي ميله ويُنيب
ونبذل جُهْدَينا لشمل يضمنا ويأبى زماني ان ذا لعجيب
وقد زعموا ان كل من جدّ واجد وما كل أقوال الرجال تُصيب

هذا مثال من شعر ياقوت وكان مقلاً منه، وقد أورد له ابن خلكان رسالة مطولة كتبها من الموصل الى القاضي الاكرم القفطي وزير صاحب حلب حين وصوله الى خوارزم هارباً من التتر يصف فيها بالسجع ما لقيه من البلاء وما ارتكبه التتر من الشرور . ووصف تلك الديار وأهلها وعلمهم وأخلاقهم وصفاً جيداً . وفي هذه الرسالة استشهد بأبيات كثيرة من الشعر دلّ بها على وفرة محفوظه وحضور ذاكرته .

ثلاثة كتب طبعت لياقوت اشتهر بها وخلد ذكره : (معجم البلدان) و (المشترك وضعاً والمختلف صقعاً) و (ارشاد الاريب الى معرفة الاديب) . أو طبقات الادباء ، وكلها مما أحياه المستعربون من الغربيين لهذا الرومي المستعرب العظيم ، وقد خدم بها تاريخ الرجال وتاريخ البلدان خدمة عظيمة ، فهو في الجغرافيا العربية والآداب العربية نسيج وحده حقق في كل ما وضع تحقيقاً لا يصل غيره الى مثله في عصره وبعد عصره .

رتب معجم البلدان على حروف المعجم وذكر فيه أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهار والغدران والأصنام والأوثان معتمداً في تأليفه على من كتب قبله في تقويم البلدان من العرب وعلى اللغويين ودواوين العرب والمحدثين وتواريخ أهل الأدب ، والتقط من أفواه الرواة وتفاريق الكتب وما شاهد في أسفاره وحققه بنفسه من أسماء البلدان ما عظمت به فائدته .

كان ياقوت محتاطاً فيما ينقله عن غيره قال مثلاً في احدى المدن : ولها قصة بعيدة من الصحة لمفارقتها العادة وأنا بريء من عهدتها انما اكتب ما وجدته في الكتب المشهورة التي دونها العقلاء . وقال فيما نقل عن الصين : « وهذا شيء من أخبار الصين الاقصى ذكرته كما وجدته لاأضمن صحته ، فان كان صحيحاً فقد ظفرت بالغرض ، وان كان كذباً فتعرف ماتقوله الناس ، فان هذه البلاد شاسعة مارأينا من مضى اليها فأوغل فيها وانما يقصد التجار اطرافها » وكأنه بما ينقل من الاوهام والخرافات يحاول ان لايخلي كتابه من كل أطروفة ولو كانت سخيفة ، ليستفيد منه الجاهل وينفكه به العالم ، ويزيد به المتعلم الاديب درساً ، وقد توسع خاصة في الكلام على المدن التي انشأتها العرب .

حرص في معجم البلدان على الالمام باخبار فتوح البلاد وعمرانها وامرائها ومرافقها وعاداتها واخلاق اهلها ومن خرج منها من المشاهير وما وقع فيها من الوقائع التاريخية وما قيل فيها من الاشعار البديعة ، فأمتع قارئه بكل مفيد حسب ماوصل اليه علمه ، ووقع عليه في كتاب او استقرأه بنفسه ونقله عن الثقات . وهذا جماع مافي معجمه مما ادركه في عمره او اقتبسه من الاصول المتقنة في خزائن مرو قال : «كانت سهلة التناول ، لايفارق منزلي منها مائتا مجلد واكثر ، وبغير رهن ، تكون قيمتها مائتي دينار فكنت ارتع فيها واقتبس من فوائدها ، وانساني حبها كل بلد والهاني عن الاهل والولد ، واكثر فوائد هذا الكتاب (معجم البلدان) وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن ، وما كان له ان يفارق مرو لولا ورود التتر الى تلك الارجاء .

ومن معجم البلدان فقط يتألف ديوان لطيف من المقاطيع والقصائد التي استشهد بها ، وكتاب في عجائب البلدان والخليقة وأخلاق الناس وعاداتهم ودرجة الرفاهية والثروة في عصره او قبل عصره . ويفيض في كلامه على الحواضر يذكر من خرج منها من الاعيان ولا سيما رجال الحديث ، وقد تظفر فيه بتراجم مطولة لرجال أغفل بعض مصنفي الطبقات ذكرهم .

وهو كتاب خاص بديار الاسلام والشرق كتب بكثير من التحفظ اذا وقع التنظير بين ما نقله وما نقله المؤلفون في عصره وبعد عصره . فقد قال في الروم مثلاً « وفي أخبار بلاد الروم اسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها ، فليعذر الناظر في كتابي هذا ، ومن كان عنده أهلية ومعرفة وقتل شيئاً منها علماً ، فقد أذنت له في اصلاحه مأجوراً » وهذا ديدن العلماء في القديم والحديث يدعون العارفين الى تصحيح هفواتهم أو الى تقدم للوصول الى الحقائق .

أما كتاب « المشترك وضعاً والمفترق صقعاً » فقد انتزعه بنفسه من معجم البلدان واقتصر فيه على ما اتفق من أسماء البقاع لفظاً وخطاً ووافق شكلاً ونقطاً وافترق مكاناً وعملاً ، توفيراً لوقت المطالع الذي يحب السرعة في تلقف الفوائد ، وبعداً به عما ذكره في معجمه الكبير من الاشتقاق والشواهد والنكت والفوائد والأخبار والاشعار . ودعا ياقوت على من يختصر بعده كتابه معجم البلدان ، وما نجا مع هذا من أناس حاولوا اختصاره ، ومنهم صفي الدين عبد المؤمن اختصره وسماه « مراصد الاطلاع » .

بقي ان نطلق القول في كتاب ياقوت الثالث وهو « ارشاد الاريب الى معرفة الاديب » وفيه جمع ما وقع من اخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والاخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتاب المشهورين واصحاب الرسائل المدونة وارباب الخطوط المنسوبة وكل من صنف في الادب تصنيفاً ، مثبتاً وفياتهم ومواليدهم وتصانيفهم واخبارهم وانسابهم واشعارهم . قال : فأما من لقيته او لقيت من لقيه فأورد لك من أخباره وحقائق اموره ما لا اترك لك بعده تشوقاً الى شيء من خبره ، وانه جمع للبصريين والكوفيين والبغداديين والخراسانيين والحجازيين واليمنيين والمصريين والشاميين والمغربيين وغيرهم على اختلاف البلدان وذلك على حروف المعجم ايضا . وقال في الاعتذار عن نفسه ولمن يقول

له ان الاشتغال بأمر الدين اهم : ان هذه اخبار قوم عنهم اخذ القرآن والحديث ، وبصناعتهم تنال الامارة ويستقيم امر السلطان والوزارة ، وبعلمهم يتم الاسلام ، وباستنباطهم يعرف الحلال من الحرام ، وان كتابه هذا هو علم الملوك والوزراء والكبراء يجعلونه ربيعاً لقلوبهم ونزهة لنفوسهم. قال : وربما قال بعضهم ان (معجم الادباء) تصنيف رومي مملوك وما عسى ان يأتي به ؟ ان القوم لا ينظرون ما قيل انما يسألون عمن قال . ولو عاش ياقوت ورأى القوم بعد ان اتى على كتابه سبعة قرون كيف اشتهر كتاباه معجم البلدان ومعجم الادباء لا يستغني عنهما باحث ولا اديب ، واثبتت الايام أنهما من الكتب التي حوت كل طريف مفيد تزيد على القرون حسناً ، لاغتبط وادرك ان ما كان يقدر ان الناس يقولونه في كتبه قالوه في امثاله ، ثم ذهب لغط القوالين والطاعنين ، وثبت علم العالمين والمتأدبين الباحثين .

ولياقوت كتب كثيرة لم تطبع ، وما طبع له كاف في الحكم على سعة علمه وسعة عمله . يقول احد علماء المشرقيات : ما كان ياقوت الا بعض أولئك الجامعين من المؤلفين عند العرب . اي انه يعنى بنقل كلام غيره فليس له يدٌ فيما دَوَّن ، ولا صدر فيما صدر عن بحث واعمال قريحة ، ولكن البحث الشخصي يتمثل في كتب ياقوت ولا سيما في معجم البلدان ثم في معجم الادباء على ما قلته . ومعجم الادباء لم يصل الينا الا ناقصاً وما نشر على انه من ياقوت ينادي على نفسه بانه ليس له بل هو مدسوس عليه ، ويتجلى ذلك لمن يعارض بين التراجم التي هي من محصول قلمه والفصول الاخيرة من الكتاب وقد أُلصقت به الصاقاً ، فالفرق بيّن بين افاضة ياقوت في الترجمة للرجال والاقتضاب المخزي في التراجم التي نحلوها له .

(٤٣)

عبد اللطيف البغدادي

(٦٢٩)

هذا عالم ندر ان يتسع صدر رجل ما اتسع له صدره من ضروب العلم والآداب . قال العلامة هورتيما : انه كان يعرف جميع العلوم المعروفة في عصره . والسبب في تفننه في العلم نصيحة صدرت له من رجل مغربي نزل بغداد كان ، كما قال هو عنه ، يجلب القلوب بصورته ومنطقه وايمانه فملأ قلبه شوقاً الى العلوم كلها . عدّ له ابن ابي أصيبعة زهاء مئة وخمسين كتاباً ومقالة ورسالة ، ومنها ما وقع في مجلدات مثل اخبار مصر الكبير ، وكتاب الجامع الكبير في المنطق والطبيعي والالهي زهاء عشر مجلدات ، وكتاب القياس يدخل في اربع مجلدات ، والسماع الطبيعي مجلدان . ومنها ردود على بعض الفلاسفة مثل ابن سينا والرازي وابن الهيثم ، ولم يطبع من جميع كتبه فيما علمنا سوى كتاب المشاهدة والاعتبار في اخبار مصر وفيه ترجمته بقلمه . وفي هذا الكتاب الصغير حوادث مهمة وقعت في ايامه في مصر والشام وصفها وصف عيان . فنحن اذاً لا نعلم شيئاً من تصانيفه يسوغ لنا به اصدار حكم عادل عليه .

قال ابن ابي أصيبعة : كان كثير الاشتغال لا يخلي وقتاً من أوقاته من النظر في الكتب والتصنيف والكتابة : والذي وجدته في خطه اشياء كثيرة جداً بحيث انه كتب كتباً كثيرة من تصانيف القدماء . قال : وكان حسن الكلام الكثرة ما يرى في نفسه ويستنقص فضلاء زمانه وكثيراً من المتقدمين ، وكان يكثر الوقوع في علماء العجم ومصنفاتهم وخصوصاً الشيخ الرئيس ابن سينا ونظرائه .

ولما استوفى حظه من الاخذ عن علماء بغداد جاء الموصل فلم نعجبه واجتمع بكمال الدين بن يونس وكان ممن يقول بالكيمياء وعبد اللطيف يخالفه في ذلك فرحل عنها ونزل دمشق وفيها الف كتباً كثيرة .

ثم توجه الى زيارة القدس ، ثم قصد الى صلاح الدين بظاهر عكا فاجتمع ببهاء الدين بن شداد قاضي العسكر يومئذ قال : وكان قد اتصل به شهرتي بالموصل فانبسط الي واقبل علي وقال نجتمع بعماد الدين الكاتب ، فقمنا اليه وخيمته الى خيمة بهاء الدين ، فوجدته يكتب كتاباً الى الديوان العزيز بقلم الثلث من غير مسودة وقال :هذا كتاب الى بلدكم ، وذكرني في مسائل في علم الكلام وقالوا اقوموا بنا الى القاضي الفاضل ، فدخلنا عليه ، فرأيت شيخاً ضئيلاً كله رأس وقلب وهو يكتب ويملي على اثنين ، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه في اخراج الكلام ، وكأنه يكتب بجملة اعضائه . وسألني القاضي الفاضل عن قوله سبحانه وتعالى : « حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها » أين جواب اذا ،وأين جواب لو في قوله تعالى« ولو أن قرآناً سيرت به الجبال » وعن مسائل كثيرة ، ومع هذا فلا يقطع الكتابة والاملاء . وقال لي ترجع الى دمشق وتجري عليك الجرايات فقلت : أريد مصر فقال : السلطان مشغول القلب بأخذ الفرنج عكا وقتل المسلمين بها ، فقلت : لا بد لي من مصر فكتب لي ورقة صغيرة الى وكيله بها ، فلما دخلت القاهرة جاءني وكيله ، وهو ابن سناء الملك ، وكان شيخاً جليل القدر نافذ الامر ، فأنزلني داراً قد أزيحت عللها وجاءني بدنانير وغلة ، ثم مضى الى أرباب الدولة وقال هذا ضيف القاضي الفاضل . فدرت الهدايا والصلات من كل جانب وكان كل عشرة أيام او نحوها تصل تذكرة القاضي الفاضل الى ديوان مصر بمهمات الدولة وفيها فصل يؤكد الوصية في حقي . وكان قصدي في مصر ثلاثة : ياسين السيميائي والرئيس موسى بن ميمون اليهودي ، وأبو القاسم الشارعي وكلهم جاءوني أما ياسين فوجدته محالياً كذاباً مشعبذاً يشهد للشاقاني بالكيمياء ويشهد له الشاقاني بالسيمياء ويقول عنه انه يعمل اعمالاً يعجز موسى بن عمران عنها وانه

بحضر الذهب المضروب متى شاء ، وبأي مقدار شاء ، وبأي سكة شاء ، وانه يجعل ماء النيل خيمة ويجلس فيه وأصحابه تحتها . وكان ضعيف الحال . وجاءني موسى فوجدته فاضلاً لا في الغاية قد غلب عليه حب الرياسة وخدمة ارباب الدنيا . قال وكنت ذات يوم بالمسجد وعندي جمع كثير فدخل شيخ رث الثياب نير الطلعة مقبول الصورة فهابه الجمع ورفعوه فوقهم واخذت في اتمام كلامي ، فلما تصرم المجلس جاءني امام المسجد وقال اتعرف هذا الشيخ هذا ابو القاسم الشارعي ، فاعتنقته وقلت اياك اطلب فأخذته الى منزلي وأكلنا الطعام وتفاوضنا الحديث فوجدته كما تشتهي الالسن وتلذ الاعين . قال : وكنا اذا تفاوضنا الحديث اغلبه بقوة الجدل وفضل اللسن ، ويغلبني بقوة الحجة وظهور المحجة وانا لا تلين قناتي لغمزه ، ولا أحيد عن جادة الهوى والتعصب برمزه ، فصار يحضرني شيئاً بعد شيء من كتب ابي نصر والاسكندر وثامسطيوس ، يؤنس بذلك نفاري ، ويلين عريكة شماسي ، حتى عطفت عليه .

وشاع ان صلاح الدين هادن الفرنج وعاد الى القدس فقادت الضرورة الى التوجه اليه ، فأخذ من كتب القدماء ما أمكنه ، وتوجه الى القدس قال : فرأيت ملكاً عظيماً يملأ العين روعة ، والقلوب محبة ، قريباً بعيداً سهلاً محبباً ، وأصحابه يتشبهون به ، يتسابقون الى المعروف كما قال تعالى : « ونزعنا ما في صدورهم من غل » وأول ليل حضرته وجدت مجلساً حفلاً بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم وهو يحسن الاجتماع والمشاركة ، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ، ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع . وكان مهتماً في بناء سور القدس وحفر خندقه ، يتولى ذلك بنفسه وينقل الحجارة على عاتقه ، ويتأسى بـه جميع الناس الفقراء والأغنياء والأقوياء والضعفاء حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل .

قال وكتب لي صلاح الدين بثلاثين ديناراً في كل شهر على ديوان الجامع بدمشق ، وأطلق اولاده رواتب حتى تقرر لي في كل شهر مائة

دينار ، ورجعت الى دمشق وأكببت على الاشتغال واقراء الناس بالجامع . وبعد وفاة صلاح الدين عاد المترجم له الى مصر مع ابنه الملك العزيز . وكان في تلك المدة يقرىء الناس بالجامع الأزهر من أول النهار الى نحو الساعة الرابعة ، ووسط النهار يأتي من يقرأ الطب وغيره ، وآخر النهار يرجع الى الجامع الازهر فيقرأ قوم آخرون . واقام في القاهرة الى أن ملك الملك العادل ابو بكر بن ايوب الديار المصرية وأكثر الشام والشرق وتفرقت اولاد اخيه الملك الناصر صلاح الدين ، فتوجه الى القدس وأقام بها مدة ثم عاد الى دمشق ومكث بها زمناً ينتفع الناس بعلمه ، ثم سافر الى حلب وقصد بلاد الروم وأقام بها سنين كثيرة ، وكان في خدمة الملك علاء الدين داود بن بهرام صاحب ارزنجان ، وكان مكيناً عنده عظيم المنزلة وله منه الجامكية الوافرة والافتقادات الكثيرة . ثم توجه الى ارزن الروم ورجع الى ارزنجان فكماخ فدبركي فملطية فحلب . وأقام بحلب يشتغل عليه الناس وكان له من شهاب الدين طغريل الخادم أتابك حلب جار حسن ثم خطر له أن يحج ويجعل طريقه على بغداد وان يقدم بها للخليفة المستنصر بالله أشياء من تصانيفه ولما وصل بغداد مرض وتوفي بها بعد أن غاب عنها خمساً واربعين سنة .

ومن كلامه : ينبغي ان تحاسب نفسك كل ليلة اذا أويت الى منامك وتنظر ما اكتسبت في يومك من حسنة فتشكر الله عليها وما اكتسبت من سيئة فتستغفر الله منها وتقلع عنها ، وترتب في نفسك ما تعمله في غدك من الحسنات ، وتسأل الله الاعانة على ذلك . وقال : أوصيك أن لا تأخذ العلوم من الكتب وان وثقت من نفسك بقوة الفهم ، وعليك بالأستاذين في كل علم تطلب اكتسابه ، ولو كان الأستاذ ناقصاً فخذ عنه ما عنده حتى تجد أكمل منه ، وعليك بتعظيمه وترحيبه ، وان قدرت ان تفيده من دنياك فافعل والا فبلسانك وثنائك . واذا قرأت كتاباً فاحرص كل الحرص على أن تستظهره وتملك معناه وتوهم ان الكتاب قد

عدم وانك مستغن عنه لا تحزن لفقده . واذا كنت مكباً على دراسة كتاب وتفهمه فاياك ان تشتغل بآخر معه ، واصرف الزمان الذي تريد صرفه في غيره اليه . واياك أن تشتغل بعلمين دفعة واحدة ، وواظب على العلم الواحد سنة او سنتين او ما شاء الله ، فاذا قضيت منه وطرك فانتقل الى علم آخر ، ولا تظن انك اذا حصلت علماً فقد اكتفيت ، بل تحتاج الى مراعاته لينمي ولا ينقص ، ومراعاته تكون بالمذاكرة والتفكر واشتغال المبتدىء بالتحفظ والتعلم ومباحثة الاقران واشتغال العالم بالتعليم والتصنيف . واذا تصديت لتعليم علم او للمناظرة فيه فلا تمزج به غيره من العلوم ، فان كل علم مكتف بنفسه مستغن عن غيره ، فان استعانتك في علم بعلم عجز عن استيفاء اقسامه ، كمن يستعين بلغة في لغة أخرى اذا ضاقت عليه أو جهل بعضها .

قال : وينبغي للانسان أن يقرأ التواريخ وان يطلع على السير وتجارب الأمم فيصير بذلك كأنه في عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية وعاصرهم وعاشرهم وعرف خيرهم وشرهم . قال : وينبغي ان تكون سيرتك سيرة الصدر الأول فاقرأ سيرة النبي عليه الصلاة والسلام وتتبع أفعاله وأحواله واقتف آثاره وتشبه به ما أمكنك وبقدر طاقتك ، واذا وقفت على سيرته في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه ويقظته وتمرضه وتطببه وتمتعه وتطيبه ومعاملته مع ربه ومع أزواجه وأصحابه وأعدائه وفعلت اليسير من ذلك فأنت السعيد كل السعيد .

قال : وينبغي أن تكثر اتهامك لنفسك ولا تحسن الظن بها ، وتعرض خواطرك على العلماء وعلى تصانيفهم ، وتثبت ولا تعجل ولا تعجب فمع العجب العثار ومع الاستبداد الزلل ، ومن لم يعرق جبينه الى أبواب العلماء لم يعرق في الفضيلة ، ومن لم يخجلوه لم يبجله الناس ، ومن لم يبكتوه لم يسوّد ، ومن لم يحتمل ألم التعلم لم يذق لذة العلم ومن لم يكدح لم يفلح . واذا خلوت من التعلم والتفكر فحرك لسانك بذكر الله

وبتسابيحه وخاصة عند النوم فيتشربه لبك ويتعجن في خيالك وتتكلم به في منامك ، واذا حدث لك فرح وسرور ببعض أمور الدنيا فاذكر الموت وسرعة الزوال وأصناف المنغصات ، واذا حزبك أمر فاسترجع واذا اعترتك غفلة فاستغفر ، واجعل الموت نصب عينيك والعلم والتقى زادك في الآخرة . واذا أردت أن تعصي الله فاطلب مكاناً لا يراك فيه ، واعلم أن الناس عيون الله على العبد ، يريهم خيره وان أخفاه ، وشره وان ستره ، فباطنه مكشوف لله ، والله يكشفه لعباده ، فعليك أن تجعل باطنك خيراً من ظاهرك وسرك أصح من علانيتك ، ولا تتألم اذا أعرضت عنك الدنيا فلو عرضت لك لشغلتك عن كسب الفضائل ، وقلما يتعمق في العلم ذو الثروة الا ان يكون شريف الهمة جداً او ان يثري بعد تحصيل العلم . واني لأقول ان الدنيا تعرض عن طالب العلم بل هو الذي يعرض عنها لأن همته مصروفة الى العلم فلا يبقى له التفات الى الدنيا ، والدنيا انما تحصل بحرص وفكر في وجوهها ، فاذا غفل عن أسبابها لم تأته . وأيضاً فان طالب العلم تشرف نفسه عن الصنائع الرذلة والمكاسب الدنية وعن أصناف التجارات ، وعن التذلل لأرباب الدنيا والوقوف على أبوابهم ولبعض اخواننا بيت شعر :

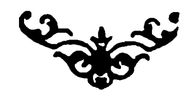
من جد في طلب العلوم أفاته شرف العلوم دناءة التحصيل

وجميع طرق مكاسب الدنيا تحتاج الى فراغ لها وحذق فيها وصرف الزمان اليها ، والمشتغل بالعلم لا يسعه شيء من ذلك وانما ينتظر ان تأتيه الدنيا بلا سبب وتطلبه من غير أن يطلبها طلب مثلها ، وهذا ظلم منه وعدوان ، ولكن اذا تمكن الرجل في العلم وشهر به خطب من كل جهة وعرضت عليه المناصب وجاءته الدنيا صاغرة ، وأخذها وماء وجهه موفور وعرضه ودينه مصون . واعلم أن للعلم عبقة وعرفاً ينادي على صاحبه ، ونوراً وضياء يشرق عليه ويدل عليه ، كتاجر المسك لايخفى مكانه ولاتجهل بضاعته ، وكمن يمشي بمشعل في ليل مدلهم ، والعالم مع هذا محبوب

أينما كان وكيفما كان ، لايجد الا من يميل اليه ويؤثر قربه ويأنس به ويرتاح بمداناته ، واعلم ان العلوم تغور ثم تفور ، تفور في زمان وتغور في زمان بمنزلة النبات أو عيون المياه ، وتنتقل من قوم الى قوم ومن صقع الى صقع .

ـ عالم عظيم استجمع شروط العلم في ذاته ، وانقطع الا عما شغل قلبه به من صغره من الدرس والتدريس والتأليف والتصنيف ، فَطَمَ نفسه عن المظاهر التي لا تأتي المغرم بها الا من طريق الدولة والسلطان ، ولا يتصدر في المجالس الا بقوة الملوك وما يفضلون به عليه من المراتب . عظم موقعه من نفوس ملوك عصره وكانوا يغتبطون اذا رأى نزول ساحتهم وقبول أعطياتهم يستميلون قلبه بما يرضيه ، ليتركوا له وقته يصرفه كما يجب في بث العلم في الناس .

في العادة أن تعظم شهرة العالم بعد وفاته ، وهذا على ما رأينا ضؤلت شهرته عما كانت عليه في حياته . وكان الباعث على ذلك فقدان كتبه الا جزءاً صغيراً من كتاب ، وما صنفه من الأسفار غير قليل ، وما كتب له البقاء منها أقل من القليل . دثرت كتبه لأنها في موضوعات فلسفية لايحبها الفقهاء والمحدثون ، والحكماء في ملتنا أفراد يعدون على الأصابع في عصور بعينها يعانونها في سر ويكتمون عن الدهماء أمرهم ، فسبحان من له هذا السر في خلقه .



(٤٤)

ابن أبي أصيبعة

موفق الدين أبو العباس احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي

(٦٦٨)

هو من الخزرج من ولد سعد بن عبادة . ولد بدمشق وقرأ مبادىء الطب على والده ، ثم اتصل بعلماء اجلاء أخذ عنهم التاريخ والأدب والطب وممن تلقى عنهم الطب مهذب الدين الدخوار الذي انتهت اليه رياسة صناعة الطب في عصره . ولما أقام الدخوار بدمشق شرع في تدريس صناعته ، فاجتمع اليه خلق كثير من أعيان الاطباء وغيرهم يقرأون عليه ، وأقام موفق الدين بدمشق لأجل القراءة عليه ، وكان يشتغل عليه في المعسكر لما كان ابوه والحكيم الدخوار في خدمة السلطان . قرأ على الدخوار كتب جالينوس ولازمه في وقت معالجته للمرضى فتدرب معه وباشر عندئذ أعمال صناعة الطب ، وكان مع شيخه لمداواة المرضى في البيمارستان النوري الحكيم عمران من أعيان الأطباء وأكابرهم في المداواة والتصرف في أنواع العلاج ، فتضاعفت الفوائد المقتبسة من اجتماعهما وما كان يجري بينهما من الكلام في الأمراض ومداواتها وما كان يصفانه للمرضى . فالدخوار هو الذي تخرج به المؤلف في الطب واقتبس في المعالجة فوائده وفوائد الحكيم عمران . أما شيوخه في الأدب والتاريخ وغيرهما فلم نعرفهم . وكان مبرزاً في الأدب ينثر وينظم ، اشتهر بنظمه من مدحه

صدور صناعته ، وكان يقول الشعر على البديهة ويجتمع الى الشعراء ، ومن اصدقائه فتيان الشاغوري من اكبر شعراء دمشق في عصره ، ومن شعره قصيدة يتشوّق فيها الى دمشق ويمدح موفق الدين عبد السلام .

قال فيهـــا :

لعل زماناً قـد تقضى بجلق ... يعود وتدنو الدار بعد التفرق
وان تسمح الايام من بعد جورها ... بعدل واني بالاحبـــة نلتقي
فكم لي الى أطلالها من تشوف ... وكم لي الى سكانهـا من تشوق
ترنحني الذكرى اليها تشوقاً ... كما رنحت صرف المـدام المعتق
ومن عجب نار اشتياقي بأضلعي ... لها لهب من دمعي المترقرق
لقد طال عهدي بالديار وأهلها ... وكم من صروف البين قلبي قد لقي
ولو كان للمرء اختيار وقدرة ... لقد كان من كل الحوادث يتقي
ولكنها الاقدار تحكم في الورى ... وتقضي بأمر كنهه لم يحقق

ومن قصيدة له في الوزير الصاحب امين الدولة ابي الحسن بن غزال وهو الذي أهدى اليه كتاب الطبقات :

فؤادي في محبتهم أسـير ... وأنى سار ركبهم يسـير
يحنّ الى العُذيب وساكنيه ... حنيناً قـــد تضمنه سعير
ويهوى نسمة هبت سُحيـرا ... بها من طيب نشرهم عبـير
واني قانع بعـــد التداني ... بطيف من خيالهم يزور
ومعسول اللمى مر التجني ... يجور على المحب ولا يجير
تصدى للصدود ففي فؤادي ... بوافر هجره ابـــداً هجير
وقد وصلت جفوني فيه سهدي ... فما هذي القطيعة والنفور ...

وهبط موفق الدين مصر وأكمل صناعته في المستشفى الناصري ، ثم انتقل الى صرخد في جبل حوران وكان مالكها عز الدين ايبك ، وفي صرخد هلك ودفن ، والى صرخد كتب اليه شرف الدين الرحبي يحثه على العودة الى دمشق ويكره اليه البلد الذي نزل به قال :

موفق الدين ما ذا السهو منك على ما نلت من رتبة في العلم والادب
انعبت نفسك بالنزر الحقير لقد أرخصتها بعد طول الجد والدأب
أقمت في بلد يزري بساكنه لا يرتضيه لبيب من ذوي الفطن
ناءٍ عن الخير ذي جدب فليس به سوى صخور وحَرٍّ منه ملتهب
مضيعاً فيه عمراً ما له عوض اذا تصرم وقت منه لم يؤب
أتحسب العمر مردوداً تصرمه هيهات ان يرجع الماضي من الحقب
أم تحسب العمر ما ولت لذاذته ينال بعد ذهاب العمر بالذهب
اذا تولى شباب المرء في نغص فما له في بقايا العمر من أرب
لو كان ما انت فيه مكسباً لغنى لما وفى بذهاب العمر في نصب
فكيف مع قلة الجاري وخسته والبعد عن كل ذي فضل وذي أدب
فعد الى جنة الدنيا فقد برزت لمجتلي الحسن في أثوابها القشب
ولا تقم في سواها مع حصول غنى فالعمر فيما سواها غير محتسب
واقطع زمانك طيباً في محاسنها وعد الى اللهو واللذات والطرب

الى آخر القصيدة فجاوبه ابن ابي أصيبعة بقصيدة مدحه بها ومن أبياتها :

وانني بعدما جد الفراق بنا والبعد لم يصف لي عيش ولم يطب
وكيف يلتذ عيشاً من اتاح به هذا الزمان الى قوم من الحطب
لم يعرفوا قدر ذي علم لجهلهم وليس ذلك في الجهال بالعجب
أتيت من ضاع فضلي في فنائه وهل غباوة العجم تدري فطنة العرب

الى آخر ما استدللنا به على أنه لم يكن في صرخد على فراش من الورد وان الحاجة أو الشيخوخة دفعته الى الرضا بالاستخدام عند صاحبها الأعجمي في بلد يغلب الجهل على أهله .

هذا ما كان من نشأته وتمحضه لصناعة الطب ، وكان من أمره بالبراعة في التأليف أنه ألف كتابه النفيس « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » واسطة عقد تآليفه والدرة اليتيمة التي خلد فيها على الأيام ذكره ، وذلك في سنة ٦٤٣ وهو في سن الكهولة ، وبقي خمساً وعشرين سنة يمحو ويثبت

كما فعل ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ترجم فيه للموافق والمخالف وأنصف جميع من ترجم لهم كأنهم أبناء مذهبه ، او كأنهم كلهم أبناء مذهب واحد وهو مذهب العلم . وأودعه نكتاً وعيوناً في مراتب المتميزين من الاطباء القدماء والمحدثين ومعرفة طبقاتهم على توالي أزمنتهم وأوقاتهم وأودعه نبذة من أقوالهم وحكاياتهم ونوادرهم ومحاوراتهم وشيئاً من أسماء كتبهم ليستدل بذلك على ما خصهم الله تعالى به من العلم ، قال : فان كثيراً منهم وان قدمت أزمانهم وتفاوتت أوقاتهم فان لهم علينا من النعم فيما صنعوه ، والمنن فيما قد جمعوه في كتبهم من علم هذه الصناعة ، ما هو تفضل المعلم على تلميذه ، والمحسن الى من أحسن اليه .

قسم كتابه الى خمسة عشر باباً الباب الأول في كيفية وجود صناعة الطب وأول حدوثها . الثاني في طبقات الاطباء الذين ظهرت لهم أجزاء من صناعة الطب وكانوا المبتدئين بها وهم ثلاثة . الثالث في الأطباء اليونانيين الذين هم من نسل اسقليبيوس وهم ستة . الرابع في الاطباء اليونانيين الذين أذاع ابقراط فيهم صناعة الطب وهم تسعة . الخامس في الاطباء الذين كانوا منذ زمان جالينوس وقريباً منه . السادس في الاطباء الاسكندرانيين ومن كان في أزمنتهم من الاطباء النصارى وغيرهم . السابع الاطباء الذين كانوا في أول ظهور الاسلام من اطباء العرب وغيرهم وهم عشرة . الثامن في الاطباء السريانيين الذين كانوا في ابتداء ظهور دولة بني العباس وهم أربعة وثلاثون . التاسع الاطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليوناني الى اللسان العربي وذكر الذين نقلوا لهم وهم سبعة وثلاثون . العاشر الاطباء العراقيون وأطباء الجزيرة وديار بكر وهم اثنان وثمانون طبيباً . الحادي عشر الاطباء الذين ظهروا في العجم وهم ثلاثة وعشرون . الثاني عشر الاطباء الذين كانوا في الهند وهم ستة . الثالث عشر الاطباء الذين ظهروا في بلاد المغرب وأقاموا بها وهم تسعة وثمانون . الرابع عشر الاطباء المشهورون من أطباء مصر

وهم سبعة وخمسون . الخامس عشر الاطباء المشهورون من أطباء الشام وهم تسعة وخمسون .

ورتب من ترجم لهم على سني وفياتهم ، ولا تعد هذه الطبقات كتاباً للطب والاطباء بل كتاب الحكمة والحكماء والمفننين من العلماء ، يقع القارئ فيه على اشياء في مدنية الاسلام وعيون المسائل الصحية والعلمية وأسماء التراجمة عن اليونانية والسريانية وغيرهما تتراوح فيه بين التعريف بالاطباء والفلاسفة والحكم المستعذبة والاشعار اللطيفة والنثر البديع ، فهي كتاب أدب ومحاضرة كما هي كتاب حكمة وطب ، تتنقل بين الاستفادة من هذه وترويح النفس بتلك ، الى غير ذلك من الفوائد التاريخية والاجتماعية والطبية عدا ما فيه من النكات والفكاهات .

ومن فكاهاته ما رواه عن يوحنا بن ماسويه الطبيب العالم المشهور وكان فكهاً ذا دعابة وظرف قال : شكا اليه رجل جرباً قد أضر به فأمره بفصد الأكحل من يده اليمنى فأعلمه انه قد فعل . فأمره بفصد الاكحل أيضاً من يده اليسرى فذكر انه قد فعل . فأمره بشرب المطبوخ فقال : قد فعلت . وأمره بشرب الاصطمخيقون فأعلمه أنه قد فعل . فأمره بشرب ماء الجبن اسبوعاً وشرب مخيض البقر اسبوعين فأعلمه انه قد فعل . فقال له : لم يبق شيء مما أمر به المتطببون الا وقد ذكرت انك فعلته وبقي شيء مما لم يذكره بقراط ولا جالينوس وقد رأيناه يعمل على التجربة كثيراً فاستعمله ، فاني ارجو ان ينجع علاجك ان شاء الله . فسأله ما هو ؟ فقال : ابتغي زوجَيْ قراطيس وقطعها رقاعاً صغيرة واكتب في كل رقعة : رحم الله من دعا لمبتلى بالعافية ، وألق نصفها في المسجد الشرقي بمدينة السلام ، والنصف الآخر في المسجد الغربي وفرقها في المجالس يوم الجمعة فاني ارجو ان ينفعك الله بالدعاء إذ لم ينفعك بالعلاج .

توسع المؤلف في حرية القول الى التي لم يصل زمانه الى اوسع منها

وحرص على نقل الشعر ولا سيما شعر الأطباء، وفيه المستملح وفيه العالي، ولكثرة غرامه بالحرية نشر طائفة من الشعر الذي نصفه بالأدب المكشوف، أراد أن يجعل كتابه مرجعاً كبيراً وموردا فائضاً في كل أطروفة وأطروبة. ولما أهدى نسخاً لبعض من يغلب عليهم الوقار حذف هذه الزائدات، ومن رآهم يجرون الأشياء على أصلها استنسخ لهم من كتابه نسخة تامة، وهذا هو السبب في اختلاف النسخ التي ظفر بها طابع الكتاب — قاله أستاذي الجزائري.

والغالب ان الأطباء ومهنتهم تقتضيهم النظر في أعضاء البدن كافة لا يتحرجون، كسائر الشعراء، من النظم في الأدب المكشوف تسلية لأنفسهم ولغيرهم في صناعة صعبة تحتاج الى مرح ودعابة، وقد وقع لهم في عهد المدنية العربية من ذلك أشياء كثيرة قصد بها ادخال السرور على النفوس، ولولا أن بعضهم يشمئزون من ذكر هذه المسائل ماتوقفت عن ان أتقدم أول المؤلفين في اثبات ما قالوا ما دام أجدادنا لم يحجموا عن انشادها وتدوينها أيام عزة الاسلام.

ومن حرية المؤلف أنه نشر النسخة التي كتبها ابن حمويه المتصوف لعمه رشيد الدين علي بن خليفة بالباسه خرقة التصوف. ولعله قصد باثباتها في مصنفه لينعي على بعض أهل هذه الطريقة تخريفهم، خصوصاً وقد ادعى ابن حمويه انه أخذها عن والده عن جده وأنه أخذها عن الخضر عليه السلام، والخضر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والخضر كالعنقاء والمهدي ما جاءآ قط. وبنقله هذه النسخة فضح معتقداً واهياً بقي يجوز على عقول العامة قروناً.

لموفق الدين عدة كتب لم تصل الينا ووصل الينا طبقات الأطباء وهو بحق من الأمهات المعتبرة حفظت فيه مطالب مهمة جداً لولاه لضاعت على العلم العربي.

(٤٥)

ابن خلكان

شمس الدين أحمد الاربلي

(٦٨١)

قاضي القضاة الكملة ، شيخ المؤرخين ، علم المحققين ، المتفنن في العلوم ، البارع في تصنيفه ، العظيم في تفكيره ، المجيد في شعره ونثره ، ينمُّ ما كتب على ذوق عال في الأدب وعلى اطلاعه الواسع في جميع فروعه ، ماهر بالمناسبات والمقارنات ، صاحب اليد الباسطة في النقد وليس ممن يقنعه النقل المجرد ، يجمع بين معرفة نفسية الناس ومعرفة التاريخ ومعرفة الشريعة ومعرفة السياسة ومعرفة الادب ، والنفوذ أبداً الى الحقائق ومعرفة العلوم المنوعة التي أعانته على التجويد في تأليفه .

ولد سنة ثمان وستمائة في مدينة اربل بمدرسة سلطانها مظفر الدين ابن زين الدين ، وكان والده يتولى التدريس فيها . وقيل في نسبه أنه ينسب الى البرامكة فهو احمد بن محمد بن ابراهيم بن ابي بكر بن خلكان ابن باوَل بن عبد الله بن شاكل ابن الحسين بن مالك بن جعفر بن يحيي ابن خالد بن برمك . قال ابن العديم انه من بيت معروف بالفقه والمناصب الدينية. وقال غيره : كان اماماً عالماً فقيهاً أديباً شاعراً مفتناً ، مجموع فضائل ، معدوم النظير في علوم شتى ، حجة فيما ينقله ، محققاً لما يورده ، متفرداً في علم الادب والتاريخ ، وكان ولي قضاء دمشق مرتين ثم عزل وقدم القاهرة وأفتى ودرس ودام بها نحو سبع سنين ثم أعيد الى قضاء دمشق وسر الناس بعوده ومدحته الشعراء بعدة قصائد . من ذلك ما قال رشيد الدين الفارقي :

أنت في الشام مثل يوسف في مصـ ـر وعندي ان الكرامَ جناسُ
ولكل سبع شداد وبعـد السـ ـبع عام فيــه يغاث الناس

وقال سعد الدين الفارقي :

أذقت الشام سبع سنين جدباً غـــداة هجرته هجراً جميلا
فلما زرتـــه من أرض مصر مددت عليه من كفيك نيلا

وكانت مدة مقامه بدمشق عشر سنين كوامل لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً ، وعاد الى القاهرة فصادف فيها كتباً كان يؤثر الوقوف عليها فطالعها وأخذ منها حاجته . « وهو أول من جدد في أيامه قضاء القضاة من بقية المذاهب فاستقلوا بالأحكام بعد ما كانوا يكونون من نوابه » وأثرت هذه المأثرة للظاهر بيبرس وكان بينه وبينه صلات ود وشغل . والظاهر هو الذي جعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة المعتمدة عنـد أهل السنة والجماعة قاضياً يقضي بينهم .

ذكر في مقدمة كتابه أن ما دعاه الى جمع تاريخه أنـه كان مولعاً بالاطلاع على أخبار المتقدمين من أولي النباهة وتواريخ وفياتهم وموالدهم ومن جمع منهم كل عصر فوقع له منه شيء حمله على الاستزادة وكثرة التتبع فعمد الى مطالعة الكتب الموسومة بهذا الفن وأخذ من أفواه الأئمة المتقنين له ما لم يجده في كتاب فرتبه على حروف المعجم ، ولم يذكر أحداً من الصحابة ولا من التابعين الا جماعة يسيرة تدعو حاجة كثير من الناس الى معرفة أحوالهم ، وكذلك الخلفاء فانه لم يذكر أحداً منهم ، وذكر جماعة من الأفاضل الذين شاهدهم ونقل عنهم أو كانوا في زمنـه ولم يرهم ، ولم يقصر مختصره على طائفة مخصوصة من العلماء أو الملوك أو الأمراء أو الوزراء أو الشعراء ، بل كل من له شهرة بين الناس ، وقيد من الألفاظ ما لا يؤمن تصحيفه وذكر من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة أو نادرة أو شعر أو رسالة ليتفكه بـه متأمله ولا يراه مقصوراً على أسلوب واحد فيمله ، والدواعي انما تنبعث لتصفح الكتاب

اذا كان مفننا وأسماه « وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان » مما ثبت بالنقل أو السماع وأثبته العيان .

وطلب في مقدمة الكتاب وخاتمته ممن وقف عليه من أهل الدراسة بهذا الشأن ورأى فيه خللاً فهو المثاب في اصلاحه بعد التثبت فيه .

وطلب في آخر كتابه ممن وقف عليه من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل ألا يعجل بالمؤاخذة فيه ، قال : فاني توخيت فيه الصحة حسبما ظهر لي مع أنه كما يقال : أبى الله أن يصح الا كتابه . أي أنه بذل الجهد في التدقيق فان ظهر ما فيه خلل بعد ذلك فانه أجاز العالم المطلع عليه أن يصلحه ، وأي أمانة للعلم أعظم من هذه الامانة .

أعجب علماء المشرقيات بكتاب الوفيات وقالوا انه ليس في لغاتهم من كتب التراجم ما يماثله في التحقيق ، وما أعجبوا به الا لأنه نشره لما حقق كل ما فيه وتمثله وهضمه ، فهو كتاب في التحقيق معجب لا يحتاج مطالعه عند تلاوة ترجمة من الترجمات الى مزيد ، اذا انتهى من الترجمة شرح ما يخشى أن يعسر فهمه على القارىء من ألفاظ لغوية غامضة وكلمات قد تكون مبهمة على القارىء في الجغرافيا والتاريخ والنسب .

وعندي ان هذا هو الكتاب المحرر ، وهكذا يجب أن تكون الكتب يتعب المؤلف أعواماً طويلة في تأليفه ليخرجه كسبيكة الذهب فيستريح من يتناوله بعده للاستفادة ، ولو كانت كل كتبنا على هذا المثال في التحقيق لسقط قسم كبير من المؤلفات وبقي السليم المفيد والزبدة الخالصة .

قالوا : كان فيه سكون الطائر المعهود في القضاة وعدم التسرع بما يعرض له بادىء الرأي ، لا يبت في فصل القضايا اذا رأى في حسمها ضرراً ، وكذلك فعل بتأليفه فما أخرجه للملإ الا بعد مضغه وهضمه ، وتذوقه وهي مزية امتاز بها بعض المؤلفين الذين كتب الخلود لمؤلفاتهم . وحسنة أخرى كانت تبدو في كتابه وهي انه استخدم كل ما حواه صدره من المعارف وما بلغه من عظم التجارب في القضاء في تأليف

كتابه الممتع فقد يكون المؤرخ عند نفسه انه تام الادوات بما أحكمه من فنه فيكبو في فنون كانت تلزمه للتحقيق ، يدرك هذا النقص كبار المحققين .

وعلى استغراق أوقات ابن خلكان في « فصل القضايا الشرعية والاحكام الدينية » وجد وقتاً لمطالعة القدر الممكن من الامهات يزين بنصوصها كتابه ، ووجد وقتاً للتدريس في عدة مدارس بدمشق لم تجتمع لغيره ولم يبق معه في آخر الوقت سوى الامينية وبيد ابنه كمال الدين موسى سوى النجيبية . ولعل لاستئثاره بعدة مدارس على مالم يجتمع لغيره دخلاً في امالة بعض الوجوه عنه ، ففتح المجال لحساده أن يزنّ بأمور هو منها بريء ، ذلك أن مشايخ المدارس أنكروا ولا شك هذا الطمع من قاضي القضاة ، وربما كان باكتفائه بمدرسة واحدة أكبر داع الى تجويد التدريس والاتقان في العمل ، وارضاء بعض المدرسين بتوزيع هذه التداريس عليهم خير من ضمها في يد واحدة .

وترجم له ابن الكتبي في فوات الوفيات الذي جمله ذيلا على كتاب ابن خلكان ترجمة من يفرح بالمساويء ويغضي عن المحاسن واتهمه بحب المرد ، وأورد له بيتين يقال انه قالهما في ابن صاحب حماة وربما كان يقصد النكتة ، وسكت عن محاسنه ، ولم يذكر كتاب وفيات الاعيان وأين الأصل من الفرع ، الوفيات كله تحقيق والفوات جله تلفيق .

وروى الكتبي أن ابن خلكان كان في المدرسة العادلية وبات ليلة يدور حول بركتها ويكرر هذين البيتين الى أن أصبح وتوضأنا وصلينا والبيتان هما :

أنا والله هالك   آيس من سلامتي
أو أرى القامة التي   قد أقامت قيامتي

ونقل له أبياتاً كلها من الغراميات منها :

وسرب ظباء في غدير تخالهم   بدوراً بافق الماء تبدو وتغرب

يقول عذولي والغرام مصاحبي   أمالك عن هذي الصبابة مذهب
وفي دمك المطلول خاضوا كما ترى   فقلت له دعهم يخوضوا ويلعبوا

ومن شعره :

يا رب ان العبد يخفي عيبه   فاستر بحلمك ما بدا من غيبه
ولقد أتاك وماله من شافع   لذنوبه فاقبل شفاعة شيبه

ومن شعره :

تمثلتمو لي والديار بعيدة   فخيل لي ان الفؤاد لكم مغنى
وناجاكمو قلبي على البعد والنوى   فأوحشتمو لفظاً وآنستمو معنى

(٤٦)

لسان الدين ابن الخطيب

أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني

(٧٧٦)

أصله من لوشة على مرحلة من غرناطة ، كان له بها سلف معروفون في وزارتها ، ونشأ لسان الدين بغرناطة وقرأ وتأدب على مشيختها ، واختص بصحبة الحكيم يحيى بن هذيل وأخذ عنه العلوم الفلسفية ، وبرز في الطب وانتحل الأدب ، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر فرقّاه الى خدمته وأثبته في ديوان الكتاب ببابه ، مرؤوساً بابن الجياب شيخ العُدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية . ولما هلك ابن الجياب ولى السلطان محمد بن الخطيب رياسة الكتاب ببابه وثناه بالوزارة ولقبه بها ، فاستقل بذلك وصدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة ، وسفر عن سلطانه الى ملك بني مرين بالعدوة معزياً بأبيه فجلّى في أغراض سفارته .

ثم هلك السلطان أبو الحجاج وبويع ابنه محمد بالأمر لوقته ، فأقر ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه ، واتخذ لكتابته غيره ، وجعل ابن الخطيب رديفاً له في أمره وتشاركا في الاستبداد معاً ، ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيراً الى ملك بني مرين مستمدين له على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفه ، فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه تقدم الوفد الذي معه من وزراء الاندلس وفقهائها استأذنه في انشاد شيء من الشعر يقدّمه بين يدي نجواه فأذن له وأنشد وهو قائم ، أبياتاً اهتز السلطان لها ، فأذن له في الجلوس

وقال له قبل أن يجلس : ما ترجع اليهم الا بجميع عطائهم . ثم أثقل كاهلهم بالاحسان وردهم بجميع مطالبهم . قال القاضي ابو القاسم الشريف : لم يُسمع بسفير قضى سفارته قبل ان يسلم على السلطان الا هذا .

وبعد ذلك اعتقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب وضيق عليه في محبسه ، الى أن شفع فيه . ثم سار في ركاب السلطان الى وادي آش قادمين على السلطان أبي سالم ، فأرغد هذا عيش ابن الخطيب في الجراية والاقطاع ، ثم استأذن السلطان في التحول الى جهات مراكش والوفود على آثار الملك بها ، فأذن وكتب الى العمال باتحافه ، فبادروا في ذلك وحصل منه على حظ . وعندما مر بسلا في قفوله من سفره دخل مقبرة الملوك بسالة ووقف على قبر السلطان ابي الحسن وأنشد قصيدته على روي الراء الموصولة يرثيه ويستثير به استرجاع ضياعه بغرناطة مطلعها :

ان بان منزله وشطت داره   قامت مقام عيانه أخباره

قسّم زمانك عبرة أو عبرة   هــذا ثراه وهذه آثاره

فكتب السلطان أبو سالم في ذلك الى أهل الأندلس بالشفاعة فشفعوه واستقر هو بسلا منتبذاً عن سلطانه طول مقامه بالعدوة . ثم عاد السلطان المخلوع الى ملكه بالأندلس فاستقدم ابن الخطيب من سلا ورده الى منزلته كما كان ، وبعد ذلك فصل من الوزارة ، ثم أعيد الى مكانه من الدولة من علو يده وقبول اشارته . وأدركته الغيرة من عثمان بن يحيى مقدم القوم في الدولة فأنكر على السلطان الاستكفاء به والتخوف من هؤلاء الأعياص على ملكه ، فحذره السلطان وأخذ في التدبير عليه حتى نكبه وأباه واخوته وأودعهم المطبق ثم غربهم بعد ذلك ، وخلا لابن الخطيب الجو وغلب على هوى السلطان ودفع اليه تدبير المملكة ، وخلط بينه وبين ندمائه وأهل خلوته ، وانفرد ابن الخطيب بالحلّ والعقد ، وانصرفت اليه الوجوه وعلقت عليه الآمال ، وغشي بابه الخاصة والكافة وغصت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتوافقوا على السعاية فيه وقد صمّ السلطان عن قبولها .

وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من القدح فيه والسعاية ، وربما خُيِّل اليه ان السلطان مال الى قبولها وانهم قد أحفظوه عليه ، فأجمع التحول عن الاندلس الى المغرب فسار اليها في ثلة من فرسانه ، ومعه ابنه عليّ الذي كان من خالصة السلطان ، فأجاز الى سبتة وتلقاه السلطان بأنواع التكرمة ، فاهتزت له الدولة ، واركب السلطان خاصته لتلقيه وأحله بمجلسه بمحل الامن والغبطة ، ومن دولته بمكان الشرف والعزة ، وطلب الى صاحب الاندلس أهله وولده فجاء بهم على أكمل الحالات من الامن والتكرمة . ثم لغط المنافسون له في شأنه ، وأغروا سلطانه بتتبع عثراته ، وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة الى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها اليه ، ورفعت الى قاضي الحضرة فاسترعاها وسجل عليه بالزندقة ، وراجع صاحب الاندلس رأيه فيه وبعث القاضي الى ملك العدوة في الانتقام منه وامضاء حكم الله فيه فصمّ لذلك ، وأنف لذمته ان تخفر ولجواره ان يردى ، وقال لهم : هلا انتقمتم وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ، وأما أنا فلا يخلص اليه بذلك أحد ما كان في جواري . ثم وفر الجراية والاقطاع له ولبنيه ولمن جاء من فرسان الاندلس في جملته .

فلما هلك سلطان العدوة سار هو في ركاب الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة فنزل فاس واستكثر من شراء الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنات ، وحفظ له القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفى . ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه قُبض على ابن الخطيب وأودعوه السجن وطيروا بالخبر الى السلطان ابن الاحمر فبعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب ابن زمرك فقدم على السلطان أبي العباس وأحضر ابن الخطيب بالمشورة في مجلس الخاصة وأهل الشورى ، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه ، فعظم عليه النكير فيها فوبخ ونكل وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملإ ثم تلّ الى

محبسه واستشوروا في قتله بموجب تلك المقالات المسجلة عليه ، وأفتى بعض الفقهاء فيه . ودس سليمان بن داود رديف وزير السلطان لبعض الاوغاد من حاشيته بقتله ، فطرقوا السجن ليلاً ومعهم زعانفة جاءوا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الاحمر وقتلوه خنقاً في محبسه ، واخرجوا شلوه من الغد ، فدفن ثم أصبح من الغد على شافة قبره طريحاً ، وقد جمعت له أعواد وأضرمت عليه نار فاحترق شعره واسود بشره وأعيد الى حفرته ، وكان في ذلك انتهاء محنته . هذا ما قاله ابن خلدون وأتبعه بأن الناس عجبوا من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان واعتدوها من هناته وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته . وكان أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتجيش هواتفه بالشعر يبكي نفسه ومما قال في ذلك :

بعدنا وان جاورتنا البيوت ... وجئنا بوعظ ونحن صموت
وانفاسنا سكنت دفعة ... كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاماً ... وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلا ... غربن فناحت عليها البيوت
فكم جدّلت ذا الحسام الظبا ... وذو البخت كم جدلته البخوت
وكم سيق للقبر في خرقة ... فتىً ملئت من كساه التخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيـ ... ـب وفات ومن ذا الذي لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له ... فقل يفرح اليوم من لا يموت

وترجم لسان الدين نفسه ووصف كيف قلده السلطان الوزارة والقيادة أي أصبح ذا الوزارتين وزير السيف والقلم واستعمله في السفارة الى الملوك واستنابه بدار ملكه ورمى الى يده بخاتمه وسيفه ، وائتمنه على صوان حضرته وأعلى مجلسه ، وقصر المشورة على نصحه ، الى ان كانت الكائنة وحمله أهل الشحناء من أعوان ثورته على القبض عليه بعد ان كبست المنازل والدور ، واستكثر من الحرس ، واستؤصلت نعمته ، ولم تكن بالأندلس من ذوات النظائر ولاربات الامثال ، ولما رد على السلطان أبي

عبد الله ملكه عمل في القدوم عليه ، وجنح لسان الدين الى الانفصال لبيت الله الحرام فأراه السلطان أن مؤازرته أكبر القرب ، فعدل عن الحج فرمى اليه بمقاليد رأيه . قال : ولم أعدم الاستهداف للشرور والاستعراض للمحذور والنظر الشزر المنبعث من خزر العيون ، شيمة من ابتلاه الله بسياسة الدهماء ورعاية سخطة أرزاق السماء ، وقتلة الأنبياء ، وعبدة الأهواء ، ممن لا يجعل لله تعالى ارادة نافذة ولا مشيئة سابقة ولا يقبل معذرة ؛ ولا يجمل في الطلب ولا يتلبس مع الله بأدب .

هذا مجمل حال حسنة الأندلس مع الملوك وكانوا معجبين به لما فُطر عليه من صفات لا نظير لها في رجالهم ورجال عصرهم ، وهذا حاله مع الوزراء ومن والاهم وما حاكوه من دسائس ليطرحوه أرضاً ويستأثروا دونه بهذا المقام ، فلم يروا أقرب من اثبات الزندقة عليه ، وقتلوه على هذه الصورة الفاجعة فبكت العيون عظيماً تضن القرون بظهور مثله .

واذا جئنا نعرض لادبه وعلمه فنفص الطيب للمقّري الذي كسره على وصفه وخصه باحواله ونقل أخباره ومنظومه ومنثوره يكفينا المؤونة ، وهناك تآليفه وهي تبلغ الستين مصنفاً منها ذو المجلدات ومنها المجلد الصغير لم يبق منها الا ثلثها كما قال العلامة زيبولد وأهمها في نظره الاحاطة في أخبار غرناطة ، وقد طبع ثلثاه فقط ولم يجدوا منه نسخة تامة صحيحة ، وفي هذا الكتاب تجلى لنا أسلوب لسان الدين في الترجمة للرجال وعرفنا جمال نثره وجمال شعره ، فما استطعنا ان نقول انه شاعر ولا انه كاتب بل حكمنا له بالملكتين الكتابة والشعر ، وفي كتابته نسقط على تعابير والفاظ قل ان وقع لاحد من كتاب الاندلس استعمال مثلها ولا سيما المعاني المبتكرة والتراكيب البارعة .

أما دعوى الالحاد على لسان الدين فهي من الدعاوي التي طالما وجهت الى العظماء من العلماء ، وتاريخ المسلمين غاص بمن قتلتهم السياسة ، والزندقة حجة في قتلهم . لا جرم ان لسان الدين اعتاد الانطلاق في الفكر ، وهو

صريح الى أبعد غايات الصراحة ولعلهم جمعوا له جملا وقعت في بعض كلامه وأولوها على هواهم حتى صحت لهم دعوى الالحاد . وفي كتابه الاحاطة نموذجات ظاهرة من هذا القبيل .

وصف الحاكم باديس وهو من الملوك الجبابرة قائل الرأي خليع الرسن فقال : وقد أدال اعتقاد الخليفة في باديس بعد وفاته وقدم العهد بتعرف أخبار جبرونه وعتوه على الله سبحانه لما جبلهم عليه من الانقياد للاوهام والانصياع للأضاليل فعلى حضرته اليوم من الازدحام لطلاب الحوائج والشفاء من الأسقام حتى أولو الدواب الوجيعة ما ليس على قبر معروف الكرخي وأبي يزيد البسطامي . ووصف جعفر بن أحمد الخزاعي الغرناطي من مشايخ الطرق ، ورقص جماعته في الذكر ، فقال : « وربما استدعاهم السلطان الى مصره محضاً لطائف نعيمه باخشيشانهم مبدياً التبرك بهم » . قال : والطرق الى الله تعالى على عدد أنفاس الخلائق . وهذه معان لا يرضاها العامة وبخاصة من استهواهم مثل هؤلاء المشايخ .

واليكم الآن جملا قليلة جاءت في مقدمة كتابه الاحاطة في وصف غرناطة : وبردها لذلك من المنقب الشتوي شديد ، وتجمد بسببه الادهان والمائعات ويتراكم بساحاتها الثلج في بعض السنين ، فجسوم أهلها بصحة الهواء صلبة ، وسحناتهم خشنة ، وهضومهم قوية ، ونفوسهم لمكان الحر الغريزي جريئة . وهي دار منعة ، وكرسي ملك ، ومقام حصانة . وكان ابن غانية يقول للمرابطين في مرموتة وقد عول عليها للامتساك بدعوتهم « الاندلس درقة وغرناطة قبضتها فاذا تجشمتم يا معشر المرابطين القبضة لم تخرج الدرقة من أيديكم » ومن أبدع ماقيل في الاعتذار عن شدة بردها بما هو غريب في معناه قول القاضي أبو بكر بن شبرين :

رعى الله من غرناطة متبوءاً ... يسر كئيباً أو يجير طريداً
تبرم منها صاحبي عندما رأى ... مسارحها بالبرد عدن جليدا
هي الثغر صان الله من أهلت به ... وما خير ثغر لا يكون برودا

وذكر أن جند دمشق نزلوا كورة البيرة أشرف الكور ، وفحصها لايشبه بشيء من بقاع الارض طيباً ولا شرفاً الا بالغوطة غوطة دمشق . وحقيقة كما قال ، وأنا رأيتها الا أن غوطة دمشق شجراء وغوطة غرناطة جرداء ، وكانت أيام حكم العرب كغوطتنا بأشجارها الملتفة .

ووصف أيام الاندلسيين وعاداتهم فقال : فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة . قال : وعادة أهل هذه المدينة الانتقال الى حلل العصير أوان ادراكه بما تشتمل عليه دورهم ، والبروز الى الفحوص بأولادهم وعيالهم ، معولين في ذلك على شهامتهم وأسلحتهم على أكتاد دوابهم واتصال أمصارهم بحدود أرضه ، وحليتهم في القلائد والدمالج والشنوف والخلاخل من الذهب الخالص الى هذا العهد في أولي الجدة ، واللجين في كثير من آلة الرجلين فيمن عداهم . والأحجار النفيسة من الياقوت والزبرجد والزمرد النفيس الجوهر كثير بمن ترتفع طبقاتهم المستندة الى ظل الدولة أو أصالة معروفة موفرة ، وحريمهم حريم جميل موصوف بالحسن وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور ونقاء الثغور ، وطيب النشر ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ، الا أن الطول يندر فيهن ، وقد بلغن من التفنن في الزينة لهذا العهد والمظاهرة بين المصبغات ، والتنافس بالذهبيات والديباجيات ، والتماجن في أشكال الحلي الى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر ، ويكف كف الغدر ، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة ، وأن يعامل جميع من بها بستره ، ولا يسلبهم خفي لطفه بعزته وقدرته .

هذه لمعة من سيرة ذي الوزارتين لقبه بذلك السلاطين في زمنه ، أحط أزمان الأندلس ، وقد استولى العدو على معظم قواعدها مثل اشبيلية وقرطبة ومرسية وجيان والمرية . ولقبه الناس بذي العمرين لأنه كان مبتلى بالأرق يسهر الليل الا أقله ، ويصرف هذه الليالي في التأليف والتأمل ، فكأنه كان يعمل ليله ونهاره ،

شيخ الربوة

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري

(٧٢٧)

قال فيه صاحب الدرر الكامنة انه كان يصنف في كل علم سواء عرفه أم لا لفرط ذكائه . وحكمه هذا جائر منبعث ، والله أعلم ، من كون شيخ الربوة لم يؤلف كثيراً في علوم الدين كما كان شأن معاصريه وألف في علوم لم يعرفوها . قال الصفدي : ولد سنة ٦٤٥ وعانى الاشتغال فمهر في علم الرمل والاوفاق ونحو ذلك ، وكان ذكياً وعبارته حلوة ما تمل محاضرته . وكان يدعي أنه يعرف الكيمياء ، ودخل على الأفرم فأوهمه شيئاً من ذلك ، فولاه مشيخة الربوة ، وله السياسة في الفراسة وله غيره ، ومن شعره :

للنفس وجهان لا تنفك قابلة ... بما تقابل من عال ومستفل
كنحلة طرفاهـــا في مقابلة ... فيها من اللسع ما فيها من العسل

ومن شعره في الغوطة :

شموس وأقمار من النَّوْر طُلَّـع ... لذي اللهو في أكنافها متمتع
كأن عليها من مجاجة طلها ... لآلي' الا انها منــه ألمع
نشاوى تثنيهـا الرياح فتنثني ... يعانق بعض بعضها ثم يرجع

ولد في دمشق وتوفي في صفد بعد أن لحقه صمم قبل موته ، وذهبت عينه الواحدة ، وكان صبوراً على الفقر والوحدة ، كثير الآلام والأوجاع وترجمه الصفدي أيضاً في الوافي فنعته بالصوفي وقـــال انه المعروف

بشيخ حطين أولاً ثم بشيخ الربوة آخراً ، رأيته بصفد مرات واجتمعت به مدة مديدة ، كان من أذكياء العالم له قدرة على الدخول في كل علم وجرأة على التصنيف في كل فن ، رأيت له عدة تصانيف حتى في الأطعمة وفي أصول الدين على غير طريق اعتزال ولا أشاعرة ولا حشوية لأنه لم يكن له علم وانما كان ذكياً فيوماً أجده وهو يرى رأي الحكماء ويوماً أراه يرى رأي الحشوية ويوماً أراه يرى رأي ابن سبعين وينحو طريقته ...
وكان له نظم ليس بطائل وكان ربما عرض عليّ القصيدة وطلب مني تنقيحها فأغير منها كثيراً ، وكان يتكلم في علم الكيمياء ويدعي فيها أشياء والظاهر انه كان يعرف ما يخدع به العقول ويلعب بألباب الاغمار ...
وهو شيخ النجم الحطيني وصاحبه لما كان شيخ خانقاه حطين ببلاد صفد فورد عليهم انسان أضافوه وأراد السفر في الليل وعلم النجم ان معه ذهباً فاتبعه وقتله فبلغت القضية الأمير سيف الدين كرآي نائب صفد اذ ذاك ، فأحضر الشيخ شمس الدين المذكور وضربه على ما قيل لي الف مقرعة وعوقب ثم أفرج عنه قال . وكان فكه المحاضرة حلو المنادرة يتوقد ذكاء ، وتوفي ببيمارستان الأمير سيف الدين تنكز بصفد في سنة خمس وعشرين فيما أظن .

وكتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر « في العلم بهيئة الأرض وأقاليمها وتقاسيمها ، واختلاف القدماء في ذلك وعلاماتها ومعمورها من البحار المتصلة والمنفصلة ، والجزائر والجبال والأنهار والحرّات والآجام العظيمة والعيون والممالك ومسالكها ، والأمصار الكبار ورساتيقها والآثار القديمة والعمائر العظيمة والعيون والآبار والينابيع العجيبة ، والحيوان النادر الشكل ، والنبات الغريب ، والمعادن الذائبة والمتطرقة وتوابعها في المعدنية والأحجار الشريفة الثمينة والتي تليها وتشبهها في الشرف والقيمة والتي تلي ذلك مما هو ممتاز من التراب لوصف خاص او خاصة ذاتها ، ووصف ألوان الأحجار الثمينة وطبائعها وخواصها ، ونعت بقاعها

ومعادنها وذكر أسباب توليدها على ما ذكره الاقدمون ، وذكر مساحة الارض ومسافات أقسامها بالساعات والاميال والبُرُد والفراسخ ، والدرج الفلكية ، وأطوال الجبال وعرضها ، ونعت الامم المبثوثين فيها ، وذكر معالم أنسابهم وآبائهم الاولين ، وذكر عامة اختلاف الامم المشهورين منهم ونعت خلقهم ، وذكر خصائص البلاد المختصة ببقعة دون بقعة ، وبلد دون بلد ، وذكر ظواهر خصائص البشر المشتركة فيها النوع الانساني دون باقي الحيوانات ، ونعت معالم رسوم المليين وأسماء شهورهم وأعيادهم وقرابينهم على ما وجد من آثار علومهم وما يتعلق بلوازم ذلك ولواحقه » .

قال : « وختمته بصورة جغرافية دهاناً بالاصباغ وتخطيطاً محرراً على مثل مواقع الاطوال والعروض والاصقاع في المعمور لتكون مثالاً حسياً مشاهداً بالحس ، يشهد منه ما وضعت وصفه من الهيئة وليكون الوصف برهاناً لما مثلت أمثلته بالجغرافية المذكورة ، وكل ما هو من الدهان بها أزرق فهو مثال بحر مالح صَغُر أو كَبُر ، دقّ او عرض ، وفي الزرقة من لون مخالف فهو مثال جبل أو جزيرة ، وكل ما هو في ذلك وفي باقيها من لون أخضر فهو مثال بحيرة حلوة ونهر جار ، وكذلك طال أو قصر دق أو عرض ، وكل ما هو فيها من لون جلناري أو خمري أو أصفر أو حجري أو أبيض أو غير مستطيل مخطط خطوطاً بالسواد فهو مثال جبال وربوات مشهورة ، وكل ما هو صورة خط أسود مستطيل من مشرق الجغرافية الى مغربها فهو مثال فصل ما بين اقليم واقليم من الاقاليم السبعة وما وراءها ، وما خلف خط الاستواء منها ، وكل ما صورة عمارة وتفصيل حجارة بالتخطيط فهو مثال سور أو برج أو مدينة أو هيكل مشهور في الارض » .

وكتابه عدا فن الجغرافيا يحوي فنوناً كثيرة مثل علم طبقات الارض وعلم المعادن وعلم خصائص الشعوب وعلم الانسان وعلم الحيوان وعلم الانساب

والتاريخ والآثار وغير ذلك وقد أجاد في وصف جغرافية الشام فصور حالتها في القرن السابع والثامن ، والأرجح أنه طافها كلها ، ولم يقصر في جغرافية مصر عن هذه الغاية . أما في بحثه عن الآثار فانه في الغالب يتلقى كلامه عن الأفواه أو عمن ألفوا في القصص والحكايات والغرائب . واذ وسم كتابه بعجائب البر والبحر فهو يحشوه من هذا القبيل ومنها المفيد مع ذلك ، ومنها ما لا يقبله العقل .

اما في الجغرافية فقد وصف بلاد السودان والزنج والبربر وغيرهم في أواسط افريقية مما لم يطلع عليه علماء الجغرافيــة الا في العهد الأخير ، وكذلك وصف من أمم جزائر البحر المحيط الهندي وما والاه من الأمم وأورد من أسمائهم ما لا يعرف الآن ، أما في أوربا فقد ألمّ الماماً خفيفاً ببعض مدن جنوبها أما شمالهـا فاكتفى على عادة أكثر جغرافيي العرب بأن قال انه يسكنها أقوام من الافرنج . أما اميركا فلم تكن قد كشفت في عهده ، ولكن أجاد في الكلام على بحر الظلمات والاوقيانوس الاطلانطي وما فيه من الجزر وعلى سواحله من المدن ، وما فيه من الصور يدل على تفنن فيه ، وان العرب ايام كانوا أشبه بالغربيين اليوم يميلون الى تصوير المواد العلمية .

وقال في ذكر توليد الجبال والهضاب والرمال والكلام على كيفية تكوين ذلك وعلته وسببه : قال العلماء بذلك ان الجبال الصغار والتلال قد تكون من الزلازل الكائنة من الرياح المحقونة في الأرض المتموجة تحتها حيث ترفع بعضاً وتخفض بعضاً ، ومن صحة ذلك انه في سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة كان المطر في الشام قليلا ، وقصرت ينابيع العيون ، أرسل الله عز وجل زلزلة في أيام الصيف فخرجت العيون وزادت الانهار زيادة بقدر ما كانت ثلاث مرار واربع مرار . وهذا صحيح وقد يكون باستيلاء الرياح العاصفة على بعض أجزاء الارض بالكشف والحفر الى أن يصير ما غلبت عليه غوراً . ومن صحة ذلك انه في سنة تسع عشرة وسبعمائة

كان على الجبل الافرع شجر زيتون كثير نيف على ثلاثمائة ، فحمله الريح الى أرض بعيدة بترابه ، وكأنه لم يكن مخلوقاً الا من تلك الارض ، وكأنه لم يكن على الجبل شجر مزروع قط . وفي تلك السنة أيضاً حملت الريح ديراً يقال له دير سمعان قريب من تلك الارض بحجارته ورهبانه ، وما كان في الدير من قمحهم وخزينهم وبقرهم ودوابهم وعددهم ، حتى كأنهم لم يكونوا ، ولم يعلم لهم خبر ، ولم يطلع لهم على أثر ، وسُطر بذلك محضر شرعي ، وطلعوا به الى السلطان محمد بن قلاوون خلد الله سلطانه ورحم ملوك المسلمين اجمعين . وفي سنة سبعمائة نزل جبل عال شامخ في بيت المقدس بقرب من عين فروج التي على الطريق فبقدر ما كان مرتفعاً توطأ فى الارض وهو الى الآن أرق مياه تتفق لها حركة على جزء من الارض دون الآخر فيحفر ما يسيل فيه ويبقى مالا يسيل فيه رابياً ، ثم لا تزال السيول تغوض في الجزء الاول الى ان يعود غوراً ويبقى ماانحرف عنه سامياً . ومن العجب العجيب مغارة بالشام يخرج منها جدول ماء مايجاوز كعبي قدم الخائض فيه ، فاذا دخلها الانسان وجدها واسعة طويلة المدى نحواً من أربعة آلاف خطوة تحت الارض ، والماء يقطر من جوانبها ، وهي كصورة الازج الطويل والقبو المبني ، ولكنها مغارة منحوتة وتجد تحت كل ماء قطر من سقفها حجارة جامدة من الماء المتقاطر مختلفة الالوان والشكل ، فمنها كهيئة العسل في لونه وكهيئة الثمار ، وهيئة النجوم ، وهيئة الاعضاء ، وهيئة الحبوب ، وهيئة النقل ، وهيئات منوعة ، وكلها حجارة جامدة من تقاطر الماء . أصباغها صادقة في الحمرة والسواد وغيره ، وسميت مغارة العجب كذلك قالوا ، وقد تتكون أنواع الحجارة في النار .

وقال في ذكر نوادر الاحجار الثمينة المهدي بها بعض الملوك الى بعض وذكر قيمتها : « ومن ذلك ما وجد في خزائن الخلفاء والوزراء من الجوهر النفيس والذخائر الفاخرة الدرة اليتيمة ، وسميت بذلك لانها لم يوجد لها في الدنيا نظير ، حملها مسلم بن عبد الله العراقي الى الرشيد فابتاعها منه بتسعين

ألف دينار ، ومنه الفص الياقوت الاحمر المسمى بالجبل كان وزنه أربعة عشر مثقالاً ونصفاً اشتراه الرشيد بثمانين ألف دينار . وكان للمتوكل فص ياقوت أحمر وزنه ستة قراريط اشتراه بستة آلاف دينار ، وكان له سبحة فيها مائة حبة جوهر وزن كل حبة مثقال اشتريت كل حبة بالف مثقال . وأهدى بعض ملوك الهند الى الرشيد قضيب زمرد أطول من ذراع على رأسه تمثال طائر ياقوت أحمر لا قيمة له ، فقوم هذا الطائر بمائة ألف دينار ، ودفع مصعب بن الزبير حين أحسّ بالقتل الى مولاه زياد فصاً من الياقوت الاحمر وقال : أنج بهذا . كانت قيمته ألف ألف درهم . وسقط من يد الرشيد فص في أرض كان يتصيد بها فاغتم لفقده ، فذكر له فص ابتاعه صالح صاحب المصلى بعشرين ألف دينار فأحضره ليكون عوضاً عما سقط منه فلم يره عوضاً ، ووهب المأمون للحسن بن سهل عقداً قيمته ألف ألف درهم ومائة ألف درهم وستة عشر الف درهم . وكان فيما أهدى ملك الهند الى كسرى جام ياقوت أحمر فتحة شبر في شبر مملوء دراً ، قيمة كل درة الف وخمس مائة مثقال . وكان لمحمود صاحب غزنة حجر ياقوت كنصاب المرآة اذا ركب قبض عليه بيمينه فتبين طرفاه من جانبي يده حيث ينظر اليه الناس .

، ولما انهزم ابو الفوارس بن بهاء الدولة من أخيه سلطان الدولة بن بويه أباع جوهرتين كانتا على جبهة فرسه لزين الدولة بعشرين الف دينار فقال له: من غلطك تجعل هذا على جبهة فرسك وهذه قيمتها . ووجد في خزائن مروان ابن محمد مائدة جَزْع أرضها بيضاء فيها خطوط سود وحمر وسعتها ثلاثة أشبار وأرجلها ذهب ، يقال انها صنعت على شكل المشتري ، من أكل عليها لا يشبع ولا يتخم ، ووجد في خزانته أيضاً جام زجاج فرعوني محكم غلظ اصبع وفتحة شبر ، وفي وسطه أسد ثابت وقدامه رجل جاث على ركبتيه ، وقد وضع سهماً في قوس بيده يريد أن يرمي الأسد ، ولم تعرف له خاصية . وكان لأنوشروان بساط يسميه بساط الشتاء مرصع بأزرق الجوهر وأحمره وأصفره وأبيضه وأخضره فعمل أخضره مكان أغصان الأشجار ،وألوانه

بموضع الزهر والنوار ، فلما أخذ في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وقعة القادسية حمل اليه في الفيء ، فلما رآه عمر قال ان أمة أدت هذا الى أميرها لأمناء ، ثم فرقه فوقع منه لعلي بن أبي طالب قطعة في قسمه مقدارها شبر في شبر باعها بخمسة عشر ألف دينار .

ولما فتح الملك الظاهر ركن الدين بيبرس رحمه الله سيس دخل بعض الغلمان الى دار صاحب سيس فوجـــد نرداً ببادقه ياقوت احمر واصفر وسُكُرُّجَته من حجر الماس ورقعته زركش ، فخطف الغلام النرد فوقع منه قطعتان تركها داعشاً فوقعت القطعتان المنسيتان في يد الملك الظاهر فقال : ما كان الا كاملاً فاستدعى بعريف سوق الصرف وأراه القطعتين وقال له ان مسكت من هذا قطعة مع أحد الناس فعلت معك كل خير فما كان الا قليلاً وقد أتى الغلام ليبيعها فمسك وأتي به الى الملك فوجدوا الباقي معه فأخذه الملك الظاهر ودفع الى الغلام عشرة آلاف درهم .

ولما كان الملك المنصور قلاوون رحمه الله بدمشق سنة اثنتين وثمانين وستمائة احضر اليه من المدرسة الجوهرية مائدة ذهب وزنها ثمانية أرطال وربع بالدمشقي وعليها تمثال دجاجة من ذهب وصيصان من ذهب ، في منقار كل واحد لؤلؤة بقدر الحمصة ، وفي منقار الدجاجة درة بقدر البندقة ، وفي وسط المائدة سكرجة من زمرد سعتها مثل كفة الميزان التي للدرهم السوقي الكبير مملوءة حبات من الدر ، قيل ان الملك الناصر صاحب حلب اودعها لنجم الدين الجوهري فأكنزها بدهليز مدرسته فوشى بها الى الملك المنصور جارية من جواري الجوهري وكان على جميع المائدة شبكة من ذهب منسوج صغيرة الأعين حاوية لكل ما في المائدة ولها ثمان قوائم .

وأهدى مقدم زاوية عكا الى الملك المنصور طشتاً من ذهب في وسطه بيت مربع له أربعة خروق في أسفله يدخل منها دم الفصاد الى داخل البيت ، وفي البيت بسقفه تمثال انسان متواري في البيت ورأسه وعنقه بارز من سقفه وكلما سقط في الطشت من دم الفصاد وزن عشرة دراهم

ارتفع ذلك التمثال بصدره وظهرت على صدره كتابة عشرة الدراهم ، ولا يزال كذلك الى مقدار ثلاث اواق دمشقية ، فيقف التمثال قائماً ويسمع من جوفه كلمة يونانية معناها حسبك حسبك ا ه .

* * *

وكتابه الثاني : « السياسة في علم الفراسة » قال فيه أن أصول هذا العلم مستندة الى العلم الطبيعي وتفاريعه متقررة بالنجارب فكان مثل الطب سواء ، وقال انه على قسمين أحدهما أن يحصل خاطر في القلب بأن هذا الانسان من صفته كيت وكيت من غير حصول امارة جسمانية ولا علامة محسوسة ، والثاني الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة ، وهو علم يقيني الأصول ظني الفروع . تكلم في القيافة (النظر الى بشرات الناس وجلودهم) والريافة (معرفة الماء المستجن في الأرض) والعيافة (تتبع آثار الأقدام والاخفاف والحوافر في الطرق) وعرض للبحث في أخلاق الحيوان الأول سباع البهائم ، أو ذوات الأظلاف والاخفاف والطيور وغيرها ، ونظر في الكفوف والأصابع والأظفار والصدور والبطون والأفخاذ والأعجاز والاوراك وأعضاء النسل والساق والركب والضحك والتبسم والقهقهة ، وعلامات الرجل الجاهل الشرير المؤذي ، والرجل الخير الديّن الحميد الطبع ، والكافر والفاجر والسفاك والشجاع والوقح والكذاب والجبان والكسلان والسخي . وتكلم عن الافلاك والبروج .

ومما قاله في بيان أخلاق أهل الآفاق : فأهل مصر يغلب عليهم العقل [illegible] ونقص الغيرة ، وقلة الفطنة وظهور الشح ، وتزكية النفس ، وكثرة الشبق في النساء ، وفيهم المحاكاة والتخيل ، وقلة الاعتناء بالامور ، ولا يكادون يحققون علماً ، ولا يعمقون في بحث . وأهل بربر فطناء وغلاظ حريصون حفظاء أشحاء كذابون جفاة ونساؤهم لطاف ، والمكر فيهن قليل . وأهل الشام غفول متكبرون مبذرون بارون شرهون ، سليمة

قلوبهم منقادون ، والغالب عليهم اللهو والعبث بالناس ، ملاون متكرهون دعابون ، باطنهم الخير وظاهرهم الكبر ، مأمونو الغائلة ، كثيرو التصديق فصحاء يحبون المحمدة . وأهل الروم غلاظ متكلفون صلفون فيهم وفاء أشحاء ، وفيهم الغفلة فاشية ، ويغلب عليهم الجبن والجهل والهلع وحب جمع المال . واهل الحجاز أذكياء كرماء مواسون أهل وفاء فهماء حفاظ ، رقاق الانفس بشجاعة واقدام وفهم ، وفيهم الدعابة والشبق والتعشق والتحيل والخداع بالنطق ، وتأنيث الشمائل وحب اللهو والمعازف ، وفي نسائهم الغلمة والكرم . وأهل العراق غدارون ماكرون منافقون مستهزئون أشحاء يمارون متكبرون ، أولو فطنة وذكاء وفهم ، ودهاء وخديعة وطمع ، وتحيل باستعلاء ، وفيهم الشبق وعدم المبالاة وقلة الوفاء ، وفي النساء اغتلام شديد وتحبب الى الرجال . وأهل العجم أذكياء عقلاء أقوياء الابدان والنفوس أشحاء أولو فهم ، متكبرون محتقرون من سواهم ، يحبون الطرب ويشتهون الاحداث دون النساء ، ونساؤهم جيدات الطبع متحببات الى الرجال . وأهل بذخشان أذكياء فطناء أريحيون عصبيون يحبون المحمدة وسفك الدماء . وأهل بذخشان الاسفل أهل طرب ومعازف وتغزل ، والجمال فيهم ظاهر . وسيما كورة اسكندرية فارس والشح فيهم . وأهل الهند الاعلى شجعان جهلة غفل غدارون كثيرو الشبق خوانون كذابون سيئة أخلاقهم ، صبرهم قليل والنميمة فيهم . وأهل الجرزات الهندية صالحون عقلاء حكماء أوفياء ، سهل عليهم هلاك أنفسهم بأيديهم . وأهل الصين طياشون مكرة حسدة فطناء أذكياء محاكون ، متقنو الصنائع بأيديهم ، وفيهم الغدر والنفاق والجبن ظاهر . وأهل التبت والخطا أشبه بأهل الصين ، وفيهم الوفاء وحسن المعاملة ، وقل أن يكونوا غير مسرورين . وأهل اليمن مصدقون منقادون ضعاف النفوس ، فيهم الشبق ، مأمونو الغائلة ، وفيهم تحيل وعجز وغفلة . وأهل الحبشة أهل غفلة وديانة وأمانة ووفاء وحسن محبة ، ونقص فهم

وغلظ طبع . وأهل النوبة أهل لعب وعبث وطيش وشح وخيانة وسوء خلق وجهالة وخبث وشبق ودناءة . وأهل السواحل غالباً أهل أمانة ووفاء وذكاء وشبق ونقص غيرة وسرعة فهم وبطء حفظ . وأهل الجبال غالباً أهل غفلة وغلظة طبع وشح واضطراب حال وعقول وفكر . وأهل المغرب أذكياء ذوو فطن أشحاء سيئون في أخلاقهم متحيلون مهتمون (كذا) غلاظ الطبع أشرار . وأهل الشرق أذكياء فطناء ذوو همم علية ، وأنفس أبية وبصائر ثاقبة وكبر ومماراة وشح وسياسة واعتناء بالامور وعقول رزينة بها مكرة . واليونان علماء عقلاء حكماء أذكياء فطناء فهماء ، وفيهم الصلف ورقة الطبع وعلو الهمم . ويقال : ظهرت الحكمة بأدمغة اليونان وألسنة العرب وأيدي الصين .

هذا فصل من فصول كتاب الفراسة وفيه الصحيح وفيه غيره ، أوردته نموذجاً من علم المؤلف وبحثه . يقول ناشر كتاب نخبة الدهر أن شيخ الربوه من المؤلفين الجماعين سار على خطة المسعودي وأبي عبيد البكري ومع ذلك خص كتابته بالكلام عن المعادن والاحجار الثمينة مما لم يتأت القيام بمثله لمؤلف حتى اليوم .

(٤٨)

ابن تيمية

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني

(٧٢٨)

ولد بحران سنة احدى وستين وستمائة وقدم مع والده وأهله الى دمشق ، وكانوا قد خرجوا من بلاد حران مهاجرين بسبب جور التتار وقدموا دمشق سنة سبع وستين . فسمع الحديث من أئمته في دمشق ، وسمع مسند أحمد مرات ومعجم الطبراني الكبير والكتب الكبار والأجزاء . وعُني بالحديث وقرأ بنفسه الكثير ولازم السماع مدة سنين ، ونسخ وانتقى وكتب الطباق والاثبات ، وتعلم الخط والحساب في الكتب ، واشتغل بالعلوم وحفظ القرآن وأقبل على الفقه ، وقرأ أياماً في العربية على ابن عبد القوي ثم فهمها وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهمه ، وبرع في النحو وأقبل على التفسير اقبالاً كلياً حتى حاز فيه قصب السبق ، وأحكم أصول الفقه ، كل هذا وهو ابن بضع عشرة سنة ، فعجب الفضلاء من فرط ذكائه وسيلان ذهنه وقوة حافظته وسرعة ادراكه .

ذاك ما قاله من ترجموا له في نشأته . أما أخلاقه فقالوا انه نشأ في تصوف تام ، وعفاف وتأله ، واقتصاد في الملبس والمأكل ، ولم يزل على ذلك خلقاً صالحاً براً بوالديه تقياً ورعا عابداً ناسكاً صواماً قواماً ، ذاكراً الله تعالى في كل أمر ، رجاعاً الى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا ، وقافاً عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه ، آمراً بالمعروف ناهيا عن المنكر « فارغاً من شهوات المأكل والملبس والجماع ، لا لذة له

في غير نشر العلم وتدريسه ، عرض عليه منصب قضاء القضاة ومشيخة الشيوخ فلم يقبل ، وقبل وظائف والده في التدريس وله احدى وعشرون سنة . وكان والده من كبار الحنابلة وأئمتهم ، ودرّس هو بعده فاشتهر أمره وبعد صيته في العالم ، وما أتى له ثلاثون سنة حتى كان من أعظم علماء عصره ، بل أعظم عالم في عصره ، لا تكاد نفسه تشبع من العلم ، ولا تروى من المطالعة ، ولا تملّ من الاشتغال ، ولا تكلّ من البحث ، وقل أن يدخل في باب من أبواب العلوم الا وفتح له من ذلك الباب أبواب ، واستدرك أشياء في ذلك العلم على حذاق أهله .

وكان يحضر المجالس والمحافل في صغره فيتكلم ويناظر ويفحم الكبار ويأتي بما يحار منه أعيان البلد . وشرع في الجمع والتأليف وله نحو سبع عشرة سنة . قال الحافظ الزملكاني : كان اذا سئل عن فن من الفنون ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحداً لا يعرف مثله . كان الفقهاء من سائر الطوائف اذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك ، ولا يُعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه ، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها الا فاق فيه أهله والمنسوب اليه . وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين .

وقالوا فيه : « وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حفظه فكان ما يقوله من غير توقف ولا تلعثم ، وكذا كان يورد الدروس بتؤدة وصوت جهوري فصيح . وانتهت اليه الامامة في العلم والعمل والزهد والورع والشجاعة والكرم والتواضع والحلم والأناة والجلالة والمهابة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الصدق والامانة والعفة والصيانة وحسن القصد والاخلاص والابتهال الى الله تعالى وشدة الخوف منه ودوام المراقبة له ، والتمسك بالأمر والدعاء الى الله تعالى وحسن الاخلاق ونفع الخلق والاحسان اليهم . وكان رحمه الله سيفاً مسلولاً على

المخالفين ، وشجاً في حلوق أهل الأهواء والمبتدعين ، واماماً قائماً ببيان الحق ونصرة الدين ، طنت بذكره الأمصار ، وضنت بمثله الأعصار » .

وقال الذهبي انه صار من أكابر العلماء في حياة شيوخه ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر ، وفسر كتاب الله تعالى مدة سنين من صدره أيام الجمع ، وكان يتوقد ذكاء ، وسماعاته من الحديث كثيرة ، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ ومعرفته بالتفسير اليها المنتهى ، وحفظه للحديث ورجاله وصحته وسقمه مما لا يلحق فيه ، وأما نقله للفقه ولمذاهب الصحابة والتابعين فضلاً عن مذاهب الأربعة فليس له فيه نظير وأما معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام فلا أعلم له فيه مثيلاً ، ويدري جملة صالحة من اللغة ، وعربيته قوية جداً ، وأما معرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب .

قال : فان ذكر التفسير فهو حامل لوائه ، وان عدّ الفقهاء فهو مجتهدم المطلق ، وان حضر الحفاظ نطق وخرسوا ، واستزيد وأبلسوا واستغنى وأفلسوا ، وان سمي المتكلمون فهو فردهم واليه مرجعهم ، وان لاح ابن سينا يقدم الفلاسفة فلسفهم وبخسهم وهتك أستارهم ، وكشف عوارهم . وله يد طولى في معرفة العربية والصرف واللغة ، وهو أعظم من أن تصفه كلمي أو تبينه اشارة قلمي .

وقال في مكان آخر : وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ومعرفة بفنون الحديث ، وبالعالي والنازل ، وبالصحيح وبالسقيم مع حفظه لمتونه الذي انفرد به ، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته ولا يقاربه ، وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج منه ، واليه المنتهى في عزوه الى الكتب الستة والمسند بحيث يصدق عليه ان يقال كل حديث لايعرفه ابن تيمية فليس بحديث ، ولكن الاحاطة لله ، غير أنه يغترف فيه من بحر وغيره يغترف من السواقي .

وقال أيضاً : كان يقضي منه العجب اذا ذكر مسألة من مسائل

الخلاف واستدل ورجح ، وكان يحق له الاجتهاد لاجتماع شروطه فيه .
قال : وما رأيت أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه ، ولا أشد استحضاراً للمتون وعزوها منه ، كأن السنة نُصب عينيه وعلى طرف لسانه ، بعبارة رشيقة وعين مفتوحة . . . ومن خالطه وعرفه قد ينسبني الى التقصير فيه ، ومن نابذه وخالفه قد ينسبني الى التغالي فيه ، وقد أوذيت من الفريقين من أصحابه وأضداده . وكان أبيض أسود الرأس واللحية قليل الشيب شعره الى شحمة أذنيه كأن عينيه لسانان ناطقان ، ربعة من الرجال بعيد ما بين المنكبين جهوري الصوت فصيحاً سريع القراءة تعتريه حدة لكن يقهرها بالحلم . . وقال تعتريه حدة في البحث وغضب تزرع له عداوة في النفوس .

كتب الذهبي الى السبكي يعاتبه بسبب كلام وقع منه في حق ابن تيمية فأجابه : وأما قول سيدي في الشيخ تقي الدين فالمملوك يتحقق كبير قدره وزخارة بحره وتوسعه في العلوم النقلية والعقلية وفرط ذكائه واجتهاده وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف ، والمملوك يقول ذلك دائماً ، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض سواه وجريه على سنن السلف وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى ، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من الزمان . وقال ابن سيد الناس إنه برَّز في كل فن على أبناء جنسه ، ولم تر عين من رآه مثله ، ولا رأت عينه مثل نفسه

بدأت محنة شيخ الاسلام لما تمت أدواته وشاعت فتاويه في مسائل وجد منها حساده مدخلاً لهم فناقشوه وكفروه وبدَّعوه واعتقله الولاة وغرَّبوه ، وكان منذ سنة تسع وتسعين ظهرت شخصيته السياسية في البلاد وبدأ تعويل الأمة عليه في دفع أعدائها عنها في نوبة غازان ، فقام بأعباء الأمر بنفسه واجتمع بنائبه وجرأ على المغول وتوجه بعد ذلك بعام الى الديار المصرية لما اشتد الأمر بالشام من المغول واستصرخ بأركان الدولة

وحضهم على الجهاد ، ثم عاد بعد أيام الى دمشق وظهر اهتمامه بجهاد التتار وتحريضه الأمراء على ذلك الى ورود الخبر بانصرافهم ، وقيامه القيام المحمود في وقعة شقحب سنة اثنتين وسبعمائة واجتماعه بالخليفة والسلطان وأرباب الحل والعقد وتحريضهم على الجهاد ، ثم توجهه في آخر سنة أربع وسبعمائة لقتال الكسروانيين واستئصال شأفتهم ، ثم مناظراته للمخالفين في سنة خمس في المجالس التي عقدت له بحضرة نائب السلطنة الأفرم وظهوره عليهم بالحجة والبيان ، ورجوعهم الى قوله طائعين مكرهين . ثم توجهه بعد ذلك في السنة المذكورة الى الديار المصرية في صحبة قاضي القضاة الشافعية وعقدهم له مجلساً حين وصوله بحضور القضاة وأكابر الدولة ، ثم حبسه في الجب بقلعة الجبل ومعه اخواه سنة ونصفاً ، ثم اخراجه بعد ذلك وعقدهم له مجلساً ظهر فيه على خصومه ، ثم عقدهم له مجلساً سنة سبع لكلامه في طريقة الاتحادية ، ثم الأمر بتسفيره الى الشام على البريد ، ثم الأمر برده من مرحلة وسجنه بحبس القضاة سنة ونصفاً ، ثم اخراجه منه وتوجهه الى الاسكندرية وجعله في برج حبس فيه ثمانية أشهر ، ثم توجهه الى مصر واجتماعه بالسلطان في مجلس ضم القضاة واعيان الامراء ، واكرامه له اكراماً عظيماً ومشاورته له في قتل بعض اعدائه وامتناع الشيخ عن ذلك ، ثم سكناه القاهرة ، ثم توجهه الى الشام ، ثم ملازمته بدمشق لنشر العلوم وتصنيف الكتب وافتاء الخلق الى ان تكلم بمسألة الحلف بالطلاق فأشار عليه بعض القضاة بترك الافتاء بها في سنة ثماني عشرة فقبل اشارته دفعاً للفتنة ، ثم ورد كتاب السلطان بعد ايام بالمنع من الفتوى بها ، ثم عاد الشيخ الى الافتاء بها وقال : لا يسعني كتمان العلم ، وبقي كذلك مدة الى ان حبسوه بالقلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً ولم يزل على عادته من الاشتغال والتعليم الى ان ظفروا له بجواب يتعلق بمسألة شد الرحال الى قبور الانبياء والصالحين ، كان أجاب به من نحو عشرين سنة ، فشنعوا عليه بسبب ذلك وورد مرسوم السلطان في شعبان من سنة ست وعشرين بجعله في القلعة ، فأخليت له قاعة حسنة

وأقام فيها ومعه أخوه يخدمه ، فكتب في المسألة التي حبس بسببها مجلدات عديدة وظهر بعض ما كتبه واشتهر وآل الأمر الى ان منع من الكتابة والمطالعة ، واخرجوا ما عنده من الكتب ولم يتركوا دواة ولا قلماً ولا ورقة ، وكتب عقيب ذلك بفحم . وكان اخراج الكتب من عنده من أعظم النقم ، وبقي اشهراً على ذلك وأقبل على التلاوة والعبادة والتهجد حتى أتاه اليقين .

هذا مجمل ما قيل في حالة شيخ الاسلام ومع ما حاول أعداؤه أن ينغصوا عيشه دأب في كل زمن على التأليف فألف ثلثمائة مجلد وكلها في الشرع وفي حل مسائل عويصة من الدين تقرأ فيها وصلنا منها مثالاً من علمه النفيس وعمله الذي عقمت القرون أن يأتي رجل بما يماثله . كثرت تآليفه لأنه كان يؤلف من صدره ، حفظ الكتاب والسنة وما دون في شروحها وما قاله العلماء في تفسيرهما ، وقد ساعدته كثرة محفوظه وفيض خاطره وسعة بيانه على تدوين حقائق لم يكتب لعالم مثله في موضوعه ، ولو لم يكن له الا منهاج السنة لكفاه على الايام فخراً لا يبلى ، ففيه مثال من علمه وقوة حجته ومعرفته بالملل والنحل ، واذا قلنا أنه لم يؤلف نظيره في الرد على المخالفين لاهل السنة لصدقنا كل منصف من أهل القبلة .

وكتاب منهاج السنة من أصح الشهادات على علو كعبه في معرفة الشرع وما تقلب عليه ، وما حاول بعض أهل الاهواء من العبث به ، وفيما أورده الموافقون والمخالفون من صحيح الآراء وبهرجها ، وكان عنوان مداركه الواسعة بتاريخ الاسلام وتاريخ الملل والنحل ، ولو ادعينا أنه لم يأت عالم يعرف ماطراً على الدين ومذاهب أهله فيه ساعة ساعة ويوماً يوماً ماقدر أحد على ردّ دعوانا .

رد على المعتزلة وعلى الجهمية وعلى الشيعة وعلى الفلاسفة وعلى غيرهم فجاء بالعجيب من الآراء التي استخرجها من روح الشريعة واستنبطها ببعد نظره وشدة بحثه فما كتب لامام من الأئمة في عصره وبعد عصره أن يناقضه ويرد أقواله .

وعلى كثرة ماحرص الشافعية للتفوق على هذا الحنبلي ، واقناع العلماء بفتاويهم وتزييف فتاويه ، ما كانوا معه الا كالاطفال أمام الرجال ، وفي مقدمتهم المشايخ بنو السبكي ، وما كان لهم في دولة مصر والشام من السلطان . اعتقلوه في القاهرة والاسكندرية أشهراً لم تمنعه عن التأليف والتدريس والوعظ ، وما حالوا دون اعجاب المنصفين من العلماء به وقول الحق فيه ولا دون تقديس الامة له يوم موته ، وهي التي عرفته سباقاً الى كل خير يقصد منه صلاح دنياها ودينها ، وكان له في انتصار دولة المماليك على التتار اليد الطولى التي لا تنكر ، ودل أنه في السياسة كما هو في الدين امام عظيم وان الدين لا ينفصل عن السياسة في نظره . وما سمع لأحد علماء الدين في عصره صوت مثل صوته في احقاق الحق ونصرة سلطان الاسلام . ونسبه قوم الى أنه يسعى في الامامة الكبرى فانه كان يلهج بذكر ابن تومرت ويطريه فكان ذلك مؤكداً لطول سجنه . ولم يرض يوم عقد الصلح مع التتار أن يتخلى عن الاسرى من النصارى واليهود فقال انهم ذمتنا ولا بد من ارجاعهم الى ديارهم . وكم له من مثل هذه الحسنات التي أصبحت كأنها قواعد من قواعد الشرع والسياسة لا يستغني عنها خليفة ولا سلطان .

ان استعانة خصوم ابن تيمية بقوة رجال الدولة في مسألة شد الرحال الى قبور الانبياء والاولياء والصالحين وفي غير ذلك من البدع التي أقروها والشريعة تنكرها انكاراً ظاهراً كما يفهم من آي الكتاب العزيز وهدي الصحابة والتابعين والعلماء العاملين واغتباطهم بما ظنوه ظفراً لهم في تلك المعركة الشديدة قد كان من نتائجه مسخ الشريعة عند المتأخرين وبقيت الامة على اقرار الخرافات والبدع الى يوم الناس هذا في بلاد المسلمين كافة وكأنهم اخترعوا شريعة أخرى استمالوا بها العوام ومزجوها بالشريعة الاصلية رغم أنوف الخواص فركبوا عار الأبد ولعنوا بما بدلوا وحرفوا ، هو لم يأت ببدع وهم سلموا بكل البدع . فكان العالم العامل حقاً ،

وكانوا عبدة أوهام وضلالات . أراد شرعاً نقياً من الأدران ، وهم تساوت عندهم الدناوة والنفاية لأنهم يقصدون بمنافساتهم الظهور وكسب قلوب الدوغاء على أي حال .

لو عمت دعوة ابن تيمية ، ولدعوته ماءائلها في المذاهب الاسلامية ، ولكنها عنده كانت حارة وعند غيره فاترة ، لسلم هذا الدين من تحريف المحرفين على الدهر ، ولما سمعنا أحداً في الديار الاسلامية يدعو لغير الله ، ولا ضريحاً تشد اليه الرحال بما يخالف الشرع ، ولا يعتقد بالكرامات على ماينكره دين أتى للتوحيد لا للشرك واسلامة العقول لا للخبال والخيال .

كان ابن تيمية في النصف الثاني من عمره سراجاً وهاجاً أطفأ بعلمه وعمله شهرة أرباب المظاهر من القضاة والعلماء ، وكان الصدر المقدم كلما دخل في موضوع ديني أو سياسي ، وعبثاً حاول بعض الشافعية والمالكية أن يسلموه للعامة علهم يقتلونه فما استطاعوا أكثر من حجز حريته أشهراً في سجن ، وكان الملوك يحمونه من تعصب خصومه ويعرفون قدره . وكان الملك الناصر صاحب مصر يرفع من مقام ابن تيمية كثيراً وأراد أن يقتل من أفتوا بخلعه من العلماء ، وحثه على أن يفتيه في قتل بعضهم فأنكر أن ينال أحداً منهم بسوء وقال له : اذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم فقال له : انهم آذوك وأرادوا قتلك مراراً . فقال الشيخ من آذاني فهو في حل ، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه ، أنا لا أنتصر لنفسي ، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح . وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول : مارأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر عليه ، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا . فعل هذا ابن تيمية وخصومه يقولون : يجب التضييق عليه ان لم يقتل والا فقد ثبت كفره ، ونحن نقول ان هذا هو الفرق العظيم بين أخلاقه وأخلاق مشاكسيه ، هم كانوا ممن يهتمون لدنياهم ومظاهرهم وهو كان يهتم الأخرى فقط ، وشتان بين المطلبين . كان يهتم لنشر الدين والقضاء على البدع بقلبه ولسانه وقلمه

وهددهم أن يرضى عنهم السلطان فيبقيهم في مناصبهم ويستميلوا العامة فيقبلوا أيديهم .

هو يقول لنائب قلعة دمشق في فتنة غازان : لو لم يبق فيها الا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك ان استطعت ، فسلمت القلعة من أذى التتار ، وكان يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط ، وكذلك كان شأنه في وقعة شقحب وكان يعد المسلمين بالنصر هذه المرة ويؤكد كلامه في ذلك حتى نصروا على عدوهم . وفي قتال الجرديين والكسروانيين ابان أيضاً عن سياسة رشيدة وأرجع بعض الناشزين من أهلها الى الاسلام .

من أهم المسائل التي حاول حساد ابن تيمية أن ينالوا بها منه مسألة شد الرحال الى قبور الصالحين وغيرهم قال ابن كثير : ان جواب ابن تيمية في هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء الصالحين وانما فيه ذكر قولين في شد الرحل والسفر الى مجرد زيارة القبور . وزيارة القبور من غير شد رحل اليها مسألة ، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى . والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل بل يستحبها ويندب اليها وكتبه ومناسكه تشهد بذلك ، ولم يتعرض الى هذه الزيارة في هذا الوجه في الفتيا ولا قال انها معصية ولا حكى الاجماع على المنع منها ولا هو جاهل قول الرسول : « زوروا القبور فانها تذكركم الآخرة » .

ثار عليه مرة جماعة من الحسدة وشكوا منه أنه يقيم الحدود ويعزر ويحلق الرؤوس أيضاً وتكلم هو فيمن يشكو منه ذلك وبين خطأهم . وراح مرة في ثلة من أصحابه ومعهم حجارون وأمرهم بقطع صخرة كانت بنهر قلوط بدمشق تزار وينذر لها فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها ، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيماً . قال ابن كثير : وبهذا وأمثاله حسدوه وأبرزوا له العداوة ، وكذلك بكلامه بابن عربي وأتباعه فحسد على ذلك وعودي ولم يصلوا اليه بمكروه وانما أخذوه وحبسوه بالجاه .

قال : ولم يزل الشيخ ملازماً لاشتغال الناس في العلوم ونشر العلم وتصنيف الكتب وافتاء الناس بالكلام والكتابة المطولة والاجتهاد في الأحكام الشرعية . ففي بعض الأحكام يفتي بما أدى اليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الاربعة ، وفي بعضها يفتي بخلافهم وبخلاف المشهور في مذاهبهم . وله اختيارات كثيرة في مجلدات عديدة أفتى فيها بما أدى اليه اجتهاده ، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف .

رجل هذا شأنه يكفره القاضي المالكي ويحاول قتله ، والتعزير عند المالكية القتل ، ولا تشتفي نفوس بعض العلماء والسياسيين حتى ينادى بدمشق : من اعتقد عقيدة ابن تيمية حل دمه وماله خصوصاً الحنابلة . وجمعوا الحنابلة من صالحية دمشق وغيرها وأشهدوا على أنفسهم أنهم على معتقد الامام الشافعي .

قال الصلاح الصفدي كان كثيراً ماينشدني :

تموت النفوس بأوصابها ولم يدر عوّادها ما بها
وما أنصفت مهجة تشتكي أذاها الى غير أحبابها

وأنشد على لسان الفقراء (جماعة الطرق) :

والله ما فقرنا اختيار وانما فقرنا اضطرار
جماعة كلنا كسالى وأكلنا ماله عيار
تسمع منا اذا اجتمعنا حقيقة كلها فشار

(٤٩)

الذهبي

محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز

(٧٤٨)

شمس الدين أبو عبد الله التركماني الفارقي ، جاءته النسبة الى الذهبي
لأن والده برع في صنعة الذهب المدقوق وتميز فيها

مؤرخ ولا كالمؤرخين ومحدث ولا كالمحدثين . هو رجل سابر العقل فتفرد في تآليفه ، ونظر في ما حواه صدره من أصناف العلم نظرة بليغة ، فأتى بجديد ضمه الى القديم فسد ثلمة كانت لولاه فارغة ، وقام بفرض كان بعضهم يعده نافلة . هو امام تعب بعلمه حتى يستريح من بعده .

كتب التخليد والتأبيد لتآليفه وجاءت على توخيه فيها الاختصار زبداً من علم الاسلام وتكملة لتاريخ رجاله ، تلمح في صفحاتها بعد النظر وسداد الرأي ، وانصاف الحكم ، وتقف أمامها تكبر صنع واضعها ومدونها ، وتقول ان دمشق يحق لها اذا عدت في مفاخرها الحافظ ابن عساكر في القرن السادس أن تفخر بأنها كانت مجال علم الحافظ الذهبي في القرن الثامن ، وكلاهما لم تقف شهرته والانتفاع بما كتب عند حد دمشق أو الديار الشامية بل تعدتها الى الشرق والغرب فعدا من أعظم المؤرخين في المسلمين .

ترجم الصفدي للذهبي في نكت الهميان ، وعده في العميان لأنه أضر قبل موته بأربع سنين أو أكثر ، فقال : **حافظ لايجارى ولافظ لايبارى ،**

اتقن الحديث ورجاله ، ونظر علله وأحواله ، وعرف تراجم الناس وأزال الابهام في تواريخهم والالتباس ، مع ذهن يتوقد ذكاؤه ، ويصح الى الذهب نسبته وانتماؤه ، جمع الكثير ، ونفع الجم الغفير ، وأكثر من التصنيف ، ووفر بالاختصار مؤونة التطويل في التأليف . وقف الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني على تاريخه الكبير المسمى تاريخ الاسلام جزءاً بعد جزء الى أن أنهاه مطالعة وقال : هذا كتاب علم .

قال الصفدي : اجتمعت به وأخذت عنه وقرأت عليه كثيراً من تصانيفه ، ولم أجد عنده جمود المحدثين ، ولا كودنة النقلة ، بل هو فقيه النظر ، له دربة بأقوال الناس ، ومذاهب الأئمة من السلف وأرباب المقالات . وأعجبني ما يعانيه في تصانيفه من أنه لا يتعدى حديثاً يورده حتى يبين مافيه من ضعف متن ، أو ظلام اسناد ، أو طعن في رواة . والكودنة من الكودن هو البرذون يوكف ويشبه به البليد يقال ماأبين الكدانة فيه أي الهجنة . وقالوا فيه : هو « رجل الرجال في كل سبيل كأنما جمعت آلاته في صعيد واحد فنظرها ثم أخذ يخبر عنها اخبار من حضرها » « ما زال يخدم هذا الفن — فن الحديث — حتى رسخت فيه قدمه ، وتعب الليل والنهار وما تعب لسانه وقلمه ، وضربت باسمه الامثال » « ورغب الناس في تواليفه ورحلوا اليه بسببها وتداولوها قراءة ونسخاً وسماعاً » .

وهذه الجمل القليلة تنبيء بما حملت نفس الذهبي العظيمة ، وما صرف فيه أيام عمره التي بورك له فيها فصنف التصانيف الكثيرة الجليلة منها تاريخ الاسلام الكبير في أحد وعشرين مجلداً ، ومختصره سير النبلاء في عدة مجلدات ، ومختصره العبر ، وطبقات الحفاظ ، وطبقات مشاهير القراء ، والتاريخ الممتع في ستة أسفار ، وكل ذلك لم يطبع والمطبوع من تآليفه « دول الاسلام » ومشتبه النسبة ، وتذهيب التهذيب وميزان الاعتدال في نقد الرجال وغيره . ومن ألقى نظرة على المشتبه عرف تفرد الذهبي بمعارف جليلة وأدرك

احاطته . وقد اختصر عدة تواريخ وكتب في الطبقات ، وله تصانيف أخرى لم تشتهر .

جمع الذهبي القراءات السبع ، وسمع الحديث ببلاد كثيرة من خلائق يزيدون على ألف ومائتين بالسماع والاجازة وسمع وأملى « مالا يحصى كثرة من الكتب الكبار والاجزاء على خلق كثير » والغالب أنه لم تتعدَّ رحلاته الشام ومصر والحجاز ، ذكر في تاريخ الاسلام في ترجمة كمال الدين أبي الفرج البغدادي أنه انتهى اليه علو الاسناد في عصره ، وعمر دهراً طويلا قال وكنت في سنة أربع وتسعين وسنة خمس أتلهف على لقيه وأتحسر وما يمكنني الرحلة اليه لمكان الوالد ثم الوالدة .

قال في الدرر الكامنة انه تخرج على علماء عصره في دمشق والقاهرة ومهر في فن الحديث وجمع فيه المجاميع المفيدة الكثيرة حتى كان أكثر أهل عصره تصنيفاً ، وجمع تاريخ الاسلام فأربى فيه على من تقدمه بتحرير أخبار المحدثين خصوصاً ، وقطعه من سنة سبعمائة ، واختصر منه مختصرات كثيرة منها العبر وسير النبلاء وملخص التاريخ قدر نصفه وطبقات الحفاظ وطبقات القراء والاشارة وغير ذلك ، واختصر السنن الكبيرة للبيهقي فهذبه وأجاد فيه ، وله الميزان في نقد الرجال أجاد فيه أيضاً ، واختصر تهذيب الكمال لشيخه المزي ، وخرج لنفسه المعجم الكبير والصغير والمختص بالمحدثين ، فذكر فيه غالب الطبقة من أهل ذلك العصر ، وعاش الكثير منهم بعده الى نحو الاربعين سنة ، أخرج لغيره من شيوخه ومن أقرانه ومن تلامذته . وقالوا فيه انه خرج لجماعة من شيوخه وأقرانه وعدل وخرج وصحح واستدرك وأفاد وانتقى واختصر كثيراً من تواريخ المتقدمين والمتأخرين .

وطعن عليه ابن الوردي في ذيل تاريخ أبي الفداء وقال انه منقطع القرين في معرفة أسماء الرجال محدث كبير مؤرخ ، وقال انه استعجل قبل موته فترجم في تواريخه الاحياء المشهورين بدمشق وغيرها ، واعتمد في ذكر

سير الناس على أحداث يجتمعون به وكان في انفسهم من الناس فآذى بهذا السبب في مصنفاته أعراض خلق من المشهورين .

وكلام ابن الوردي موضع نظر فان الذهبي يتعذر عليه أن يقف على تراجم المئات ممن ترجم لهم بدون أن يستعين بتلاميذه وأصحابه ، وهو ليس له تارات على أحد حتى يعلي منهم ويخفض على هواه ، ولكن الناس لا يرضيهم اذا أعطوا حقهم من الترجمة ولو بزيادة قليلة ويغتبطون اذا زادهم المؤلف ماير بو على استحقاقهم . فان غلطة واحدة غلطها ابن الوردي في المبالغة بأبي الفداء أكبر من كل غلطة للذهبي اذا صح أنه غلط في ترجمة بعضهم ، وما راق ابن الوردي الا الطعن بالذهبي ، وأي غلطة أعظم من أن يقول ابن الوردي انه ليس في الملوك بعد المأمون أفضل من أبي الفداء وما كان هذا في حقيقته أكثر من وال عند المماليك يقبل الارض بين أيديهم لتصفو له عمالة حماة وهذه كل مملكته ، واذا رجعنا الى تآليفه نجد تاريخه خلاصة ما كتبه ابن الاثير وغيره ، وكتابه تقويم البلدان منقول من كتاب آخر وليس هو بأكثر من فهرس معجم جغرافي ، فكيف يكون من هذه سياسته وهذا علمه ثاني المأمون العباسي ! .

وبالطبع كان المخالفون للذهبي في مذهبه يطعنون عليه بأنه يتحيز لجماعته ويحط من أقدار مخالفيه . شنشنة قديمة للنيل من المؤلفين بل لنيل المغمورين من المشهورين . قارن حافظ الشام ابن ناصر الدين بين الذهبي والبرزالي والمزي فحكم للمزي بالتفوق في معرفة رجال طبقات الصدر الاول ، وللبرزالي في العصريين ومن قبلهم من الطبقات القريبة منهم ، وللذهبي في الطبقات المتوسطة بينها تأييداً لقول بعض مشايخه ، على أن الاهواء قلما تتغلب على المزي والبرزالي في تراجم الناس بخلاف الذهبي اه .

وقالوا ان الذهبي شديد الميل الى آراء الحنابلة لا ينصف الاشاعرة في التراجم . وقال فيه السبكي في طبقاته ، وبنو السبكي من غلاة الشافعية صنف التاريخ الكبير وما أحسنه لولا تعصب فيه . وعداوة الشافعية

للحنابلة مشهورة . ومثل الذهبي بعلمه يود كل شافعي وكل حنبلي أن ينطق باسم أهل مذهبه ويرعاهم ويحمي على خصومهم ، وهذا يستحيل على من تشبع بروح التاريخ كالحافظ الذهبي ، وميله الى الحنابلة أمر طبيعي فهو امام الحديث ، والحنابلة لا يقيمون وزناً قبل كل شيء لغير الحديث .

تولى الذهبي مشيخة الظاهرية قديماً ومشيخة النفيسية والفاضلية والسكرية وأم الملك الصالح ، وتولى في شبابه سنة (٧٠٣) خطابة قرية كفربطنا من الغوطة ، وأقام بها ولما تولى دار الحديث الظاهرية نزل عن خطابة كفربطنا ، وقيل انه ولد في كفربطنا والارجح أنه ولد في دمشق ، وهو من أصل تركماني وفي أجداده من اسمه قايماز ، أما الفارقي فنسبته لميارفارقين من بلاد الجزيرة قريبة من آمد « ديار بكر » ومن شعره :

تولى شبابي كأن لم يكن   وأقبل شيب علينا تولى
ومن عاين المنحنى والنقى   فما بعد هذين الا المصلى

ومنه :

اذا قرأ الحديث علي شخص   وأخلى موضعاً لوفاة مثلي
فما جازى باحسان لأني   أريد حياته ويريد قتلي

عاش الحافظ خمساً وسبعين سنة وأنتج هذا الانتاج العجيب ، فهو من أفراد الدهر .

(٥٠)

ابن فضل الله العمري

شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله

(٧٤٩)

ولد في دمشق سنة ٧٠٠ ومات فيها ، ويتصل نسبه بعمر بن الخطاب فهو قرشي عدوي عمري ، وبيته بيت رياسة وعلم جاء نقي الدم سامي البيئة . قرأ العربية على ابن قاضي شهبة ثم على قاضي القضاة شمس الدين مسلم وتفقه على قاضي القضاة شهاب الدين بن المجد عبد الله وعلى الشيخ برهان الدين الفزاري ، وقرأ الأحكام الصغرى على الشيخ تقي الدين بن تيمية ، والعروض على الشهاب محمود وعلاء الدين الوداعي وقرأ عليه جملة من دواوين العرب ، والأصول على الشيخ شمس الدين الاصفهاني ، وأخذ اللغة عن الشيخ أثير الدين ، وأجازه العارفون أن يفتي على مذهب الشافعي ، وروى الحديث عن كثير من الرجال والنساء ومنهن ست الوزراء وست القضاة ، وفي بيته وعن أبيه أخذ فن السياسة ، وزاده تمرسه بها في ديوان القاهرة لما غدا أمين سر السلطان ، والسلطان يومئذ الناصر قلاوون أرقى سلاطين المماليك ، والدولة المصرية في عهده متصلة بالغرب اتصالاً وثيقاً وترهبها أوربا لقوتها .

هذا علمه وهؤلاء من تخرج بهم وهم من الأفذاذ في فنونهم ، فكأنه خريج مدرسة جامعة في هذا العصر ، تعاورت تثقيفه أيدي اخصائيين معروفين ، ونمى معلوماته بالعمل أكثر من النظر ، ومن تأمل أساتذته وما تلقاه عنهم من المعارف لا يحكم الا بأنه عالم ديني تبحر في علوم

الادب فقط ، ولكنه اعتمد على مطالعاته الخاصة فجاء منه مؤرخ وجغرافي وفلكي وسياسي ومهندس ومصور « وكان يكتب من رأس القلم مايعجز عنه غيره في مدة » وأجمل ما فيه أخلاقه النبيلة واخلاصه في عامة حالاته .

وصفه ابن كثير بأنه « يشبه القاضي الفاضل في زمانه وانه كان حسن الذاكرة ، سريع الاستحضار ، جيد الحفظ ، فصيح اللسان ، حسن الأخلاق ، يحب العلماء والفقراء » وله مواطن تجلى فيها شدة اخلاصه لدينه وعقيدته وأمانته لسلطانه ودولته . حدث أن أرسل ملك فرنسا « ريدا فرنس » الى السلطان قلاوون رسولاً يطلب بيت المقدس على أن يبذل مائتي الف دينار تعجل ، ويحمل في كل سنة دخل نصف البلاد ويطرف بغرائب التحف والهدايا . وحسّن هذا كتاب من كتبة القبط كانوا صاروا رؤساء في الدولة ، فقام مؤلفنا هو وأبوه ليلويا السلطان عن رأيه ان أصغي الى أولئك الافكة ، وأزمعا أن يكلما السلطان وان خضبت ثيابهما بالدم . ولما ولي أبوه كتابة السر في القاهرة كان هو يقرأ كتب البريد على السلطان ، ثم غضب هذا عليه وصادره واعتقله ، ثم رضي عنه واستدعاه واستحلفه على المناصحة ، فباشر الانشاء ، وبعد سنتين عزل ورتب له مرتبات عظيمة ، وبقي بطالاً الى أن هلك بحمى الربع يوم عرفة عن تسع وأربعين سنة .

وصفه المقريزي بحدة المزاج وشراسة الخلق وقوة النفس . وان صحت هذه الشراسة فلا تكون في غير مصلحة الدولة : مثال ذلك ان السلطان قرر في كتابة السر علم الدين ابن القطب ، فغض ابن فضل الله من القطب وقال انه قبطي فلم يلتفت السلطان لذلك ، فكتب له توقيعه على كره ، وأمره أن يكتب فيه زيادة في معلومه فامتنع ، فعاوده فنفر ، وقام بين يدي السلطان مغضباً وقال : خدمتك عليّ حرام . فلفظة شراسة شديدة ، والاولى أن يوصف بصلابة العود أو يكتفى بقوة النفس .

لابن فضل الله كتابان جليلان لانظير لهما في بابهما ، قل أن ظهرت بعد

عصره تآليف في معناهما بلغت هذه المبالغ من التنقيح وعدم الحشو . الاول أوحى اليه تأليفه صلته بديوان الانشاء وهو « كتاب التعريف بالمصطلح الشريف » وهو سفر بديع لم يبق شاردة في تراتيب الدولة الا أتى عليها ففيه نموذجات مما يكتب به الى ملوك الأطراف ، وكل ما يتعلق بدواوين الملك من رتب المكاتبات وعادات العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم والمناشير ، ونسخ الايمان والأمانات والدفن والهدن والمواضعات والمفاسخات ، وما هو داخل في نطاق كل مملكة وما هو مضاف اليها من المدن والقلاع والرساتيق .

أما كتابه الثاني الذي ينادي على وجه الدهر باتساع علمه ومعرفته في تقويم البلدان والتاريخ والرجال والأدب والاجتماع والهندسة والسياسة والفلك والنقش والتصوير والبناء فهو كتاب « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » جاء الأصل في سبعة وعشرين مجلداً تحمل الشيء الكثير من تحقيقات صاحبه وحسن تأتيه في بحثه ، فلم يذكر عجيبة حتى فحص عنها ولا غريبة حتى ذكر الناقل لها لتكون عهدتها عليه ويتبرأ هو منها .

وطريقته في نقل الأخبار التحقيق لأكثر ما يعرف بتكرار السؤال واحداً بعد واحد ، عما علمه من أحوال بلاده وما فيها ، وما اشتملت عليه في الغالب . قال : وكنت أسأل الرجل عن بلاده ثم أسأل الآخر لأقف على الحق فما اتفقت عليه أفواهم أو تقاربت أثبته وما اختلفت فيه أقوالهم أو اضطربت تركته . ثم اني أترك الرجل المسؤول مدة ، أناسيه فيها عما قال ، ثم أعيد عليه السؤال عن بعض ما كنت سألت ، فان ثبت على قوله الأول أثبت مقاله ، وان تزلزل أذهبت في الريح أقواله . كل هذا لأتروى في الرواية وأتوثق في التصحيح .

شرع في وضع مسالك الأبصار أيام الناصر محمد بن قلاوون ، ووشحه باسمه مشفوعاً بألقاب ضخمة ، وسمه باسم عظيم عاش في نعمته ، وكان آل بيت فضل الله في أسبابه ومن صنائعه .

ومن أجل ما كُتب في التعريف بابن فضل الله قول الصلاح الصفدي في حقه « هو الامام الفاضل البليغ المفوه الحافظ ، حجة الكتاب امام أهل الأدب ، أحد رجالات الزمان كتابة وترسلا ، وتوسلا الى غايات المعالي وتوصلا ، واقداماً على الأسود في غاباتها ، وارغاماً لأعدائه بمنع رغاباتها . . . صرف الزمان أمراً ونهياً ، ودبر الممالك تنفيذاً ورأيا ، ووصل الأرزاق بقلمه ، ورويت تواقيعه وهي سجلات لحُكمه وحِكَمه . ولا أرى أن اسم الكاتب يصدق على غيره ولا يطلق على سواه . . . ولا أعتقد أن بينه وبين القاضي الفاضل من جاء مثله . . . هذا مع ما فيه من لطف أخلاق ، وسعة صدر ، وبشر محيّا . رزقه الله أربعة أشياء لم أرها اجتمعت في غيره وهي الحافظة فما طالع شيئاً الا كان مستحضراً لأكثره ، والذاكرة التي اذا أراد ذكر شيء من زمن متقدم كان ذلك كأنه مرّ بالأمس ، والذكاء الذي يتسلط به على ما أراد ، وحسن القريحة في النظم والنثر . اما فكره فلعله في ذروة كان أوج الفاضل لها حضيضاً ولا أرى أحداً يلحقه فيه جودة وسرعة . واما نظمه فلعله لا يلحقه فيه الا الأفراد ، وأضاف الله تعالى له الى ذلك كله حسن الذوق الذي هو العمدة في كل فن ، وهو أحد الأدباء الكملة الذين رأيتهم . وأعني بالكملة الذين يقومون بالأدب علماً وعملاً في النظم والنثر ومعرفة تراجم أهل عصره ، وقد تقدمهم على اختلاف طبقاتهم ، وبخطوط الأفاضل وأشياخ الكتابة . ثم انه شارك من رأيته من الكملة في أشياء وانفرد عنهم بأشياء بلغ فيها الغاية لأنه جود في الانشاء ، والنثر وهو فيه آية والنظم وسائر فنونه ، والترسل البارع عن الملوك . ولم أر من يعرف تواريخ الملوك المغل من لدن جنكيز خان وهلم جراً معرفته ، وكذلك ملوك الهند والأتراك . وأما معرفة الممالك والمسالك وخطوط الأقاليم والبلدان وخواصها ، فانه فيها امام وقته ، وكذلك معرفة الاسطرلاب وحلّ التقويم وصور الكواكب . وقد اذن له العلامة شمس الدين الاصفهاني

في الافتاء على المذهب الشافعي فهو حينئذ أكمل الكملة الذين رأيتهم .
ولقد استطرد الكلام يوماً في ذكر القضاة فسرد ذاكراً القضاة الاربعة الذين عاصرهم شاما ومصراً ، وألقابهم وأسماءهم وعلامة كل قاض منهم حتى أتى على ماكدت أقضي العجب مما رأيت .

هذا هو العظيم الذي جمع الى معرفة السياسة علماً عظيماً ، وما عاقه التصرف للسلطان عن الاكثار من التأليف والاجادة فيه . لم يعمر كثيراً وكان انتاجه بالقياس الى أيام عمره عظيماً جداً ، وأعجب الناس بما كتب في شبابه وكهولته ، وماذا كان يتم على يده لو بلغ الشيخوخة . أثر في الدولة بعقله واخلاصه ، وأثر في أندية الادباء والعلماء بأدبه وفنه ، فهو واسع أفق النظر ، بليغ تام الثقافة ، لا يصلح الا أمثاله لدواوين الملك ، لم يجمد على ما قرأ وأخذ من بيئته كل نافع حتى أنه ربما كان الفرد الذي يعرف ديار الغرب وأمم الافرنج ، وفيهم صنف كتاباً لم يصلنا ، ولا عجب ان عرف المغل والترك وغيرهم من أمم الشرق معرفة لم يدانه فيها مدان ، وان يتمثل علمه تمثلا قلما بلغه مؤلف في عصره وبعد عصره .

ذكر له الصلاح الكتبي أبياتاً تنم عن حسن ذوقه وجمال أدبه منها :

سل شجياً عن فؤاد نزحا وخلياً فيهم كيف صحا
ومحباً لم يذق بعدهم غير تبريح بهم ما برحا
مزج الدمع بذكرى لهم مثل خدي من سقاه القدحا
زاره الطيف وهذا عجب شبح كيف يلاقي شبحا

وقال :

أأحبابنا والعذر منا اليكم اذا ما شغلنا بالنوى أن نودعا
أبثكمو شوقاً أباري ببعضه حمام العشايا رنة وتوجعا
أبيت سمير البرق قلبي مثله اقضي به الليل التمام مروّعا
وما هو شوق مدة ثم ينقضي ولا أنه يلقى محباً مفجعا
ولكنه شوق على القرب والنوى أغصّ الاما في مدمعاً ثم مدمعا
ومن فارق الاحباب في العمر ساعة كمن فارق الاحباب في العمر أجمعا

(٥١)

الصفدي

صلاح الدين خليل بن أيبك

(٧٦٤)

نبغ في القرن الثامن زمرة من المؤرخين في الشام ومصر اشتهروا بما نشروا وأمتعوا بما دونوا . فكان في مصر ابن المتوّج والأدفوي والنّـويري وابن الفرات وابن دقماق وبيبرس المنصوري . وفي الشام البرزالي وابن كثير والذهبي وابن فضل الله العمري وأبو الفداء وابن مفلح وابن شاكر وابن الوردي . وكان بعض المؤرخين في هذا العصر من الشاميين أرجح وزناً من المصريين . ومن نوابغ المؤرخين في الشام ابو الصفاء صلاح الدين الصفدي . كان والده من المماليك من عنصر تركي . وولد ابنه في صفد ونشأ على ماينشأ عليه أبناء المماليك نشأة عربية خالصة « وتعانى صناعة الرسم فمهر فيها ، ثم حُبب اليه الأدب فولع به ، وكتب الخط الجيد وذكر عن نفسه أن أباه لم يمكنه من الاشتغال حتى استوفى عشرين سنة ، فطلب بنفسه وقال الشعر الحسن ، ثم أكثر من النظم والنثر والترسل والتواقيع . » وكان من ولوعه بالرسم لأول نشأته ماأخرج منه خطاطاً مبدعاً ، وقوّى فيه موهبة التصوير في الشعر والنثر ، وجمّل أدبه في كتبه .

لم يجدْ الصفدى بغيته من العلم عند علماء بلده ، وكان فيه جماعة مشهورون في الحديث والرواية والادب ، فرحل الى دمشق يقرأ على علمائها وكانوا من أجلّ الرجال أمثال ابن نباتة وأبي حيان النحوي والحافظ المزي وابن جماعة والحافظ الذهبي وابن سيد الناس ، وعن الأول أخذ

الشعر وعن الثاني اللغة وعن الثالث والرابع الفقه على مذهب الشافعي وعن الخامس التاريخ وعن السادس المغازي والسير ، وولي المناصب في دواوين الانشاء والأموال في صفد والقاهرة ودمشق وحلب والرّحبة ، ولا ندري ان كان برّز في خدمة الدولة كما برّز بتآليفه ، وقد أتقن علوم الأدب والحديث والفقه والتاريخ وغلب عليه التاريخ ولا سيما تاريخ الرجال . قال من ترجموا له انه من بقايا الرؤساء الاخيار وانه كان اليه المنتهى في مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم ، وكان محبباً الى الناس ، حسن العشرة ، جميل المودة .

أدب الصفدي من أقعد أساليب الادب في دهره لا يلتزم السجع كثيراً ، خصوصاً اذا ترجم الرجال ، وشعره كثير وبعضه جيد وأجود ، وبعد في باب التأليف من المكثرين المجوّدين . كتب بيده كما قال مايقارب خمسمائة مجلد دخلت في خمسين مصنفاً . قال ولعل الذي كتبته في ديوان الانشاء ضعفا ذلك .

وفي كتابة التاريخ راعى ماراعيه كبار المؤرخين من القيود قال مقتبساً عن غيره : « يشترط في المؤرخ الصدق ، واذا نقل يعتمد اللفظ والمعنى ، وألا يكون الذي نقله أخذه من الذاكرة وكتبه بعد ذلك ، وان يسمي المنقول عنه ، فهذه شروط أربعة فيما ينقله ، ويشترط أيضاً لما يترجمه من عند نفسه ولما عساه يطول في التراجم من القول أو يقصر أن يكون عارفاً بحال صاحب الترجمة علماً وديناً وغيرهما من الصفات وهذا عزيز جداً ، وان يكون حسن العبارة عارفاً بمدلولات الالفاظ ، وان يكون حسن التصور ، حتى يتصور حال ترجمته جميع حال ذلك الشخص ، ويعبر عنه بعبارة لاتزيد عليه ولا تنقص عنه ، والا يغلبه الهوى ، فيخيل اليه هواه الاطناب في مدح من يحبه والتقصير في غيره بل ان يكون مجرداً عن الهوى وهو عزيز ، وان يكون عنده من العدل مايقهر به هواه ، ويسلك طريق الانصاف . فهذه شروط أربعة أُخرى ، ولك أن تجعلها خمسة ، لأن حسن تصوره وعلمه قد لايحصل معهما الاستحضار

حين التصنيف ، فيجعل حضور التصور زائداً على حسن التصور والعلم ، فهي تسعة شروط في المؤرخ ، وأصعبها الاطلاع على حال الشخص في العلم فانه يحتاج الى المشاركة في علمه ، والقرب منه حتى يعرف مرتبته . »

عمل الصفدي بهذه الشروط شروط المؤرخ في عصره فما استهدف لغضب المترجم لهم ، ولا أثار حفائظ الملوك والأمراء ، وهو لم يعتن كثيراً بتاريخ السياسة وتدوين وقائع الملوك . وساعده على الظفر بالمواد اللازمة له تنقله في ربوع مصر والشام ، وخزائن الكتب يومئذ موفورة ، والملوك وأهل الخير من العلماء والاعيان يمدون المدارس والجوامع وغيرها بالكتب ، ويتنافس المسلمون في اقتناء كل جيد ، ويحرصون كل الحرص على الظهور بمظهر الخير ، وعمل كل ماتجلبه لهم وللناس .

كتب الصفدي في الادب والتاريخ كثيراً ، وكتبه في الادب شروح وتعاليق وتقاييد وكناشات وبعضها مطبوع . وقد طبع له كتاب « نَكت الهميان في نُكت العميان » وهو في تراجم من أُصيبوا بالعمى منذ خلقوا أو أصيبوا به على كبر . وهو منسق تنسيقاً جميلاً كسائر ما طالعناه من كتبه ، ومقدمة نكت الهميان من أبدع المقدمات في موضوعه ، وابداعه في كتبه يظهر من مقدماتها وله كتاب « الشعور بالعور » (تحت الطبع) ، وشرح لامية العجم للطغرائي (٥١٤) أثبت فيه تمكنه من علوم العربية وقد أورد فيه شيئاً من المجون ومنها الفاحش ، وحلى كتابه بنكات وفوائد وأشعار وأخبار تلذُّ وتشوق .

أما كتابه العظيم الذي خلد به ذكره ، وما وصلت همم الجمعيات العلمية الى تصنيف أعظم منه ، وهو يغني عن عشرات من الكتب ، ويعد معلمة رجال الاسلام في ثمانية قرون ، فهو « الوافي بالوفيات » دخل في ثلاثين مجلداً وفيه نحو اربعة عشر الف ترجمة ، ترجم فيه للخلفاء والصحابة والتابعين والامراء والقضاة والعمال والوزراء والقراء والمحدثين والفقهاء والشيوخ والاتقياء والاولياء والنحاة والادباء والكتاب والشعراء والاطباء والعلماء وأهل العقل والذكاء وأرباب المقالات ورؤساء المذاهب والمتفلسفين

وكل من اشتهروا بعلم وشأن . وقد يطيل ويوجز في ترجمة من ترجم لهم بحسب مالديه من المواد او بقدر مايليق ان يكسوهم من حلة تليق بهم .

ومقدمة هذا الكتاب العظيم من أمتع ماكتب مؤرخ تدل على سعة اطلاعه وسمو أدبه وعلى تدقيقه واستقصائه . وفي كتابه مافي وفيات الاعيان لابن خلكان وطبقات الادباء لياقوت مع زيادات كثيرة فاتت هذين المؤلفين او حدثت بعدهما . يقول العلامة كرنكو انا نجد في كتاب الوافي تراجم كثيرة نحاول عبثاً الظفر بمثلها في الكتب التي تماثل الوافي بموضوعها ، والفهرس التام لأسماء الأشخاص الذين وردت تراجمهم في الاجزاء المعروفة من هذا الكتاب يتألف منها مجلد ضخم .

افتتح الوافي فيمن اسمه محمد فبدأه باسم صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام وثنى بمن اسمه محمد من الاعيان ، ثم عاد فساق التراجم على حروف المعجم بعبارة تقرأ فيها التحقيق بهذا الانشاء الرقيق . وقد خص المقدمة بمصطلحات الأمم ولا سيما العرب والفرس واليهود في حساب السنين والتاريخ وكيفية كتابة التاريخ وفي الانساب والكنى والالقاب والعلم وفي الهجاء والاملاء والاختصار وفيمن كتب في التاريخ وفيما يراد بالوفاة والوفيات وفي فائدة التاريخ وصفات المؤرخ وتواريخ الشرق وقد ساق اسم ٢٨٢ تاريخاً من تواريخ المشرق وتاريخ المغرب والتواريخ الجامعة وتواريخ الملوك والوزراء والعمال والقضاة والقراء والعلماء والشعراء . قال واما كتب الجرح والتعديل والانساب ومعاجم المحدثين ومشيخات الحفاظ والرواة فانها شيء لايحصره حد ، ولا يقصره عدّ ، ولا يستقصيه ضبط ، ولا يستدنيه ربط .

وهذا نموذج من تراجمه :

ناصر الدين ابن المقدسي : ولي سنة ٦٧٨ وكالة بيت المال ونظر جميع الاوقاف بدمشق وفتح أبواب الظلم وخلع عليه بطرحة غير مرة ، وخافه الناس وظلم وعسف ، وعدا طوره وتحامق حتى تبرم به النائب ومن

دونه ، وكاتبوا فيه فجاء الجواب بالكشف عما أكل من الاوقاف ، ومن أموال السلطان والبرطيل ، فرسموا عليه بالعذراوية ، وضربوه بالمقارع فباع مايقدر عليه ، وحمل جملة وذاق الهوان ، واشتفى منه الاعادي ، وكان قد أخذ من الناصري الزنبقية ، وكان يباشر شهادة جامع العقيبة فحصل بينه وبين قاضي القضاة بهاء الدين بن الزكي نفرة فتوجه الى مصر ودخل على الشجاعي فأدخله على السلطان وأخبره بأشياء منها : أمر بنت الملك الاشرف موسى بن العادل وأنها باعت أملاكها ، وهي سفيهة ، تساوي أضعاف ما باعته ، فوكله السلطان وكالة خاصة وعامة فرجع الى دمشق وطلب مشترى أملاكها بعد أن أثبت سفهها فأبطل بيعها ، واسترجع الاملاك من السيف السامري وغيره ، وأخذ منهم تفاوت المغل وأخذ الخان الذي بناه الملك الناصر قريب الزنجبلية وبساتين بالنيرب ونصف حزرما ودار السعادة وغير ذلك الخ ثم طُلب الى مصر فوجد مشنوقاً بعمامته .

وقال في ترجمة رجار صاحب صقلية : رجار ملك الفرنج صاحب صقلية هلك في الخوانيق سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، ويقال فيه اجار بهمزة بدل الراء وجيم مشددة وبعد الألف راء ، كان فيه محبة لاهل العلوم الفلسفية ، وهو الذي استقدم اليه الشريف الادريسي صاحب كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » من العُدْوَة ليصنع له شيئاً في شكل صورة العالم ، فلما وصل اليه أكرم نُزُله ، وبالغ في تعظيمه ، فطلب منه شيئاً من المعادن ليصنع منه ما يريد ، فحمل اليه من الفضة الحجر وزن أربعمائة الف درهم ، فصنع منها دوائر كهيئة الافلاك وركب بعضاً على بعض ، ثم شكلها له على الوضع المخصوص ، فأعجب بها رجار ودخل في ذلك ثلث الفضة وأرجح بقليل ، وفضل له ما يقارب الثلثين ، فتركه له اجازة، وأضاف لذلك مائة الف درهم ومركباً موسقاً كان قد جاء اليه من برشلونة بأنواع الاجلاب الرومية التي تجلب للملوك ، وسأله المقام عنده قائلا :

ومتى كنت في بلاد المسلمين لا تأمن ملوكهم على نفسك ، ومتى كنت عندي أمنت على نفسك ، فأجابه الى ذلك ورتب له كفاية لا تكون الا للملوك ، وكان يجيء اليه راكب بغلة فاذا صار عنده يتنحى له عن مجلسه فيأتي فيجلسان معاً وقال له : أريد تحقيق أخبار البلاد بالمعاينة ، لا بما ينقل من الكتب ، فوقع اختياره على أناس ألباء فطناء أذكياء وجهزهم رجار الى أقاليم الشرق والغرب جنوباً وشمالاً ، وسفر معهم مصورين ليصوروا ما يشاهدونه عياناً ، وأمرهم بالتقصي والاستيعاب لما لابد من معرفته . وكان اذا حضر أحد منهم بشكل أثبته الشريف الادريسي حتى تكامل ما أراد وجعله مصنفاً ، وهو كتاب « نزهة المشتاق » الذي للشريف الادريسي . وكان رجار المذكور قد أخذ طرابلس الغرب عنوة بالسيف في يوم الثلاثاء سادس المحرم سنة احدى وأربعين وخمسمائة وقتل أهلها وسبى الحريم والاطفال وأخذ الاموال ، ثم انه شرع في تحصينها بالرجال والعدد ، ثم انه أخذ المهدية سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة لأن صاحبها الحسين بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز الصنهاجي عجز عن مقاومته ، فخرج من المهدية هارباً بما خف من النفائس ، وخرج من قدر على الخروج . ولما هلك رجار ملك بعده ولده غليلم ، وعليه قدم ابن قلاقس الاسكندري سنة ثلاث وستين وخمسمائة وامتدحه بقصيدة الى آخر ما قال .

وانظر الى هذا النموذج من تحقيقه العلمي أتى عليه بالمناسبة في شرح لامية العجم وذلك رأيه في سلامة الترجمة من اللغات الاعجمية الى العربية قال : وللتراجمة في النقل طريقان أحدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصي وغيرهما وهو ألا ينظر الى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى فيأتي بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل الى الاخرى وكذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه . وهذه الطريقة رديئة لوجهين أحدهما أنه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الكلمات اليونانية ولهذا

وقع في خلال هذا التعريب كثير من الالفاظ اليونانية على حالها . الثاني ان خواص التركيب والنسب الاسنادية لا تطابق نظيرها من لغة أخرى دائماً . وأيضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات . الطريق الثاني في التعريب طريقة حنين بن اسحق والجوهري وغيرهما وهو أن يأتي الى الجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة الاخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الالفاظ أم خالفتها . وهذه الطريق أجود ولهذا لم تحتج كتب حنين بن اسحق الى تهذيب الا في العلوم الرياضية لأنه لم يكن قيماً بها بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي والالهي فان الذي عربه منها لم يحتج الى اصلاح فأما أوقليدس فقد هذبه ثابت بن قرة الحراني وكذلك المجسطي والمتوسطات منها اه .



ابن خلدون

ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد

(٨٠٨)

جرى أكثر المؤلفين على اتباع سنن من قبلهم في نظام تآليفهم ونظام تفكيرهم لايخرجون عما كتبوه ولا يبدلون فيما دونوه . وقد بلغ ببعضهم أن يأخذوا من الماضين الفاظهم ومعانيهم لا يخرمون منها حرفاً ، ولذلك هان التأليف على الضعاف وندر الايجاد والاجادة . وفي أهل هذه الطبقة من أرباب التواليف تقرأ مئات من الصفحات ولا تخرج منها الا بزبدة قليلة حتى ليسوء ظنك بالمؤلفين وتعتقد أن منهم من لم يجرؤ على التأليف الا ليحشر نفسه في زمرتهم فقط .

كان ابن خلدون من النوابغ الذين استعملوا عقولهم فيما قرأوا ، ورددوا رأيهم فيما رووا ، وفتح لنفسه باب الاستنباط والاستنتاج فتجلى بُعد نظره فيما كتب ، وأتى بالجديد الذى لم يؤثر عمن قبله مذ كان الاسلام . وما قلد القدماء في الموضوع الذي أهمه في فلسفة التاريخ والاجتماع بل ابتدعه ابتداعاً على غير مثال .

وكان التاريخ الى عصر ابن خلدون لا يتعدى نقل الحوادث تنقل بالرواية كما ينقل الحديث ، وغاية اجادة المجيد فيه أن ينقل ما قرأ وشهد وسمع بأمانة ويترك للقاريء حريته يفكر بنفسه فيما انطوت عليه الحوادث من العبر . وقد تقرأ في التاريخ مجلداً ضخماً للأوائل ولا تقع فيه على فكر لمؤلفه ولا ترجيحاً لرواية على أخرى ، كأن المؤلف يخشى ان يكفر أو يفجر اذا شذَّ عن طريق من تقدموه . وقد يكتفي بعض من

يترجمون للرجال اذا حاولوا تصوير أحدهم على ما يعتقدونه الصواب ان يلعنوا كل من لا ترضيهم سيرته وعقيدته ليثبتوا الملاءمة اعتقادهم وسلامة أحكامهم . والمذاهب عندهم العامل الأعظم في المدح والقدح يجمجمون لا يصرحون ، فيظلمون الحق بما يتعمدون من القاء الظلام على سيرة من لا يسعهم ألا طرده من حظيرة الناجين ، كأن التاريخ بعض كلام الصوفية والباطنية له ظاهر وباطن .

ولما سعد العلم العربي بنبوغ ابن خلدون ، وطبق في التاريخ ، الغابر على الحاضر ، واستخرج من مادته المبعثرة عصارة مفيدة تألف منها علم برأسه ، فيه مدخل كبير للعقل ومجال للتفكير ، جعل منه جسماً حياً وأخرجه بحذاقته من عقمه وجدبه الى خصب وامراع ، ولم يعد روايات مروية ، وعبارات مسرودة مرصوصة ، مطولاتها كمختصراتها وغثها كسمينها ، وآض فناً ينفنن المفننون في الأخذ منه والقياس على قواعده وتبدت شخصية المؤلف فيما كتب ، وظهرت شجاعته في التصريح بالحقائق الرائعة .

أعظم شرف للعلم العربي أن يكون واضع فلسفة التاريخ والاجتماع عربياً صرفاً بأصله وتربيته ومنشأه . كان أجداد ابن خلدون في حضرموت من عرب اليمن ينسبون الى وائل بن حجر من أقيال العرب . وكان وائل بقية أبناء الملوك ، دخل على رسول الله فأدناه وقرب مجلسه وبسط له رداءه وأجلسه عليه مع نفسه وقال : « اللهم بارك في وائل وولده واستعمله النبي على الأقيال من حضرموت » . وقد دخل جد ابن خلدون خالد بن عثمان أو خلدون بن عثمان الاندلس في القرن الثالث ، ونزل بقرمونة في رهط من قومه الحضارمة ، ثم انتقل الى اشبيلية في جند اليمن . وتولى أفراد أسرته المناصب الجليلة في دول الاندلس ، ونزلوا في القرن السابع تونس ، وفيها ولد عبد الرحمن ونشأ وقرأ على علمائها علوم اللسان والشرع ، وقرأ الفلسفة والمنطق ، ودخل في خدمة الدولة

وهو في الحادية والعشرين من عمره ، ثم اعتزل الخدمة ، ثم دخل في خدمة صاحب تلمسان ، ثم استدعي الى فاس بطلب علمائها (٧٥٥) فتقلد أمانة السلطان ، واغتنم هذه الفرصة لاتمام علمه على علماء المغرب الاقصى وفي سنة ٧٥٧ غضب عليه الملك وسجنه مرتين فقضى في الحبس سنتين ثم اعيد الى منصبه وجعل قاضياً للقضاة وعاد فنكب ايضاً لما هلك الملك ، ثم سمح له بالذهاب الى ابن الاحمر صاحب غرناطة وسفر عنه الى ملك قشتالة الاسباني فأنجحت سفارته .

وبعد زمن عاد الى افريقية (تونس) وتولى منصب الحاجب وجمع بين الحجابة والخطابة والتدريس في بلده . وكانت له سفارات بين صاحب تلمسان وصاحب تونس لعقد تحالف بينهما . وبعد حين تخلى عن منصبه في تلمسان بانهزام صاحبها ، وتولى لمن جاء بعده ما كان يتولاه من المناصب . وفي سنة ٧٧٤ رحل الى فاس ومنها الى غرناطة فنفاه صاحبها الى تلمسان فلقي من أميرها كل نجلة ، وعندئذ رأى اعتزال خدمة الملوك وانقطع الى قلعة ابن سلامة حيث بدأ بتأليف تاريخه الكبير .

وحج في سنة ٧٨٤ وجاء الاسكندرية والقاهرة ودرّس في الجامع الازهر وعين قاضي المالكية في مصر ، وفي غضون هذه الايام نكب ابن خلدون نكبة دونها النكبات وهو أن حرمه وأولاده وأمواله حملت في البحر من الغرب الى الاسكندرية فغرقت كلها في ميناء هذا الثغر ولم ينج منهم انسان ، وفي سنة ٨٠١ رافق سلطان مصر الى الشام في الحملة على تيمورلنك واجتمع الى هذا الفاتح وقدم له هدية كانت عبارة عن مصحف وسجادة وعلب حلوى مصرية ، وسأله الفاتح أن يكتب له رسالة في جغرافية بلدان المغرب فكتبها . قال ابن خلدون لما اجتمع بتيمورلنك سألني أين بلدك ? قلت بالمغرب الجواني كانت الملك الاعظم هنالك فقال : وما معنى الجواني في وصف المغرب ? فقلت هو في عرف خطابهم معناه الداخلي أي الأبعد لأن المغرب كله علي ساحل البحر الشامي من جنوبه ، فالأقرب الى هذا برقة وافريقية والمغرب

الاوسط وتلمسان وبلاد زنانة ، والاقصى فاس ومُرّاكش ، وهو معنى الجواني . فقال لي : وأين مكان طنجة من ملك المغرب فقلت في الزاوية التي بين البحر المحيط والخليج المسمى بالزقاق ومنها التعدية الى الاندلس لقرب مسافته لأن هناك نحو العشرين ميلاً . فقال : وسلجماسة ؟ قلت في الحد مابين الارياف والرمال من جهة الجنوب . فقال : لايقنعني هذا وأحب أن تكتب لي بلاد المغرب كلها أقاصيها وأدانيها وجباله وأنهاره وقراه وأمصاره ، فقلت : يحصل ذلك بسعادتك . وكتبت له بعد انصرافي من المجلس ماطلب من ذلك قال : وأوعيت الغرض فيه في مختصر وجيز يكون في قدر اثني عشرة من الكراريس المنصفة القطع ، قال : ودفعته اليه فأخذه من يدي وأمر موقّعه بترجمته الى اللسان المغلي ... وكان يحاذر أن يأمره تيمور بالشخوص معه الى سمرقند فنجا منه بلباقة ورجع أدراجه الى وادي النيل .

وفي « معلمة الاسلام » ان ابن خلدون ربما ظهرت فيه خصائص سياسية لامعة في المناصب الخطيرة التي تولاها ، بيد أنه لم يتردد قط في الابتعاد عن رئيس له بالأمس ليدخل من الغد في خدمة آخر ، وان يكون على الملك السالف إلباً ، وكان من مهارته بل من صدقه أن يسير الى جانب القوي . وقد تدخّل مباشرة في عامة سياسة ممالك شمالي افريقية والاندلس لعهده ، وكان له من جلالة مناصبه ما تمكن معه من الحكم على هذه الدول حكم العارف الدراكة ا هـ .

هذه حياة ابن خلدون السياسية التي أوحت اليه وضع تأليفه ، أعانه على ذلك كما قال عن نفسه انقطاعه أربعة أعوام في قلعة أولاد سلامة متخلياً عن الشواغل وأكمل المقدمة « على ذلك النحو الغريب » الذي اهتدى اليه في تلك الخلوة « فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها » وأملى الكثير من حفظه ثم صحح ونقح وراجع . والمقدمة في طبيعة العمران وما يعرض له قال : انا

استوفينا من مسائله ماحسبناه كفاية ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا ، فليس على مستنبط الفن احصاء مسائله ، وانما عليه تعيين موضع العلم وتنويع أصوله وما يتكلم فيه ، والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً الى أن يكمل . وقال : وهذا الفن الذي لاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل تجري بالعرض لأهل العلوم في براهين علومهم الا انها غير مستوفاة ، فان فاتني شيء في احصائه واشتبهت بغيره مسائله فللناظر المحقق اصلاحه ، ولي الفضل لأني نهجت له السبيل ، وأوضحت له الطريق اه .

فلسف ابن خلدون التاريخ في مقدمته ولم يسبقه الى ذلك غير أفراد جاءت على أسلات أقلامهم سوانح قليلة لا تكاد تذكر في جنب هذه الافاضة . وهذه القواعد التي سنها والدساتير التي اخترعها هي مما لم يختل منه مع الايام الا ما لا بال له . فقد زيف أقوال الوضاعين في أحاديث المهدي وردها كلها من طريق النقل والعقل ، وما جسر أحد قبله على نقض هذه الخرافة التي قال بها أهل الاهواء ، ومن سعوا لاستخدام هذا الاسم لانشاء دولة جديدة . وأبطل علم الكيمياء وأنكر ثمرتها وقال باستحالة وجودها وما ينشأ عنها من المفاسد . وقال بفساد صناعة النجوم وتكلم عن الجفر والملاحم فزيف هذين الفنين تزييفاً جيداً ، وتكلم في الدفائن والكنوز وقال انها لا أصل لها في علم ولا خبر .

جمع ابن خلدون كل ماتفرق في فقه الشريعة وفقه العلوم وما الى ذلك ونسقها ووحدها ، والقدر الذي جرأ على التصريح به من الافكار في هذا الباب لا يرتضيه كثير من المنظور اليهم في عصره . وحاول أن يبطل الفلسفة ويبين فساد منتحليها ومع هذا قال ان هذا العلم يشحذ الذهن في ترتيب الادلة والحجاج لتحصل ملكة الجودة والصواب في البراهين ، فيستولي الناظر فيها على ملكة الاتقان والصواب في الحجاج ، ورأى ألا يكب أحد على الفلسفة اذا كان خلواً من علوم الملة وقال : ان

الفلسفة ببلاد الافرنجة من أهل رومية وما اليها من العدوة الشمالية نافقة الاسواق لعهده ، وأن رسومها هناك متجددة ومجالس تعليمها متعددة .

ودعا الى تعلم الهندسة والعلوم العددية (الحساب والجبر والمقابلة) وعلم الهيئة وعلم المنطق والطب والفلاحة . وجمجم في كلامه على علوم الطلسمات وقال ان الشريعة جعلت السحر والطلسمات والشعوذة باباً واحداً لما فيها من الضرر وخصته بالحظر والتحريم ، وذكر الاصابة بالعين وما نفاها ونقل كلام غيره القائل ان القاتل بالسحر يقتل والقاتل بالعين لا يقتل ، لان هذا ليس مما يريده ويقصده . وأطال في بيان أسرار الحرف ونقل عمن لقيهم حقيقة الزايرجة .

ومن أحكامه ما لم تنقضه الايام مثل قوله « ان المغلوب مولع ابداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته » و « أن خلق التجار نازل عن خلق الاشراف وبعيد عن المروءة » و « أن العلماء بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها » . ومن أحكامه ما انتقض مثل العصبية في الدولة لا تدوم إلا أربعة بطون اي مائة وعشرون سنة كما لا تدوم الثروة إلا هذا القدر من السنين . ومنها غلوه في الانحاء على العرب من أنهم اذا نزلوا بلداً أسرع اليه الخراب وأنهم أبعد الناس عن سياسة الملك وعن الصنائع ، والغالب أنه كان يقصد الأعراب سكان البوادي فهؤلاء لم يكن لهم استعداد أهل المدن والقرى ، لذلك نزلت الشريعة في أهل المدن وهم الذين قبلوا الدعوة أولاً ونشروها ، ودعواه أن العرب أبعد الناس عن الصنائع ينقضها ما كان للأندلسيين من الصناعات العظيمة التي أدهشت الغربيين لعهدهم ، وما هي الا من صنع أيدى العرب وقرائح علمائهم ومهندسيهم . ودعواه أن حملة العلم في الاسلام اكثرهم من العجم غير صحيحة ذلك لان من كان بعضهم يعدونهم من المؤلفين أعاجم على الاغلب كانت أصول أكثرهم عربية وهم نشأوا في ديار الفرس ، ثم ان الشعوب غير العربية التي تشرفت بالاسلام أكثر عدداً وأوسع ممالك من سكان

جزيرة العرب الذين قاموا بكبر هذه الدعوة في السياسة والجندية والادارة ، فشغل العرب بالامر المهمّ وتركوا الصنائع وما شابهها لاهل البلاد ، ومع هذا كان من مدنية العرب في جزيرتي صقلية والاندلس ما هو مفخرة الازمان .

وأخطأ في قوله انه يشترط في الحاكم قلة الافراط في الذكاء ومأخذه من قصة زياد بن أبي سفيان لما عزله عمر بن الخطاب عن العراق وقوله : لم عزلتني يا أمير المؤمنين ألعجز أم لخيانة ؟ فقال عمر : لم أعزلك لواحدة منهما ولكني كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس . فأخذ من هذا أن الحاكم لا يكون مفرط الذكاء والكيس مثل زياد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص لما يتبع ذلك من التعسف وسوء الملكة وحمل الوجود على ما ليس من طبعه ، قال وتقرر من هذا أن الكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة لانه افراط في الفكر ، كما ان البلادة افراط في الجمود والطرفان مذمومان الخ وهذا استنتاج في غير محله ، ذلك لان الدول في أشد الحاجة الى الاذكياء في جميع فروع أعمالها ، ولولا ذكاء مشهود في رجال بني أمية ماقاموا بما قاموا به من الفتوح التي زينوها بمدنية كانت أرقى ماعرف من نوعها الى أيامهم . وقوله ان للدول أعماراً طبيعية وان الهرم اذا نزل في الدولة لايرتفع قد جاءت الايام بجلاءه فان من دول أوربا ماهو قائم منذ قرون وكلامه هذا أخذه من مشاهداته في دول افريقية وما اليها .

خرج ابن خلدون على المألوف وما أحب مع هذا أن يجاري عوام المؤلفين في بعض أحكامهم على ساسة الامة قديماً ولذلك قال فيه أحد المعاصرين انه المدافع عن الدول والمحامي عن الافراد ، فهو رجل دولة يمعن النظر كثيراً في التقارير التي تعرض عليه فيستخرج منها مالا يحسن استخراجه كل أحد ، وقد يعلو في اجتهاده الى درجة السمو ويكبو أحياناً . من ذلك أنه هفا هفوة فظيعة لما جارى فيها عامة عصره على خرافاته فأثبت الكشف ومعرفة الغيب بما يستعظم صدوره من مثل

عقله فقال : وهذا الكشف كثيراً مايعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدركه سواهم ، وكذلك يدركون كثيراً من الواقعات قبل وقوعها ويتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع ارادتهم ! قال : وان الكلام في كرامات القوم واخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات أمر صحيح غير منكر وان مال بعض العلماء الى انكارها فليس ذلك من الحق ! وغريب قوله : وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير في أحوال العالم ليس معدوداً من جنس السحر وانما هو بالامداد الالهي لأن طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوة وتوابعها ولهم في المدد الالهي حظ على قدر حالهم وايمانهم .

وبهذا التخريف أثبت أنه من المحافظين مغال في صوفيته مأخوذ لغرابته صانع من اعتقدوا هذا ، وكان يسعه لو لم يعتقد في هذه الخرافات أن يطرح بهذا المبحث عرض الحائط ولا يضير المقدمة في شيء بل ينقيها من العوسج والبلان . وهذه الهنات في المقدمة كانت بمثابة عوذة لها من العين وبذلك يثبت عجز البشر وتغير أفكارهم بتغيير القرون والاجيال

ومما يشير الى أنه من المحافظين أيضاً دفاعه عن عثمان وخصومه وعن علي وأولاده وعن يزيد وأبيه وعن الحسين وجماعته وكلهم في نظره مجتهدون وكلهم يريد خدمة الاسلام فقال : واياك أن تعوّد نفسك أو لسانك التعرض لأحد منهم ، ولا تشوش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم ، والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت ، فهم أولى الناس بذلك ، وبهذا الكلام نزع ابن خلدون ثوب المؤرخ النقاد ولبس ثوب الواعظ القصاص ، أو هو يريد أن يتأدب أدب السياسي المهذب مع الجماعة لايقول لصاحب الأمر ما يزعجه ، فيرضى بالحالة الحاضرة على علاتها ، ويحاول أن يكمّ أفواه الرعية لأنها اذا قالت فعلت ، ومما حسب حساباً للأهواء البشرية والمطامع الدنيوية فكلهم ما أخطاوا في نظره ، وكأنه يزعم أنهم لا دخل لارادتهم التي خلقها الله لهم فيما قضوا وأمضوا ، وأغرب من كل

هذا قوله وأعتقد مع ذلك أن اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الائمة ليقتدي كل واحد بمن يختار ! وقد قيل أي عالم لا يهفو وأي صارم لا ينبو وأي جواد لا يكبو .

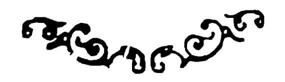
مقدمة ابن خلدون هي درة تاج أعمال صاحبها ، كتب رسائل وكتباً قبلها كانت من نمط تآليف معاصريه : شرح مبهم ، وبسط موجز ، ونقل ما يحسن ، وتاريخه الكبير ليس فيه من جديد الا القسم المتعلق بالعرب والبربر ، وأكثره منقول عن الطبري وابن الاثير . أما المقدمة فهي الكتاب الذي أحدث ثورة في أفكار العرب وعد من أمهات كتب العالم ، ولا نعلم كتاباً علمياً ولا دينياً حاز شهرة المقدمة حاشا الكتب الستة .

ان اختلاط ابن خلدون بملوك عصره واطلاعه على أسرارهم وسياساتهم وما عاناه من امرهم ومن ظلمهم عرف به ما يستتر في العادة عمن لا يلابسهم ولم يعمل لهم ، وتقلده الوظائف السياسية والادارية والقضائية ، ومعرفته رجال اكثر الاقطار ورجال كل أفق حتى مصر والشام ، واطلاعه على نفسية الملوك والعظماء ومنهم تيمورلنك المخرب العظيم - كل ذلك مما تفرد به ولم يتيسر لغيره ، أضف الى هذا ذاك الذكاء البراق والاحكام الصحيحة التي خص بها دون سائر معاصريه ، حتى لقد ترجم له صنوه وصديقه لسان الدين بن الخطيب بأنه متقدم في فنون عقلية ونقلية وفخر من مفاخر الغرب . قال هذا وابن خلدون في حد الكهولة فماذا كان يقول فيه بعد أن نضج في كل شيء ، لاجرم أنه يقول انه مفخرة الغرب والشرق والاسلام والعرب .

ولنا أن ندعي بعد كل هذا ان ابن خلدون كان في تاريخه الكبير محافظاً كسائر من تقدمه وفي المقدمة حراً لانه صاغها من علم واسع تخمر في قلبه وتقلب في صدره ثم أبرزها في خمسة أشهر في هذه الحلة العجيبة

ويقضي الانصاف بأن نسلك ابن خلدون في سلك المجددين والمصلحين ، ولما فوض اليه منصب الكتابة في الدولة وهو في أول العقد الثالث من

عمره صدرت الكتب عن ديوانه خالية من السجع فاستغرب أهل الدولة هذا واتبعوه في طريقته ، وكانت الدول الاسلامية لا يصدر عنها في تلك العصور الا المسجع والمزدوج . وعلى هذه الطريقة سار في مقدمته فأبدع وأفاد ، ولو خلت من الاسجاع المتكلفة في فاتحتها لجاءت كلها كالعقد الثمين خرج من يد صائغ ماهر . وكان ابن خلدون ينظم الشعر ، وشعره منحط عن نثره بكثير . قال انه تخدشت ملكته فيه بما حفظ من المتون المنظومة بالشعر في الفقه والقراءات وغيرها . وكان يحفظ القرآن وشيئاً من كلام العرب وشعرائهم لكنه لم يكثر من الحفظ لأنه يقول ان الحفظ عائق عن التفكير فاختار هو طريقاً وسطاً . اسم ابن خلدون يخلد بمقدمته ففيها كل ابداعه .



الفهـارس

١ – فهرس الكتب

(آ)

(ب)

(ت)

ح

خ

د

ذ

ر

ز

س

ش

ص

ض

مهمل

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

٢ — الأعلام

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

س

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

ه

و

ي

٣ — البلدان والأماكن والمواقع والمحال والجبال والأودية والأنهار

آ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

ن

هـ

و

ي

الفهرس العام

أبواب الكتاب وفهارسه



مستدركات وتصويبات

فاتنا في الكلام على حياة الاستاذ الشيخ طاهر الجزائري أن نذكر أن له تأليفاً آخر هو في المخطوطات المحفوظة من تآليفه . واسمه « المنتقى من الذخيرة لابن بسام » ورقم الكتاب في الظاهرية ٤٥٧ أدب

٢ — عثرنا في احدى كناشاته على الجملة الآتية يصف فيها مقابلته للخديوي عباس حلمي في سنة ١٣٢٨ ھ وما قال فيه نفع لمصر وللعرب قال :

في يوم الخميس السابع من صفر سنة ١٣٢٨ ، اجتمعنا بحضرة الامير الجليل نخبة الدولة العلوية بمصر (عباس حلمي) خديويها المبجل ، وكان ذلك قبيل المغرب ، فاستقبلنا استقبالاً يدل على شهامة ومحبة في العلم ، وأجلسنا بلا فاصل عنه ، وأخبرنا أنه بلغته أخبار كثيرة عنا لاسيما من الشيخ (علي يوسف) المحب المخلص ، ومن الدكتور هيس المحب لنا أيضاً ، ويرغب في رؤيتنا . الا أن سفر الحجاز عاق عن ذلك ، والآن بعد اجتماعنا به يوماً يذكر ، وله في ذلك الحظ الاوفى . فقابلناه بما يليق بمقامه ، الا أن عبارتنا كانت قاصرة ، لكنها تدل على فرط اخلاص ثم جرى البحث ، فأشرتُ عليه أن يغتنم الفُرص في ابراز آثار مهمة ، وذكرنا من ذلك شيئين : أحدهما تأسيس مدرسة للغة العربية تقصد من كل جهة ، والثانية تأسيس دار للترجمة ، وعمل مطبعة لطبع ما يترجم ، وجعل مصححين للترجمة . فسُرّ بذلك كثيراً ، وأبنّا له مقامه في النفوس وأن لايعبأ بالمشاغبين . ولو أردنا شرح ماجرى لطال . غير اني سئلتُ عما ينتقد على مصر ، فقلت شيئان : أحدهما عدم اتمام الاعمال ، والثاني احتقار الاشغال الجزئية والامور الكلية تتم اذا اخذت من أقرب وجه » ه

من كناش رقم ١٣٥

كتبت في مصر بين رجب سنة ١٣٢٧ وصفر سنة ١٣٢٨

وقعت بعض أخطاء في الطبع نصححها فيما يلي :

ص	س	اقرأ	بدلا من
١٤	٦	والحرس	رالحرس
٢١	١٢	حفا في	سفا في
٢٨	٦	والدين	التين
٢٨	١٤	تحصيل	تفسير
٧٦	٧	عَذْق	عدق
٨٠	١٠	وقه	موفه
٨٨	١	٥	٤
٩٣	٢٣	وقيل	رقيل
٩٥	٢٢	واذا	وادا
١٠١	٤	٢٨٥	٢٧٥
١١٢	١١	خراسان	خرسان
١٤٩	٢١	تعبت	تعبلت
١٦١	١	بأرق	بأدق
١٦١	٢٢	اقرأ الحاشية كما يأتي : يقول صديقي الاستاذ المحقق شفيق جبري انه أمعن النظر كثيراً في كتاب الأغاني فرأى أن أبا الفرج لم يكن متعصباً في تشيعه .	
١٦٦	٢٠	الأغلب	الأعلب
١٧٠	١٨	الدين وفرائضه ،	الدين ، وفرائضه
١٧١	٣	وأنه طبع	ولا أنه طبع
١٧٨	٦	ذلك	دلك
٢٠٣	١	خروجه	حروجه
٢٠٣	١٣	أزيل	أربل
٢٠٥	٢٥	تصرف وجوهه واختلاف	تصرف واختلاف
٢١٣	٤	٤٢٠	٣٢٠
٢١٦	٢	الحلوب	الحلوب
٢٢١	٨	صوفية	صوفيه
٢٦٠	١٢	متكلم	متكلماً
٢٩٢	٢٢	يستفد	يستفيد
٣٠٩	٢٣	جهداً عظيما	جهداً عظيمه
٣٢٠	١٢	خلقاً	حلقاً
٣٣٢	١٧	مما كانا	مما كان
٣٤٩	٢٣	جيان	جبان
٣٦٦	٢٢	على	عل

وقد وقع خطأ في أرقام فصول الكتاب ، فيرجع في ضبطها الى الارقام المثبتة في الفهرس العام .

